جامعة الفرات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

دراسات في النثر العبّاسي

فنون وأعلام ونصوص

تأليف
الدكتور قحطان صالح الفلاح
أستاذ مساعد في كلّية الآداب

١٤٤٣هـ
٢٠٢٢م

منشورات جامعة الفرات

دراسات في النثر العبّاسي

(فنون وأعلام ونصوص)

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

جامعة الفرات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

دراسات في النثر العبّاسي

(فنون وأعلام ونصوص)

تأليف

الدكتور قحطان صالح الفلاح

أستاذ مساعد في كلّية الآداب

منشورات جامعة الفرات

١٤٤٣هـ

٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

المُحتَوَيات

مع القارئ في فَضَاءِ الكِتَاب ٧

بين يَدَيِ الكِتَاب ١٠

تمهيد في النّثر الفنّيّ وأهمّيّته ١٤

الفصل الأوّل: من فنون النّثر العبّاسيّ

أولاً: الخطابة السّياسيّة ١٩

ثانيًا: الخطابة الدّينيّة والمواعظ والمقامات ٥٠

ثالثًا: الوصايا والحِكم ٦١

رابعًا: أدب العُهود ٧٥

خامسًا: أدب الرّسائل (التّرسُّل) ٨٦

سادسًا: فنّ التّوقيعات ١٣٠

سابعًا: قصص الحيوان ١٣٨

الفصل الثاني: من عباقرة التّجديد في النّثر العبّاسيّ

أوّلاً: عبد الله بن المُقَفَّع ١٥٥

ثانيًا: سهل بن هارون ١٩٥

ثالثًا: محمّد بن عبد الملك الزّيّات ٢٢٣

رابعًا: الجاحظ ٢٢٩

Al-Eurat University

خامسًا: التّوحيديّ..٢٣٩

الفصل الثالث: إطلالة على تحليل النّصّ النّثري

أوّلاً: من جماليّات الأسلوب في النّثر العبّاسيّ..............................٢٥٣

ثانيًا: تحليل نصّ نثريّ..٢٦٥

الفصل الرّابع: نصوص نثريّة مُختارة

أوّلاً: نصوص لابن المُقَفَّع..٢٧٩

ثانيًا: نصوص لسهل بن هارون...٢٩٢

ثالثًا: نصوص لمحمّد بن عبد الملك الزّيّات....................................٣١١

رابعًا: نصوص للجاحظ..٣١٣

خامسًا: نصوص للتّوحيديّ..٣١٨

سادسًا: خطب من العصر العبّاسيّ..٣٢٣

سابعًا: وصايا ومواعظ...٣٣٢

المصادر والمراجع

معَ القارئ في فَضاءِ الكتاب

تقديمٌ بقَلَم

أ.د. عيسى علي العاكوب

أستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب

وعضو مجمع اللّغة العربيّة بدمشق

عزيزي القارئَ

هذا الكتابُ الذي بينَ يدَيْكَ إطلالةٌ رائعةٌ عَلَى النَّثْرِ العبّاسيّ فُنونًا وأعلامًا ونُصوصًا، قدّمَها عَلَى مائدةِ تفكيرِكَ عقلُ السّيّد الدّكتور قحطان صالح الفلاح، الذي أمضَى وقتًا مُبارَكًا، إن شاء اللهُ، يتأمَّلُ ويُحقِّقُ ويُمحِّصُ في مكتبةِ النَّثْرِ العبّاسيّ التي انبرَتْ لِإنتاجِها ذِهْنيّاتٌ عبقريّةٌ تنتمي إلى البشَريّةِ القديمةِ كلِّها، في فضاءٍ جغرافيّ شَمِلَ مُعظَمَ العالَمِ القديم، وتاريخٍ مُتطاوِلٍ عُرِفَ بالعصر العبّاسيّ (١٣٢-٦٥٦هـ).

ولِأنّني خَبَرْتُ عقْلَ المؤلِّفِ جيّدًا، في مُتناوَلِي أن أقولَ إنّ ما اختارَه مِن مادّةٍ دَرْسيّةٍ في كتابٍ شاء له أن يُعلِّمَ طُلّابَه، ينطوي عَلَى خيرٍ كثيرٍ لِمَن تسمُو به نفسُه إلى معرفةِ الفضاءِ الأدبيّ العربيّ في هذا الفَرْعِ الدّراسيّ، في ذلك العصر، وفي ذلك الامتدادِ الجغرافيّ.

وقد اطّلعتُ على الكتاب محتوًى وتنظيمًا وعَرْضًا ومُحاكمةً وتوثيقًا عِلْميًّا وفِهرسَ محتويات ولُغةً وأُسلوبًا، وانتهيتُ إلى تسجيلِ ما يأتي:

- جاءت فصولُ الكتابِ الأربعةُ مُنسَجمةً تمامًا مع العنوان المختار: فنون النّثر العبّاسيّ، مِن عباقرة التّجديد في النَّثرِ العبّاسيّ، إطلالةٌ على تحليلِ النّصّ النّثريّ، نصوصٌ نثريّةٌ مختارة. وإذا كان اختيارُ المرءِ قِطْعةً مِن عقله فقد أبدَى لنا هذا الاختيارُ النّظامَ العقليَّ النَّشيطَ عندَ المؤلّف، الذي يَخبُرُ المادّةَ العلميّة، ويُدرِكُ حَركتَها نَهَضاتٍ وكبواتٍ، ويعرفُ الأعلامَ المبرّزينَ فيها. ودَلّتِ العنواناتُ نفسُها في مُفرداتِها وسَبْكِها عَلَى عقلٍ

يجمَعُ بينَ الأدبِ والعِلْم. وإخالُ أنّ المادّةَ العلميّةَ في مخطوطِ الكتابِ وافيةٌ بِالغَرَضِ كَمًّا ونَوعًا.

- جاء ترتيبُ المحتويات داخِلَ فصولِ الكتاب، وداخِلَ كلِّ فَصْلٍ، مُساوِقًا لِطبيعةِ المادّةِ العلميّة المقدَّمة.

- عَرْضُ المادّةِ العلميّةِ جَيِّدٌ: ينطَلِقُ مِن العامّ إلى الخاصّ، ويراعي السَّيرَ التّاريخيّ، ويعي جيّدًا حركةَ المعاني تحتَ العنوانِ الواحد، ويبني النّتائجَ على المقدّمات.

- المُحاكَمةُ العقليّةُ في تَناولِ المسائلِ منطقيّةٌ، مُنضبِطةٌ، واعِيةٌ، مُشوِّقةٌ.

- المصادرُ أصيلةٌ، وكافيةٌ، وثمّةَ تجويدٌ في الإفادةِ مِنها وتوظيفِها والبناءِ علَيها. والتّوثيقُ جيّدٌ.

- فِهْرِسا المحتوياتِ، والمصادرِ والمراجع، جَيِّدان: جاء كلٌّ مِنهما في موضعه، وعَبّرَ عن قَدْرٍ مِن الدّقّة والإحكام. ويستفيدُ مِنهما الدّارسونَ، إن شاءَ اللهُ سُبْحانَه.

- مقدِّمةُ المؤلِّف تحتَ العنوان: (بينَ يَدَي الكتاب) جيّدةٌ مُختصَرةٌ مفيدةٌ جامعةٌ حارّةٌ مُنشِّطةٌ لِلْقارئ لِأنْ يُقبِلَ عَلَى الوَجْبةِ العلميّةِ، المقدَّمةِ له في تضاعيفِ الكتاب، بِشَوْقٍ ورِضا.

- صِيغتْ مادّةُ الكتابِ بعربيّةٍ جميلةٍ: تَروقُ الأذواقَ السّليمةَ، وتُبهجُ العقولَ السَّويّةَ المستقيمة. وأحسَبُ أنّ المؤلّفَ نفسَه قد طَعِمَ جيِّدًا مِن مائدةِ الثّقافةِ الأدبيّة العربيّة في أزهى عُصورها. وأحسَبُ أيضًا أنّ المؤلِّفَ يُدرِّسُ هذا المقرَّرَ عَلَى النّحوِ الذي يُحبِّبُ العربيّةَ وأدبَها وأعلامَ خُطبائها وكُتّابِها وحُكمائِها إلى أبنائنا الطَّلَبة.

- بدا المؤلِّفُ خَبيرًا بِحاجاتِ طُلّابِه، حريصًا عَلَى صَلاحِهم وإصلاحهم، مُغتبِطًا بِخِبرته وبَيانِه ولَسَنه.

وفي مُستطاعي أن أقولَ في الختام: هذا الكتابُ مائدةٌ عامِرةٌ بالتّاريخِ الأدبيّ وحَرَكةِ التّأليفِ والنّقْدِ الأدبيّ والتّراجم. وذلك كلُّه قُدِّمَ بِدِرايةٍ وفِطْنةٍ وذوقٍ أدبيّ يُحْسِنُ الاختيارَ، ويُجيدُ الصِّياغةَ والسَّبْك. والكتابُ مُعَدٌّ جيّدًا لِيُقدِّمَ عِلْمًا ومُتعةً ولُغةً جَذّابةً مُشْرِقةً. ويستفيدُ

مِنه، إن شاء اللهُ، طُلّابُ الأدبِ العربيّ في الدّراسات الجامعيّةِ الأولى والدّراساتِ العُلْيا، وأساتذةُ الأدب، وجُمْلةُ المهتمّينَ بِالإبداعِ الأدبيّ في عُصورِ ازدهارِ أدبِ العرب ونَماءِ فِكْرِهم وثَقافتهم. واللهُ سُبْحانَه هو الهادي إلى سَواءِ السّبيل.

حلَبُ الأبيّةُ في الأوّلِ مِن رمضانَ الخير ١٤٠٠هـ.

السّادس مِن أيّار ٢٠١٩م.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدَي الكِتاب

لا يخفى على ذي بَصِيرةٍ أنّ العصرَ العبّاسيَّ هو العصرُ الذّهبيُّ للحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّة في شتّى الوجوه، والحياة الفكريّة والعقليّة من أنصَع وجوهها. وممّا كان له بديع الأثر في ازدهارها أنّ الأدباء والكُتّاب والعلماء أفادوا من التيّارات والجداول الثّقافيّة الكبرى التي صَبّت في يَمّ الثّقافة العربيّة آنذاك، ورفدت مَعِينها الفيّاض، وخاصّةً معارف الأمم الأخرى من الفُرس واليونان والهنود. وكان لامتزاج الأعاجم الجنسيّ واللّغويّ والثّقافيّ مع العرب اليدُ الطُّولى في هذا الازدهار؛ فتلاقحتِ العقول، وتوالدت الأفكار، فأثمرت جَنًى دَانيًا، وافر الثّمَرَات.

وراجت سوقُ العلمِ رواجًا كبيرًا، فأصبحتِ العربيّةُ لغةَ الحضارةِ والعلم، ونشطت حركةُ التّأليفِ في مُختلف صُنوف المعرفة. وكانت الكتاتيبُ أولى المؤسّسات التّعليميّة التي يؤمّها شُدَاةُ العلم، وكانت مُلحقةً بالمساجد، التي أضحت هي أيضًا أشبه ما تكون بالجامعات؛ حيث تدرّس فيها مُختلف أنواع المعارف، على شكل حَلَقٍ، يتحلّق فيها المتعلّمون حول أساتذتهم، فَحَلْقَةٌ للفقه، وثانية للتّفسير، وثالثة للغة، وهكذا دواليك.

وكانت حركةُ النّقل والتّرجمة قد نشطت في عهد الرّشيد، وكانت بدأت منذ العصر الأمويّ، بيد أنّها في هذا العصر أضحت عملاً له أصوله وقواعده ومَنْهجه المتّبع، وكان لبيتِ الحِكْمة، الذي أنشأه الرّشيد، فَضْلٌ كبير في إذكاء جَذْوتها، وإشعال أُوَارها. وبلغت

جامعة الفرات Al-Furat University 2006

هذه الموجةُ حدّتها في عهد المأمون، فازدان بيت الحِكْمة في زمنه؛ إذ صيّره (كعبة العُلماء). ونُقِلَتْ إليه خزائن كتب اليونان، من بلاد الرّوم، وجزيرة قبرص.

أمّا الكتبُ المُترجمة فمن مختلف صنوف المعرفة، كالفلسفة والمنطق والطّبّ والرّياضيّات..إلخ. وجلّها مُترجم عن الفارسيّة والهنديّة واليونانيّة، وكان الفُرس من أَنْبه النَّقَلَةِ، سواء عن لسانهم أو ما تُرجم إليه من الهنديّة واليونانيّة.

وتُرجم عن اليونانيّة الجمّ الغفير؛ إذ تزخر كتبُ التّراث ـ مثل الفهرست ـ بأسماء الكتب المُترجمة عنها، وأسماء مُترجميها، ولا سيّما علماء السّريان المسيحيّين، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرّابع الميلاديّ في ترجمة الآثار اليونانيّة.

وأسفرت حركة النّقل والتّرجمة والتّعريب هذه عن زادٍ معرفيٍّ هائل، أدّى إلى اتّساع الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، اتّساعًا مُنقطع النّظير، ما أغنى الفِكر، وأمدّه بسيول دافقة من الثّقافات والمعارف والأفكار؛ فتمثّلها العقلُ العربيُّ ومَخَضَها، واصطفى زُبْدَتها، وأضاف إليها ما هو حَرِيٌّ بعقلٍ مُبدعٍ خلاّق. فازدهرت العلومُ ونمت، واتّسعت المعارفُ وازدهت، وأُلّفت المُجلّدات الطّوال في كلِّ فنٍّ وعِلْم.

وقد أصاب النّثر العربيّ ما أصاب وجوه الحياة المختلفة من تطوّر وغنًى ورُقيّ وازدهار، وكان حَرِيًّا بأَسَاطِينه أن يكونوا في طَليعة الرّكْب، وأن يُلمّوا بكلّ تلك المعارف والثّقافات والعلوم، ويُفيدوا منها في توسيع طاقات العربيّة، وتَشْقيق المعاني، وتوليد الأفكار، ودِقّة المُحاكمة العقليّة، والتّفكير المنطقيّ الدّقيق، وغير ذلك. وحقًّا ازدهر النّثرُ وتطوّر تطوّرًا كبيرًا عمّا كان عليه في العصر الأمويّ، سواء في الموضوعات والمعاني والأفكار، أو في الأساليب والبِنى الفنّيّة والجماليّة.

وهذا الكتاب (دراساتٌ في النّثر العبّاسيّ) يعرِض لبعضِ فُنونه البارزة، ونُصوصه المُشْرقة، وأعلامه الكِبار. أعْددتُه لمقرَّر النّثر العبّاسيّ ونصوصه، لطلاّب السّنة الثّالثة في قسم اللّغة العربيّة، وجُلّه محاضَراتٌ ألقيتُها عليهم بجامعتي حلب والفرات. وكان لِزامًا عليّ

تأليف هذا الكتاب بدلًا من الأمالي والمُحاضرات التي يتعاورها الطلّاب، والتي تعجّ بالتّصحيفات والتّحريفات والأغلاط الشّنيعة، ولا سيّما في النّصوص النّثريّة التي هي الأساس في الدّراسة، ما يؤثّر سَلْبًا في الأهدافِ الـمَرْجُوَّة من المادَّة؛ التي تتلخّص في الارتقاء بالذّائقة الفنّيّة للطّالب، وإغناء حصيلته اللّغويّة، ومعرفة أساليب القدماء في صياغة النّثر الفنّيّ، وطرائقهم في المُحاجّة والحوار والجَدَل، ومن ثمّ إدراك الوظيفة المعرفيّة والجماليّة للنصّ النّثريّ القديم.

وقد قسمتُ الكتاب إلى أربعة فصول، الفصل الأوّل يتناول بالحديث فنّ الخطابة السّياسيّة، والخطابة الدّينيّة والمواعظ والمقامات، والوصايا والحِكَم، وأدب العهود، وأدب الرّسائل (التَّرَسُّل)، وفنّ التّوقيعات، وقصص الحيوان.

أمّا الفصل الثّاني فيعرض لبعض أعلام النّثر العبّاسيّ من عباقرة التّجديد فيه، وهم: عبد الله بن المُقَفَّع رائد فنّ القصّة في الأدب العربيّ، وسهل بن هارون الكاتب المُترسّل البليغ، ومحمّد بن عبد الملك الزّيّات الكاتب الشّاعر الوزير، والجاحظ أديب العربيّة غير مُدافَع ولا مُنازَع، وصِنْوه أبو حيّان التّوحيديّ فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

أمّا الفصل الثّالث فيطلّ إطلالةَ عَجُولٍ على تحليل النّصوص النّثريّة، وبيان مذاهبها الأسلوبيّة في الأدب العربيّ القديم عامّة والعبّاسيّ خاصّةً، ويتناول بالتّحليل نصًّا نثريًّا، وَفْق أسلوبٍ مَدْرسيّ سَهْلٍ قريبٍ إلى النّفس بعيدٍ عن الصّعوبة والتّعقيد، وحَشْد المُصطلحات النّقديّة العويصة التي يجهل معناها معظم طُلّابنا في هذا الزّمان، ليكون هذا النّصّ نموذجًا يستأنسُ به الطّالبُ لدى تحليله لنصوص النّثر العبّاسيّ التي يُطلب منه تحليلها؛ على ألّا يُلزم نفسه به، كما يفهم بعض الطّلَبة، وكأنّ الأدبَ مسألةٌ رياضيّة...! فلكلّ نصّ بنيته الفكريّة والفنيّة الخاصّة التي تستدعي طريقةً خاصّة أيضًا لتحليله.

وتخصّصَ الفصلُ الرّابعُ من الكتاب بعرض نصوصٍ نثريّة مُختارة، يتجلّى فيها جلالُ التّفكير وجمالُ التّعبير، جمعتُها من مصادر شتّى لتوفّر الوقت والجهد على الطّالب الرّاغب في الاطّلاع على نماذج من أدبنا العربيّ الأصيل، وتراثنا الحضاريّ الجليل. وكان جمعها نتاجَ تدريسي هذه المادّة لسنوات، ولذا لم أعتمد الطّريقة الأكاديميّة في توثيق مُجملها، وعَزْوها إلى مصادرها ومَظَانّها، لضيق الوقت، وعدم الجدوى من ذلك.

هذا، وأحسبُ أنّ الجهْدَ المَبْذول في هذا الكتاب جُهْدُ المُقِلّ، فلستُ قانعًا بصُورته الحاليّة؛ إذ ما يزال بحاجةٍ إلى كثيرٍ من الجهد والتّدقيق، والضّبط والتّحقيق، وإضافةِ موضوعاتٍ وبحوث ونصوصٍ مُحلّلة مدروسة، أحسبُها في غاية الأهمّيّة لطُلّابنا الأكارم؛ إلّا أنَّ عُذري أنّ الكتاب في بعض بُحوثه محاضراتٌ جامعيّة، وهو موجّه للطّالب، في المقام الأوّل، على كلّ حال.

والمأمولُ، إن شاءَ الله، أن نُضيفَ إليه دراساتٍ جديدةً، ونستدركَ مافاتنا من سَهْوٍ وتقصيرٍ ووَهْم، في قابل الأيام. وما أحسنَ ما قيل: «لو عُورِضَ كتابٌ سبعينَ مرّةً لوُجِدَ فيه خطأ. أبى الله أنْ يكونَ كتابٌ صَحيحًا غير كتابِه»!

١٦ ذو الحجّة ١٤٣٥هـ

١١/ ١٠/ ٢٠١٤م

الدّكتور قحطان صالح الفلاح

2006 Al-Furat University

تمهيد في النّثر الفنّيّ وأهمّيّته

ما النّثر الفنّيّ؟

من المعلوم أنّ النّثر ـ لغةً ـ مُشتقٌّ من مادّة (نَثَرَ) التي تدلّ على تفريق الشّيء من دون نظام، يُقال: نثرَ الكلام: صاغه نثرًا غير موزون ولا مقفّى. فالكلام المنثور هو الكلام المُرسل على غير نظام وزنيّ مطّرد كما في الشّعر، وهو على أنواع:

١ - النّثر أو الكلام العادي، وأداتُه اللّغة المحكيّة السّائدة أو الدّارجة، ويكون غرضه التّواصل والتّخاطب بين النّاس لتحقيق غايات نفعيّة، كالتّعبير عن الذّات والرّغبات ونحو ذلك. وهذا النّوع لغته ليست أدبيّة، بل سُوقيّة مُستهلكة، تلوكها الألسن باستمرار.

٢ - النّثر العلميّ، وهو الذي يعتمده العلماء في تدوين معارفهم وشُروحهم وعلومهم، ويقوم كما هو معروف على المنطق، ومخاطبة العقل، وشرح الحقائق العلميّة، والوضوح، وعدم استخدام المجاز إلّا عفوًا أو لتقريب الحقائق العلميّة إلى الأذهان.

٣ - النّثر الفنّيّ أو الأدبيّ، وهو الذي يعنينا في دراستنا، ويُعرّف بأنّه: ذلك اللّون من التّعبير الذي يفتنّ فيه صاحبه لإثارة المتعة الفنيّة في نفس القارئ أو السّامع، وقلّما يأتي ذلك عفو الخاطر. أو: هو كلّ نَثْرٍ يشتمل على جمال في صياغته وأسلوبه وأدائه. وبتعبير آخر: هو بِنية لغويّة معرفيّة جماليّة. ولغتُه تتوهّج حرارةً وعاطفةً وانفعالًا، فهي لغةٌ ذات سِحْر خاصّ، تهدف إلى تحقيق غايات فكريّة وجماليّة للتّعبير عن الذّات والتّأثير في المتلقّي.

ومن المعلوم أنّ الشّعرَ يتناول الأحداث والأفكار بطريقته الفنّيّة التّصويريّة، ككثيرٍ من قصائد الشّعر العربيّ، كما في قصيدة أبي تمّام في وصف معركة عموريّة، وقصائد المتنبّي

التي يصف فيها معارك سيف الدّولة الحَمْدانيّ، فالوصف فيها شِعْريّ تصويريّ خياليّ، يقوم على أساس جماليّ في المقام الأول. أمّا الأساس المعرفيّ فيتمثّل في النّثر الذي ينقل أفكارًا مُحَدّدة باطّراد وتتابع، على نحو وصفيّ تقريريّ، يعتمد البراهين والأدلّة العقليّة، والبُعد عن التّهويل، والقرب من الحقيقة في كثير من الأحيان. فالنّثر لغة العقل أوّلاً، والوجدان ثانيًا، أمّا الشّعر فلغة العاطفة والوجدان والشّعور.

وقد ذكر أبو حيّان التّوحيديّ أنّ النّثر من قِبل العقل والنّظم من قِبل الحسّ، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ الشّعر لا يقرّر، ويصف، ويحتجّ، ويناقش بمنطق وعقلانية، أو أنّ النّثر لا يرمز، ويكون شديد التّكثيف والإيحاء، ويعتمد التّصوير والمبالغة، بقصد التّأثير والدّعاوة السّياسيّة ونحو ذلك، كبعض الخطب السّياسيّة في العصر الأمويّ والعبّاسيّ، والرّسائل الدّيوانيّة، ورسائل الخميس في العصر العبّاسيّ الأوّل، التي كانت تقرأ على شيعة العبّاسيّين في خُراسان، في زمن كلّ خليفة عبّاسيّ، وموضوعها تأييد الدّولة والخليفة، والإشادة بذكره وعظيم مناقبه، وتقوم مقام الإعلام السّياسيّ في عصرنا.

والمهمُّ في الأمر كلِّه أنّ أدبيّة النّصّ النّثريّ قد تفوق أدبيّة النّصّ الشّعريّ، فقد يكون الشّعر نَظْمًا ذهنيًّا تعليميًّا لا روح فيه، وإنّما فِكْرٌ ومعرفة ووزنٌ وتَقفية، كما هي الحال في المنظومات العلميّة. والتّفريقُ بين الشّعر والنّثر على أساس الوزن والقافية تقسيمٌ لا يعتدُّ به بعض النّقّاد المُحدثين؛ إذ هو تحديدٌ سطحيّ خارجيّ، فليس كلّ كلام موزون شعرًا بالضّرورة، وليس كلّ نَثْرٍ يخلو من الشّعريّة، فالأصل في التّفريق بينهما ليس الوزن فحسب، وإنّما طريقة استخدام اللّغة نفسها، حيث إنّ لغةَ الشّعرِ أكثر توتّرًا وإيحاءً من لغة النّثر.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

الفصل الأول

من فنون النثر العبّاسي

أولاً ـ الخطابة السّياسيّة

ثانيًا ـ الخطابة الدّينية والمواعظ والمقامات

ثالثًا ـ الوصايا والحِكم

رابعًا ـ أدب العهود

خامسًا ـ أدب الرّسائل (التَّرَسُّلُ)

سادسًا ـ فنُّ التّوقيعات

سابعًا ـ قصص الحيوان

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

أوّلاً: الخطابة السّياسيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل

١. تعريف الخطابة وأهمّيّتها:

تُعَرَّف الخطابة بأنّها: فنُّ مُشَافهةِ الجمهور وإقناعِه واستمالتِه، فالأصل فيها المخاطبة أو المشافهة، ابتغاء التّأثير في المتلقّي واستمالته.

وتُعَدُّ الخطابة من أقرب الأنواع الأدبيّة إلى الشّعر؛ لاعتمادها على إثارة العاطفة، وإذكاء الشّعور، وخِصْب الخيال والتّصوير، وإن اختلفت عنه في الشّكل. والخطيب ـ في الغالب ـ أقربُ إلى صوت العقل والفِكر، من الشّاعر الذي هو صوت الوجدان في المقام الأوّل. والأصل أن يكون الخطيب مُفكّرًا، غزير المعاني، قويّ الأدلّة، قادرًا على الإقناع والإمتاع، في آنٍ معًا.

وقد عَرَفَ العرب فنّ الخطابة منذ القديم، وتوسّلوا به في أَمْنهم وحربهم، ورخائهم وجَدْبهم، ومُنافراتهم ومُفاخراتهم، وشتّى مواقفهم وقضاياهم، التي تستدعي مخاطبة الآخر واستمالته. وكان لها في جاهليّتهم شأنٌ عظيم، ومقامٌ كريم؛ إذ فاقت منزلة الخطيب عندهم ـ في بعض الأحيان ـ منزلة الشّاعر. يقول أبو عمرو بن العلاء (ت نحو ١٥٤هـ): «كان الشّاعر في الجاهلية يُقَدَّم على الخطيب؛ لفَرْط حاجتهم إلى الشّعر، الذي يُقَيِّدُ عليهم مآثرهم، ويُفَخِّم شأنهم، ويُهَوِّل على عَدُوِّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّبُ من فرسانهم، ويُخَوِّف من كَثرة عددهم، ويهابهم شاعرُ غيرهم، فيراقب شاعرهم. فلمّا كَثُرَ الشِّعر والشّعراء، واتّخذوا الشّعر مَكْسَبة، ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرَّعوا إلى أعراض النّاس، صار الخطيبُ عندهم فوق الشّاعر»(١). وذلك لارتباط الخطابة بعِلْية القوم وسادة القبيلة، فأضحت آنذاك من علائم السّؤدد والشّرف، ودلائل النَّجابة والحِكْمة، وارتبطت بالقضايا الكبرى للقبيلة في السّلم

(١) البيان والتبيين، ٢٤١/١.

والحرب، فكانت في الأعمّ الأغلب من عمل السّاسة والسّادة، في حين كان الشّعر ـ في الغالب ـ من عمل الدّعاة والأتباع.

وقد بلغت الخطابة عمومًا، والسّياسيّة منها على وجه الخصوص، ذروة ازدهارها في العصر الأمويّ؛ العصر الذّهبيّ للخطابة العربيّة، إثر الأحداث السّياسيّة التي عاشتها الدّولة الأمويّة، والتي كانت إرهاصاتها بدأت منذ أواخر العصر الرّاشديّ، واختلاف المسلمين على الإمامة، فبرزت الأحزاب السّياسيّة والدّينيّة، والحركات الفكريّة والمذهبيّة، كالخوارج والشّيعة والمرجئة والقدريّة والجبريّة وسواهم. وكلُّ أولئك اتّخذ الخطابة وسيلة ناجعة لنقد الآخر، وبيان آرائه السّياسيّة، ونظريّته الحزبيّة والفكريّة، واستمالة النّاس إلى اعتناق مبادئه وأفكاره.

أمّا في العصر العبّاسيّ الأوّل، فقد أدّت الخطابة دورًا مميّزًا في الصّراع السّياسيّ، وإدارة الحُكْم. ومن المسلّم به أنّ الخطابة لم تَشْغل الحيّز الفكريّ الذي شغلته في عصرها الذّهبيّ، إبّان حُكم الأمويين، ولكنّها أيضًا لم تضعف بالصّورة التي خُيّلت إلى بعض الدّارسين، خاصّة في مطالع العصر؛ إذ لا يُعقل أن يُسَاير الأدب العصر السّياسيّ مُسايرة تامّة. وإنْ كانت الخطابة أقرب الفنون الأدبيّة إلى روح العصر المَعيش، وما يسوده من اتجاهات ومذاهب وتيّارات، يستلهمها الخطباء، وينفعلون بها؛ ولا سيّما أنّ جُلَّ الخطباء هم وُلاة الأمر، أو مَن يمثّلهم. والعصر العبّاسيّ الأوّل يُعَدُّ ـ من بعض الوجوه ـ امتدادًا للعصر الأمويّ؛ إذ لم يَخْلُ من الفتن والثّورات وعدم الاستقرار السّياسيّ، الذي يُعَدُّ مَرْتعًا خَصِيبًا لازدهار الخطابة السّياسيّة على وجه الخصوص.

وقد سَلِمت لنا خُطَبٌ عديدة لهذا العصر، مبثوثة في كتب الأدب والتّاريخ. وكثير منها ذو مضامين سياسيّة، ومنها ما يَمَسُّ السّياسة مَسًّا رفيقًا، كبعض الخُطب الدّينيّة والحَفْليّة. ولعلّ أشهرَ الخطباء في هذا العصر كانوا من بني هاشم، الذين كان لهم باعٌ مَديد في الخطابة واللّسن والفصاحة، منذ رسول ﷺ؛ إمام البُلغاء وسيّد الخطباء، السَّلَفُ والخَلَفُ

في ذلك سَواء، «سُـئِل سعيد بن المُسيّب: مَن أبلغُ النّاس؟ فقال: رسولُ الله ﷺ. فقال السّائلُ: إنّما أعني مَنْ دونه. فقال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وإنّ ابن الزبير لحسَنُ الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح، فقال له رجلٌ: فأين أنتَ من عليّ وابنه، وعبّاس وابنه؟ فقال: إنّما عنيت من تقاربت أشكالهم، وتدانت أحوالُهم، وكانوا كسِهَامِ الجَعْبَةِ، وبنو هاشم أعلامُ الأنامِ، وحُكّامُ الإسلام»(٢).

وقد كشف العبّاسيّون عن مواهب خطابيّة نادرة، ومقدرة بلاغيّة فائقة، يقول الجاحظ في بيان بلاغتهم: «وجماعةٌ من وَلَد العبّاس في عصرٍ واحد، لم يكن لهم نُظَراء في أصالة الرّأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدّولة، وبرجال الدّعوة، مع البيان العجيب، والغَور البعيد، والنّفوس الشّريفة، والأقدار الرّفيعة؛ وكانوا فوق الخُطَباء، وفوق أصحاب الأخبار؛ وكانوا يَجِلُّون عن هذه الأسماء إلّا أن يَصِفَ الواصفُ بعضَهم ببعضِ ذلك».

ومن خطباء العبّاسيّين أبو العبّاس السّفّاح وأخوه المنصور وأعمامه عبد الله بن علي وداود بن علي الذي أشاد الجاحظ بفصاحته، فقال: «كان أنطقَ النّاس، وأجودَهم ارتجالاً واقتضابًا للقول، ويُقال إنّه لم يتقدَّم في تحبير خُطبةٍ قَطُّ. وله كلامٌ كثير معروف محفوظ». وقال أيضًا: «وكان عبد الله بن عليّ، وداود بن عليّ، يُعْدلان بأمّةٍ من الأمم». ومن خطبائهم صالح بن عليّ، وابنه عبد المَلك، وسليمان بن جعفر والي مكّة، وقد قيل: إنّ أهل مكّة قالوا: «إنّه لم يَرِد عليهم أميرٌ منذ عَقَلوا الكلام، إلّا وسليمان أَبْيَنُ منه قاعدًا، وأخطَبُ منه قائمًا» (٣).

---

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني، ٥٧/١. وعنى بـ (سعيد وابنه): سعيد بن العاص من بني أميّة، كان ممن كتب القرآن لعثمان بن عفان رضي الله عنه، (ت نحو ٥٩هـ). أمّا ابنه فعمرو بن سعيد، المعروف بالأشدق وهو أحد التابعين، خرج على عبد الملك، وغلب على دمشق، ثم ظفر به عبد الملك وقتله بعد أن أعطاه الأمان، سنة ٧٠ للهجرة. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٥١٧/٤-٥٢١.

(٣) البيان والتبيين، ٣٣١/١ ومابعدها.

ومن خطبائهم الخلفاء أيضًا المهديّ والرشيد والمأمون، وثمّة أقوال تشيد بفصاحتهم ولَسَنِهم. ومن خطباء آل عليّ ﷺ محمّد بن عبد الله بن الحسن الملقّب بـ (النَّفْس الزّكيّة)، وأخوه إبراهيم. ومن غير العرب البرامكةُ وبنو سهل وطاهر بن الحسين، وغيرهم.

٢ـ الخطابة السّياسيّة:

في مرحلة الدّعوة والتّأسيس:

اتّخذت الثّورة العبّاسيّة الخطابة أداةً لبيان حقّها في الخلافة، وذلك منذ أن كانت الدّعوة العبّاسيّة في خُراسان؛ إذ كانت وسيلتهم لتأليب أتباعهم على الأمويين، وكَسْب التّأييد المعنويّ، وحثّهم على الصّبر والمجالدة في الحروب، إبّان مرحلة الثّورة العلنيّة.

ومن ذلك أنّ نصر بن سيّار والي الأمويين أرسل جيشًا لمحاربة أنصار العبّاسيّين، فالتقاهم بقيادة قَحْطَبَة بن شَبيب الطّائيّ قرب جُرْجان، ويبدو أنّ المُسَوِّدَةَ هابوا الأمويين، وكان لقاؤهم سنة ١٣٠ هـ، فجمع قَحْطَبَة أنصاره، وخَطَبَ فيهم قائلًا[٤]:«يا أهل خُرَاسان! هذه البلادُ كانت لآبائكم الأوّلين، وكانوا يُنْصَرون على عدوّهم بعَدْلهم، وحُسْنِ سِيرتهم، حتّى بَدَّلوا وظلموا، فسَخِطَ اللهُ عزّ وجلّ عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلّط عليهم أذلّ أمّة كانت في الأرض عندهم، فغلبوهم على بلادهم، واستنكحوا نساءهم، واسترقّوا أولادهم».

وواضح أنّ الخطيب هنا يعوّل على إثارة النَّعْرة العصبيّة عند جُنده الخُراسانيين، واستنفار مشاعر الثّأر على مَن وَتَرَهم، ثمّ يُبيّن لهم أنَّ هؤلاء غيّروا وبدّلوا أحكام الله، كما بدّل أجدادُهم، «وأخافوا أهلَ البِرِّ والتّقوى من عِتْرَةِ[٥] رسول ﷺ، فسلّطكم عليهم لينتقمَ منهم بكم، لتكونوا أشدّ عقوبة؛ لأنّكم طلبتموهم بالثّأر. وقد عَهِدَ إليّ الإمام أنّكم تلقونهم في مِثْل هذه العُدّة فينصركم الله عزَّ وجلّ عليهم، فتهزمونهم وتقتلونهم». وهنا نلحظ أنَّ

---

(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٣٩١/٧-٣٩٢.

(٥) عِتْرَةُ الرجل: رَهْطُه وعشيرته ونَسْلُه.

أنصار الدّعوة أعطوا الإمام قُدْرة على معرفة الغَيب، وكَشْف حوادث المستقبل قبل وقوعها؛ ليضلّوا بذلك أفكار الجُنْد، ويزيدوهم ثقة بالنّصر والغَلَبة، ولا سيّما أنّ أهل خُرَاسان لديهم استعداد قويّ لتقبّل هذه الأفكار؛ إذ وَقَرَ في نفوسهم ـ منذ أَمَدٍ بعيد ـ أنّ في الملوك جزءًا إلهيًّا، ينتقل إليهم واحدًا تلو الآخر، فكانوا يجلّون ملوكهم وقوميّتهم، فربط العبّاسيّون بين هذه النّزعة وبين الدّعوة لآل الرّسول والرِّضا من آل محمّد، وهي دعوة محبّبة إلى الفُرس وأهل خُرَاسان؛ لأنّهم بهذه الدّعوة، وبهذه الطّريقة يُزيلون الحُكْم الأمويّ الكَريه الذي يضطهدهم، وينتقمون من العرب، الذين أذلّوهم، ويرفعون إلى منصب الخلافة أسرة تعترف بفَضْلهم في وصولها إلى الحُكم، ومبادئها في الحُكْم والخلافة، ونَظرتها إليهما نظرة (ثيوقراطية) شبيهة بنظرة الفُرس أنفسهم إلى العرش والحاكم. فالفُرس يستنكرون الخروج على طاعة الملوك الشّرعيّين؛ لذا فإنّهم يرون أنّ الأمويين اغتصبوا الحقّ الشّرعيّ من أهله، آل البيت، وَفْق مبدأ وراثة الحُكم، عندهم.

في عهد السّفّاح:

ما إنْ ظَفِرَ العبّاسيّون بالخلافة حتّى مضى خطباؤهم يؤكّدون أنّهم أصحاب الحقّ الشّرعيّ فيها، وأنّهم أولى النّاس بها، ويبيّنون سياستهم تجاه الرّعية، وكيف أدالهم الله من حُكم الأمويين وجَوْرهم وانتقم لهم بأسيافهم، بعدما جاروا وظلموا، وجانبوا سنّة الرّسول الكريم ﷺ في العدل والإنصاف، وانتهكوا حُرماتِ الدِّين، وقَتَلُوا آل عليّ وشيعتهم قتلًا ذريعًا، وتركوهم طُعْمَةً للسّيف والنّار والتّشريد.

فهذا أبو العبّاس السّفّاح (ت ١٣٦هـ) لمّا بويع بالخلافة (سنة ١٣٢هـ) في الكوفة، صَعِد أعلى المنبر ـ كما يُروى ـ وصَعِدَ عمّه داود بن عليّ (ت ١٣٣هـ) فجلس دونه، فخطب أبو العبّاس(٦) مُتحدّثًا عن قرابتهم من رسول ﷺ، وأنّ الله اختارهم للإسلام، واصطفاهم له، وأيّده بهم، وتلا آياتٍ من القرآن الكريم خاصّة بأهل البيت، كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ**

(٦) انظر: تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٧/٤٢٥–٤٢٦.

ليُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرًا﴾ [الأحزاب ٣٣/٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ **ما أَفَاءَ الله على رسولِهِ من أَهْلِ القُرى، فللّهِ وللرّسولِ ولذي القُرْبَى واليَتَامى﴾** [الحشر: ٥٩/٧]، وقوله سبحانه: ﴿ **واعلموا أنّ ما غَنِمْتُم من شيءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وللرّسولِ ولذي القُرْبى واليتامى﴾** [الأنفال: ٨/ ٤١]. والمُراد من الإتيان بهذه الآيات الكريمات إضفاء مزيدٍ من الشّرعيّة على خلافتهم، وإعلاء مقامهم، ورَفع شأنهم بين الرّعِيّة، والإيحاء بنوعٍ من الوصاية على سائر المسلمين، والقيام بأمور حُكْمهم من مبدأ الوراثة في الإسلام التي تخصّ العبّاسيّين، في مُغَالطة واضحة، دون سواهم.

ثمّ عرّض السَّفَّاح في خُطبته بالسَّبَئِيَّةِ، من غُلاة الشّيعة، قائلاً: «وزعمتِ السَّبَئِيَّةُ الضُّلّالُ، أنّ غيرنَا أحقُّ بالرّياسة والسّياسة والخلافة مِنَّا؛ فَشَاهت وُجوهُهُم! بِمَ ولِمَ أيُّها النّاس؟ وبنا هدى الله النّاس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هَلَكَتِهم، وأظهر بنا الحقَّ، وأَدْحَضَ بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وتَمَّ بنا النَّقِيصة، وجمع الفُرقة، حتّى عاد النّاسُ بعد العداوة أهلَ تعاطُفٍ وبرٍّ ومُواساة في دينهم ودنياهم، وإخوانًا على سُرُرٍ مُتقابلين في آخرتهم».

ثمّ ذَكَرَ الخلفاء الرّاشدين، وأثنى عليهم، فذكر عَدْلَهم وعطاءهم وأَمْرَهم بالشُّورى، وخروجَهم من الدّنيا خِمَاصًا. «ثمّ وَثَبَ بنو حَرْبٍ ومَرْوان فابتزُّوها، وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى اللهُ لهم حِيْنًا، حتّى آسَفوه[٧]، فلما آسَفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا، وتدارك بنا أمّتنا، ووَلِيَ نَصْرَنا، والقيامَ بأمرنا؛ ليَمُنَّ بنا على الذين استُضْعِفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا. وإنّي لأرجو ألّا يأتيكم الجَوْرُ من حيث أتاكم الخيرُ، ولا الفسادُ من حيث جاءكم الصّلاحُ، وما توفيقنا، أهلَ البيت، إلّا بالله».

والسّفّاح يشير، ههنا، إلى فكرة المهديّ المُنتظر الذي سيظهر في آخر الزّمان ويملأ الأرضَ عَدْلًا بعد أن مُلئت جَورًا وظُلمًا، كما يشي بذلك قولُه: (ليمنّ بنا على الذين

(٧) آسفوه: أغضبوه؛ وفي القرآن الكريم: ﴿فلمّا آسفونا انتقمنا منهم﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٥].

استضعفوا)، و (اختتم بنا كما افتتح بنا). وهذا ما يبدو أيضًا على نحوٍ أوضح في كلام عمّه داود، حين يقول إنّ هذا الأمر سيظلّ فيهم إلى أن يُسْلِموه إلى المسيح عليه السلام، إذ من المعلوم أنّ كثيرًا من الأحاديث النّبويّة الواردة في أمر المهديّ تشير إلى أنّه من آل الرّسول ﷺ، وأنّه يظهر قبل نزول المسيح عليه السلام. كما أنّ الحديث عن الأمويين وأنّهم ملؤوا الأرض جورًا وظلمًا يؤكّد أنّهم يشيرون إلى هذه الفكرة.

ثمّ يوجّه خطابه إلى أهل الكُوفة، فيقول: «يا أهلَ الكُوفة! أنتم محلُّ محبّتنا، ومنزل مودّتنا، أنتم الذين لم تتغيّروا عن ذلك، ولم يثْنِكُم عن ذلك تحامُلُ أهل الجَوْرِ عليكم، حتّى أدركتُم زمانَنا، وأتاكم الله بدَوْلتنا؛ فأنتم أسعدُ النّاس بنا، وأكرمهم علينا. وقد زِدْتُكم في أُعْطياتكم مئةَ دِرْهَمٍ فاستعدّوا، فأنا السّفّاحُ المُبِيْحُ، والثّائر المُبِيْر»[8].

وهذا التّوجّه إلى أهل الكوفة يحمل في تضاعيفه مَغْزًى سياسيًّا؛ إذ إنّ أهلَ الكوفة شيعةُ عليٍّ رضي الله عنه وآله، وليس العبّاسيّين، فلا بدَّ أنّهم استشعروا في أنفسهم خيبة الأمل، ومرارة الأسى، وحرارة المَوْجِدة، بانتقال الخلافة إلى آل العبّاس، فلا غرو إن مالأهم السّفّاح ولايَنَهُم في الكلام؛ لاسترضائهم وضمان سُكوتهم في الوقت نفسه، ولا سيّما أنّ أبا العبّاس يخطب وجيوشه تُطارد فلول الأمويين، ولم يستقرّ به المقام حتّى وصلت إليه رسالة صالح بن عليّ العبّاسيّ، وفيها: «إنّا اتّبعنا عدوّ الله الجعديّ، حتّى ألجأناه إلى أرض عدوّ الله شبيهه فرعون، فقتلتُه بأرضِهِ»[9]. وقد أردف السّفّاح بلينِ كلامه جزيلَ عطائه. والمالُ سِلاحٌ لا يُثلم في السّياسة، وقد أحسن العبّاسيّون استخدامه، كما أحسن بنو أميّة ذلك من قبل.

---

(٨) المُبِيْر؛ يقال: بار الشيء بَوْرًا وبَوَارًا: هلك وكسد وتعطّل، وأباره: أهلكه، والمعنى: أنه سخيّ كريم إلى حدّ إتلاف المال، وبهذا التعبير لقِّب بالسّفاح ــ كما يرى بعضهم ــ ثمّ انصرف معناه إلى سفك الدماء؛ لما قام به من سفك دماء بني أميّة.

(٩) تاريخ الأمم والملوك ٤٤١/٧. والجعْديّ؛ هو مروان بن محمّد، آخر خلفاء بني أميّة، يُنسب إلى الجعد بن درهم مؤدبه ومعلّمه؛ ويُنسب إلى الجَعْد القول بـ (الجبر)، ونفي الصفات وما إليها، وقد قتله خالد القسري سنة (١٢٤هـ)، بالكوفة، بعد أن أظهر القول بـ (خلق القرآن). انظر: تاريخ الأمم والملوك ٩٨/٥.

وقد كان السّفّاح مَوعوكًا في تلك الخُطْبة، فاشتدّ به الوَعْكُ، فجلس على المنبر، وقام عمّه داود بن عليّ دونه على مَرَاقي المنبر، وخَطَبَ. ويمكن إجمال خطبته[١٠] بالنّقاط الآتية:

١ – إنّ العبّاسيّين لم يخرجوا في طلب الخلافة لغاية دنيويّة: «إنّا، واللهِ، ما خرجنا في طَلَبِ هذا الأمر لِنُكْثِرَ لُجَيْنًا ولا عِقْيانًا[١١]، ولا نحفِرَ نَهْرًا، ولا نبنيَ قَصْرًا، وإنّما أَخْرَجَنَا الأَنَفَةُ من ابتزازهم حقّنا، والغَضَبُ لبني عمّنا، وما كَرَثَنَا[١٢] من أموركم... ».

فثمّة، إذن، ثلاثة أسبابٍ لطلب الخلافة، أوّلها هو إحساسهم المُمِضّ بابتزاز الأمويين حقّهم في الخلافة، وهم أبناء عمّ الرّسول ﷺ، الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا، والذين نصروا رسول الله ودعوته، بخلاف بني أميّة، الذين ناصبوا الدّعوة منذ بدايتها العَداء، ولم يؤمنوا حتّى فتح الله على رسوله، وكان كثير منهم من الطُّلَقاء، ثمّ بغوا واعتدوا واغتصبوا حقّ آل البيت، وفتكوا بآل عليٍّ وشيعتهم، وهذا هو السّبب الثّاني لخروج العبّاسيّين عليهم كما يدّعون. والحديث عن محن آل عليٍّ حديث مؤثّر يستميل أهل الكوفة الذين يخطب فيهم السّفّاح وعمّه داود، وكثيرًا ما استمالَ هذا الحديثُ المشاعرَ والأحاسيس، منذ استشهاد الحسين رضي الله عنه. وحقًّا، أخذ العبّاسيّون على أنفسهم الثّأر لدماء الحُسَين وغيره من بني عليّ رضي الله عنهم، ومضوا يفتكون بالأمويين فَتْكًا ذريعًا، ولم يتغيّر خِطابُهم السّياسيُّ تجاه بني عمّهم حتّى نافسوهم على الخلافة ورأوا أنّهم أحقّ بها منهم. أمّا السّبب الثّالث فشُغْل العبّاسيّين واهتمامهم بأمور الرّعيّة، وما لِحقَها من جَور بني أميّة واستئثارهم بالفَيء، وتعطيل الحُدود، ونحو ذلك من مآخذ.

٢– إنّ بني أميّة ظلموا النّاس، واستأثروا بالفَيء دونهم: «تبًّا تبًّا لبني حَرْبِ بن أميّة وبني مَرْوان! آثَرُوا في مُدّتهم وعَصْرهم العاجلةَ على الآجِلَةِ، والدّارَ الفانية على الدّار

---

(١٠) المصدر نفسه ٤٢٦/٧–٤٢٨.

(١١) اللُجَين: الفضّة، والعِقيان: الذهب الخالص.

(١٢) كرَثَنَا: أهمّنا وشغلنا.

الباقية، فَرَكِبوا الآثامَ، وظلموا الأَنَامَ، وانتهكوا المَحَارمَ، وغَشُوا الجرائمَ، وجاروا في سيرتهم في العِباد، وسُنَّتهم في البلاد، التي بها استلذُّوا تَسَرْبُلَ الأوزار، وتَجَلْبُبَ الآصار، ومَرِحُوا في أَعِنَّةِ المعاصي، ورَكَضُوا في ميادين الغَيّ؛ جَهْلًا باستدراج الله، وأَمْنًا لِمَكْر الله؛ فأتاهم بأسُ الله بَيَاتًا وهم نائمون[١٣]؛ فأصبحوا أحاديثَ، ومُزِّقُوا كلّ مُمَزَّقٍ[١٤]، ﴿**فَبُعْدًا للقومِ الظالمين**﴾»[١٥]. ولا شكَّ أنّ الطّعنَ في بني أميّة، على هذا النّحو، تأييدٌ لبني العبّاس ودعوتهم، وحجّة لهم في ثورتهم، وفيما فعلوه بهم من تنكيل وتقتيل.

٣- إنّهم مازالوا مَظْلومين مَقْهورين، حتّى أتاح الله لهم شيعَتهم الخُرَاسانيين: «فأحيا بهم حَقَّنَا، وأَفْلَجَ بهم حُجَّتَنَا، وأظهر بهم دولتَنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون، وإليه تَتَشَوَّفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشمٍ، وبَيَّضَ بهِ وجوهَكم».

٤- إنّهم سيظلّون وُلاة هذا الأمر، إلى أن: «نسلمه إلى عيسى ابن مريم ﷺ، والحمدُ لله ربّ العالمين على ما أبلانا وأولانا».

وإذا كانت هذه الادّعاءات مفهومة ومُسَوّغة من النّاحية السّياسيّة، فإنَّ مسألة بقائهم في الحُكم إلى آخر الزّمان، حتّى يجيء المسيح المُخلّص، تغدو مُلفتة للنّظر، وهي مبنيّة ـ كما أعتقد ـ على مجموعة من الأحاديث والآثار، التي رُويت عن الرّسول ﷺ بطُرق شَتّى، وجلّها يذهب هذا المذهب، نحو: «الخلافة في ولد عمي وصِنو أبي حتّى يسلّموها إلى المسيح»[١٦]. وكثيرٌ من هذه المرويّات، وُضع لأسباب سياسيّة، ولعلماء الحديث فيها آراءٌ ومواقف؛ من حيث الصِّحّة والضّعف والوضع والانتحال وما إليها. إلّا أنّ المهم لدى السّاسة هو ترويجها والتّوسّل بها؛ لتحقيق مآربهم في الحُكم، وأحيانًا تكون لتأييد مذاهب

---

(١٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أفَأَمِنَ أهل القُرى أنْ يأتيَهم بأسُنا بَيَاتًا وهم نائمون﴾ [الأعراف: ٩٧/٧].

(١٤) في القرآن الكريم: ﴿فجعلناهم أَحَادِيْثَ، ومَزَّقْنَاهم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾ [سبأ: ١٩/٣٤].

(١٥) المؤمنون: ٤١/٢٣.

(١٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير، نقلاً عن تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص٢٠.

فكريّة أو مذهبيّة. المهمّ أنّ العبّاسيّين كانوا يتصوّرون ـ وَفْقَ هذه الأحاديث والآثار ـ بقاءهم في الحُكم إلى آخر الزمان.

وعلى هذا النّحو، سارت خُطَبُ مَطالعِ العصر العبّاسيّ الأوّل، في عهد السّفّاح؛ إذ تعاورت المعاني والأفكار السّياسيّة نفسها؛ من حيث بيان حقّهم في الخلافة، والتماس الشّرعيّة الدّينيّة لهذا الحقّ، عن طريق قرابتهم من الرّسول ﷺ، وكونهم أهل بيت النّبوّة أهل الرّأفة والرّحمة، وأحقّ النّاس بوراثة النّبيّ ﷺ، وما إلى ذلك من دلائلَ وحُجَجٍ، يسوقُها خطباؤهم وكُتّابهم في هذا السّبيل.

وكذلك بيّنت خُطَبُ هذه الفترة مظالمَ الأمويين ـ من وجهة نظر الغالب ـ وأزرت عليهم. وعلى النّقيض أشادت بأهل خُرَاسان، شيعتهم وأنصارهم، الذين ابتعثهم الله؛ ليكونوا سببًا في تحقيق إرادته سبحانه ـ كما يرون ـ في ردّ ميراث الرّسول ﷺ، في الخلافة عنه، وذلك كلّه ببيانٍ رائع، ولَفْظٍ بارع، وبلاغة واصلة إلى أعماق النّفوس.

إضافة إلى بيان سياستهم في الرّعية، والموازنة بين حُكْمهم، وحُكْم بني أميّة، كقول السّفّاح: «والله لا أَعِدكم شيئًا ولا أتوعَّدكم، إلّا وفيت بالوعد والوعيد، ولأُعْمِلَنَّ اللّين حتّى لا تنفع إلّا الشّدّة، ولأُغْمِدَنَّ السّيف إلّا في إقامة حَدٍّ، أو بُلُوغ حقٍّ، ولأُعطينّكم حتّى أرى العطيةَ ضَيَاعًا»(١٧). وكقول عمّه داود بن علي واليه على مكّة المكرّمة: «لكم ذمّةُ الله تبارك وتعالى، وذمّةُ رسوله صلّى الله عليه وآله، وذمّةُ العبّاس رحمه الله؛ أن نحكمَ فيكم بما أنزل الله، ونعملَ فيكم بكتاب الله، ونَسِيْرَ في العامّة منكم والخاصّة بسيرة رسول ﷺ»(١٨).

وتعكسُ هذه الخُطَبُ حِرْصَ العبّاسيّين على بيان شرعيّة خلافتهم ونظريّتهم في الحُكْم، ريثما تثبت أركانهم في السّلطة. أمّا العمل بالكتاب والسّنّة بوصفهما دُستورًا للحُكم، والسّير بسيرة رسول الله ﷺ كما كان الأمر في عهد الخلفاء الرّاشدين أو عمر بن عبد العزيز

---

(١٧) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢/٦٨٧.

(١٨) تاريخ الأمم والملوك ٧/٤٢٧.

في العصر الأمويّ، فلم نجده واقعًا حيًّا في الدّولة العبّاسيّة؛ إذ لم يكن الخليفة العبّاسيّ أقلّ من بني أميّة إقبالًا على مَتَاع المُلْك والسّلطة، والإسراف في الإنفاق والعطايا، وحَصْر ولاية العهد ببني العبّاس، خلافًا لمبدأ الشّورى، والاعتماد على سياسة القوّة والبطش في سبيل توطيد الحكم.

في عهد المنصور:

بعد أن اعتلى المنصور سُدَّة الخلافة (١٣٦-١٥٨هـ)، طرأت أحداثٌ جديدة على الواقع السّياسيّ آنذاك؛ إذ اصطرعت تيّاراتٌ سياسيّة، وثارت فِتَنٌ وخُصوماتٌ واكبتها الخطابة، على نحو مميّز، وإن قصرت عن مرتبة التّرسّل في حَلْبة هذا المضمار.

ومن هذه الأحداث الخلاف بين آل عليّ والمنصور على الخلافة، وثورة عمّه عبد الله بن عليّ للسّبب نفسه، ومَقْتل أبي مُسلم الخُرَاسانيّ قائد ثورتهم، ومُشْكلة ولاية العَهْد. وجُلّ هذه الخُطب تضمّنت منهج الخليفة في سياسة الحُكْمِ وتدبيره.

ولعلّ أبرز هذه الأحداث، ما كان من ثورة محمّد بن عبد الله الملقّب بالنَّفْس الزّكيّة (سنة ١٤٥هـ)، وكان خطيبًا فذًّا. وقد رأى آل عليّ أنّ العبّاسيّين اغتصبوا الأمر منهم، ونالوه بشيعتهم وأعوانهم الخُرَاسانيين، وأنّهم أحقّ النّاس بوراثة الرّسول ﷺ، فهم بنو ابنته، وأصحاب السّابقة في الإسلام. وكان المنصور سياسيًّا بارعًا، وخطيبًا ألمعيًّا، فقابلهم الحُجّة بالحُجّة والسّيف بالسّيف. ونمثّل ـ ههنا ـ بخُطْبة المنصور حينما بلغه خروجُ محمّد (النَّفْس الزّكيّة) عليه؛ إذ صَعِدَ المنبر، وأطال السّكوت، ثمّ «افترع الخُطبة، ثمّ قال:

مالي أُكَفْكِفُ عن سَعْدٍ ويشْتمنِي ... ولو شَتَمْتُ بني سَعْدٍ لقد سَكَنُوا؟
جَهْلاً عليَّ وجُبْنًا عن عَدُوِّهمُ ... لبئستِ الخَلّتَانِ: الجَهْلُ والجُبنُ(١٩)

(١٩) هذان البيتان لـــ (قَعْنَب بنُ أُمِّ صاحبٍ) من قصيدة، في مختارات ابن الشجري، ص٨، باختلاف في الرواية والترتيب.

ثمّ جلس، وقال:

فألقيتُ عَنْ رَأسي القِناعَ ولم أَكُنْ لأَكْشِفَهُ إلّا لإحدى العظائمِ

والله لقد عَجَزُوا عن أمرٍ قُمْنا به، فما شَكَروا الكَافي، ولقد مهّدوا فاستوعروا، وغَمَطُوا الحقَّ وغَمَصُوا، فماذا حاولوا؟ أشربُ رَنْقًا على غَصَصٍ، أم أُقِيمُ على ضَيْمٍ ومَضَض؟ والله لا أُكْرِمُ أَحَدًا بإهانةِ نفسي؛ والله لئن لم يقبلوا الحقّ ليطلبُنَّه ثمّ لا يجدونه عندي، والسَّعيد مَنْ وُعِظَ بغيره»[٢٠].

والمنصور في هذه الخُطْبة يُلخّص ما فَصَّلَهُ في غيرها من الخُطب أو ما جاء في رسالته المعروفة إلى النّفس الزّكيّة؛ إذ يُشير من خلال توظيف الأبيات الشّعريّة إلى حِلْمِه على بني عمّه، ومُرَاعاته حقّ الرّحم التي تجمع بينهم، في الوقت الذي يخرجون عليه ويَقْدحون في خلافته ويُزْرون به؛ جهلًا منهم بحقّه عليهم، وجبنًا عن عدوّهم! فقد اغتصب بنو أميّة حقّهم في الخلافة، ولم يتمكّنوا من استرداده، إلى أن جاء العبّاسيّون وانتقموا لهم منهم. إلّا أنّ بني عليٍّ كفروا نعمتهم واستصغروا ما قاموا به، وأنكروا حقّهم في ولاية المسلمين. ولذا يلجأ المنصور إلى أسلوب التّهديد والوعيد بعد أن كشف الحُجّة وأقام البيّنة، (والسّعيد من وُعِظَ بغيره)؛ إشارةً منه إلى ما جرى لبني أميّة، وعمّه عبد الله بن عليّ مُنَافسه على الخلافة، وأبي مُسْلم الخراسانيّ، وغيرهم. وعلى هذه الشّاكلة من الأسلوب القويّ الجَزْل المتين، الذي يترسّم أسلوب الحَجّاج في خُطَبه ويُحاكيه، والذي يُخاطب الفِكْر والوجدان، فيلذّهما معًا، اصطبغت أغلب خُطب مطالع هذا العصر.

وبعد **المنصور** مالت الخطابةُ عامّة إلى الجانب الوعظيّ ذي المضامين الدّينيّة، مع مواكبتها لحوادث العصر؛ ولكنْ على غير ما كان زمن السّفّاح والمنصور، إذ قَلَّ الخارجون

---

(٢٠) تاريخ الأمم والملوك ٩٢/٨. غَمَطَ الحقَّ: أنكره، وهو يعلمه، وغمطَ النّعمةَ: كَفَرَها ولم يشكرها. وغَمَصَ الشيءَ: استحقره واستصغره، وغمصَ النَعمة: لم يشكرها. والرّنْقُ: التراب في الماء من قذًى ونحوه، والماء الكَدِر؛ ورَنَقَ الماءُ رَنْقًا ورُنُوقًا: كَدِرَ.

على الخلافة؛ لشدّة بَطْش العبّاسيّين بهم، وضَعُفَت ـ إلى حدٍّ ما ـ حركات الخوارج، فلم يكن إلّا السّيف والنّار، أو الخنوع والإذعان؛ ولذا ضعفت الخطابة السّياسيّة؛ لأنّها تزدهر حين تُكْفَلُ للنّاس حريّاتهم السّياسيّة.

بيْدَ أنّ ذلك لا يعني عَدَمَ وجود ثورات على العبّاسيّين، إذ ثار غيرُ واحدٍ من آل عليّ، منهم الحسين بن عليّ الذي خرج في زمن الهادي (١٦٩-١٧٠هـ) في الحجاز، وقد أُثِرَ عنه خطبة، قال فيها: «أيّها النّاس! أنا ابن رسول الله، في حَرَمِ رسول الله، وفي مسجد رسول الله، وعلى منبر نبيّ الله، أدعوكم إلى كتاب الله، وسنّة نبيّه ﷺ؛ فإن لم أفِ لكم بذلك، فلا بيعةَ لي في أعناقكم»(٢١). إلّا أنّ أمر هذه الثورة انتهى إلى الفشل الذّريع؛ إذ نُكِبَ أصحابها في معركة (فخّ) قرب مكّة، وكانت فاجعة كبرى للشّيعة؛ حتّى قيل: «لم تكن مُصيبة بعد (كربلاء)، أشدّ وأفجع من (فخّ)».

في عصر الرّشيد:

وفي عصر الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) هاجت العصبيّة في الشّام؛ فأرسل الرّشيد جعفرًا البرمكيّ إليها؛ لإصلاح أحوالها، ففعل، وهدأت حالها، وخَطَبَ جعفرٌ أهلَها خُطبة مشهورة، دعاهم فيها إلى الطّاعة، وحذّرهم مَغَبَّةَ العصيان؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**واعْتَصِمُوا بحبل الله جميعًا ولا تفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣]؛ «فَأَمَرَ بالجماعة في أوّل الآية، ثمّ لم ينقص حتّى نهى فيها عن الفُرقةِ؛ توكيدًا للحُجَّة، وقطعًا للمعذرة (....) ولم يفترق أقوياء قطُّ إلّا ضعفوا حتّى يَخضعوا؛ واجتماع الضعيفين قوّة، وافتراقُ القويّيْن مَهانةٌ تُمَكِّن منهما. غافلُ الجماعةِ لا تضرّه غفلتُه؛ لكثرة مَنْ يحفظه، ومُتيَقِّظُ الفُرْقَةِ لا يَنْفَعُهُ تيَقّظُه؛ لكَثْرَةِ مَنْ يطلبُه. وصاحبُ الجماعة يُدْرك أَرْشَهُ في الخَدْشِ والشَّجَّة، وصاحبُ الفُرْقَةِ يَذْهَبُ حَقُّهُ في النّفس والحُرْمة»(٢٢).

---

(٢١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٢٠١/٨.

(٢٢) الوزراء والكتّاب، لابن عبدوس الجهشياري، ص٢٠٨-٢٠٩. والأَرْشُ: الشَّجَّةُ ونحوها، ودِيَةُ الجراحة.

ثمّ خطب جعفرٌ أيضًا بين يدي الرّشيد، لمّا رجع من الشّام، بعد أن أصلح أحوالها، وتغلّب على العصبيّة فيها. وَخُطَبُهُ تميل ـ كما هو بيّن ـ إلى الجانب الحِكميّ الوعظيّ، ولكنّها في الوقت نفسه، تَشِي بحُسْنِ تَدْبيره السّياسيّ، ومَنْهجه في التّعامل مع المُعْضلات والفتن ونوائب السّياسة وأحَابيلها.

في عهد الأمين والمأمون:

لعلّ الفتنة الكُبرى في هذا العصر، كانت بين الأمين والمأمون؛ إذ أفضت إلى دَمارٍ وهلاك، بعد أن استحرّ الصّراعُ بينهما عنيفًا، فوجدت الخطابة في هذه الفتنة مَرْتعًا خَصِيبًا، وهذا حالها أبدًا؛ إذ تزدهر في فترات التّحوّل الدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، حيث تتعدّد وجهات النّظر، وتختلف الآراء، حتّى قيل: إنّ الخُطبة من الخَطْبِ الجَلل.

وقد أَسْفَرت هذه الفتنةُ عن عددٍ من الخُطَب، منها ما كان قبل استفحال الخلاف بين الأخوَين، حينما أراد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ) استقدام المأمون إليه في بغداد، وكان في مَرْو بخُرَاسان آنذاك، فبعث إليه وَفْدًا، خَطَبَ أعضاؤه بين يدي المأمون؛ محاولين تَرْغيبه وحَثّه على الذّهاب إلى أخيه الأمين، بحجّة مُؤازرتِه ومُكَانَفَتِه في أمور الخلافة؛ إذ «إنّ الخلافةَ ثقيلةٌ، والأعوانَ قليلٌ، ومَنْ يَكِيْدُ هذه الدّولة، وينطوي على غِشّها والمعاندة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير»، «وفي قُدُومك عليه أُنْسٌ عظيم، وصَلاحٌ لدولته وسُلطانه. فأَجِبْ أيُّها الأمير دعوةَ أخيك وآثر طاعته، وأَعِنْه على ما استعانك عليه في أمره؛ فإنَّ في ذلك قضاءَ الحقّ وصِلَةَ الرّحم، وصلاحَ الدّولة، وعِزَّ الخلافة»(٢٣).

وحينما آثرَ المأمونُ المكوث في ولايته، ووصل الصّراع بين الأخوَين إلى الذّروة والأَوْج، ألفينا خُطبًا في التّحريض أو الخَلْع أو النُّصْرة. ولمّا أدرك الأمين سُوءَ المآل، وفَداحة العاقبة، واستيقن بوادر الهزيمة، وضاقت عليه الأرضُ بما رَحُبَت؛ عَزَمَ على تسليم

(٢٣) المصدر نفسه ٤٠١/٨.

نفسه، وخَطَبَ في أنصاره، ذاكرًا «نوائب الزّمان، وخِذْلان الأعوان، وتشتّت الرّجال، وذهاب الأموال، وحُلُول النّوائب، وتوقّد المصائب».

وكان أن دخلت جيوش المأمون بغداد، فخطب قائدُه طاهر بن الحسين، فَعَزَا نصرتهم على الأمين إلى إرادة الله واختياره: «إنّ ظهورَ غَلَبتنا لم يكن من أيدينا ولا كَيْدنا، بل اختار الله للخلافة؛ إذ جعلها عِمادًا لِدينه وقِوامًا لعباده، وضَبْط الأطراف، وسَدّ الثّغور، وإعداد العُدّة،...». ودعا النّاس إلى الطّاعة، وسُلوك سبيل الجماعة، «فتمسّكوا بوثائق عِصَمِ الطّاعة، واسْلُكوا مَنَاحي سبيلِ الجماعة، واحذَرُوا مصارعَ أهلِ الخلاف والمعصية، الذين قَدَحُوا زِنَادَ الفِتنة، وصَدَعُوا شَعْبَ الأُلْفَةِ، فَأَعْقَبَهُم الله خَسَار الدّنيا والآخرة»(٢٤).

ومنذ أن غَلَبَ المأمون الأمين، وبويع بالخلافة (١٩٨-٢١٨هـ)، نجد أنّ الخطابة السّياسيّة قد ضَؤل شأنُها على ألسنة الخلفاء، وغير الخلفاء، وقارب نجمُها على الأفول؛ فثمّة خُطَبٌ للمأمون يغلب على جلّها الطّابع الوعظيّ، إذ قيلت في مناسبات دينيّة كيوم الجمعة وعيدي الفطر والأضحى. وله خطبةٌ يبيّن فيها سياسته تجاه الرّعية، لمّا سلّم عليه النّاس بالخلافة.

وكان المأمون خَطيبًا مِصْقَعًا مَعْروفًا «بالبلاغة والجَهَارة، وبالحلاوة والفَخَامة، وجَوْدة اللّهجة والطّلاوة». وما رُوي له من خُطَبٍ وغيرها يؤكّد ذلك. إلّا أنّ للخطابة السّياسيّة بيئةً خاصّة، لا بدَّ منها لكي يُكْفَل لها النّماء والازدهار، إضافةً إلى ما جَدّ في عَصْر المأمون وما قبل عَصْره من ظروف ومؤثّرات اجتماعيّة وثقافيّة، فَضْلاً عن الظُّرُوف السّياسيّة، وكلّها أسهمت في ازدهار فنون أخرى، خلا الخطابة.

وقد كان لخروج بعضِ آل عليّ ﵁ على المأمون أَثَرٌ بيّنٌ في بثّ الحياة في أَعْطَافها؛ إذ خرج محمّد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا العلويّ (سنة ١٩٩هـ) في الكوفة، فخلّفت

(٢٤) نفسه ٨/٤٩٤-٤٩٥.

ثورتُه بِضْعَ خُطَبٍ حماسيّة، تحرّض على الخروج على الخليفة، وتدعو إلى الصّبر والثّبات، مُبيّنة في الوقت نفسه مُسوّغات هذا الخروج؛ من حيثُ عقيدتهم ومَذْهبهم في الدِّين والسّياسة وما إلى ذلك، نحو خُطْبة أبي السَّرايا السَّرِيّ بن منصور داعية ابن طباطبا؛ فقد خرج فقصد قبرَ الحُسين ﵁، وطاف به مع فُرسانه، وخَطَبَ النّاس هناك خُطبةً طويلة، ذَكَرَ فيها فَضْلَ آل البيت، وذَكَرَ الحُسين بن عليّ رضي الله عنهما، فقال: «أيّها النّاس! هَبْكُم لم تحضروا الحُسين فتنصروه، فما يُقْعِدُكم عمّن أدركتموه ولحقتموه؟ وهو غدًا خارجٌ طالبٌ بثأره، وحقّه، وتراث آبائه، وإقامة دين الله. وما يمنعكم من نَصْره ومُؤازرته؟ إنّي خارجٌ من وجهي هذا إلى الكوفة؛ للقيام بأمر الله، والذّبّ عن دِينه، والنّصر لأهل بيته، فمَنْ كان له نيّة في ذلك فليَلْحَق بي»؟[٢٥].

فإذا وصلنا إلى **عَصْرِ المُعتصم، ومن بعده الواثق،** لم نعثر على خُطَبٍ سياسيّة، يمكن الوقوف عليها، فيما بين أيدينا من مصادر. ويمكن القول إنّ الخطابة السّياسيّة نشطت وازدهرت في مطالع العصر العبّاسيّ الأوّل، ولا سيّما على ألسنة العبّاسيّين أنفسهم، كالسّفّاح والمنصور وأعمامهما داود وعبد الله وصالح وغيرهم؛ أي عند قادة الثّورة وزعمائها، وذلك لوظيفة الخطابة في تبيان النّظريّة السّياسيّة للسّلطة الحاكمة، وتوطيد أركان الحُكْم، والرّدّ على المعارضة، وتوضيح كيفيّة إدارة الدّولة وشؤونها المختلفة. وبكلمة أخرى: أولى العبّاسيّون الأوائل اهتمامًا بالغًا بالخطابة؛ لارتباطها الوثيق بالخطابين الدّينيّ والسّياسيّ، اللازمين لسياسة العباد والبلاد.

ثمّ غلبت الخطابة الدّينيّة، ذات الطّابع الوعظيّ على الخطابة في أواخر هذا العصر، ولم تعد للخطابة السّياسيّة قوّتها القديمة في العصر الأمويّ، وما كانت تمتاز به من روعة وفتنة، فقد حلّت الكتابةُ محلّها، فكان للرّسائل والعُهود دورها البارز في الأحداث السّياسيّة، والتّعبير عنها.

---

(٢٥) مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، ص٥٢٢-٥٢٣.

٣ـ من سمات الأسلوب:

لعلّ الاحتفاء بالتّضمين والاقتباس من أهمّ السّمات الأسلوبيّة للخطابة السّياسيّة؛ إذ احتفت الخطابة السّياسيّة حفاوة بالغة بالاقتباس من القرآن الكريم وتضمين آياته البيّنات، بخلاف الخطابة السّياسيّة لبني أميّة، إذ غلب عليها ـ كما يذكر أحمد الحوفي ـ الاستشهاد بالشّعر(٢٦). وعِلَّة هذا الأمر ـ فيما أحسب ـ أنّ الخلفاء العبّاسيّين كانوا يَرَون أنفسهم قادة للدّين والدّولة، بينما ظلّ بنو أميّة يشعرون في قرارة نفوسهم بأنّهم نازعوا هذا الأمر أهلَه، دون وَجْهٍ شَرعيٍّ أو حَقٍّ مُبين.

وتتجلّى وظائف الاقتباس المعرفيّة والفنّيّة، في توافق المعاني المُسْتَلهمة مع ما يُريد الخطباء التّعبير عنه تعبيرًا صادقًا، وفي إثارة انتباه سَامعيهم، أو للاستدلال والبَرْهنة على صِحّة فِكْرةٍ ما، أو رَأي مُعَيّن، أو محاولة لإظهار المعرفة، وسَعَة الاطّلاع والثّقافة. وتصبح النّصوص المُضمّنة أو المُقتبسة جزءًا أساسيًّا في بِنية الخُطبة، ومُكوّنًا رئيسًا من مكوّنات نسيجها اللّغويّ، وليس أسلوبًا تزيينيًّا زُخرفيًّا فحسب.

إنّ التّضمينَ أو الاقتباسَ عَقْدٌ لصِلةٍ وثيقةٍ بين القديم والحديث ضمن النّصّ الواحد، وإجلالٌ للذاكرة الثّقافيّة وإحياءٌ لها أيضًا، ومَجْلى من مجالي النّزعة العقليّة، وطرائق التّفكير والتّعبير، في ميدان الاحتجاج النّقلي خاصّة. وتظلّ وظيفةُ التّضمينِ والاقتباس وغايتُه رَهينةً بالسّياق الذي وَرَدَ فيه. ولأهميّة هذه الظّاهرة أو السّمة الأسلوبيّة؛ أشاد البلاغيّون بقيمتها، وعدّوها رُكْنًا من أركان صناعة البلاغة، ولذا اشترطوا في باب ثقافة الكُتّاب أيضًا، أن يكون الكاتب حافظًا لكتاب الله، عالمًا بسُنَّة رسوله ﷺ، آخذًا من كلّ عِلْمٍ بطَرَف. يقول ابنُ الأثير مُبيّنًا الغاية من الاقتباس من القرآن الكريم: «إذا ضُمِّنت الآياتُ في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها؛ فلا شُبْهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة

---

(٢٦) أدب السياسة في العصـــر الأموي، ص٣٣٦.

والرَّونق»، وكذلك «فإنّ الآية الواحدة تقوم في بُلوغِ الغَرَض، وتوفيةِ المقاصد، ما لا تقوم به الكتبُ المُطوّلة، والأدلّة القاطعة»(٢٧).

وتحفِلُ خُطَبُ عصرنا السّياسيّة بآيِ الكتاب المُبين، معنىً ولفظًا، وقلّما نجد خطبة تخلو منه. وقد كانوا يُسَمُّون الخُطبة التي لا تُوشّح بالقرآن (شَوْهاء). قال الجاحظ: «وكانوا يَسْتحسنون أن يكون في الخُطَبِ يومَ الحَفْلِ، وفي الكلام يوم الجَمْعِ آيٌ من القرآن؛ فإنّ ذلك ممّا يُورث الكلام البهاءَ والوَقَار والرّقّة وسَلَس الموقِع»(٢٨).

ويمكن أن نمثّل على استلهام القرآن الكريم، في الخطب السّياسيّة، بخُطبةٍ للمنصور، نتبيّن من خلالها، كيفية الإفادة من القرآن الكريم، بعد أن خالط البيانُ الإلهيّ شَغَاف القُلوب، وسرى مَسْرى الدّم من العُروق، وهي تجري على هذا النّحو: «﴿ **ولَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُور من بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحونَ** ﴾(٢٩). أَمْرٌ مُبْرَمٌ، وقَوْلٌ عَدْلٌ، وقَضَاءٌ فَصْل، والحمدُ لله الذي أَفْلَجَ حُجَّتَه(٣٠)، و﴿ **بُعْدًا للقومِ الظّالمين** ﴾(٣١)، الذين اتّخذوا الكعبة غَرَضًا(٣٢) والفَيء إرْثًا، و﴿ **جَعَلوا القرآنَ عِضِيْن** ﴾(٣٣)، لقد ﴿ **حَاقَ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئُون** ﴾(٣٤)، فكمْ ترى من ﴿ **بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وقَصْرٍ مَشِيْد** ﴾(٣٥). أمهلهم اللهُ حتّى

---

(٢٧) انظر: صبح الأعشى ٢٣١/١.

(٢٨) البيان التبيين ١١٨/١.

(٢٩) الأنبياء: ١٠٥/٢١.

(٣٠) أفلج حُجَّته: أظهرها وأثبتها.

(٣١) سورة هود: ٤٤/١١. والمؤمنون: ٤١/٢٣.

(٣٢) الغَرَضَ: الهدف الذي يُرمى إليه، والبُغية والحاجة والقصد. ولعلّه يشير إلى ما قيل من ضرب الكعبة بالمنجنيق أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٤ للهجرة، في حصار عبد الله بن الزبير. ثم سنة ٧٣ للهجرة، أيام عبد الملك بن مروان، في حصار الحجّاج لابن الزبير أيضًا. انظر: الكامل في التاريخ ٢٢١/٣-٢٢٢ (حوادث سنة ٦٤)، و٣٩٨/٣-٤٠٧ (حوادث سنة ٧٣).

(٣٣) في القرآن الكريم: ﴿كما أنزلْنَا على المُقْتَسِمِيْنَ ۞ الذين جَعَلوا القرآنَ عِضِيْن﴾ [الحجر: ٩٠/١٥-٩١] عِضِيْن: أجزاء وأعضاء، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. والعِضَةُ: الفِرْقَةُ، والقطْعَة، والجمع عِضُون.

(٣٤) انظر: سورة هود:٨/١١. والنّحل: ٣٤/١٦. والزّمر: ٤٨/٣٩. وغافر: ٨٣/٤٠. والجاثية: ٣٣/٤٥. والأحقاف: ٢٦/٤٦.

بدّلوا السُّنَّةَ، واضطهدوا العِتْرَةَ، وعَنَدُوا، واعتَدَوْا، واستكبروا، ﴿**وخَابَ كلُّ جَبَّارٍ عَنِيد**﴾(٣٦)، ثمّ أخذهم الله فـ﴿**هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ، أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾(٣٧)»(٣٨).

ومن البيّن أنّ هذه الخُطبة قرآنٌ كريم في مُعظمها؛ فما وضعتُه بين قوسين مزهّرين آيات من كتاب الله ـ سبحانه ـ أو بعض من آياته البيّنات. وإذا وضعنا في الحُسْبان، أنّ الخُطبةَ نَصٌّ شِفَاهيّ إبداعيّ، يتحقّق من خلال الأداء الشّفاهيّ الحيّ، أدركنا بلاغة النّصّ الخطابيّ وجماليّته، على نحو أجلى وأوضح؛ إذ تقترنُ الألفاظُ بسِماتها الصّوتيّة المُميّزة، من نَبْرٍ ووَقْفٍ وتَنْغيمٍ إيقاعيّ، يتراوحُ في مُسْتواه، بين الهدوء والقوّة والضّعف والشّدّة، بالاتّساق مع حركاتِ الجسد وإيماءاتِ الوجه، ولغةِ الإشارة، وما إلى ذلك من سِمات فَارقة، يمكن أن تُعين المرء على فَهْم الخطاب النّثريّ عامّة وتذوّقه. فللموقف المُصاحب للنّصّ الشّفاهيّ، الذي هو صِنْو السّياق في النّصّ الكتابيّ، دورٌ كبير في تدبّر النّصّ التّدبّر الأكمل، ومن ثَمّ تذوّقه التّذوّق الأمثل.

وقد راوح المنصورُ في خُطبته هذه، بين كلامه وما جاء في كتاب الله العزيز، دون نُبوٍّ ولا شُذوذ؛ بل إنّ كلامَه نفسَه استيحاءٌ لمفردات القرآن الكريم وعباراته، كما أنّ الآيات المقتبسة أضحت جزءًا عُضويًّا في بِنية الخُطبة ونَسِيجها اللّغويّ، وليست مجرّد أداة زخرفيّة خارجيّة. فَضْلاً عن أنّ الاقتباس، على هذا النّحو، ناسبَ تدفّق النّصّ الخطابيّ عند الخطيب، وعبّر أيّما تعبير عن مَكْنونات نفسه، وما يجولُ في صَدْره.

---

(٣٥) في التنــزيل العزيز: ﴿فكَأَيِّن من قَرْيَةٍ أَهْلكناها وهي ظالمةٌ، فهي خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وقَصْرٍ مَشِيْد﴾ [الحج: ٤٥/٢٢]. مُعَطَّلَة: متروكة على هيئتها.

(٣٦) في التنــزيل العزيز: ﴿واستفتحوا وخَابَ كلُّ جَبَّارٍ عَنِيد﴾ [إبراهيم: ١٥/١٤].

(٣٧) سورة مريم: ٩٨/١٩. والرِّكْزُ: الصوت الخَفِيّ، جمعه: رُكُوزٌ، وأَركاز.

(٣٨) تاريخ الطبري ٩١/٨–٩٢. والكامل في التاريخ ٢٠٣/٥. ونسب صاحبُ العِقد الخُطبة إلى سليمان بن علي، انظر: العقد الفريد ٩٦/٤–٩٧. وكذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٦٨٠/٢.

ويتساءل المرء عن عِلّة لجوء المنصور خاصّة، وخطباء بني العبّاس عامّة إلى الأسلوب القرآنيّ، بصورة واضحة، بالغة التّأثير؟ المظنون أنّ ذلك يعودُ إلى الإعجاز الأسلوبيّ للقرآن الكريم، وقدرته على التّأثير في القلب والعقل والوجدان، إضافة إلى رغبة المنصور المقنّعة والسّافرة، في الوقت نفسه، التي تتلخّص في محاولة تأكيد سلطته الدّينيّة والدّنيويّة معًا، من خلال إضفاء صِبْغة دينيّة واضحة على كلامه؛ إذ هو من مَعْدن بيت النّبوّة، وأهل الرّسالة؛ فهم قادة الأمّة في دنياهم، وهُداتهم إلى معرفة ربّهم.

وعلى النّقيض يعمد بوساطة آيات القرآن الكريم، إلى التّهويل من مظالم الأمويين، وتصويرهم بصُورة الأمم التي طَغَتْ وعَتَتْ عن أمْرِ رَبّها، فأخذها الله أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدر، فـ﴿**هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ، أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾؟ أضف إلى ذلك أنّ تصدير الخطبة بآية قرآنيّة، ليس من قبيل براعة الاستهلال، أو حُسْن الافتتاح فحسب؛ بل إنّ الآية، فضلاً عن مُنَاسبتها لموضوع الخطبة، لَتُوحي إيحاءً مُكثّفًا بمحاولة إضْفَاء غِلالة الشّرعيّة الدّينيّة على خلافتهم، ﴿ ...**أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحونَ**﴾. فالاقتباس ـ ههنا ـ نَقْلٌ للمعاني الدّينيّة من سياقها الذي وردت فيه، إلى سياقٍ يُريده الخطيب، فالعِبْرة بعُموم اللّفظ، لا بخصوص السّبب، كما يقول علماء أصول الفقه.

وقد ضُمِّنَتِ الخطب آيات قرآنيّة، لتصوير الأحداث أو الشّخصيات، أو تمثيل حالٍ من الأحوال، كقول السّفّاح في خُطبته في أهل الشّام: «﴿ **ألمْ تَرَ إلى الذين بَدَّلُوا نعْمَةَ الله كُفْرًا، وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ القَرَار**﴾[٣٩] نَكَصَ بكم يا أهل الشَّامِ آلُ حَرْبٍ وآلُ مروان يَتَسَكّعون بكم الظُّلَم، ويتهوّرون بكم مَدَاحِضَ الزَّلَقِ، يطؤون بكم حُرَمَ الله، وحُرَمَ رسوله. ماذا يقول زعماؤكم غدًا؟ يقولون: ﴿ **رَبَّنَا هؤلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ**

---

(٣٩) سورة إبراهيم: ١٤/٢٨-٢٩.

عَذَابًا ضِعْفًا مِن النَّار﴾؛ إذن، يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿لكُلٍّ ضِعْفٌ ولكنْ لا تَعْلَمون﴾(٤٠)»(٤١).

ولعلّ براعة الاستهلال في اقتباس الآية الأولى، لا يخفى على ذي نظر. أمّا تضمين الآية في العبارات الأخيرة، فبراعة في التّضمين والتّأويل معًا؛ إذ إنّ نصّ ما استمدّه من الآية في كتاب الله العزيز، لا يجري على هذا النّحو، فقد حوّره، ليعبّر به عمّا يعتمل في صدره، ويجوس في خاطره، بصورة تجعله رُكْنًا رَكينًا في بناء خُطبته، بحيث يناسب تدفّق كلامه، وإن اختلف إطار استعماله للآية عن الإطار الذي وردت فيه أصلاً.

ومن سمات الأسلوب أيضًا، **الاحتفاء بالتّصوير البيانيّ**، ولا غَرْوَ في ذلك، فالتّصوير من أَنجع السّبل لإثارة العاطفة، واستمالة المتلقّي، والتّعبير عن المعنى الذّهنيّ المجرّد تعبيرًا خاصًّا ومُؤثرًا؛ يثير انتباه المخاطَب ويقظته، فيتفاعل مع النّصّ تفاعلاً كلّيًّا لإدراك المعنى المقصود، من خلال محاولة تأمّل علاقات المشابهة أو التّناسب التي بنيت عليها الصّورة الفنّيّة؛ ومِنْ ثمّ تُثار انفعالات المخاطَب، ويَسْتَشعر المتعة الذّهنية، التي يبتغي تحقيقها المُبْدع؛ فضلاً عن إيصال المعنى المُراد، والتّفاعل معه.

ومن الصّور الفنّيّة المميّزة، في خُطَبِ عصرنا، ما قاله داود بن عليّ العبّاسيّ، عم الخليفة السّفّاح، في أول خُطْبةٍ له، حينما بُويع السّفّاح بالخلافة في الكوفة ـ وقد سبق أنْ وقفنا عليها ـ حيث قال داود: «الحمدُ لله، شُكرًا شُكرًا شُكرًا، الذي أَهْلَكَ عدوّنا، وأَصَار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمّد ﷺ. أيُّها النّاس: الآنَ أَقْشَعْتَ حَنادِسَ الدّنيا(٤٢) وانكشف غِطَاؤها،

(٤٠) في القرآن الكريم: ﴿... كلّما دخلت أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُختَها حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعًا، قالت أُخرَاهُمْ لأُولاهُم ربَّنا هؤلاء أضَلّونا فآتِهم عذابًا ضِعْفًا من النّار، قال لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكنْ لا تَعْلَمون﴾ [الأعراف: ٣٨/٧].

(٤١) العقد الفريد ٤/٩٤-٩٥.

(٤٢) أَقْشَعْت: أَقْشَعَ السَّحَابُ: زال وأقلع. والقومُ: تفرّقوا، وأقشعت الريحُ الغيمَ: كشفته، وقَشَعَ النّورُ الظلامَ و أَقْشَعَهُ: أزاله. والحَنَادِسُ؛ جمع: حِنْدِس؛ أي الظُّلمة.

وأشرقت أرضُها وسماؤها، وطَلَعَت الشّمسُ من مَطْلَعِها، وبَزَغَ القمرُ مَن مَبْزَغِه، وأَخَذَ القَوْسَ بَاريهَا[٤٣]، وعاد السَّهْمُ إلى مَنْزَعِهِ[٤٤]، ورَجَعَ الحقُّ إلى نِصَابِه[٤٥]، في أَهْلِ بيتِ نبيِّكم، أَهْلِ الرّأفةِ والرّحمة بكم، والعطف عليكم»[٤٦].

ومن البيّن أنّ هذه الصّور الفنيّة، تمتلك دلالة إيحائيّة وجماليّة مميّزة؛ إذ عبّرت تعبيرًا حسيًّا دقيقًا عن المعنى المقصود، وأشركت المتلقّي في التّجربة الشّعوريّة، من خلال إثارة وجدانه، وتحريك عاطفته، ومِن ثمّ إقناعه واستمالته. فالصّورةُ ـ ههنا ـ طريقةٌ في الإقناع، وليست زخرفة وزينة فحسب. وهذا غاية ما يصبو إليه الخطيب، في مَعْرِض إثباتِ شرعيّة خلافتهم، وأحقيّتهم بها، دون سائر النّاس. وعلى النّقيض يرسم صورةً مُظلمة مُدْلهمّة لحال الدّنيا، أيّام خلافة الأمويين؛ قَصْدًا إلى تَشْويه صُورتهم، وإثبات ابتزازهم الحقّ دون أهله. ولا يمكن ههنا ـ بأيِّ حالٍ من الأحوال ـ تحقيق الانفعال والتّواصل مع النّصّ بالتّعبير المباشر، والتّأثير في الآخر (المتلقّي). ومن هنا تتبدّى أدبيّة النّصّ النّثريّ وجماليّته.

٤ـ بِنية الخُطبة العبّاسيّة:

عُني النّقّاد والبلاغيّون العرب بالخطابة والخطباء عناية واسعة، كما حفلت المصادر التّاريخيّة والأدبيّة بنصوصٍ عديدة من الخُطب، وكان بعضها يُحفظ وتتوارثه الأجيال؛ لروعة بَيانها وحُسْن بلاغتها وفصاحتها، وكان لها أسماء خاصّة اشتهرت بها، يقول الجاحظ: و«من خطب العرب (العجوز)، وهي خُطْبة لآل رَقبة، ومتى تكلّموا فلا بدّ لهم منها، أو من بعضها. و (العذراء)؛ وهي خُطبة قيس بن خارجة؛ لأنّه كان أبا عُذْرها. و (الشّوهاء)؛ وهي

---

(٤٣) في المَثَلِ: (أَعْطِ القوسَ باريها). أي استعن على عملك بأهل المعرفة والحِذْق فيه. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٣٩٩/٢.

(٤٤) المَنْزَعُ: المكان الذي يُنـــزع منه، وجمعه: منازِع. وفي المَثَلِ: (عاد السَّهْمُ إلى النَّزَعَةِ)؛ أي رجع الحقّ إلى أهله، والنَّزَعَــةُ: الرُّماة، جمع: نازِع. انظر: مجمع الأمثال ٣٩٩/٢، والقاموس المحيط، مادة: نَزَعَ.

(٤٥) النِّصَابُ: الأصل والمرجع.

(٤٦) تاريخ الطبري ٤٢٦/٧.

خطبة سَحْبان وائل، وقيل لها ذلك من حُسْنها، وذلك أنّه خَطَبَ بها عند معاوية، فلم يُنْشِد شاعرٌ، ولم يَخْطُبْ خطيب»[٤٧].

ولعلّ كتابَ (البيان والتّبيين)، لأديب العربيّة الجاحظ، أجلّ كتابٍ احتفى بفَنّ الخَطابة وتقاليده؛ إذ عرضَ لهيئةِ الخطيب وسَمْته، وجلالِ الحضور، وجمال الهَيبة، وسُرْعة البَديهة، ومَوهبة الارتجال، وصِدْق العاطفة، وضرورة البعد عن التّكلّف والتّشادق والمُعاظلة، كما عرض لزِيّ الخطيب وحَرَكاته وإشاراته والأدوات المساعدة على البيان والتّعبير؛ كالمخَاصر والعِصيّ والسّيوف، وجَهَارة الصّوت، وخُلوّه من عيوب الحَصَرِ والعِيِّ، وسلامة مخارج الحروف، كالنّبر والتّصويت والتّنغيم، وطرق الأداء الخطابيّ أو الإلقاء، ومُراعاة مُقتضى الحال، وثقافة الخطيب، وبعض الصّفات الفارقة بين الخطباء، في محاولةٍ لتصنيفهم في طبقات، فثمّة خطيبٌ مِصْقَع، ولَسِن، ولَوذعي، ومُفوّه، إلخ.

وتابع كثيرٌ من النّقّادِ والبلاغيين الجاحظَ في عنايته بفنّ الخطابة، فكان لهم إسهاماتٌ مُتميّزة في هذا الميدان، ضمن مؤلّفاتهم في نقد النّثر، أو ما تناثر في بطون المصادر التّاريخيّة والأدبيّة.

وقد قسّم القدماء، وتبعهم المُحدثون، بِنية الخُطبة هيكليًّا أو (مورفولوجيًّا)، على ثلاثة أجزاء، وهي: المقدّمة، والعَرض، والخاتمة. وكان أرسطوطاليس قسمها على أربعة أجزاء، وهي: المقدّمة، والعَرض، والتّدليل، والخاتمة، وزاد بعضهم على هذه الأقسام: التّفنيد. والحقّ أنّ البنية الثّلاثيّة للخُطبة أكثر مُلاءمةً ومَنْطقية؛ لأنّ التّدليل والتّفنيد، يُشكّلان ـ في أغلب الأحيان ـ بِنية العَرض نفسه، أو لنقل: هما من أساسيّات العَرض وشروطه اللازمة؛ ليحقّق عنصر الإقناع العقليّ على نحو الخصوص، بله الإمتاع الوجدانيّ.

---

(٤٧) البيان والتبيين ٣٤٨/١.

أ- المقدّمة:

وهي كالمَطْلعِ من القصيدة، وبها تكمنُ بَرَاعةُ الاستهلال، وتأتي أهمّيّتها من كونها تُنَبِّه السّامعين، وتهيّئ أذهانهم لما بعدها، فهي أوّل ما يَطْرق الأسماع، وينقل المتلقّي من حالة اللامبالاة ـ إن جاز التّعبير ـ إلى حالة التّدبّر وإرهاف السّمْع؛ لذا نبّه النّقّاد على حُسْن اختيارها، والتّروّي في تَحْبيرها وتَجْويدها؛ إذ ذكر ابنُ الأثير (ت ٦٣٧هـ) أنّ الافتتاحَ قد خُصّ بالاختيار؛ لأنّه أوّل ما يطرق السّمع من الكلام، ويجب أن يُراعى فيه سهولة اللّفظ، وصحّة السّبك، ووضوح المعنى، وتجنّب الحَشو. وينبغي أن يكون الافتتاح مُرتبطًا مع الخطبة ببراعة الاستهلال؛ فإنّ براعةَ الاستهلال من أخصّ أسباب النّجاح في الخطبة(٤٨).

وكان القدماء اشترطوا أن تُسْتَهلَّ الخُطبة بحَمْد الله وتَمْجيده والثّناء عليه، وتُزَيَّن بالصّلاة على الرّسول الكريم ﷺ، مع ضرورة توشيحها بآيات قرآنية، يقول الجاحظ: «وعلى أنّ خطباء السَّلَف الطيّب، وأهل البيان من التّابعين بإحسان، مازالوا يُسَمّون الخطبة التي لم تُبْتدأ، بالتّحميد، وتُستفتح بالتّمجيد (البتراء). ويُسَمُّون التي لم توشّح بالقرآن، وتُزَيَّن بالصّلاة على النّبيّ ﷺ (الشّوهاء)»(٤٩).

كما يُسْتحبّ أن تكون وثيقةَ الصّلة بالعَرض أو الموضوع، وفي ذلك يقول ابن المقفّع (ت ١٤٢هـ) في سياق جوابه عمّن سأله عن البلاغة: «وليكن في صَدْر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنّ خيرَ أبياتِ الشّعر البيتُ الذي إذا سمعتَ صَدْرَه عرفتَ قافيته». وعلّق الجاحظ على قوله: «وكأنّه يقول: فَرِّق بين صَدْر خُطبة النّكاح، وبين صَدْر خطبة العيد، وخطبة الصُّلْح، وخطبة التّواهُب، حتّى يكون لكلِّ فنٍّ من ذلك صَدْرٌ يدلُّ على عَجُزه؛ فإنّه

---

(٤٨) انظر: المثل السائر ٩٨/٣ وما بعدها.

(٤٩) البيان والتبيين ٦/٢.

لا خير في كلامٍ لا يدلّ على مَعناك، ولا يشير إلى مَغْزَاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نَزَعت»[٥٠].

ويُسْتحبّ أيضًا أن تناسب المقدّمة الخُطبة طُولاً وقِصَرًا؛ لأنّها إنْ طالت صرفت انتباه السّامعين، واستنفدت جهْدَ الخطيب، وإن قصرت لم تستكمل شروط جَودتها وحُسْنها، التي ذكرها النّقّاد والبلاغيّون.

بيد أنّ الخروجَ على هذه السّنن والآداب الخطابيّة، لا يعني خَلَلًا في بنية الخُطبة، أو علّة قَدْح بحُسْنها وبلاغتها؛ إذ عادةً ما يكون الخروجُ على هذا النّهج مُسَوَّغًا لسببٍ ما، يُنبئ عنه الموقفُ النّفسيّ للخطيب، وموضوعُ الخطبة، وطبيعةُ المتلقّين. وأحيانًا يكون مُسْتحبًّا؛ إذا تَوافقَ ومُقتضى الحال، كما في الاستهلال ببيتٍ من الشّعر، أو قولٍ مأثور، أو حكمةٍ سائرة، أو آية قرآنيّة، تتّفق وموضوع الخُطبة.

والتّقديمُ على هذا النّحو، عادةً ما يكون في خُطب الوعيد والتّهديد، وهو مَنْهج دَرَج عليه كثيرٌ من الخطباء، وكان لخُطَبهم تلك النّصيب الأوفى من الذّيوع والانتشار، كما في خُطبة الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ بالكوفة، في العصر الأمويّ؛ إذ استهلّها بأبياتٍ من الشّعر الغريب؛ ليقدّم نفسَه بصُورة تثيرُ الهَلَعَ والذّعر في نُفوس أهل العراق.

وعلى هذا النّحو جرت الخطبُ السّياسيّة في هذا العصر؛ إذ نجدُ بعضًا منها يبدأ بحَمْد الله والثّناء عليه وتمجيده، والصّلاة على النّبيّ محمّد وآله، بما يوحي بمضمون الخطبة أو موضوعها، كما في خطبة السّفّاح في الكوفة؛ حيث استهلّها بقوله: «الحمدُ لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرّمه وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، وأيّده بنا، وجعلنا أهله وكَهْفه وحِصْنه، والقُوَّامَ به، والذّابّين عنه، والنّاصرين له، وأَلْزَمَنَا كلمة التّقوى، وجعلنا أحقّ بها وأصلها، وخصّنا بِرَحِمِ رسولِ الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه،...».

---

(٥٠) البيان والتبيين ١/١١٦.

وتارةً تبدأ الخطبة بالوعيد والتّهديد لإرهاب السّامعين، والإيحاء بغَضَب الخطيب عليهم، فيبدو الأسلوب مُتوهّجًا عنيفًا، ويطغى على سائر الخُطبة غالبًا، إلّا في أحيان قليلة، يميل الخطيبُ فيها إلى المُوادعة ـ إن صحّ التّعبير ـ في خِتَام الخُطبة، فيلين أسلوبُه ويسهل. وهذه الخُطب تُذكّرنا ببعض الخُطب العنيفة في العصر الأمويّ؛ كما في خُطبة صالح بن عليّ العبّاسيّ، عمّ السّفّاح؛ إذ يقول: «يا أعضَادَ النّفاق، وعَمَدَ الضّلالة، أغرّكم لينُ إبْسَاسي، وطُولُ إيناسي؟ حتّى ظنّ جاهِلُكم أنّ ذلك لفُلُولِ حَدّ، وفُتُور جِدٍّ، وخَوَرِ قَنَاة، كذبتِ الظّنون»(٥١). وكخطبة أبي السّرايا، داعية ابن طباطبا العلويّ، الذي خرج على الخلافة، ثمّ تخلّى عنه أهلُ الكوفة، فخطبَ فيهم، بلَهْجة حادّة، وأسلوب مُلْتهب، يذكّرنا بخُطب الإمام عليّ ﷺ فيهم، قائلاً: «يا أهلَ الكوفة، يا قَتَلَةَ عليٍّ، ويا خَذَلَـةَ الحُسين! إنّ المُغْترَّ بكم لَمغرور، وإنّ المُعتمدَ على نَصْرِكم لمَخذول، وإنّ الذّليل لمن أعززتموه»(٥٢).

وتارةً أخرى تبدأ الخُطبة ببيتٍ شعريّ، أو آية قرآنيّة، كقول السّفّاح، في أهل الشّام، لمّا قُتِل مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة: «﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدّلوا نِعْمَةَ الله كُفْرًا وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ البَوَار ۝ جَهَنَّم يَصْلَوْنَهَا وبِئْسَ القَرَار** ﴾. نَكَصَ بكم يا أهلَ الشّام آلُ حَرْبٍ وآلُ مَروان، يَتَسَكّعون بكم الظُلَمَ، ويَتَهَوَّرون بكم مَدَاحِض الزَّلَق،...»(٥٣).

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ بعضَ الخُطَب وَرَدَ دون مقدّمات، والرّاجحُ أنّها لم تدوّن، أو ربّما أغفلَ النسّاخُ ذكرها، أو لم تُحفظ حين إلقائها، أو حُفِظت ولم تُذكر؛ لكونها تقليديّة ممّا أَلِفَتْهُ الأسماع، خاصّةً التي تُسْتَهَلّ منها بالحمدلة والصّلاة على الرّسول الكريم ﷺ؛ إذ كثيرًا ما تتكرّر بصِيغٍ مُتقاربة في المعاني والألفاظ. وآية ذلك كلّه أنّ المصادر التّاريخيّة والأدبيّة، التي رَوَت الخُطب، تذكر في أحيانٍ كثيرة، أنّ الخطيبَ قال بعد أن حَمِدَ الله، وأثنى عليه،

---

(٥١) العقد الفريد، ٩٧/٤. والإبساس: دعوة النّاقة إلى الحلب بلطف ورفق، لتدرّ اللبن.

(٥٢) مقاتل الطالبيين، ص٥٤٥.

(٥٣) العقد الفريد ٩٤/٤-٩٥. والآيات: ٢٨-٢٩ من سورة إبراهيم (١٤). يتسكّعون: يمشون مشيًا متعسّفًا، وضلّ وتحيّر، وتمادى في الباطل والضّلال. ومداحض: جمع مَدْحَضَة؛ وهي المَزْلقة.

وصلّى على نبيّه الكريم وآله: (كذا). روى الطّبريّ أنّ المنصور «صَعِدَ المنبر، فقال ـ بعد أن حَمِدَ الله، وأثنى عليه، وصلّى على النّبيّ ﷺ ـ يا أهل خُراسان؛ أنتم شيعتنا وأنصارنا، وأهل دولتنا،...»(٥٤).

والرّاجح ـ كما أظنّ ـ أنّ الخُطَبَ التي قُلنا إنّها ابتدأت بالوعيد والتّهديد، وعبارات التّقريع والتّأنيب، أو التي بدأت ببيتٍ من الشّعر أو أبيات، أو آية قرآنيّة، كان جُلّها مُسْتَهَلًّا بالحَمْدلة والتّمجيد؛ بدليل وجود عبارة التّخلّص (أمّا بعد) في بعضها، أو ما يُماثلها، مثل: أيّها النّاس، أو يا أهل...؛ لأنّ مخالفة السّنّة في إسقاط الحَمْدلة والتّمْجيد والصّلاة على النّبيّ ﷺ، ليست بالأمر الهيّن ـ فيما أحسب ـ عند الخطباء خاصّةً، ولا سيّما إذا كانت الخطبة سياسيّة، إذ تحفِلُ هذه الخُطب ـ غالبًا ـ بالمعاني الدّينيّة. أو بعبارة أخرى: كان الجَدَلُ السّياسيّ دائمًا مَصْبوغًا بصِبْغة دينيّة، وهذه سِمَة عامّة للخطاب السّياسيّ العربيّ في العصور الإسلاميّة الأولى. روى الجاحظ أنّ أعرابيًّا خطَب، وأَعْجَلَه القول؛ فكَرِه أن تكون خطبته بلا تحميد ولا تمجيد، فقال: «الحمدُ لله غيرَ مَلاَلٍ لذكْرِ الله، ولا إيثار غيره عليه»، ثمّ ابتدأ القول في حاجته(٥٥). فعَجَلَتُه لم تمنعْه من التّحميد والتّمجيد؛ لِما وَقَرَ في نفسه من ضرورتهما واستحبابهما، وربّما وجوبهما أيضًا.

ب ــ العرض (أو **الموضوع**):

ويُعَدُّ أساس الخُطبة وبه قِوَامها، فلا يُسْتغنى عنه مُطْلقًا، كما هو الشّأن في المقدّمة والخاتمة. وينبغي أن يتّسم العرض بالوحدة والتّرتيب والتّرابط؛ أي أنْ يكون موضوع الخُطبة واحدًا، تتسلسل فيه الأفكارُ تَسلسلاً منطقيًّا وسَبَبيًّا، بحيث يبدو بعضها آخذًا برقاب بعض، يُسلم كلّ جزءٍ إلى ما بعده، إضافةً إلى الوضوح في اللّفظ والمعنى، بعيدًا عن اللّبس والغموض، وتعدّد الاحتمالات والغرابة.

---

(٥٤) تاريخ الأمم والملوك ٩٢/٨.

(٥٥) البيان والتبيين ٤٠٤/١.

وقد اتّسمت الخطابة السّياسيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل بهذه السّمات إلى حدّ بعيد، ولا نجد ـ فيما وصل إلينا من الخطب ـ شذوذًا واضحًا، أو خَللًا بيّنًا في الإحكام والتّنسيق، أو تداخلًا في الموضوعات؛ إنّما ثمّة أفكار تتآزر لخدمة الموضوع الأساسيّ في الخطبة، وتكون ـ في الوقت نفسه ـ بمنزلة أدلّة منطقيّة، لتأكيد بُغية الخطيب وغايته، كما في بعض خطب العبّاسيّين الأوائل، حينما يؤكّدون شرعيّتهم الدّينيّة في الخلافة، عن طريق الإزراء بالأمويين، وبيان صلة الرّحم، التي تربطهم برسول الله ﷺ، والتّأكيد عليها، والثّناء على أعوانهم أو شيعتهم الخُراسانيين، وما إلى ذلك، من أفكار ومعانٍ تشكّل ـ في ذاتها من وجهة نَظَرهم ـ أدلّة على شرعيّة خلافتهم.

وقد غلبت المعاني الدّينيّة على الخطابة السّياسيّة، خاصّةً لدى الخلفاء الخطباء؛ لأنّهم وَثبوا على الخلافة باسم الدّين، ليضفوا على أنفسهم السّمة الرّوحيّة للسلطة، أو ليُلبسوا سلطانهم غِلالة الإسلام.

ولا بُدّ للخطيب ـ في أغلب الأحيان ـ من التّدليل على صحّة آرائه، أو مناقشة آراء الخَصْم وأدلّته، لإبطالها ودَحْضها، وعندئذٍ يغدو لِزامًا عليه استخدام الأدلة العقليّة؛ وهي تعتمد على مُقدّمات يقينيّة، كالقياس مثلًا، تُسْفِر عن نتائج حتميّة. ومن وسائل البَرْهنة العقليّة، أو الأدلّة المنطقيّة، المُغالطة، والإنكار، والمُوافقة، والاستدراك، وردّ الحُجّة على الخَصم، وما إلى ذلك.

والخطبُ التي عوّلت على الحجّة المنطقيّة والدّليل العقليّ كثيرةٌ في هذا العصر، من ذلك قول المنصور في خُطبته، لمّا قتَلَ أبا مسلم الخُراسانيّ (١٣٧ هـ) ـ قائد ثورتهم، ومقوّض عَرْش أعدائهم ـ مُعتمدًا في حجّته القياس العقليّ، حيث قال: «... وإنّ أبا مُسْلم بايَعَنَا، وبايَعَ النّاس لنا؛ على أنّه من نَكَثَ بنا، فقد أباحَ دَمَه، ثمّ نكَثَ بنا؛ فَحَكَمْنا عليه لأنفسنا حُكْمَهُ على غيره لنا، ولم تمنعْنا رعايةُ الحقِّ له، من إقامة الحقّ عليه»[٥٦].

---

(٥٦) تاريخ الأمم والملوك ٨/٩٤.

واعتماد الأدلّة المنطقيّة وحدها، لا يُجدي نَفْعًا في إقناع كلّ صنوف المخاطبين؛ لتباين المستوى الفكريّ والثّقافيّ والاجتماعيّ فيما بينهم، فثمّة مَن لا يخضع للعقل، ولا يَدين للمنطق. وقد نبّه أرسطو على ذلك، ورأى أنّ الخطباءَ غير المثقّفين أقدرُ على إقناع جمهور العامّة من الخطباء المثقّفين؛ لأنّهم يصوغون الأفكار العامّة المشتركة من معارفهم، فتكون قريبة من إدراك الجمهور. فلا مَنْدوحة ـ إذن ـ من اللّجوء إلى الأدلّة الخطابيّة أو الانفعاليّة ـ كما تُسمّى ـ التي تخاطب الشّعور، وتستثير الأحاسيس، وتُلْهب العواطف. وعادةً ما يلجأ إليها الخطباء، ويعوّلون عليها، خاصّةً في الخطب الحربيّة. وما إلحاحُ العبّاسيّين على بيان صِلة الرّحم مع الرّسول الكريم ﷺ، لتأكيد صحّة خلافتهم وشرعيّتها؛ إلّا إثارة للانفعال الوجدانيّ، والتّعاطف النّفسيّ معهم؛ لأنّ الخلافةَ لا تورّث، بل يليها الأجدر بها، وَفق مبدأ الشّورى.

إضافةً إلى الأدلّة العقليّة والانفعاليّة، لا بُدَّ من توشيح الخطب بالأدلّة النّقليّة، التي تعتمد على الاستشهاد والتّضمين والاقتباس. وأجلُّ ما يُتمثّل به آي الذّكر الحكيم، ثمّ الحديث الشّريف، وأشعار العرب، وأمثالهم السّائرة، وحكمهم الدّائرة. والحقّ أنّ الخطابة السّياسيّة عوّلت على التّضمين والاقتباس، وازدانت نصوصها بكثيرٍ من الآيات القرآنيّة، التي كان لها وظائف فكريّة وجماليّة معًا، في النّصّ الخطابيّ.

ولعلّ من الخير أن نشير ـ هنا ـ إلى أنّ أغلبَ الخطبِ السّياسيّة مُتوسّطة الحجم، وقليلٌ منها أَمْيَلُ إلى الطّول، وكثيرًا ما تتكرّر المعاني الواحدة بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب، ليثبّتوا المعاني في نفوس سَامعيهم.

ج ـــ الخاتمة:

افتنّ الخطباءُ في العصور كلّها في تنويع الخاتمة، وعُني النّقّاد بها؛ لأنّها آخر ما يبقى مُعْتملًا في نفوس السّامعين وأذهانهم، مثلما تُنبّه المقدّمة الجمهور، وتجتذب حواسّهم. وعادةً ما تكون الخاتمة تلخيصًا وتأكيدًا للأفكار، التي سلف ذكرها في موضوع الخطبة، وهذه

إحدى طرائق اختتام الخطب، وقد تُختتم بآية قرآنيّة، أو بحديثٍ نبويّ، أو ببيتٍ شعريّ أو أبيات، أو قول مأثور؛ يتناسب مع موضوع الخطبة، كما في خطبة السّفّاح، بعد أن قُتل مروان بن محمّد؛ إذ ختمها بقوله عزّ مِن قائل: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُم خاويةً بما ظلموا**﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٢]. وخُطبة المنصور بعد أن اعتقل بعضَ آل عليٍّ ﷺ؛ إذ اتّهمهم بطَلَب الخلافة، ونَقْض البيعة، وختمها بقوله تعالى: ﴿ **وحِيْلَ بَيْنهم وبينَ ما يَشْتَهُون كما فُعِلَ بأَشْيَاعِهم من قَبْلُ إنّهم كانوا في شَكٍّ مُرِيب**﴾ [سبأ: ٣٤/ ٥٤].

واختتم صالح بن عليّ إحدى خطبه بأبيات شعريّة، وكذلك فعل أبو السّرايا في خطبته العنيفة بالكوفة، إذ ختمها بالأبيات الشّعريّة الآتية، مُخاطبًا أهلها:[٥٧]

ومـارستُ أقـطـارَ البلادِ فلم أَجِـدْ ... لكم شَبَهًا فيما وَطِئتُ من الأرضِ

خِـلافًا وجَهْـلاً وانتـشـارَ عَزيــمة ... ووَهْنًا وعَجْزًا في الشّدائدِ والخَفْضِ

لقد سبقتْ فيكم إلى الحَشْرِ دعوةٌ ... فلا عنكُمُ راضٍ ولا فيكُمُ مُرضي

سأُبْعد داري من قِلًى عن دياركـم ... فذوقوا إذا وَلَّيْتُ عاقبةَ البُغْـضِ

وقد تُختتم بعض الخطب بالدّعاء، أو الحمدلة، أو الاستغفار، ونحو ذلك، كقول إبراهيم بن عبد الله من آل عليّ ﷺ، وكان ثار مع أخيه محمّد الملقّب بـ (النّفْس الزّكيّة) على المنصور: «اللّهُمَّ إنّكَ ذاكرٌ اليوم آباءً بأبنائهم، وأبناء بآبائهم، فاذكرنا عندك بمحمّد ﷺ. اللّهُمَّ واحفظ الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء، واحفظ ذريّة محمّد ﷺ»[٥٨]. ومن المعلوم أنّ ثورة محمّد (النّفس الزّكيّة) وأخيه إبراهيم قد فشلت، وتمكّن المنصور منهما سنة (١٤٥هـ).

---

(٥٧) مقاتل الطالبيين، ص٥٤٥. وفي البيت الثالث إشارة إلى دعوة الإمام علي ﷺ على أهل الكوفة. وكان الخطيب ذكرها في خطبته. انظر: ص٥٤٥.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٢٣٧.

وقد تكون خاتمةُ الخُطبة نُصْحًا للسّامعين، أو ترغيبًا لهم بوعدٍ، أو ترهيبًا بوعيد. ومِثال التّرغيب خِتام خطبة السّفّاح في أهل الكوفة. وخطبة عمّه داود بن عليّ في مكّة المكرّمة، حين قَدِمها واليًا عليها؛ إذ قال: «لكم ذِمَّةُ الله، ولكم ذِمّةُ رسول الله ﷺ، ولكم ذِمّةُ العبّاس، لا ورَبِّ هذه البَنِيَّةِ ـ وأَوْمَأ بيده إلى الكعبة ـ لا نَهيج منكم أَحَدًا»(٥٩). ومثال التّرهيب قول عبد الملك بن صالح بن عليّ العبّاسيّ، في أهل الشّام: «أَمَا وحُرْمَةِ النّبوَّةِ والخلافة؛ لتَنْفِرُنَّ خِفَافًا وثِقالًا، أو لأُوْسِعَنَّكم إرغامًا ونكالًا»(٦٠).

ومهما يكن الأمر، فإنّ أساليبَ الخُطباء في بناء خُطبهم، من حيث الاستهلال والعَرض والخاتمة، تتنوّع تبعًا لنفسيّة الخطيب وطريقته المُؤثرة، وموضوعه وأسلوبه، وطبيعة الجمهور، والغرض المقصود؛ إذ إنّ لكلِّ مقامٍ مقالًا، وهو ما عبّر عنه القدماء بـ (مُقتضى الحال). لذا لا عجب إن ألفينا أساليب عدّة للبِنْية الهيكليّة للخُطب، ما دامت تتناسب ومُقتضى الحال، وهي في عُمومها لا تخرج عن سَنَنِ الخطابة العربيّة وطرائقها، خاصةً الخطابة السّياسيّة في العصر الأمويّ.

2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

---

(٥٩) الكامل للمبرد ١٤٨٣/٣. والبَنِيَّةُ: كلّ ما يُبنى، وتُطلق على الكعبة المشرّفة. القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، مادة: بني.

(٦٠) العقد الفريد ٩٧/٤.

ثانيًا: الخطابة الدّينيّة والمواعظ والمقامات

أخذت الخطابة الدّينيّة في العصر العبّاسيّ تضعف على ألسنة الخلفاء والأمراء بعد أن أخذوا مع الزّمن يخطبون بكلام غيرهم، أو قد يندبون مَن يقوم مَقامهم في الصّلاة والخطابة في النّاس، إلّا أنّها قد أينعت في بيئة الوعّاظ والزهّاد ممّن كانت تزخر بهم الحواضر الإسلاميّة كبغداد والبصرة والكوفة وغيرها.

وكان بعضهم يُلّم بمجالس الخلفاء لوعظهم وتذكيرهم بواجباتهم تجاه الرّعيّة. ويقوم هذا الوعظ على قاعدة الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنْكر؛ أي إنّ الدّافع إلى صياغته هو تطبيق هذا المبدأ، في المقام الأوّل، فالمعروف ما يتّفق مع الشّريعة، والمُنْكر خلافه، دينيًّا وسياسيًّا، أي سواء أكان ذلك في ميدان تطبيق الدِّين في المجتمع، أم في إصلاح السّلطة الجائرة، والمنحرفة عن بياض المَحَجَّة.

ومن المعلوم أنّ الفقهاء يجعلون السّياسة تابعة للدِّين، بحسب النّظام الإسلاميّ في الحُكم؛ إذ إنّ الخلافة «موضوعة لخلافة النبوّة، في حراسة الدِّين، وسياسة الدّنيا»، كما يقول الماورديّ(٦١)، الفقيه الشّافعيّ. فثمّة، إذن، وظيفتان للخليفة، الأولى: دينيّة، بوصفه عالمًا قادرًا على فَهْم الشّريعة، والاجتهاد في استنباط الأحكام، والثّانية: سياسيّة تمكّنه من تطبيق أحكام الشّريعة والدّفاع عنها. و«الخلافة بعد رسول الله ﷺ، تولاّها الخلفاء الرّاشدون المهديّون، وكانوا أئمّة علماء بالله تعالى، فقهاء في أحكامه، وكانوا مُستقلّين بالفتاوى في الأقضية (...) فلمّا أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوامٍ تولّوها بغير استحقاق، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطُرّوا إلى الاستعانة بالفقهاء، وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم؛ لاستفتائهم في مجاري أحكامهم»(٦٢).

---

(٦١) الأحكام السُّلطانية والولايات الدّينية، ص٢٩.

(٦٢) إحياء علوم الدّين، للغزالي ٤٤/١.

ولذا كان الفقيه يمثّل السّلطة الدّينيّة، باعتدادِ غاية السّياسة عند الفقهاء عصرئذٍ هي التّمكين لدين الله في الأرض، وهو الرّقيب على السّلطة السّياسيّة؛ إذ «هو العالِم بقانون السّياسة، وطريق التّوسّط بين الخَلْق، إذا تنازعوا بحكم الشّهوات؛ فكان الفقيه مُعلّم السّلطان ومُرشده إلى طُرق سياسة الخَلْق وضَبْطهم؛ لتنتظمَ باستقامتهم أمورهم في الدّنيا. ولعمري إنّه متعلّق أيضًا بالدّين، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدّنيا؛ فإنّ الدّنيا مزرعةُ الآخرة، ولا يتمّ الدّين إلّا بالدّنيا. والمُلْك والدِّين توأمان؛ فالدِّين أصلٌ، والسّلطان حارس، وما لا أصل له فمَهْدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتمّ المُلْك والضّبط إلّا بالسّلطان، وطريق الضّبط في فَصْل الحكومات بالفقه»(٦٣).

ونستخلص من هذا الكلام، أنّ ضرورة الدِّين للسّياسة لا تقلّ عن ضرورة السّياسة للدِّين، كما يرى الفقهاء، (فالدِّين أصلٌ، والسّلطان حارس). غير أنّ واقع الأمر، لا يماثل المبدأ تمامًا؛ لأنّ الحاكم لا يُسلّم للفقيه بسُلطته في توجيهه، ومُنافسته في سُلطانه، لذا سعى إلى استتباع الفقهاء، بالتّرغيب أو بالتّرهيب. فضلًا عن أنّ السّلطة السّياسيّة، غالبًا، ما تكيّف العلاقة مع الدِّين لمصلحتها هي، ومن ثَمّ، فإنّ الفقهاء في كتاباتهم السّياسيّة بعد العصر العبّاسيّ الأوّل، تجوّزوا في اشتراط تبعيّة السّياسة للدِّين تبعيّة تامّة، وصار كثيرٌ منهم «يحكم بصحّة الإسلام، تحت ظلال السّيوف»!

بَيْدَ أنّ كثيرًا من فقهاء العصر العبّاسيّ الأوّل على وجه الخصوص كانوا أئمّة مُجتهدين، يأمرون بالمعروف ويَنْهون عن المُنْكر، ولا يَخْشون سَطْوة السّلطان وجبروته. كما كان بعض الخلفاء أصحاب معرفة دينيّة متميّزة، كالمنصور والرّشيد والمأمون، الذي يُعَدّ من كبار العلماء. وكانوا يَرَون أنفسهم وَرَثة الرّسول ﷺ، لا في خلافته وحسب، بل في العلم أيضًا؛ «فإنّ الحكمةَ علينا نزلت، ومن عندنا فَصَلَت؛ فردُّوا الأمرَ إلى أهله، تُوْرِدوه مَوارده، وتُصدروه مصادره»، كما قال المنصور في إحدى خطبه. وقد كان «بمكانٍ من العِلْم والدِّين،

---

(٦٣) المصدر نفسه ٢٣/١.

قبل الخلافة وبعدها، وهو القائلُ لمالكٍ، حين أشار عليه بتأليف الموطّأ: (يا أبا عبد الله! إنّه لم يبقَ على وجه الأرض أعلم منّي ومنك، وإنّي قد شغلتني الخلافة، فضعْ أنت للنّاس كتابًا، ينتفعون به، وتجنّب فيه رُخَصَ ابنِ عُمَر، ووطّئه للنّاسِ تَوْطِئَةً). قال مالك: (فوالله، لقد علّمني التّصنيف يومئذٍ)»[٦٤].

وكان المنصورُ وغيره من خلفاء بني العبّاس يُصِيخون إلى نصائح الفقهاء، ومواعظ الزّهّاد، ربّما لأنّهم كانوا يشعرون، أو بالأحرى يعلمون تمام العِلْم، أنّهم انحرفوا - في بعض تصرّفاتهم - عن مسار الشّريعة، ومنهج الحكومة الإسلامية المُثلى، فتنكّبوا جَادّتها، خدمةً لمآرب السّياسة، القائمة على المُراوغة والمُخاتلة، لا السّياسة الشّرعيّة. قال عبد الصمد بن عليّ، عمّ المنصور، له مرّة: «لقد هجمتَ بالعقوبة، حتّى كأنّك لم تسمع بالعفو! قال: لأنّ بني مروان لم تَبْلَ رِممُهُم، وآل أبي طالب لم تُغْمَد سيوفهم، ونحن بين قومٍ قد رأونا أمسِ سُوقة، [و] اليوم خلفاء؛ فليس تتمهّد هَيْبَتُنا في صدورهم إلّا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة»[٦٥].

ولو نهج المنصور أو غيره منهج الخلفاء الرّاشدين، أو عمر بن عبد العزيز، في سياسة الرّعيّة، وإقامة أوامر الله، لما احتاج إلى سَفْك الدّماء، على ذلك النّحو، ولما حدثت مظالم كثيرة، مخالفة لقوانين الشّريعة الإسلاميّة. وقد قيل: «لَدِرّةُ عُمَر أَهْيَبُ من سيفكم»[٦٦]؛ أي إذا كانت السّياسة شرعيّة فستُضبط أمور البلاد، بشدّة في غير عنفٍ، ولين في غير ضَعْف، أمّا الاستبداد والعنف فما يغنيان شيئًا، إذا كانت السّلطة غير شرعيّة، فللباطل جَوْلة، ثمّ يضمحلّ إلى غير رَجْعة.

---

(٦٤) المقدّمة لابن خلدون ٢١/١.

(٦٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٢٢٨.

(٦٦) المصدر نفسه، ص١١٥.

وعلى أيّ حال، فثمّة مواعظ للفقهاء والزهّاد، تقوم على الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنْكر، فجُلّها تذكير ووعظ، أو تبيان لرأي شرعيّ في مسألةٍ ما، من مسائل الحُكم. ويغلب المضمون الدِّينيّ على هذه المواعظ، إلّا أنّه يمتزج بالمضمون السّياسيّ امتزاجًا قويًّا؛ لارتباط السّياسة ـ عصرئذٍ ـ بالدِّين، فليس ثمّة خطاب سيّاسيّ مَحْض؛ لأنّ أولى مهامّ الدّولة، عند الفقهاء، هي حمايةُ الدِّين ومُعتقداته، وتنفيذُ أحكامه ونَشْره، وتوسيعُ رُقعة الإسلام.

وتحفِلُ مصادر التّراث بنصوصٍ من مواعظ الفقهاء، يُنسب بعضها إلى عمرو بن عُبَيد، والأوزاعيّ، وسُفيان الثّوريّ، والإمام مالك، وغيرهم، أو إلى الزّهّاد الوعّاظ، كصالح المُرِّيّ، وصالح بن عبد الجليل، وابن السَّمّاك، والفُضيل بن عياض، وغيرهم كثير. وهؤلاء جميعًا كانت لهم مَقاماتهم المحمودة بين يدي الخلفاء. والمقامات تقوم على المُشَافهة، والمقصودُ بها: مقامُ الفقيه أو الزّاهد بين يَدَي الخلفاء أو الأمراء واعظًا مذكّرًا.

ولعلّ أبرز الأفكار التي تناولوها في مواعظهم تدور حول التّمسّك بالكتاب والسُّنَّة، وإقامة العَدْل بين الرّعيّة، والتّذكير بمسؤوليّة الحاكم تجاه المحكوم، وضرورة تفقّد أحوال الأمّة، واتّخاذ البطانة الصّالحة، التي تأمرهم بالخير وتحثّهم عليه، وتنهاهم عن الشّرّ وتصرفهم عنه، والتّحلّي بالخِلال الحميدة والصّفات الحسنة، كالتّواضع والاقتصاد في السّرف، وغيرها. وكذلك صوّرت المواعظ اليوم الآخر وما فيه من أهوال؛ ﴿**إذِ القُلُوبُ لدى الحَنَاجِرِ كاظِمِينَ، ما للظّالمينَ من حَمِيْمٍ ولا شفيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر: ٤٠/١٨].

وكان الإمام الأَوْزَاعيّ (ت ١٥٧هـ) أمّارًا بالمعروف ناهيًا عن المُنْكر، وله في هذا الميدان أكثر من مقام، فقد وقف بين يدي عبد الله بن عليّ، عمّ المنصور، لما قَدِمَ الشّام، فسأله عن دماء بني أميّة، الذين قتلهم عبد الله وغيره من بني العبّاس، فقال بحُرْمتها، وسأله عن غير ذلك، فصَدَعَ بالحقّ، ولم يأبه لغَضَب عبد الله، وانتفاخ أوداجه، واحمرار عينيه، بل ذكر

مقامه بين يدي الله، وحسب[٦٧].

ومقام الأوزاعيّ بين يدي المنصور دليلٌ على صراحته في نَقْد الحُكم، وجُرأته في كشف أخطائه، وفيه يخوّفه عذابَ الله سبحانه، وينذره نارًا تلظّى، لا يصلاها إلّا الأشقى، ويُبيّن له عِظَم المسؤولية التي في عُنقه، وأنّ الولاية أمرٌ جَلَل وبلاءٌ عظيم. وممّا جاء في مَقامه قوله: «يا أمير المؤمنين! مَن كَرِه الحقّ، فقد كَرِه الله؛ إنّ الله هو الحقّ المُبين. إنّ الذي ليّن قلوب أمّتكم لكم، حين ولاَّكم أمورهم؛ لقرابتكم من رسول الله ﷺ ـ وقد كان بهم رؤوفًا رحيمًا مُؤاسيًا لهم بنفسه في ذات يده، محمودًا عند الله وعند النّاس ـ فحقيقٌ بك أن تقوم له فيهم بالحقّ، وأن تكون بالقِسْط له فيهم قائمًا، ولعَوراتهم ساترًا. لا تُغْلق عليك دونهم الأبواب، ولا تُقم دونهم الحُجَّاب. تبتهج بالنّعمة عندهم، وتبتئس بما أصابهم من سوء. يا أميرَ المؤمنين! قد كنتَ في شُغْلٍ شَاغلٍ من خاصّة نفسِك عن عامّة النّاس، الذين أصبحت تملكهم ـ أَحْمرهم وأَسْودهم، مُسْلمهم وكافرهم ـ وكلٌّ له عليك نصيبٌ من العَدْل، فكيف بك إذا انْبَعَثَ منهم فِئَامٌ وراء فِئَام، وليس منهم أحدٌ إلّا وهو يشكو بَلِيَّةً أَدْخَلْتَها عليه، أو ظُلامة سُقتها إليه ؟ (...). وقد بلغني، يا أمير المؤمنين، أنّ عمر بن الخطاب ﷺ قال: اللّهُمّ إن كنت تعلم أنّي أُبالي إذا قَعَدَ الخصمانِ بين يديّ على مَنْ مالَ الحقّ، مِن قريبٍ أو بعيد، فلا تُمْهلني طَرْفَةَ عَين»[٦٨].

وممّا يُذكرُ أنّ رجلاً من الزُّهَّاد قام بين يدي المنصور في مكّة المكرّمة، وقد سمعه المنصور يشكو ظهور البَغْي والفَسَاد في الأرض، وما يَحُوْلُ بين الحقّ وأهلِه من الطّمع،

(٦٧) سِيَر أعلام النبلاء للذهبيّ ٧/٩٧-٩٨. وعلّق الذهبيّ على موقف الأوزاعيّ، قائلاً: ((قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبّارًا، سفّاكًا للدماء، صعب المِراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعيّ يَصْدَعُه بمُرِّ الحقّ، كما ترى، لا كخَلْقٍ من علماء السُّوء، الذين يُحَسِّنون للأمراء ما يقتحِمون به من الظلم والعَسْفِ، ويقلبون لهم الباطل حقًّا ـ قاتلهم الله ! ـ أو يسكتون مع القدرة على بيان الحقّ)).

(٦٨) إحياء علوم الدّين ٢/٣٠٠-٣٠٢. وانظر: عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٧١١-٧١٢. والعقد الفريد لابن عبد ربّه، ٣/١٥٦-١٥٧. والفِئَامُ: الجماعة من النّاس.

فوعظه بجرأة نادرة، وعزا سبب هذا الفساد والجور إليه، ومما قاله: «إنّ الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلتَ أمورهم، واهتممتَ بجَمْعِ أموالهم، وجعلتَ بينك وبينهم حِجابًا من الجُصِّ والآجُرِّ، وأبوابًا من الحديد، وحَجَبَةً معهم السّلاح، ثمّ سجنتَ نفسَك فيها عنهم، وبعثتَ عُمّالك في جباية الأموال وجَمْعها، وقوَّيتهم بالرّجال والسّلاح والكُرَاع(٦٩)، وأمرتَ بألّا يدخلَ عليك من النّاس إلّا فلان وفلانٌ، نَفَرٌ سمّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع العاري، ولا الضّعيف الفقير، ولا أحدٌ إلّا وله في هذا المال حَقٌّ. فلمّا رآك هؤلاء النَّفَر، الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيّتك، وأمرت ألا يُحْجَبُوا عنك، تجبي الأموال، وتجمعها، ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله! فما بالُنا لا نخونه، وقد سَجَنَ لنا نفسه؟! فَأْتَمَرُوا بألّا يصل إليك من عِلْم أخبار النّاس شيء إلّا ما أرادوه... ».

ثمّ يجلو الزّاهد للمنصور كثيرًا من وجوه الظّلم، ويضرب له الأمثال، علّه يعتبر أو يزدجر؛ «فبكى المنصور، وقال: يا ليتني لم أُخْلَق! ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين! إنّ للنّاس أَعْلامًا يَفْزَعُون إليهم في دِينهم، ويَرْضَوْن بهم، فاجعلهم بِطَانتك يُرْشِدوك، وشاورهم في أمرك يُسَدِّدوك. قال: قد بعثتُ إليهم فهربوا منّي. قال: خافوا أن تحملَهم على طريقتك؛ ولكن افتح بابك، وسهّل حجابك، وانصر المظلوم، واقمَع الظّالم، وخُذِ الفَيْءَ والصّدقات ممّا حلّ وطاب، واقسِمه بالحقّ والعَدْل على أهله، وأنا الضّامن عنهم أن يأتوك ويُسْعِدوك على صلاح الأمّة»(٧٠).

إنّ مِثل هذه المواعظ والوصايا تكشف بعض الجوانب السّلبية في الحكم عصرئذٍ، كما توضّح للحاكم سُبَل إصلاحها، عن طريق العودة إلى شريعة الإسلام، والاستعانة بأعوان الصّلاح والتّقى، والاقتداء بسيرة الأئمّة المهديين الرّاشدين. ولولا صلاحُ قائليها

---

(٦٩) الكُرَاعُ: الخيل.

(٧٠) عيون الأخبار ٢/٧٠٧-٧٠٩. وإحياء علوم الدّين ٢/٣٠٢-٣٠٤.

وصِدْقهم لما رضي منهم الخلفاء هذا الجَفَاء والغِلْظَة والشِّدَّة في النّصح، ولولا معرفة الخلفاء بعيوبهم وإسرافهم في البَطْش والتّنكيل، وتقصيرهم في تفقّد أحوال الأمّة، لما أَغْلَظَ هؤلاء الفقهاء الزهّاد لهم في القول، وشَكوا الظّلم والبغي؛ إذ ليس وَكْدهم أن ينالوا حُظْوة عندهم، أو يفوزوا بنائلٍ أو عطاء منهم؛ بل كانوا يأنفون من عطاياهم، ولا يرجون إلّا صلاح هذه الأمّة، وإحقاق الحقّ، ورفع الظّلم عن كَوَاهل المظلومين، الذين لا يَقْدِرون أنْ يَجْأَروا إلى أولياء الأمور بمظالمهم، أو بما يَحْزُبهم من غَوَائل الزّمان!

ولنسمع سفيان الثَّوْرِيّ يقول للمنصور، بِملء فِيه: اتّق الله، فقد ملأت الأرض ظُلْمًا وجَورًا ! فيقول له المنصور: ارفع إلينا حاجتك. فيقول له ـ ولا يلتفت إلى كلامه، فما إليه حاجة أصلاً ـ: «إنما أُنْزِلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتّقِ الله، وأوصل إليهم حقوقهم»(٧١).

والثَّوْرِيّ مِن أشدّ الفقهاء مجافاة للسّلطان، قيل: «لقيَ أبو جعفر سُفيان الثّوريّ في الطّواف، وسُفيان لا يعرفه، فضربَ بيده على عاتقه، وقال: أتعرفني؟ قال: لا؛ ولكنّك قبضتَ عليّ قَبْضة جبّار! قال: عِظني أبا عبد الله، قال: وما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فأعِظك فيما جَهِلت ؟ قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ قال: إنّ الله نهى عنكم؛ فقال تعالى: ﴿**ولا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا فتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾(٧٢). فمسح أبو جعفر يده به، ثمّ التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحَبَّ إلى العلماء فَلَقَطوا؛ إلّا ما كان من سُفيان، فإنّه أعيانا فِرارًا»(٧٣).

وكان صالح بن بشير المُرِّيّ (ت ١٧٦هـ) مُحدِّثًا وواعظًا بليغًا مؤثّرًا، وقف الجاحظ في بَيَانه، غير مرّة، عليه. وقد وعظ المهديّ، فقال: «احمل لله ما أكلّمك به اليوم، فإنّ أولى النّاس بالله أَحْمَلُهم لغِلْظَة النّصيحة فيه، وجديرٌ بمَنْ له قرابةٌ برسول الله ﷺ أن يَرِثَ

---

(٧١) إحياء علوم الدّين ١٢٧/٢. وسِير أعلام النبلاء ١٩٩/٧.

(٧٢) سورة هود: ١١٣/١١.

(٧٣) العقد ١٥٩/٣.

أخلاقَه، ويأتمّ بهَدْيه، وقد وَرَّثك الله من فَهْم العِلْم، وإنارة الحُجَّة ميراثًا قَطَعَ به عُذْرك (...). واعلم أنّ رسول الله ﷺ خَصْمُ مَنْ خالف في أمّته، يبتزّها أحكامها. ومَنْ كان محمّد ﷺ خَصْمه كان الله خَصْمه، فأعِدّ لمخاصمة الله، ومخاصمة رسول الله ﷺ حُجَجًا، تضمن لك النّجاة، أو استسلم للهَلَكَة. واعلم أنّ أبطأ الصّرعى نَهْضَةً صَرِيعُ هوى، وأنّ أثبتَ النّاس قَدَمًا يوم القيامة آخِذهم بكتاب الله، وسُنَّة نبيّه ﷺ، فمِثْلك لا يُكابر بتجديد المعصية، ولكن تمثل له الإساءة إحسانًا، ويشهد له عليها خَوَنَةُ العلماء؛ وبهذه الحِبَالة تصيّدت الدّنيا نُظراءك، فأَحْسِن الحَمْل، فقد أحسنتُ إليك الأداء. قال [الرّاوي]: فبكى المهديّ، ثمّ أَمَرَ له بشيءٍ، فلم يَقْبَلْه»(٧٤).

وكان ابن السَّمّاك، محمّد بن صبيح (ت ١٨٣هـ)، سيّد الوعّاظ، كما يقول الذّهبيّ، ومن رواة الحديث الشّريف، وله مقاماتٌ حِسَانٌ بين يدي الرّشيد، وكان يطلب منه الوعظ والتّذكير. وقد أُحْضر إليه ذات مرّة، فقال له الرّشيد: «عِظني، قال: يا أمير المؤمنين! اتّق الله وَحْده لا شريك له، واعلم أنّك واقفٌ غدًا بين يَدَي الله ربّك، ثمّ مصروفٌ إلى إحدى منزلتين، لا ثالثة لهما: جنّة أو نار، فبكى هارون، حتّى اخْضَلَّت لحيته. فأقبل الفضل [بن الرّبيع] على ابن السَّمّاك، فقال: سبحانَ الله! وهل يتخالجُ أحدًا شَكٌّ في أنّ أمير المؤمنين مَصْروفٌ إلى الجنّة، إن شاء الله؛ لقيامه بحقّ الله وعَدْله في عباده وفَضْله! فلم يَحْفِلْ بذلك ابنُ السَّمّاك من قوله، ولم يلتفت إليه، وأقبل على أمير المؤمنين! فقال: يا أمير المؤمنين: إنّ هذا ـ يعني الفضل بن الرّبيع ـ ليس، والله، معك، ولا عندك، في ذلك اليوم، فاتّق الله، وانظر لنفسك. قال [الرّاوي]: فبكى هارون، حتّى أشفقنا عليه، وأفْحِمَ الفضل بن الرّبيع، فلم ينطق بحرفٍ»(٧٥)!

---

(٧٤) وفيات الأعيان ٢/٤٩٤-٤٩٥.

(٧٥) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣٥٧/٨.

والعَجَبُ، حقًّا، في أغلب مواعظ الفقهاء والزّهّاد للخلفاء، أن ينبريَ أحدُ أعوانهم، من أرباب المَلَقِ والاستجداء، فيدّعي للخليفة ما لا يدّعيه الخليفة لنفسه، ويزكّيه على الله، وكأنَّما أَمِن مَكْره ـ سبحانه ـ ﴿ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرُون**﴾؟! [الأعراف: ٧/ ٩٩]. بل يلبس أحيانًا لَبُوس الرّأفة والرّحمة والشّفقة بالخليفة، فيعترض على الواعظ، بصيغة: (ارفق بأمير المؤمنين)، أو (لقد شَقَقْتَ على أمير المؤمنين)! أو ما شابه ذلك، وكأنّ هذا الوعظ سَيُزْهِقُ روحه، لا محالة، كشأن بعض الصّالحين الخُلَّص من شوائب الدّنيا وعَرَضها الزّائل، وأدرانها الفاسدة. وليس هذا الشَّفِيق، في حقيقة الأمر، غَيْر رجل ماكر خبيث، لا يعدو همّه مصلحته الخاصّة ومَنْصبه الذي يرتكب المُوبقات، ويفعل الأفاعيل، ليحتفظ به! وما أحسن ردَّ الفُضيلِ بنِ عياض على الفَضْل بنِ الرّبيع نفسه، حين قال له الفَضْلُ: ارفقْ بأمير المؤمنين! فقال الفُضيلُ: قتلته أنت وأصحابك، وأرفُقُ به(٧٦)!

والحقّ، أنّ الرّشيد كان رقيقَ الشّعور، حادّ العاطفة، شديد الانفعال، وكثيرًا ما أَجْهَش بالبكاء، وبكى حتّى يُغشى عليه، وتخضلّ لحيته. وقد لقي الفُضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)، العالم العابد الزّاهد، فوعظه وأبكاه، غير مرّة، ومافتئ الرّشيد يستزيده: «... فبكى هارون، وقال: زِدْني، قال: يا حَسَنَ الوجه! أنت الذي يسألك الله ـ تعالى ـ عن هذا الخَلْق يوم القيامة؛ فإن استطعت أن تَقِيَ هذا الوجهَ من النّار فافعل، وإيّاك أن تُصْبحَ وتُمْسيَ، وفي قلبك غِشٌّ لأحدٍ من رعيّتك؛ فإنّ النبيّ ﷺ قال: (**مَنْ أصبحَ لهم غاشًّا، لم يَرُحْ رائحةَ الجنَّة**)، فبكى هارون،...»(٧٧). وحَرِيٌّ بمن كان له قَلْبٌ أن يستنزفَ الدّمع السَّخِين، ويذرفه مِدْرَارًا على ما فَرَّطَ في جَنْبِ الله! وكأنّما الرّشيد يتجرّد من أعباء السّياسة، ويعيش

---

(٧٦) سِيَر أعلام النبلاء للذهبيّ ٦٣٦/٧.

(٧٧) المصدر نفسه ٦٣٦/٧. وانظر حديث: (من أصبح لهم غاشًّا. ..)، بلفظٍ آخر، في صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب (٨)، ٢٤٥٣/٤ برقم ٦٧٣٢. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب (٦٣)، ص٨١ برقم ١٤٢.

حالة من الوجد الصّوفيّ ـ إن جاز التّعبير ـ والانفعال العاطفيّ، فيتمنّى لو أنّه تطهّر من أدرانها، وتخلّص من أَتُّونها المُسْتعر!

وكان الرّشيد يحجّ عامًا، ويغزو عامًا، خلا سنينَ قليلة من حُكْمه، وقد تواترت الأخبارُ بصِدْق إيمانه، وكَثرةِ عبادته، ومُحافظتِه على التّكاليف الشّرعيّة، وانطوائهِ على كَرَمٍ وجُودٍ فيّاض، وتواضعِه للعلم والعلماء، فضلًا عن عُنْفه وشدّته في الإدارة والسّياسة، ومن ثمّ ربّما ازْوَرَّ قليلاً عن جادّة الصّواب، بتأثير أعوان السّوء، وفقهاء السّلاطين تارةً، وكأيّ إنسانٍ غير معصوم تارة أخرى؛ قد يُخطئ وينحرف، وتَزِلّ بها نفسُه الأمّارة بالسّوء إلى ميولها الجانحة وأهوائها الجامحة.

ومهما يكن الأمر، فقد كان الشّعور الدّينيّ قويًّا، عصرئذٍ، عند الخلفاء، وغيرهم. وكان هؤلاء يحكمون باسم الإسلام، ويحرصون على إقامة شعائره، ويعتزّون بأنّهم أهلُه وحُماتُه، وأنّهم آل رسول الله ﷺ وقرابته القريبة، وبهم هدى الله النّاس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم. فليس عجيبًا إن أصاخوا إلى وعظ الفقهاء ونصائح الزّهّاد، وقبلوه منهم قَبُول تحقيقٍ وعمل، أو سُمْعة ورياء؛ فالله أعلم بالمُهتدين؟

ونستخلصُ ممّا سبق، أنّ مواعظ الفُقهاء والمُحَدّثين والزُّهَّاد ومقاماتهم في العصر العبّاسيّ الأوّل خاصّة، تتّسم ـ في مُجملها ـ باستلهام آيات الذّكر الحكيم، وأحاديث النّبيّ ﷺ، ومواعظ السّلف الصّالح، كالحسن البصريّ وغيره. كما تتّسم بالجرأة والصّراحة، ووضوح المغزى السّياسيّ الإصلاحيّ، وصِدْق اللّهجة، وقوّة الإيمان، وجَلال الفِكر وسُموّه، وحُريّة الرّأي والتّعبير.

وقد كان سلطان الفُقهاء والزّهّاد على النّفوس أقوى من سُلطان الحكّام، وكانت منـزلتهم في القلوب أسمى من منـزلتهم، وأعلى مقامًا. قيل: قَدِمَ الرّشيد الرقّة، وصادف مَقْدَم عبد الله بن المُبارك إليها؛ فانجفلَ النّاسُ خلف ابن المبارك، وتقطّعت النِّعال، وارتفعت الغَبرةُ، فأشرفت أمُّ ولدٍ لأمير المؤمنين تنظر إلى النّاس، فسألت: ما هذا ؟ قالوا:

عالمٌ من أهل خُراسان، قَدِمَ. قالت: هذا، والله، المُلْك، لا مُلْك هارون الذي لا يجمع النّاس إلّا بشُرَطٍ وأعوان[٧٨].

هذا، وكان عبدُ الله بن المُبارك يُجلّ هارون الرّشيد، ويدعو له بالخير، ولمّا مات جَزِعَ الرّشيدُ لوفاته، وقال: مات سيّدُ العُلماء، وأذِن للنّاس أن يعزّوه في ابن المبارك، وقال: أَمَا هو القائل:

اللهَّ يَدْفَعُ بالسُّلطانِ مُعْضِلَةً عن ديننا، رحمةً مِنه ورِضْوَانا
لولا الأئمّةُ لم تأمَنْ لنا سُبُلٌ وكان أَضْعَفُنَا نَهْبًا لأقوانا؟

فمَنِ الذي يسمع هذا من ابن المبارك، ولا يعرف حقّنا ؟[٧٩].

وصفوةُ القول أنّ مواعظَ الفُقهاء والزُّهّاد ومقاماتهم تُعَدُّ في الذّروة من البيان الرّفيع، والبلاغة العالية؛ إذ إنّ جُلّ النّصوص، إن لم نقل كلّها، صِيغت بأسلوبٍ مُشْرق نَاصع، لا مُعَاظلة فيه، ولا تَقّعر، ولا إسفاف، ولا تعمّل، وإنّما تدفّق وطَلاوة وحُسْن ديباجة، تلذّ لسماعه الآذان، وتطرب له القلوب؛ لأنَّ المقصدَ من هذه النّصوص، في الأصل، هو تحقيقُ التّأثيرِ والاستجابةِ في المتلقّي، وإدهاشُه بهذه اللّغة المتوهّجة، عاطفيًّا وانفعاليًّا، ومُضَاهاةُ جلالِ التّفكير وعمقِه وسُموّه، لجمال اللّغةِ والصّياغة والتّعبير، ومن ثَمّ تحقيق جماليّة الاتصال والتّواصل، أو المعرفة والفنّ.

(٧٨) وفيات الأعيان ٣٣/٣. وسِير أعلام النبلاء ٦٠٥/٧. وانظر فيما يتعلّق بابن المبارك وأخباره: المصدر نفسه ٦٢٠/٧–٦٣٠. والبداية والنهاية لابن كثير ١٩١/١٠–١٩٣.

(٧٩) سِير أعلام النبلاء ٦٢٥/٧، ٦٢٨. والبيتان في ديوان ابن المبارك، من قصيدة، عِدّتها (٢٤) بيتًا. انظر: ديوان الإمام عبد الله بن المبارك، ص٦٦.

Al-Furat University

ثالثًا: الوصايا والحِكَم والأقوال

١ـ الوصايا:

الوصايا فنٌّ عريقٌ في أدبنا العربيّ، تُنقل من خلاله خلاصة مجموعةٍ من التّجارب الإنسانيّة، والأفكار العمليّة، والمُثُل الأخلاقيّة والدّينيّة، والقيم والأعراف الاجتماعيّة، على نحوٍ تتجلّى فيه عقليّة المجتمع وظروفه المختلفة وخصائص تكوينه؛ فكريًّا، وفنيًّا، ونفسيًّا. وقد وصلت إلينا من العصور السّالفة وصايا عديدة، كثيرٌ منها مجهول القائل؛ ولا سيّما وصايا الجاهليّين، التي أصبحت مأثورًا شعبيًّا، يعبّر عن وجدان الجماعة في المجتمع العربيّ القديم، وما تؤمن به من قيمٍ وأفكار ومبادئ.

وفَنّ الوصايا فَنّ شِفاهيّ في أصوله الأولى، ثمّ عُرِفت الوصايا الكتابيّة في العصور اللاحقة. وهو لا يختصّ بموضوعٍ واحد، إنّما هو متعدّد الاتجاهات، فثمّة ما هو سياسيّ، أو اجتماعيّ، أو أخلاقيّ، أو دينيّ وعظيّ، أو تربويّ، أو غير ذلك.

وبذا يختلف ـ إلى حدٍّ ما ـ عن أدب العُهود، الذي سيأتي الحديث عنه؛ فذاك أدبٌ رسميّ كتابيّ سياسيّ في المقام الأوّل، يصدر عن الخلفاء أو الأمراء أو الولاة، ويُعنى برسم سياسة الوالي أو الحاكم في ولايته، ويكون من الحاكم إلى المحكوم، أو من الأعلى إلى الأدنى. أمّا أدب الوصايا فيصدر من أيِّ شخصٍ كان، المهمّ أن يملك تجربة حياتيّة، أو خبرة إنسانيّة عميقة، وذات خصوصيّة محدّدة، وتكون غايته هداية المُوصَى إليه ـ فردًا أو جماعة ـ بهَدْيه، كما في وصايا الوعّاظ والفقهاء للخلفاء.

ويتّسم أدب الوصايا ـ غالبًا ـ بقيمة تاريخيّة، من خلال ما يجلوه من القيم والمبادئ الاجتماعيّة والسّياسيّة والتّربويّة والدّينيّة والفكريّة، التي يؤمن بها المجتمع، فيكون مصدرًا مهمًّا، ورافدًا ثرًّا، يُغني دراسة هذه الجوانب. فضلاً عن القيمة الفنّيّة لأدب الوصايا؛ بما

يتّشح به من مشاعر عاطفيّة صادقة، ودفقات شُعوريّة، ومُحسّنات بديعيّة...إلخ، تُمكّن المُوصِي من التّأثير في المتلقّي وإمتاعه.

وقد كانت الوصايا التي وصلت إلينا من العصر العبّاسيّ الأوّل، نابعةً من طبيعة الظّروف والحوادث التي عاشها هذا العصر، وهي في مُعظمها ذات طابع دينيّ واضح. ويمكن المرء أن يتعرّف جوانب من ملامح الحياة السّياسيّة آنذاك، وصُوًى من معالم التّفكير السّياسيّ من خلالها.

ففي مرحلة الإعداد السّرّيّ للثورة العبّاسيّة، أدّت الوصايا دورًا مهمًّا في إنجاحها؛ من حيث رسمها التّدابير والخطط التي ينبغي أن يأخذ بها الدّعاة. وقد كان محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس زعيم الدّعوة في بداياتها ، وقام بها خير قيام، وبَرْهن على بَصَرٍ بالسّياسة، وخبرةٍ بأخلاق الشّعوب ومُعتقداتها الفكريّة والمذهبيّة. وقد وصلت إلينا وصية له تؤكّد ذلك، يقول فيها لدُعاته: «أمّا الكوفة وسَوادها، فهناك شيعة عليّ بن أبي طالب، وأمّا البصرة فعثمانيّة تَدين بالكفِّ؛ وتقول: كُن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل. وأمّا الجزيرة فَحَرُوريَّةٌ مارقة، وأعراب كأعلاج(٨٠)، ومُسلمون في أخلاق النّصارى. وأمّا أهل الشّام فليس يعرفون إلّا آل أبي سُفيان، وطاعة بني مَروان؛ عداوة لنا راسخة، وجَهْلاً مُتراكمًا. وأمّا أهل مكّة والمدينة، فقد غلب عليهما أبو بكر وعُمر. ولكن عليكم بخراسان؛ فإنّ هناك العدد الكثير، والجَلَد الظاهر، وصدورًا سليمة، وقلوبًا فارغة، لم تتقسَّمها الأهواء، ولم تتوزّعها النِّحَل، ولم تشغلها ديانة، (...)، ولم يزالوا يُذَالون، ويُمتهنون، ويُظلمون، ويكظمون، ويتمنّون الفرج، ويُؤمّلون الدّول، وهم جنودٌ لهم أجسامٌ وأبدان ومَناكب وكَواهل وهَامات ولِحًى وشوارب، وأصوات هائلة، ولُغات فخمة، تخرج من

(٨٠) كذا، وأحسبُ أن الأصوب هو: وأعرابٌ أعلاج.

أفواهٍ مُنكرة»[٨١].

والحقّ، أنّ اختيار خُرَاسان لنَشْرِ الدّعوة فيها، كان اختيارًا مُوفّقًا؛ إذ كانت مهيّأة لقبول الدّعوة، فأهلها يؤمنون بانتقال المُلْكِ بالوراثة؛ وأهل البيت أحقّ بخلافة رسول الله ﷺ من بني أميّة، الذين امتلأت صدورُهم حَنَقًا ومَوْجِدة عليهم؛ لعدم المساواة بينهم وبين العرب، والحطّ من أقدارهم، والإزراء عليهم، فكانوا ينتظرون بارقةَ أملٍ تلوح لهم في أفق السّياسة للأخذ بثأرهم.

وكانت خُراسان أيضًا مَوئلاً لصراعٍ قبليٍّ عنيفٍ بين العرب أنفسهم، الأمر الذي فَتّ في عَضُدهم جميعًا، وجَعَلَهم أشتاتًا متفرّقين. وكان بنو أميّة يغذّون هذا الصّراع ويزيدونه ضِرامًا وأَجيجًا، فكان عامِلَ فَناءٍ، ومِعْوَلَ هَدْمٍ في صَرْحِ دولتهم، من حيث لا يشعرون. ثمّ أتى أبو مُسْلم الخراسانيّ، زعيم الدّعوة في خُراسان آنذاك، وكان داهية أريبًا فاتكًا، ليفيد من هذا الصّراع في إنجاح الثّورة، فأخذ يُلقي نار العداوة والبغضاء بين القبائل العربيّة في خراسان، وكانت بينها إِحَنٌ وثارات وسَخَائم، وَقَرَتها نفوسُهم منذ أمدٍ بعيد.

وتوفّي محمّد بن عليّ نحو سنة (١٢٥هـ)، فخلفه ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، وصار إمامَ الدّعوة، وكان كأبيه قويّ العزيمة، مُحكم التّدبير، سَديد الرّأي. وقد ولّى أبا مُسلم الخراسانيّ أمر الدّعوة في خراسان، بعد أن ظهرت عليه مَخايلُ النّجابة، وعلائمُ السّؤدد. وقد أوصاه وصيةً تعاورتها كتبُ التّاريخ، وفيها يقول: «يا عبد الرحمن! إنّك رجلٌ منّا ـ أهلَ البيت ـ فاحفظ وصيّتي، وانظر هذا الحيّ من اليمن، فأكرمهم وحُلَّ بين أَظْهُرِهم؛ فإنّ اللهَ لا يُتِمُّ هذا الأمر إلّا بهم، وانظر هذا الحيّ من ربيعة، فاتّهِمْهم في أمرهم، وانظر هذا الحيّ من مُضر؛ فإنّهم العدوّ القريب الدّار، فاقتل مَن شككتَ في أَمْرِه، ومَن كان في أَمْرِهِ

---

(٨١) عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري ٢٣٧/١. ويعني بالحَرُورية: الخوارج؛ وكان الإمام عليّ عليه السلام سمّاهم (الحرورية)؛ لأنهم يوم اعتزلوه نزلوا (حَرُوراء)، وهي قرية بظاهر الكوفة. انظر: الكامل، للمبرد ١٠٩٩/٣-١١٠١. و يُذَالون: يُهَـانُون؛ يُقال: ذَالَ الشيءُ (وأَذَاله): هانَ وابْتُذِل

شُبْهَةٌ، ومن وَقَعَ في نفسِك منه شيءٌ. وإن استطعت ألّا تدع بخراسان لسانًا عربيًّا فافعل، فأيّما غُلامٌ بَلَغَ خمسةَ أشبارٍ تتّهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ ـ يعني سُليمان بن كَثير ـ ولا تَعْصِه، وإذا أشكل عليك أمرٌ، فاكتفِ به منّي»[٨٢].

ومن الواضح أنّ إبراهيم الإمام يعوّل على الصّراع القبليّ في القضاء على بني أميّة، بيد أنّ تناقضًا واضحًا في هذه الوصية؛ إذ كيف يدعو أبا مُسلم إلى تأليف قلوب اليمنيين، والاستعانة بهم، وفي الوقت نفسه يدعوه إلى استئصال شَأْفَة كلِّ مَن يتكلّم العربيّة، ولا مِرَاءَ في كون أهل اليمن عَرَبًا، وكذلك بعض دُعاة الثّورة وقادتها، فكيف يصحّ قوله: «وإن استطعت ألّا تدع بخُراسان لسانًا عربيًّا فافعل»؟

وقد حاول بعض الباحثين تعليل ذلك؛ ليخلص من هذا التّناقض، فرأى بعضهم أنّ المقصود بـ(عربيًّا) هنا المُضريّة فحسب، ورُدَّ عليه أنّ الألسنة توحّدت منذ عهدٍ بعيد، فليس ثمّة لسان مُضَريّ وغير مُضَريّ. وهناك من رأى أنّ العبارة دخيلة على النّصّ، وليست من صُلْبه، وربّما تكون الوصية كلّها موضوعة. ورأى آخر أنّ (لسانًا عربيًّا) تصحيف لـ(إنسانًا مُريبًا)؛ بناء على طبيعة الخطّ العربيّ، ولأنّ المعنى على هذه الصّورة يفيد الرّيبة والشّك والتّهمة، كما في العبارة التي قبلها، والتي بعدها أيضًا: «فاقتل مَن شككتَ في أَمْرِه، ومَن كان في أَمْرِهِ شُبْهَةٌ، ومَن وَقَعَ في نفسِك منه شيءٌ، وإن استطعت....، فأيّما غلامٌ بَلَغَ خمسة أشبارٍ تتّهمه فاقتله». وثمّة مَن يرى أنّها تصحيفٌ لـ (لسانًا غريبًا) بمعنى (داعية) كما يُقال عن الجاسوس (عين)؛ أي داعية لغير العبّاسيّة. ولعلّ أوجه الآراء في هذه العبارة، القول بالتّصحيف، أيًّا كان أصل العبارة، المهمّ أن يرفع التّناقض من الوصية، ويستقيم مع

---

(٨٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣٤٤/٧. وانظر: الكامل في التاريخ ٣٥١/٤، والبداية النهاية، لابن كثير ٣١/١٠.
وسُليمان بن كَثِير الخُزَاعيّ، أحد دُعاة الثورة العبّاسيّة ونقبائها البارزين، منذ ابتداء أمرها، وقد قَتَله أبو مسلم الخراساني، بعد قيام الدّولة، وقال له: ((أتحفظ قول الإمام لي: مَن اتّهمته فاقتله ؟ قال: نعم، قال: فإنّي قد اتّهمتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله، وأنت مُنْطَوٍ على غِشّ الإمام؛ فأمر بضرب عُنقه))، سنة ١٣٢هـ. انظر: تاريخ الأمم والملوك ٤٥٠/٧.

سياق النّصّ. وإمكان وقوع التّصحيف وارد جدًّا ـ كما هو معلوم ـ وكثيرًا ما وقع في مصادر التراث وكتب الأقدمين.

وأوصى أبو مُسلم قوّاده، قائلاً: «أَشْعِرُوا قُلوبكم الجُرْأة؛ فإنَّها من أسباب الظَّفَر، وأَكْثِرُوا ذِكْر الضّغائن؛ فإنّها تبعث على الإقدام، والزموا الطّاعةَ؛ فإنّها حِصْنُ المُحارب»[٨٣]. وهذه الوصيّة تشي بطريقة أبي مُسلم ومَنْهجه في الحروب، وكيفيّة إحراز النّصر الحاسم على أعدائه، على الرّغم من إيجازها.

ولعلّ أشهر وصايا هذا العصر وأهمّها، وصايا المنصور إلى ابنه المهديّ، وهي بضع وصايا[٨٤]، على غاية كبيرة من الأهميّة؛ لأنّها تكشف عن دهاء المنصور ومنهجه السّياسيّ، وحِنْكته في حلِّ المُعضلات. ولنسمع إحدى وصاياه إليه: «لا تُبْرِم أمرًا حتّى تفكّر فيه؛ فإنَّ فِكْرَةَ العاقل مِرآةٌ، تُريه حَسَنَاتِه وسيِّئاته. واعلم أنّ الخليفةَ لا تُصْلحه إلّا التّقوى، والسّلطان لا تُصْلحه إلّا الطّاعة، والرّعية لا يُصْلحها إلّا العدل، وأَوْلى النّاس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقص النّاس عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هو دونه».

وكان المنصور يُدرك قيمة المال في دوام السّلطان، وحفظ المُلْك، لذا أكثر من جمعه، بطرق شتّى، وكان إلى ذلك بخيلاً به، حتّى سُمّي (أبا الدّوانيق)[٨٥]؛ لشدّته في محاسبة عمّاله على الدّانق وسواه. وقد يُسوّغ صنيعه هذا، بأنّ دولته ناشئة فتيّة، بحاجة إلى المال والرّجال.

وقد علّل بُخْلَه مرّةً تعليلًا سياسيًّا طريفًا؛ إذ روى ابن قتيبة الدّينوريّ أنّ المنصور قال في مجلسه لقُوّاده: «صَدَقَ الأعرابيّ، حيث يقول: أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ»، فقال أحد

---

(٨٣) العقد، لابن عبد ربه ١/١٥٤. وزهر الآداب، للحصري ٢/١٠٢٤.

(٨٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك ٨/٧١، ٧٥، ٨١، ١٠٢، ١٠٦. والعقد ١/٥٧. والوزراء والكتاب للجهشياري، ص١٢٦.

(٨٥) تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.

الحاضرين: «يا أمير المؤمنين: أخشى أن يُلوّحَ له غيرُك برغيفٍ فيتْبعه ويَدَعك»[٨٦]! وقد ذكر الطبريّ أنّه كان إذا جنى أحدٌ من وُلاته جناية، يعزله ويأخذ ماله، ويجعله في بيتِ مالٍ خاصّ به، ويكتب عليه اسم صاحبه، فلمّا أدركته الوفاة أوصى المهديَّ قائلاً: «إني قد هيّأت لك شيئًا، تُرضي به الخَلْق، ولا تَغْرم من مالك شيئًا، فإذا أنا متُّ فادْعُ هؤلاء الذين أخذتُ منهم هذه الأموال، التي سمّيتها المظالم، فارْدُد عليهم كُلَّ ما أُخِذ منهم؛ فإنّك تُسْتَحْمَدُ إليهم وإلى العامة»[٨٧].

ولم يترك المنصور شيئًا ذا بَالٍ من أمور المُلك والسّياسة والدّين إلّا أوصى ابنه به، فقد أوصاه بتقوى الله ومخافته، والحرص على مجالسة العلماء، وإقامة حدود الله، وتَرْك معاصيه، واجتناب نواهيه، وصِلة الرّحم، وضَبْط الثّغور، وعدم التّبذير، وإعداد الجُند، والتّوسعة على أهل بيته، والبرّ بأهل خراسان؛ شيعته وأنصاره، وممّا قاله أيضًا: «وباشرِ الأمور بنفسك، ولا تَضْجر، ولا تَكْسل، ولا تَفْشل، واستعمل حُسْن الظّنّ بربّك، وأَسِئ الظّنّ بِعُمّالك وكتّابك، وخُذْ نَفْسَك بالتّيقّظ، وتفقّد مَن يَبيتُ على بابك، وسهّل إذنك للنّاس، وانظر في أمرِ النُّزّاع إليك، ووكّل بهم عَيْنًا غير نائمة، ونَفْسًا غير لاهية، ولا تَنَمْ؛ فإنّ أباك لم يَنَمْ منذ وَلِيَ الخلافة، ولا دخَلَ عَيْنَه غَمْضٌ، إلّا وقلبُهُ مُسْتيقظ! هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك»[٨٨].

وكذلك أوصى المهدي ابنه الهادي كما أوصاه أبوه، ولا تخرج وصاياه في معانيها وأفكارها عن وصايا أبيه، وأوصى ابنه الرّشيد أيضًا بأهل بيت رسول الله ﷺ وبأهل الحَرَمين؛ لمكانتهم الدّينيّة، وأَثَرِ آبائهم في نُصْرة دين الله سبحانه.

---

(٨٦) عيون الأخبار ٥٥/١. والعقد ٤٢/١، وفيه: (أَجِعْ كلبك يتبعك، وسمّنه يأكلك). وهو مَثَلٌ، انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري ١١١/١ برقم ١٠٤.

(٨٧) تاريخ الأمم والملوك ٨١/٨.

(٨٨) المصدر نفسه ١٠٦/٨.

وقد أوصى الأمينُ، في حَرْبه مع أخيه المأمون، عليَّ بنَ عيسى بن ماهان قائدَ جيشه المتوجّه لحرب المأمون، أنْ يَمْنَعَ جُنْدَه من العَبَثِ بالرّعيّة، والإغارة على أهل القُرى، وقَطْع الشّجر، وانتهاك الحُرَم، والإحسان إلى النّاس، من أهل خُراسان، وألّا يُعاقب أخًا بأخيه، وأن يحرِصَ على أسْرِ المأمون أسْرًا.

ولأمّه زُبيدة بنت جعفر وصيّةٌ إلى ابن ماهان في السّبيل نفسِه، تُوصيه فيها بالرّفق بالمأمون، ومعرفة حقّه وقرابته من الأمين والرّشيد، وألّا يَقْتَسِرَه اقتسارَ العبيد(٨٩)، ولا يمنع منه خادمًا أو جارية، ولا يركب قبله، ونحو ذلك. وكانت دفعت إلى ابن ماهان قيدًا من فِضّة، ليقيّد به المأمون، إن صار في يده، كما جاء في تعبيرها(٩٠)، غير أنّ ما جرى حقًّا أَكْذَبَ الظّنون!

ومن وصايا المأمون وصيّته إلى أخيه المعتصم وابنه العبّاس، حينما حضرته الوفاةُ، وهي وصيّة طويلة جامعة، تُعنى بالآداب الخُلقية، والعبادات الدّينيّة، والتّدابير السّياسيّة، وكان من جُملتها التّوصية بالقول بـ (خَلْق القرآن)، والقضاء على ثورة بابك الخُرّميّ: «والخُرَّمِيَّة فأَغْزِهم ذا حَزامةٍ وصَرامة وجَلَد. ..؛ فإن طالت مُدَّتُهم، فتجرّد لهم بمَن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدّم النِّية فيه، راجيًا ثواب الله عليه». كما أوصاه بالرّفق واللّين مع آل عليٍّ ﷺ، «وهؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ فأَحْسِنْ صُحْبَتَهم، وتجاوز عن مُسِيئهم، واقْبَلْ من مُحْسِنهم، وصِلاتهم فلا تُغْفِلْها في كُلِّ سَنَةٍ عند مَحلِّها؛ فإنّ حقوقَهم تَجِبُ من وجوهٍ شتّى». وأوصاه أيضًا بالرّجال، الذين ينبغي أن يُعوّل عليهم، ويستعين بهم. فضلاً عن وصايا أُخَر، تدور في فَلَك الدّين والأخلاق والسّياسة(٩١).

---

(٨٩) اقْتَسَرَهُ: غَلَبَهُ وقَهَرَهُ على كَرْه. والقَسْوَرُ والقَسْوَرَةُ: الأسد، وكلّ شديد، ج: قَسَاوِرٌ، وقَسَاوِرَةٌ.

(٩٠) المصدر نفسه ٨/٤٠٥-٤٠٦. والكامل، لابن الأثير ٥/٤١٢. والفخري لابن الطقطقا ص٢١٤.

(٩١) تاريخ الأمم والملوك ٨/٦٤٧-٦٥٠. والكامل، لابن الأثير ٥/٥٧٦-٥٧٩.

وقد كان لوزراء بني العبّاس ووُلاتهم وكُتّابهم باعٌ مديد وحظٌّ وافر، في ازدهار الوصايا، وكثرة دورانها على الألسنة. ومَن يتصفّح مصادر التّراث، كالعقد وعيون الأخبار وزهر الآداب وغيرها، يجِد كثيرًا منها مَنْسوبًا إلى ابن المقفّع، أو إلى يحيى البرمكيّ، أو ابنه جعفر، أو الفضل بن سهل، أو أخيه الحسن، أو أحمد بن يوسف، أو طاهر بن الحسين وولده عبد الله، وغيرهم كثير.

وكان يحيى البرمكيّ مَضْربَ المَثَلِ في البلاغة وجَوْدة الرّأي وحُسْن التّدبير، وكان أولاده الفضل وجعفر ومحمّد وموسى من الأدب وحُسْن السّياسة بمكانٍ عظيمٍ أيضًا. وقد أضحت دولتُهم ـ كما يقول صاحب الفخري ـ: «غُرَّةً في جبهة الدّهر، وتاجًا على مَفْرق العصر، ضُربت بمكارمها الأمثال، وشُدّت إليها الرِّحَال، ونِيْطت بها الآمال (...) وهم يقول أبو نواس:

سلامٌ على الدّنيا إذا ما فُقِدْتُمُ بني بَرْمَكٍ من رائحينَ وغَادِ»(٩٢)

وللبرامكة أقوالُ ووصايا بديعة في سياسة المُلوك، وكان لثقافتهم الفارسيّة طيّب الأثر في ذلك، فقد كان يحيى البرمكيّ «إذا رأى من الرّشيد شيئًا يُنكره، لم يستقبله بالإنكار، وضَرَبَ له أمثالاً، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يُوجب مُفارقة ما أنكره. ويقول: في النّهي إغراء، وهو من الخلفاء أحرى؛ فإنّك، وإن لم تقصد إغراءه، إذا نهيتَه أغريته»(٩٣). ومن وصاياه: «إذا صحبتَ السّلطان فدَارِه مُداراةَ المرأة العاقلة لصُحْبة الزّوج الأحمق».

ويُؤثر ليحيى قوله الذي يَنِمُّ على معرفة فائقة بطباع المُلوك وحُسْن صُحْبتهم ومُدَاراتهم، وهو: «مُسَاءلة الملوك عن حالها من سَجِيَّة النَّوْكَى، فإذا أردتَ أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صَبَّح اللهُ الأمير بالنّعمة والكرامة! وإذا كان عليلاً، فأردتَ أن تسأله

---

(٩٢) الفخري، ص١٩٧. والبيت في ديوان أبي نواس، ص١٨٣.

(٩٣) الوزراء والكتّاب، ص٢٠٣.

عن حاله، فقل: أنزل الله على الأمير الشّفاء والرّحمة! فإنّ الملوكَ لا تُسْأل، ولا تُشَمَّت، ولا تُكَيَّف، وأنشد:

إنّ المُلوكَ لا يُخاطَبونا ... ولا إذا مَلُّوا يُعَاتبونا

وفي المَقَال لا يُنَازَعُونا ... وفي العُطَاس لا يُشَمَّتونا

وفي الخطابِ لا يُكَيَّفونا ... يُثْنَى عليهم، ويُبَجَّلونا

فافهمْ وَصَاتي لا تكن مجنونا»(٩٤)!

ومن البيّن أنّ يحيى البرمكيّ، هنا، يَصْدُرُ عن مَعِين حُكماء فارس في ميدان سياسة الملوك، ويترسّمُ خُطاهم، ويَنْزِعُ عن قَوسهم، ويقفُ معهم على صَعيدٍ واحد. ولذا، لا عَجَبَ إن سطعَ نجمُه، وعلا ذكرُه، وبَعُدَ أثرُه، في عصر الرّشيد، ولا غروَ أيضًا إنْ نَكَبَهُ الرّشيدُ وأهلَ بيته سنة (١٨٧هـ)، وقد رأى مُلْكه وسُلطانه في أيديهم، وتحت سَطْوتهم. ومَطَامعُ السّاسةِ وأهواؤهم لا يُسْتنام إليها، خاصّة أنّ البرامكةَ يَعْتَزُونَ إلى أَرُوْمَةٍ عريقة في الفُرس، فليسَ مِن المُسْتبعد أن تساورَهم أحلامُ إعادة المجد المُؤَثَّل لأبناء الحضارة السّاسانيّة. بيد أنّ الرّشيد جَذَّ عروقَهم، واستأصل شَأفتَهم، فكان مَثَلُهم كَمَثَلِ أهلِ قرية ﴿ **كانت آمنةً مُطمئنَّةً يأتيها رِزْقُها رَغَدًا من كلِّ مكانٍ فكَفَرَتْ بأَنْعُمِ الله فأَذَاقها الله لباسَ الجوعِ والخَوفِ بما كانوا يَصْنَعُون**﴾ [النّحل: ١٦/ ١١٢].

وتنمّ هذه الوصايا على بَصَرٍ بالأمور السّياسيّة، وحِنْكة في التّعامل مع الخلفاء، ومُدَاراتهم، وحُسْن التّأتّي في الأمور كلّها. وتجدر الإشارة إلى أنّ غَرَضَ الوصايا يصدر في قوالب مختلفة؛ أي يكون موضوعًا للخُطب والرّسائل والعُهود والشّعر الحِكمي وغيرها، وليس خاصًّا بأدب الوصايا؛ من حيث هو شكلٌ تعبيريّ، له مظاهره، وسماته الفنيّة الخاصّة

---

(٩٤) العقد ٢/٩٦، ٤٥٩. ومعجم الأدباء، لياقوت الحمويّ ٢٠/٥. والقولُ في عيون الأخبار منسوب إلى الفضل بن الربيع ١/٦٤. والنَّوْكى: جمع أَنْوَك؛ وهو الأحمق. والتشميت: ما يقال للعاطِس، إذا عَطَسَ، من نحو: رحمك الله. ولا تكيّف؛ أي لا يقال لهم كيف أنتم، أو كيف الحال ؟!

به؛ ولكنّ هذا لا يُسَوِّغ دراسة كلِّ ما يشتمل في موضوعه على وصايا أو نصائح، ضمن هذا الفنّ النثريّ.

بِنية الوصايا:

يتراءى للباحث أنّ الوصايا في الأدب العربيّ عامّة، وفي العصر العبّاسيّ خاصّة، ليست ذات بنية شكليّة مُحددة، أو ثابتة؛ لاختلاف التّكوين الفكريّ، والمستوى الاجتماعيّ، والمنصب السّياسيّ، للمُوصين. فهناك السّياسيُّ المحنّك، والأديبُ المبدع، والعامّيُّ المجرّب، والعاطفيّ الإنسانيّ. بيد أنّ الوصية ـ في أحيان كثيرة ـ ذات بنية ثُلاثية، كما هي الحال في الرّسائل والخُطب؛ إذ إنّها تتألّف من مُقدّمة وعرض وخاتمة.

أمّا المقدّمة فتكون ـ عادةً ـ بصيغة المنادى؛ سواء بالاسم أو بالكُنية، كقول إبراهيم الإمام لأبي مُسْلم الخراسانيّ: «يا عبدَ الرحمن!... »، وكذلك وصيّة المهديّ إلى الرّبيع بن أبي الجَهْم، حينما ولّاه فارس، إذ يقول فيها: «يا ربيعُ! آثِر الحقَّ، والزَمِ القَصْدَ، وابْسُط العَدْلَ، وارْفُق بالرّعية، واعْلَم أنَّ أَعْدَلَ النّاسِ مَنْ أَنْصَفَ من نفسه، وأَظْلَمهم من ظَلَمَ النّاس لغيره». ويُنادى بالكنية للتّكريم والتّحبّب، كما في إحدى وصايا المنصور لابنه المهديّ: «يا أبا عبد الله»، وكذلك وصية المأمون للمعتصم وابنه العبّاس، فقد ابتدأها بـ «يا أبا إسحاق».

وقد تكون الوصيّة مُصدّرة بعبارة: (يا بُنَيَّ، أو: أَيْ بُنَيّ)، كما في إحدى وصايا المنصور للمهديّ، ووصيّة المهديّ إلى ابنه الهادي[٩٥]. وتوحي هذه الصيغة (بُنَيّ) بالتّوادِّ والمُوادعة، وكَسْب الثّقة، والرّباط الحميميّ بين المُوصي والموصَى إليه، بحيث يشعر الموصَى إليه أنّ ما يُلقى إليه من نُصْحٍ عظيم، فأحرى به أن يُنْصِتَ إليه بإمعانٍ وتدبّر.

---

(٩٥) العقد ٢٢٩/١.

وقد يُتبع المُوصي صيغة النّداء عباراتٍ تدلّ على أهميّة الوصيّة، وضرورة التمسّك بها، كما في وصيّة إبراهيم الإمام إلى أبي مُسْلم، إذ يقول: «يا عبد الرحمن! إنّك رجلٌ منّا أهل البيت فاحفظ وصيّتي...». ولم يكن أبو مُسلم من أهل البيت كما قال، وإن ادّعى هو ذلك فيما بعد، وكان هذا الادّعاء من الهَنَات التي احتسبها عليه أبو جعفر المنصور، وعنّفه لأجلها، قبل أن يُطيحَ برأسه، ويسقيه كأس المَنُون. ومهما يكن، فإنّ إبراهيم الإمام أراد من ذلك أن يستثيره عاطفيًّا ووجدانيًّا، فيكسب وُدّه، ويُخلص لدعوته.

ويشمل العرض في الوصية عددًا من الوصايا، أو النّصائح والتّوجيهات، وتكون أحيانًا على شكل (تَعْدَادٍ). وقد يُوجز الموصي إيجازًا بالغًا، دون أن يُخطئ مَرْماه وغايته. وقد يفصّل القول تفصيلاً دقيقًا، فلا يغادر صغيرةً ولا كبيرة ـ ممّا يبتغي ـ إلّا أحصاها.

أمّا الخاتمةُ فتكون ـ أحيانًا ـ بالدّعاء، كما في ختام وصيّةٍ للمنصور، إذ يقول: «هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك». وخَتَمَ المهديُّ وصيّته إلى ابنه الهادي، بقوله: «أَصْحَبَكَ الله مِن عَوْنه وتوفيقه، دليلاً يَهْدِي إلى الصّواب قلبَك، وهاديًا يُنْطِق بالخيرِ لسانَك»[٩٦]. واختتم المأمونُ وصيّته إلى أخيه المعتصم بالصّلاة على النبيّ الكريم ﷺ، فقال: «حسبيَ الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على محمّد نبيّ الهدى والرّحمة». وختم الأمينُ بالاستفهام: «أفهمت كلّ ما أوصيتُك به»[٩٧]؟

وقد تأتي الوصايا غُفْلاً من الابتداء والاختتام أيضًا، في كثيرٍ من الأحيان، وذلك يعود إلى المُوصي والمُوْصَى إليه، وضرورة المقام. وهي ـ على أيّ حال ـ ليست لِزامًا عليه، ولا تثريب عليه إنْ أسقطها، ولم يأخذها بالحُسبان.

❊ ❊ ❊

---

(٩٦) العقد ٢٣٠/١.

(٩٧) تاريخ الأمم والملوك ٤٠٧/٨.

٢ـ الحِكَم والأقوال:

أسلوبٌ نثريٌّ، ونَمَطٌ تعبيريّ بالغ التّأثير، يعبّر فيه صاحبُه عن خُلاصة تجاربه الإنسانيّة، وأسلوب تفكيره، ومَنَاحي فلسفته، وقِيمه الاجتماعيّة، ومُثُله الأخلاقيّة التي يُؤمن بها؛ لتكون مِثالاً يُحتذى، ودستورًا للعمل والسّلوك.

وقد حَفَلَ تراثنا العربيّ منذ القِدم بالحِكَم والأقوال المأثورة، التي تعكس نظرة العربيّ إلى الحياة والكون والإنسان، والتي عرضت لمسائل سياسيّة واجتماعيّة ونفسيّة وغيرها، وعكست طبيعة تصوّرهم لهذه المسائل، ولمنظومة القيم والمبادئ التي يؤمنون بها. وللحِكَمِ وظائفُ فكريّة مُهمّة؛ لصدورها ـ عادة ـ عن صفوة المفكّرين والحُكماء المشهورين، ومَن لهم تجارب واسعة في الحياة، فضلاً عن وظائفها الجماليّة والفنيّة.

وقد كان للعرب حِكَمُهم وحكماؤهم في الجاهلية، كأكثم بن صيفيّ، وقُسّ بن ساعدة الإياديّ، وغيرهما. ثمّ بلغت الحِكمةُ شأوًا بعيدًا، بعد أن أشرقت الأرضُ بنورِ ربِّها، فكان رسول الله ﷺ إمام الحُكماء، وسيّد البُلغاء؛ «لأنّه أَفْصح العرب لسانًا، لا بيانٌ كبيانه، ولا كلامٌ يُعْدَلُ بكلامه، أُيِّدَ بالحِكْمة، وحُفَّ بالعِصْمة، فبذّ النّاطقين، وحازَ قَصَبَ السّابقين، فصلّى الله عليه وعلى جماعةِ النّبيين»(٩٨)، ولعلّ أبلغ حِكَمه تتمثل في جوامع الكَلِم، التي اختُصّ بها ﷺ. وكان خلفاؤه الرّاشدون ﷺ في الأُفُق الأعلى من البلاغة والحِكْمة، فكانت حِكَمهم وأقوالهم ـ ولا سيّما حِكم عليّ ﷺ ـ مِثالاً يحذو حَذْوه شُدَاة الحِكمة، وطُلاّب الآداب الرّفيعة.

أمّا في العصر العبّاسيّ فقد انطوت المصادر على طائفةٍ من الحِكم الدّائرة، والأقوال السّائرة، لرجالات ذلك العصر وحكمائه. وتناولت قضايا سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة وغيرها. والحقّ أنّ كثيرًا منها عُني بشؤون السّياسة وإدارة الحُكم، والآداب الواجب

---

(٩٨) إحكام صنعة الكلام، لمحمّد بن عبد الغفور الكلاعي، ص١٦٧. وانظر: البيان والتبيين، للجاحظ ١٧/٢.

مُراعاتها لمن اتّصل بالملوك، وعَلَتْ مرتبتُه عندهم، وجلّت مكانتُه في نفوسهم. ومَن يُطالع (كتاب السّلطان) في (عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) وكتاب (اللؤلؤة في السّلطان) في (العِقد) لابن عبد ربّه (ت ٣٢٨هـ)، وكتاب (السّياسة والآداب المُلوكيّة) في تذكرة ابن حَمْدون (ت ٥٦٢هـ)، وغيرها من مصادر التّراث؛ يجد كثيرًا من هذه الحِكَم والأقوال، منها ما يتعلّق ببقاء المُلك واستمراره، وأخلاق الملوك، والصّفات الحميدة لهم، وواجباتهم تجاه الرّعيّة، وواجبات الرّعيّة تجاههم، وآداب مُجالسة الملوك وصُحْبتهم، وما إلى ذلك.

هذا، فَضْلاً عن حِكَم غيرهم من الشّعوب، ولا سيّما أبناء يونان وفارس. وقد «احتفتِ الحِكَمُ الفارسيّة كثيرًا بموضوع السّلطان والمُلْك، ولا غروَ في ذلك؛ فقد كان المُلْك شُغلهم الشّاغل، وكان المَلِكُ ظِلَّ الله في أرضه عندهم، ويعتقدون أنّه مُزَوَّدٌ بحقٍّ إلهيٍّ، لا رَادَّ له ولا غاصب. وقد عُرِفَ الإيرانيّون منذ زمنٍ سَحيق بامتلاكهم أمثل نظام سياسيّ واجتماعيّ واضح القَسِمات، بيّن الملامح، بالقياس إلى الأمم الأخرى المعاصرة لهم»(٩٩).

وقد تُرجم إلى العربيّة من هذه الحِكم الجمّ الغفير، مَصُوغة بلغةٍ عربيّة رفيعة النّسج، ومنسوبة - في أحيان كثيرة - إلى أصحابها، من مثل: كسرى أنوشروان، وبُزُرجمهر، وأردشير الذي وصل إلينا عَهْده، وفيه حِكَمٌ جمّة له؛ منها قوله: «لا سلطانَ إلّا برجالٍ، ولا رجالَ إلّا بمالٍ، ولا مال إلّا بعمارة، ولا عمارة إلّا بعَدْلٍ وحُسْن سياسة»(١٠٠). وقد كانت هذه الحِكَم والأقوال من أدوات الكتابة في الدّواوين؛ إذ ينبغي على الكاتب أن يأخذَ نفسَه بمعرفتها وإتقانها والإلمام بها.

وقد تأثّر الكُتّاب والأدباء العرب بما تُرجم عن الفارسيّة أو غيرها، فحَذَوْا حَذْوها، ولا سيّما وزراء الدّولة، وكان أغلبهم من الفُرس، كالبرامكة وبني سهل. وكان لهم دورٌ

---

(٩٩) تأثير الحِكم الفارسية في الأدب العربي، عيسى العاكوب، ص١٠٤.

(١٠٠) عهد أردشير، ص٩٨.

كبير في حركة النّقل والتّرجمة عن الفارسيّة. ومن الحِكَم والمأثورات قول المأمون: «أوّل العَدْلِ أنْ يَعْدِلَ الرّجل على بِطَانته، ثمّ الذين يَلُونهم، حتّى يبلغ العدل الطبقة السُّفلى». وقال أيضًا: «مَنْ مَدَح لنا رجلاً، فقد تضمّن عيبه»(١٠١). والحِكمة من قوله هذا، تكمن في إشراك المُسْتشار في المسؤوليّة باختيار الوُلاة والعُمّال، فلا يشير بغير الأكفياء؛ إذ سيناله ـ لا محالة ـ نصيبٌ وافرٌ من عواقب جرائرهم وهَنَاتهم.

ومن حِكَم خالد بن صفوان(١٠٢) قولُه: «من صَحِبَ السّلطان بالصّحة والنّصيحة، كان أكثر عدوًّا ممّن صَحِبه بالغِشّ والخيانة؛ لأنّه يجتمع على النّاصح عدوُّ السّلطان وصديقه بالعداوة والحسَد، فصديق السّلطان يُنافسه في مرتبته، وعدوُّه يُبْغِضه لنصيحته»(١٠٣). وكان يحيى البرمكيّ، كما قلنا، لبيبًا أَلْمعيًّا في إسداء الحِكم والنّصائح، ومن حِكمه قولُه: «لا أرحامَ بين الملوك وبين أَحد». وقوله: «العَجَبُ للسّلطان كيف يُحْسن، ولو أساء كلَّ الإساءة، لَوَجَدَ مَنْ يزكّيه، ويشهد أنّه مُحسن»(١٠٤).

وجملةُ القولِ أنّ هذه الحِكَم والأقوال السّائرة، كانت قد جمعت إلى إصابة المعنى، إيجاز اللّفظ، ولذا تناقلتها الأجيال وتداولتها الكُتب. و«خيرُ الكلامِ ما لم يُحْتَجْ معه إلى كلام»، كما يقول التّوحيديّ (ت٤١٤هـ).

---

(١٠١) المصدر نفسه ٦١/١.

(١٠٢) خالد بن صفوان، التّميمي: خطيبٌ مفوّه، من مخضرمي الدّولتين، وكان من سُمّار أبي العبّاس السّفّاح (ت نحو ١٣٣هـ). انظر: البيان والتبيين ٢٤/١٢، ٤٧، ١٧٠، ٣١٧، ٣٣٩ ومواطن أخرى. ووفيات الأعيان، لابن خلكان ١٢/٣.

(١٠٣) العقد ٢٤/١.

(١٠٤) الوزراء والكتّاب، ص١٧٩.

Al-Furat University

رابعًا: أدبُ العهود

.تمهيد:

يقول الشّريف الجرجانيّ (ت ٨١٦هـ) في كتابه (التّعريفات): «العَهْدُ: حفظُ الشّيء ومُرَاعاته حالاً بعد حال، هذا أصله، ثمّ استُعْمِل في المَوْثِق الذي تلزم مُراعاته، وهو المُراد»[١٠٥]. والمَوْثِقُ هو العَهْدُ؛ الذي هو عبارة عن القوانين والتّكاليف والوصايا والتّدابير، التي يرسمها الخلفاء أو مَن دُونهم، لمن يتولّى عملاً ما من أعمال الدّولة.

وهو أشبه بدُسْتورٍ للحُكْمِ الرَّشيد، والحاكم القويم العادل؛ إذ تُحدّد فيه مجموعة من الآداب الدِّينيّة والخلقيّة، والأحكام السّياسيّة والإداريّة، التي ينبغي أن يترسّمها، ويعمل بمُقتضاها صاحب العَهْدِ، أو المعهود إليه.

وقد عُرفت العهود منذ نشأة الدّولة الإسلاميّة؛ إذ إنّها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسياسة الحُكم وشؤون الدّولة. ولعلّ من أشهر العهود في عصر صدر الإسلام العَهْد المنسوب إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﵁ (ت ٤٠هـ) الذي كتبه إلى الأشترِ النَّخَعيِّ مالكِ بن الحارث (ت ٣٨هـ)، حينما بعثه واليًا على مصر؛ بيدَ أنّه مات مَسْمومًا، وهو في طريقه إليها، ويدلّ هذا العهد دلالة بالغة على عبقريّة الفِكْر السّياسيّ والإداريّ آنذاك.

أمّا في العصر الأمويّ فنحظى بدُسْتورٍ عظيم في ميدان الأدب السّياسيّ؛ ألا وهو العهد الذي كتبه عبدُ الحميد بن يحيى الكاتب، على لسان مروان بن محمّد، آخر خلفاء بني

---

(١٠٥) التعريفات، ص١٣٠ (باب العين). وفي أساس البلاغة للزمخشري: عَهِدَ إليه، واستعهد منه: إذا وصّاه وشرط عليه. والرَّجُلُ العَهِدُ: المحبّ للولايات والعهود. وبينهما عَهْدٌ: أي مَوْثِق. [مادة: عَهِدَ].

أميّة، إلى ابنه ووليّ عهده عُبيد الله (أوعبد الله)، حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشّيبانيّ الخارجيّ، وقد أطال فيه عبدُ الحميد القولَ، حتّى بلغ زُهاء خمسين صفحة.

أمّا في العصر العبّاسيّ، فتُطالعنا عهودٌ عدّة سَلِمت من الحَدَثان، وهي لا تشكّل إلّا النَّزْر اليسير من العهود، التي دُبّجت في تلكم العصور الغابرة. ويمكن أن تُصنّف، بحسب المُرسِل، إلى صنفين: ١- عهود الخلفاء ٢- عهود الولاة والعمّال.

١. عهود الخلفاء:

وقد سَلِم لنا منها بضعة عهود، وهي موجّهة من الخلفاء إلى أولياء العهد من بعدهم، أو إلى الولاة والعمّال، ليحدّدوا لهم القوانين والرّسوم التي يجب عليهم أن يتقيّدوا بها، أو يعيّنوا بموجبها مَنْ يخلفهم في إمامة المسلمين وحُكمهم، فثمّة عَهْدٌ مُوجز للسّفّاح بالخلافة لأخيه المنصور من بعده، ثمّ لابن أخيه عيسى بن موسى.

وتركَ المنصورُ عَهْدًا مُطوّلاً إلى ابنه المهديّ، قُرِئ بعد وفاته، وممّا جاء فيه: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. هذا ما عَهِد عبد الله أمير المؤمنين، إلى المهديّ محمّد ابن أمير المؤمنين، ووليّ عهد المسلمين، حين أَسْنَدَ وَصِيَّتَهُ إليه بَعْده، واستخلفه على الرّعية من المسلمين وأهل الذّمّة، وحرَم الله، وخزائنه، وأرضه التي يُورثها مَن يشاء من عباده، والعاقبةُ للمتّقين(١٠٦). إنّ أميرَ المؤمنين يُوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذّرك الحَسْرَةَ والنَّدامة والفضيحة في القيامة، قبل حُلول الموت وعاقبة الفَوْت، حين تقول: ﴿**رَبِّ لولا أَخَّرْتَنِي إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾(١٠٧)، هيهات! أَيْنَ مِنْكَ المَهَلُ، وقد انقضى عَنْكَ الأَجَلُ؟ وتقول: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا...**﴾(١٠٨)، فحينئذٍ يَنْقَطِعُ عنك أهلُك، ويَحِلُّ بك

(١٠٦) استمدّه من قوله تعالى: ﴿إنّ الأرض للّهِ يُوْرِثُها مَنْ يشاءُ مِن عبادِه والعاقبة للمتّقين﴾[الأعراف: ٨/٧].

(١٠٧) سورة (المنافقون): ١٠/٦٣.

(١٠٨) سورة (المؤمنون): ٩٩/٢٣-١٠٠.

عَمَلُك، فترى ما قَدَّمَتْهُ يداك، وسَعَتْ فيه قَدَمَاك، ونَطَقَ به لِسَانُك (...) فَتُجْزَى عليه الجزاء الأوفى، إنْ شرًّا فشرًّا، وإنْ خيرًا فخيرًا،...»[١٠٩].

ثمّ طَفِقَ المنصورُ يأمرُه بالعَدْل بين الرّعيّة طلبًا لرضا الله، واختيار الأكفياء من أهل المروءة والدّين، وعمارة البلاد بتخفيف الخَرَاج، وسدِّ الثّغور والجهاد، والمُحاماة عن الدِّين، وبَذْل المال والمُهْجَةِ في سبيل ذلك، وتفقّد الجيوش، وما إلى ذلك من أوامر ووصايا تخصّ سياسة الحكم وشؤون الدّولة.

وعَهِدَ الخليفةُ المهديُّ عَهْدًا إلى أحد وُلاته، حين ولّاه ثَغْرَ أرمينية وما وليها، وقد أَمَرَهُ فيه بتقوى الله في السّرّ والعَلَن، والاعتصام بحَبْل الله المتين، والإيثار لحقّه على ما سواه، والإحسان إلى خَلْق الله؛ «فإنَّ الله لا يُضِيْعُ لمُحْسِنٍ أَجْرًا، ولا يُصْلِحُ لمُفْسِدٍ عَمَلاً»[١١٠].

وبعد جملة من الوصايا التي تُعنى بالآداب الدّينيّة والخُلقيّة، ينتقلُ إلى بيان التّدابير السّياسيّة والإداريّة، التي تضبط شؤون ولايته، خاصّةً أنّه يتولّى ثغْرًا من أعظم الثّغور؛ لقربه من العدوّ، وإطلاله عليهم. ثمّ ينعطف مرّة ثانية إلى الجانب الدّينيّ، فيأمره بأداء الصّلاة لمواقيتها في مسجد الجماعة، ولا يتشاغل عنها بغيرها؛ فإنَّ الله جعلها عمود الدّين، فقال تبارك تعالى: ﴿**فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيْمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ على الْمُؤْمنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾[١١١].

ثمّ ينعطف مرّة أخرى إلى الآداب السّياسيّة والإداريّة، فيدعوه إلى قلّة الاحتجاب عن الرّعيّة، ولِيْن الجانب، ورَحابة الصّدر، وعدم مُحاباة الشّريف، أو التّعدّي على حَقّ

---

(١٠٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٩٢-٣٩٤.

(١١٠) استمده من قوله تعالى: ﴿إنّا لا نُضِيْعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠/١٨]. وقوله ﷻ: ﴿إنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدين﴾ [يونس: ٨١/١٠].

(١١١) سورة النساء: ١٠٣/٤.

الوضيع، ورَدّ المظالم، وحُسْن الولاية، ورِفْق السّياسة، وإيثار أهل الطّاعة والنّصيحة والفضل والوَرَعِ وصِدْق النّيّة، ونحو ذلك.

ثمّ ختمَ عَهْدَه بالقول: «هذا عَهْدي إليك، وأَمْرِي إيّاك فيما وَلَّيْتُكَ، وأَسْنَدْتُ إليك وقلّدتُك، فامتثلْه، واعمَلْ به ولا تُجاوِزْه، واستعن بالله فيما غَلَبَك يُعِنْكَ الله. والله أسألُ أنْ يصلّي على محمّد عبده ورسوله، وأن يوفّقك ويُحْسِنَ كفايتك»(١١٢).

وكان الرّشيدُ ولّى عليّ بن عيسى بن ماهان (سنة ١٨٣هـ) خُراسان، فعاثَ فيها فسادًا، وأساء السّيرةَ في أهلها، فظلمَ وجار وكثُرت الشّكايةُ منه، مُخالفًا بذلك عَهْدَ الرّشيد إليه. فكتب الرّشيد إليه كتابًا، أغلظَ له فيه، وأعلمه بتولية هَرْثمة بن أَعْين مكانه، وتسليمه ما في حوزته؛ «فإنْ أَبَيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمّالك، فله أن يَبْسُطَ عليكم العذابَ، ويَصُبَّ عليكم السِّيَاطَ، ويُحِلَّ بكم ما يَحِلُّ بمن نَكَثَ وغَيَّرَ وبَدَّل، وخالفَ وظلمَ وتعدّى وغَشَمَ؛ انتقامًا لله عَزَّ وَجَلَّ بادئًا، ولخليفته ثانيًا، وللمسلمين والمعاهدين ثالثًا»(١١٣).

وقد كتب الرّشيدُ عَهْدًا إلى هَرْثمة بن أَعْين، رَسَمَ له فيه الحدودَ والرّسومَ التي ينبغي له أن يترسّمَها في خُطاه جميعًا؛ إذ أَمَرَه بتقوى الله وطاعته، «وأن يَجْعَلَ كتابَ الله إمامًا في جميع ما هو بسبيله، فَيُحِلّ حلالَه، ويُحَرِّم حرامه، ويقف عند مُتَشابهه (...) وأن يَسْتَوْثِقَ من الفاسق عليّ بن عيسى وولده وعمّاله وكتّابه، وأن يَشُدَّ عليهم وَطْأَته، ويُحِلَّ بهم سَطْوَتَه، ويستخرج منهم كلَّ مالٍ يَصِحُّ عليهم، من خَرَاجِ أمير المؤمنين، وفَيْءِ المسلمين». وبعد أن يوجّهه الرّشيدُ فيما يجب عليه فعله، يوصيه قائلاً: «فاعمل، يا أبا حاتم، بما عَهِدتُ إليك، فإنّي آثرت الله وديني على هواي وإرادتي، فكذلك فليكن عَمَلُك، وعليه فليكن أَمْرُك»(١١٤).

---

(١١٢) جمهرة رسائل العرب، لأحمد زكي صفوت ١٣٢/٣–١٣٤، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور، لابن أبي طاهر طيفور ٥٠٣/١٣.

(١١٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣٢٧/٨. وغَشَمَ: ظَلَم أشدّ الظُلم؛ فهو غاشمٌ، وغَشُوم. ويُقال للحرب: غَشُوم؛ لأنها تنال غير الجاني، وناقة غَشُوم: لا تُرَدّ عن وجهها. [المعجم الوسيط: مادة: غشم].

(١١٤) تاريخ الأمم والملوك ٣٢٧/٨–٣٢٨.

وكان الرّشيد عَهِدَ في ولاية العَهْد - كما هو معلوم - إلى ثلاثةٍ من أبنائه، وهم الأمين والمأمون والمؤتمن (القاسم) على الوِلاء، وقسّم المُلْك فيما بينهم، وهو على سُدّة الخلافة، فزرعَ بيده بُذورَ الفتنةِ والشِّقَاقِ فيما بينهم، مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب. وقد كان يخشى ذلك أيّما خَشْية، لذا أرادَ أنْ يستوثقَ من الأمين والمأمون، ويأخذَ عليهما العُهود والأيمان، فلمّا حجّ سنة (١٨٦هـ)، استصحبَ معه ابنيه، وأراد أن يضفيَ على عمله صبغةً دينيّة مقدّسة، فاستكتبَ الأمينَ والمأمونَ بخطّ يَديهما عَهْدين على أنفسهما بالوفاء وعدم الغَدر والنَّكْث، وجعل الكتابين في البيت الحرام، وأَمَرَ أن يُعَلَّقَا في الكعبة المشرّفة. وقد أكّد الأمرَّ فيهما تأكيدًا بلغَ الغايةَ في التّشديد، وأشهد على ذلك الشّهود؛ إلّا أنّ ذلك كلّه لم يَحُلْ دون وقوع فتنةٍ شَعْواء بين الأخوين، فكان بأسُهم بينهم شديدًا، وزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالها، ممّا استفاضت في ذكره كتبُ التّاريخ.

وكان المأمونُ كتب عَهْدًا على نفسِه إنْ وَلِيَ الخلافة، في كيفيّة تسيير أمور دولته، وسياسته في الخاصّة والعامّة من رعيّته. وقد ألزمَ نفسَه في هذا العَهْدِ العملَ بكتابِ الله، وسُنّةِ رسوله ﷺ، وألّا يسفك دمًا حرامًا عَمْدًا، إلّا ما أَحَلَّ الله في حدوده وفروضه، ولا يَغْصِب أحدًا مالاً ولا أثاثًا، ولا يتّبع سُبُلَ الضّلالة والغَوَاية والهوى. ثمّ يقول: «وجعلت ذلك كلّه عَهْدًا مُؤكّدًا عليّ أن أَفِي به؛ رغبةً في زيادته إيّاي، ورهبةً من مُسَاءلته لي عنه؛ فإنَّه جَلَّ وعَزَّ يقول: ﴿ **وَأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً** ﴾[(١١٥)]. فإنْ حُلْتُ أو غَيَّرتُ كنتُ لِلَّعْنِ مُسْتَحِقًّا، وللنَّكَال مُتَعَرِّضًا. وأعوذُ بالله من سَخَطِه، وأرغبُ إليه في المعونة لي على طاعته...»[(١١٦)].

---

(١١٥) سورة الإسراء: ٣٤/١٧.

(١١٦) الوزراء والكتّاب، للجهشياري ص٢٧٩.

وكان المأمون ميّالاً إلى آل عليّ ﷺ؛ فاختار لولاية عهده عليًّا (الرّضا)، وهو الإمام الثّامن عند الشّيعة الإماميّة، وأمَرَ جُنْدَه بطَرْح السّواد شعار العبّاسيّين، ولبْس ثياب الخُضْرة، واتّخذها شِعارًا لدولته، وكتبَ عَهْدَهُ بذلك إلى الآفاق(١١٧).

وممّا يُؤْثَرُ من العهود في عصر المُعتصم والواثق العَهْد الذي كتبه محمّد بن عبد الملك الزّيّات (ت٢٣٣هـ) للواثق على مكّة، وقد كتبه بحَضْرة والده المُعتصم على هذا النّحو: «أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين قد قلّدك مكّة وزَمْزَم، تراثَ أبيك الأَقْدَم، وجَدِّك الأكرم، ورَكْضَة جبريل، وسُقْيَا إسماعيل، وحَفْر عبد المطّلب، وسِقاية العبّاس؛ فعليك بتقوى الله تعالى، والتّوسعةِ على أهل بيته»(١١٨).

ومن الواضح، ههنا، أنّ ابنَ الزّيّات أوجز غاية الإيجاز، وأعجز في الوقت نفسِه؛ إذ أتى بما يُوصى به في كلّ العهود عادةً، أعني التّوصية بتقوى الله والعمل بكتابه، وحُسْن السّياسة والتّدبير (التّوسعة على أهل بيته). ولعلّه أَوْجز عَهْدٍ في العصر العبّاسيّ الأوّل؛ بل هو كذلك فيما وصل إلينا من العهود.

وقد ذكر فيه قضايا تاريخيّة وإسلاميّة، يطول ذكرُها، لو رام إلى ذلك سبيلاً؛ فقد أشار إلى قصّة هاجر زوج إبراهيم ﷺ، حين ولدت إسماعيل، فتملّكتِ الغَيْرَةُ قلبَ سارة الزّوجة الأولى لإبراهيم ﷺ، فألجأته إلى إنزالهما بِوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ؛ كما وَرَدَ في البيان الإلهيِّ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧]. ولمّا لم يجدا ماءً ينقعُ غُلّتَهما، استبدّ بهاجر اليأسُ، فهبط جبريل ﷺ راكضًا على موضع بئر زمزم؛ فانفجرت منه الماءُ ـ بإذن الله ـ ثمّ مرّت الأيّامُ فانطمرت البئرُ وامّحت معالمُها،

---

(١١٧) انظر: صبح الأعشى ٣٧٩/٩-٣٨٣.

(١١٨) زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني ١٠٢٦/٢. ويعني بأبيه الأقدم: إسماعيل ﷺ، وبجدّه الأكرم: إبراهيم الخليل ﷺ.

فحفرها عبدُ المطّلب جدّ الرّسول الكريم ﷺ، وسقى منها الحجيج، ثمّ وَرِثَ السّقاية العبّاس بعد أبي طالب، وهو جدّ العبّاسيّين.

٢ـ عهود الولاة والعمّال:

ولعلّ أشهر عَهْدٍ في العصر العبّاسيّ الأوّل، العَهْد الذي كتبه طاهر بن الحسين (ت ٢٠٧هـ) لولده عبد الله (ت ٢٣٠هـ)، لمّا ولاّه المأمون الرّقّة ومصر وما بينهما سنة (٢٠٦هـ)[١١٩]، ولم أقف على غيره من عُهود الولاة والعمّال، ولا ريبَ في أنّها عديدة؛ إذ إنّ بعضَ وُلاة الدّولة وعمّالها يتبع غيرَه، بحسب التّرتيب الهرميّ للإدارة، فلا بدَّ إذن من التّوجيه وبيان أسس السّيرة في الرّعيّة.

وعَهْدُ طاهرٍ إلى ابنه مِن أحسنِ ما كُتِب في السّياسة ـ كما يقول ابن خلدون ـ إذ «عَهِدَ إليه فيه، ووصّاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسُلطانه، من الآداب الدّينيّة والخلقيّة، والسّياسة الشّرعيّة والملوكيّة، وحَثَّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشّيم، بما لا يستغني عنه مَلِكٌ ولا سُوْقَة»[١٢٠].

فهذا العَهْدُ دُسْتورٌ في العمل والسّلوك، استهلّه طاهرٌ بحضّ ابنه على تقوى الله وطاعته، والرّأفة برعيّته، وإقامة العدل فيهم، والأخذ بسنّة رسول الله ﷺ، واقتفاء آثار السّلف الصّالح من بعده، ثمّ نَصَحَه بالاقتصاد في أموره كلّها، وألّا يتوانى في طَلَب الآخرة، ويُحْسن الظّنّ فيمَن يولّيه عملًا، مع الحِياطة والحذر، وأن يُقيمَ حدودَ الله، ويجافي الكذبَ وقولَ الزُّور والنّميمة، والمآثم كلّها، ويحبَّ أَهْلَ الصِّدق ويلزمهم، ويَصِلَ الضّعفاء، وذوي الأرحام؛ ابتغاءَ وجهِ الله وثوابه، ونحو ذلك من الوصايا والآداب الدّينيّة والخُلقية.

---

(١١٩) انظر: كتاب بغداد، لابن طيفور، ص٢٦-٣٤. وتاريخ الأمم والملوك ٥٨٢/٨-٥٩١. وجمهرة رسائل العرب ٤٠٦/٣-٤١٦.

(١٢٠) مقدّمة ابن خلدون ٣٢٥/١.

ومن ذلك قوله: «وإيّاكَ أن تُنْسِيكَ الدّنيا وغرورُها هَوْلَ الآخرة، فتتهاونَ بما يَحِقُّ عليك؛ فإنَّ التّهاونَ يُوْرِثُ التّفريط، والتّفريط يُوْرِثُ البَوار، وليكن عَمَلُكَ لله ﷻ وفيه، وارْجُ الثّواب منه؛ فإنّ الله ﷻ قد أَسْبَغَ عليك فَضْلَه. واعتصمْ بالشّكر، وعليه فاعتمد، يزِدْكَ الله خيرًا وإحسانًا، فإنّ الله ﷻ يُثيبُ بقدر شُكْر الشّاكرين، وإحسان المُحْسنين، ولا تَحْقِرَنَّ ذنبًا، ولا تُمَالِئَنّ حاسدًا، ولا ترحمنَّ فاجرًا، ولا تصِلَنَّ كفورًا، ولا تُداهنَنَّ عَدُوًّا، ولا تُصَدِّقنَّ نمّامًا، ولا تَأْمننَّ غدّارًا، ولا تُوالينَّ فاسقًا، ولا تَتبّعَنَّ غاويًا، ولا تَحْمَدنَّ مُرائيًا، ولا تَحْقِرَنَّ إنسانًا، ولا تَردّنَّ سائلاً فقيرًا، ولا تُحسِّنَنَّ باطلاً، ولا تُلاحِظَنَّ مُضْحِكًا، ولا تُخلِفَنَّ وَعْدًا، ولا تَزْهُوَنَّ فَخْرًا، ولا تُظْهِرَنَّ غَضبًا، ولا تُباينَنَّ رجاءً، ولا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا، ولا تُزَكِّيَنَّ سفيهًا،...»(١٢١).

وعلى هذه الجادّة الخُلقيّة مضى طاهرٌ في عَهْدِه شَوْطًا بعيدًا، حتّى إذا وَقَرَ في نفسِه أنّه أربى فيه على الغاية، وأتى بالفَصْل، شَرَعَ في ذكر التّدابير السّياسيّة والإداريّة، فأوصاه بتفقّد الجُنْد، ودَفْع أرزاقهم، والتّوسعة عليهم في معيشتهم، كما أوصاه بالاهتمام بالقضاء؛ لأنّه ميزان الله، كما يقول، وبه تصلحُ الرّعيّةُ، وتأمنُ السُّبُل، وينتصف المظلوم. ثمّ «انظر هذا الخَرَاج الذي استقامت عليه الرّعيّة، وجعله الله للإسلام عِزًّا ورِفْعة، ولأهله تَوْسِعَةً ومَنَعَة، ولعدوّه كَبْتًا وغيظًا، ولأهل الكُفر من مُعَاديهم ذُلًّا وصَغَارًا، فوزِّعه بين أصحابه بالحقّ والعدل والتّسوية والعُموم، ولا تَدْفعنَّ شيئًا منه عن شريفٍ لشَرَفه، ولا عن غنيٍّ لغِناه، ولا عن كاتبٍ لك، ولا عن أحدٍ من خاصَّتك ولا حاشيتك، ولا تأخذنّ منه فوق الاحتمال له. ولا تكلّف أمرًا فيه شَطَطٌ، واحملِ النّاس كلّهم على مُرِّ الحقّ، فإنّ ذلك أجمع لأُلْفَتِهم، وألزم لرضاء العامّة. واعلم أنّك راعيهم وقيّمهم، فخُذْ منهم ما أَعْطَوْكَ من عَفْوهم، وانفقه في قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أَوَدِهم».

---

(١٢١) المصدر نفسه ٣٢٨/١.

والحقّ أنّ الإلمامَ بوصايا هذا العَهْد وأوامره، أو الوقوف عليها وقفة متأنّية متّئدة، يستغرقُ صفحاتٍ قد تطول، بل هو أحْرَى ببَحْثٍ مُستقلٍّ منه إلى صفحات، لذا لا غَرْوَ إن تنازعه النّاس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، وذاع صِيْتُه، حتّى بلغ المأمون؛ فَدَعَا به وقُرِئ عليه، فقال: «ما أَبْقَى أبو الطَّيِّبِ - يعني طاهرًا - شيئًا من أمور الدُّنيا، والدِّين، والتّدبير، والرّأي، والسّياسة، وصَلاح المُلْكِ والرّعيّة، وحفظ السُّلطان، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة، إلّا وقد أَحْكَمه وأوصى به. ثمّ أَمَرَ المأمون، فكتب به إلى جميع العُمّال في النّواحي؛ ليقتدُوا به، ويعملوا بما فيه»[١٢٢].

خصائص وسمات:

من خلال استقراء العُهود التي مرّت بنا نجد أنّ أغلبها يدور حول فكرتين أساسيّتين، هما تقوى الله والعمل بشَرْعه الحنيف، وحُسْن السّياسة والتّدبير. وصحيحٌ أنّ ثمّة أفكارًا جزئية، ومعاني كثيرة، تعرّض لها السّاسة أو الكُتّاب في عُهودهم، ممّا سلف بيانه وذكره، غير أنّها، في الأعمّ الأغلب، تنضوي تحت هاتين الفكرتين، أو لنقل: تروم تحقيق هاتين الغايتين وهما: التَّمسّك بشريعة الله تعالى، ومعرفة فنون السّياسة وأفانينها.

ولعلّ هذا الأمر ممّا يلفت النّظر حقًّا؛ إذ إنّ جُلَّ العهود التي مرّت بنا، إنْ لم نقل كلّها، تبدأ بالتّوصية بتقوى الله وطاعته، والاحتكام إلى كتابه المُبين، وقسطاسه المستقيم، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والتَّمسّك بسُنّة رسوله الكريم ﷺ، وتراث السّلف الصالحين، ونحو ذلك من وصايا دينيّة وأخلاقيّة، تندرج تحت المفهوم الكلّي العامّ؛ وهو العمل بالشّريعة، أو السّياسة الشّرعيّة.

وهذا التأكيد يأتي إمّا إيجازًا وإعجازًا؛ كما في عهد ابن الزّيّات، وإمّا تفصيلاً وتذكيرًا، كما في عهدِ طاهر بن الحسين، وغيره أيضًا. ثمّ تَدْلف العهودُ إلى ذكر التّدابير

---

(١٢٢) نفسه ٣٣٢/١. وانظر: تاريخ الأمم والملوك ٥٩١/٨. والكامل ٥٢٧/٥.

والرّسوم، التي يجدر بالوُلاة أن يترسّموها ويتّبعوا نَهْجها وسَنَنها؛ لكي تستقيمَ لهم شؤونُ البلاد وسياسةُ العباد، أي العمل بفنون السّياسة المُلوكيّة أو السّلطانيّة. وقد تتداخل الموعظةُ بالسّياسة، فيُفضي كلٌّ منهما إلى الآخر؛ نظرًا لارتباط السّياسة بالدّين آنذاك.

وأغلبُ الظَّنّ أنّ ذلك يعود إلى إدراك السّاسة أنّ السّياسةَ المُثلى والحُكْمَ الرّشيد، مَنُوطانِ بالاحتكام إلى كتاب الله، والعمل بشِرْعته، وسُنّة نبيّه الكريم ﷺ. والحُكْمُ عصرئذٍ كان على وَفْق الشّريعة الإسلاميّة، على الرّغم من المظالم والانحرافات، التي حدثت في بعض الأوقات. وقد تكون الدّعاوة السّياسيّة سببًا في صياغة العهود على هذا النّحو؛ إذ كانت بعض العهود، إن لم نقل كلّها ـ كما يبدو ـ تُقرأ على الملأ في المساجد، كما في عهد الرّشيد إلى هَرْثمة بن أَعْين، حين ولاّه خُراسان؛ إذ أخبر هَرْثمةُ في رسالته إلى الرّشيد أنّه قرأ العَهْد على النّاس، فقال: «وأمرتُ بقراءة عَهْدي عليهم، وأعلمتهم أنّ ذلك مِثالي وإمامي، وأنّي به أقتدي، وعليه أحتذي؛ فمتى زُلْتُ عن بابٍ واحدٍ من أبوابه، فقد ظلمتُ نفسي، وأحللتُ بها ما يَحِلُّ بمن خالف رأي أمير المؤمنين وأَمْرَه؛ فأَظْهَرُوا السّرورَ بذلك والاستِبشار، وعَلَتْ بالتّكبير والتّهليل أصواتُهم... ».

وفكرةُ القراءة على الملأ في المساجد لا تُسَوِّغُ لنا تفسير الأمر بالدِّعاوة (الإعلاميّة) أو السّياسيّة فحسب، بل هو، كما أحسب، مَنْهج يبتغي السّاسةُ السَّير في رِكَابه، والعمل بمُقتضاه في حقيقة الأمر؛ لأنَّ في ذلك صَلاحَ المُلك وعِمارةَ البلاد. ولذا فقد حلّت نقمةُ الرّشيد وسوءُ عقابه على (عليّ بن عيسى بن ماهان)، حينما خالف عَهْده، ونَبَذَهُ وراءه ظِهْرِيًّا.

ولنقرأ ما كتبه الرّشيدُ في آخر عَهْدِه إلى هَرْثمة بن أعين: «هذا عهدي وكتابي بخطّي، وأنا أُشْهِدُ الله، وملائكته، وحَمَلَةَ عَرْشه، وسكّان سماواته، ﴿**وكَفَى بالله شَهِيْدًا**﴾، وكَتَبَ أمير المؤمنين بخطّ يده، لم يَحْضُرْهُ إلّا الله وملائكته». ولعلّ هذا الكلام يوحي إيحاءً بالغًا بسموِّ الغاية، وصِدْق النيّة، وجَلال الهدف، الذي يرومه من هذا العهد. ولا ريبَ في

أنّ عدمَ تطبيق هذه العهود على نحوٍ كلّي، يعود ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ إلى طبيعة المُلْكِ الغلّابة الغَرور، وليس إلى ثَغرات وهَنَات في العهود نفسها.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

خامساً: أدب الرّسائل (التَّرَسُّلُ)

١ـ تمهيد:

التَّرَسُّلُ هو أدبُ المُراسلات، أو فنّ كتابة الرّسائل، وقد اصطلح القدماء على إطلاقه على هذا النّوع النثريّ. وفي محاولة تأصيليّة لهذا المصطلح، قال ابن وهب الكاتب (المتوفّى في القرن الرّابع الهجريّ): «التّرسُّلُ من: تَرَسَّلْتُ ـ أَتَرَسَّلُ ـ تَرَسُّلاً، وأنا مُتَرَسِّلٌ، كما يُقال: تَوَقَّفْتُ بهم ـ أتوقَّفُ ـ تَوَقّفًا، وأنا مُتوقّفٌ؛ ولا يُقال ذلك إلّا فيمن تكرّر فعلُه في الرّسائل، كما لا يُقال: تكسَّرَ، إلّا فيما تردّد عليه اسمُ الفعل في الكسر. ويُقال لمن فَعَل ذلك مرّة واحدة: أَرْسَلَ ـ يُرْسِلُ ـ إرسالاً، وهو مُرْسِلٌ، والاسمُ: الرّسالة، أو راسل ـ يُرَاسِلُ ـ مُرَاسَلَةً، وهو مُرَاسِلٌ؛ وذلك إذا كان هو ومَنْ يُرَاسِلُه قد اشتركا في المُراسلة. وأصلُ الاشتقاقِ من ذلك أنّه كلامٌ يُرَاسَلُ به من بعيد؛ فاشْتُقَّ له اسمُ التّرسّل، والرّسالةُ من ذلك»[١٢٣].

وأيًّا ما كان، فإنّ التّرسّل في النّثر العربيّ القديم فنٌّ أدبيّ، أو تشكيلٌ لغويّ جماليّ، يهدف إلى تحقيق نوعٍ من الاتصال الكتابي بين المُرْسِل والمُرْسَل إليه؛ لتبليغ رسالةٍ ما، تهمّ الطّرفين. وتتكوّن عناصرها الاتصاليّة من مُرْسِل، يستخدم اصطلاحًا معيّنًا، أو (شِفرة) معيّنة في الإرسال، ورسالة يُرَادُ إبلاغها، وقناة أو وسيط لنقل الرّسالة، ومُرْسَل إليه أو مُستقبل يُحلّل رموز الاصطلاح أو (الشّفرة)، ضمن مرجعيّة مُشتركة.

وتُقسم الرّسائل في التّراث العربيّ، عادةً، إلى رسائل ديوانيّة، وإخوانيّة (أو شخصيّة)، وأدبيّة. ونُعنى، ههنا، بالرّسائل الدّيوانيّة؛ نسبةً إلى ديوان الرّسائل، وتُعرف أيضًا بالرّسائل السّلطانيّة، أو الإنشائيّة، أو الرّسميّة. وقد لا تصدر عن ديوان الرّسائل حَصْرًا، بل

---

(١٢٣) البرهان في وجوه البيان، ص١٩٣.

قد يُصدرها أرباب الدّولة أو رجالها وولاتها، وهم في حروب أو فتوح أو غير ذلك. وهي تكشف، على نحوٍ ما، علاقة الرّعية بالسّلطة، ومضموناتها تتعلّق بشؤون الحُكم والخلافة والإدارة وقضايا الرعيّة.

ويُعَدّ العصر العبّاسيّ العصر الذّهبي للكتابة عامّة، ولأدب التّرسّل على وجه الخصوص، وقد عُني به القدماء عناية واسعة، فألّفوا فيه كتبًا ورسائل، وعقدوا له فصولاً، تُعنى بفضائل هذه الصّناعة ووظائفها وأغراضها وغاياتها وأعرافها وتقاليدها، وأدوات الكاتب، أو ما ينبغي أن يلمّ به حتّى يستحقّ (شرف أن يكون كاتبًا).

وقد عرف العرب التّرسّل السّياسيّ ـ على نحو واضح ـ منذ صدر الإسلام، حتّى إنّ القلقشنديّ رأى أنَّ ديوان الرّسائل نشأ منذ عصر الرّسول، فقال: «اعلم أنّ هذا الدّيوان أوّل ديوان وضع في الإسلام، وذلك أنّ النّبيّ ﷺ كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصّحابة رضوان الله عليهم ويكاتبونه، وكَتَب إلى من قَرُبَ من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رُسله بكُتُبه»(١٢٤).

بيد أنّ الثّابتَ أنّ ديوان الرّسائل، بصُورته المنظّمة، قد نشأ في خلافة معاوية، في بداية العصر الأمويّ، وكان من أهمّ الدّواوين التي تطوّرت سريعًا، مع امتداد مساحة الخلافة الإسلاميّة، واتّساع رُقعتها، وتطوّر الأحداث السّياسيّة، باستمرار الفتوحات، ونشوء الأحزاب السّياسيّة الدّينيّة.

أمّا في العصر العبّاسيّ الأوّل فقد أدّت الرّسائل دورًا بارزًا في تصوير الصّراع السّياسيّ النّاشب، ومواكبة الأحداث، على الصّعيدين الدّاخليّ والخارجيّ؛ إذ ازدهرت كتابة الرّسائل السّياسيّة ازدهارًا كبيرًا، وكان للتّحوّل السّياسيّ الكبير وما رافقه من حوادث، وكذلك ما تلاه من فِتَنٍ وثورات، وتطوّر نظام الدّولة، والارتقاء الحضاريّ

---

(١٢٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١/١٢٥.

العظيم، خاصّة من النّاحية العقليّة والفكريّة، والانفتاح على الثّقافات الأخرى، أقول: كان لذلك كلّه النّصيب الأوفى في نهضة التّرسّل عامة، والسّياسيّ منه خاصّة.

ومن أبرز تلك الأحداث، التي رافقتها مئاتُ الرّسائل، وكانت داعيًا من دواعي كتابتها: الثّورة العبّاسيّة في البَدْء، ثمّ خروج عبد الله بن عليّ عمّ المنصور عليه، وأَمْرُ أبي مُسلم الخراسانيّ، وثورة محمّد (النّفس الزّكيّة) وأخيه إبراهيم، والخلاف على ولاية العهد، والفتنة الكبرى بين الأمين والمأمون، والثّورات والحركات التي اشتعل أُوَارُها في ذلك العصر، كثورة بابك الخرّميّ والمازيّار، وما إلى ذلك من أحداث. فضلاً عن الصّراع الذي لا يكاد يخبو سعيرُ ناره، بين الدّولة الإسلامية والرّوم.

وقد وصل إلينا من رسائل ذلك العصر عددٌ غفير؛ إذ إنّ مصادر التّراث احتفت بالرّسائل الرّسمية خاصّة، فَرَوَتِ كثيرًا منها؛ لارتباطها بالأحداث السّياسيّة والفتوحات واحتياج الرُّواة والمؤرّخين إلى تدوينها. كما أنّ ما فُقد أكثر بكثير ممّا سَلِمَ لنا، ومن أدلّة ذلك أنّ صاحبَ الفِهرست (ت نحو ٣٨٥هـ) ترجم لعددٍ كبير من المترسّلين، وذكر أنّ لكثيرٍ منهم ديوان رسائل، ولم يصل إلينا من رسائلهم إلّا النّزر اليسير، ولا شكَّ أنّ هذه الدّواوين كانت تتضمّن رسائل رسميّة أو سياسيّة كثيرة، ولا سيّما أنّ أصحابها كانوا كُتَّابًا عند الخلفاء، أو الولاة أو القوّاد، ومَنْ لفَّ لفّهم من أرباب المناصب، وذوي السّلطان.

والحقّ أنَّ الرّسائل السّياسيّة تشكّل مادّة من موادّ التّاريخ الإسلاميّ، مع الأخذ بالحُسْبان أنّ كثيرًا من الحوادث التي تسردها بعض الرّسائل هي محاكاة للواقع، وليست الواقع عينه؛ إذ للدّعاوة السّياسيّة دورها في توظيف الأحداث، وتوكيد سلطة الحاكم.

ومع ذلك فإنّ للرّسائل قيمة تاريخيّة كبيرة؛ لصلتها بواقع مجتمعها وموضوعات الحياة فيه، وماكانت الدّولة تمور به من أحداث جِسَام، كالصّراع على الحُكم والسّلطان، وإدارة شؤون الدّولة وتصريف أعمالها، وأوضاع السّلم والحرب، وسياسة الولاة والعمّال، وغير ذلك. فهي، والحال هذه، تكشف على نحوٍ ما طبيعة التّفكير السّياسيّ آنذاك وآليّته،

وهي صورة من صور التّاريخ السّياسيّ مُدوّنًا، كما يُقال. هذا، فضلاً عمّا تتميّز به من قيمة فنيّة عالية، ومنزلة أدبيّة رفيعة، أتاحت لها هذا الاحتفاء من لدن القدماء، وأتاحت للكُتّاب النّابهين بها أن يرتقوا سُدَّة الوزارة: (أشرف منازل الآدميين)، بعد النّبوّة والخلافة، كما قيل.

وقد كان لهؤلاء الكُتّاب اليدُ الطُّولى في ازدهار أدب التّرسّل؛ إذ كانوا في الذّروة من البلاغة والبيان، ومنهم يحيى البرمكيّ (ت ١٩٠هـ)، وولده جعفر (ت ١٨٧هـ)، وعمارة بن حمزة (ت ١٩٩هـ)، ومحمّد بن اللّيث، وبشر بن أبي كُبَار البَلَويّ (ت بعد ٢٠٢هـ)، والفضل بن سهل (ت ٢٠٣هـ)، وأخوه الحسن (ت ٢٣٦هـ)، وأحمد بن يوسف (ت ٢١٣هـ) ووالده يوسف بن صبيح وأخوه القاسم (ت ٢٢٠هـ)، وسهل بن هارون (ت ٢١٥هـ)، وعمرو بن مَسْعدة (ت ٢١٧هـ)، ومحمّد بن عبد الملك الزّيّات (ت ٢٣٣هـ)، وغيرهم كثير. فضلًا عن الخلفاء الذين كان منهم مَنْ يجاري هؤلاء، ويتولّى الرّدّ على الرّسائل المهمّة بنفسه، كالمنصور والرّشيد والمأمون.

❋ ❋ ❋

٢. الموضوعات:

عرضت الرّسائلُ السّياسيّة عصرئذٍ لكثير من القضايا والشّؤون المهمّة على صعيد الدّولة الإسلاميّة، ويمكن تصنيف هذه الرّسائل بحسب موضوعاتها أو أغراضها الرّئيسة، مع مراعاة تَسلْسلها التّاريخيّ على أزمنة الخلفاء. ومن المعلوم أنّ هذه الموضوعات الكبرى يمكن أن تنطوي على موضوعات فرعيّة عدّة، إلّا أنّ التّداخل بينها في الرّسالة الواحدة ليس يسيرًا في كثير من الأحيان. ومن أهم موضوعات الرّسائل السّياسيّة في هذا العصر:

أ. الدّعوة العبّاسيّة والصّراع مع الأمويين:

كانت الدّعوة العبّاسيّة، وما يتّصل بها، إحدى الموضوعات التي عرضت لها الرّسائل عصرئذٍ، وقد دارت هذه الرّسائلُ بين مروان بن محمّد آخر الخلفاء الأمويين

ووُلاته، ولا سيّما نصر بن سيّار الذي مافتئ يُطْلعه على حقيقة الدّعوة العبّاسيّة، ويطلب منه المَدَدَ. كما دارت بين إبراهيم الإمام ودُعاة الثّورة أنفسهم؛ إذ كانت وسيلة ناجعةً لتبليغ الأوامر، وحَشْد الأنصار، وتبيان حركة الدُّعاة.

ومن ذلك رسالة إبراهيم الإمام إلى أصحابه يخبرهم أنّه ولّى أبا مُسلم رئاسة الدّعوة في خراسان: «إنّي قد أَمَرْتُهُ بأمري، فاسمعوا منه واقبلوا قوله، فإنّي قد أمّرتُه على خُراسان، وما غلب عليه بعد ذلك»(١٢٥). وتتسم هذه الرّسائل بالإيجاز والتّكثيف، وبيان الغرض على نحوٍ مُباشر، نظرًا لظروف كتابتها، وما يحوط أغلبها من سرّيّةٍ وحَذَرٍ ورِيبة.

ومنذ أوائل العصر العبّاسيّ تطالعنا رسائل عدّة، عرضت الخُطب أيضًا لأهمّ موضوعاتها، كالصّراع مع الأمويين ووُلاتهم، كما هي الحال في أمر يزيد بن عُمَر بن هُبَيرة (ت ١٣٢هـ)، والي العراق من قِبل مروان بن محمّد الأمويّ، الذي تحصّن بمدينة واسط، وبعد حصار دام بضعة شهور، طلب الأمان من أبي جعفر المنصور، وكان يقودُ الجيشَ المُحَاصِرَ لابن هُبَيْرَة.

وبعد مُشاورات مع السّفّاح مُنح ابن هُبَيرة أمانًا، كان من رأي المنصور الوفاء له، ولكنّ ذلك لم يكن رأي أبي مُسْلم الخرسانيّ، فأرسل إلى السّفّاح، قائلًا: «إنّ الطريقَ السّهلَ إذا أَلقيتَ فيه الحجارةَ فَسَدَ؛ لا والله لا يصلحُ طريقٌ فيه ابن هُبَيرة». فكتب أبو العبّاس إلى أخيه المنصور يأمره بقتله، وألَحَّ عليه في ذلك، وأبو جعفر يُراجعه، فكتب السّفّاح: «واللهِ لَتَقْتُلَنَّهُ، أو لأُرسلنّ إليه مَنْ يُخرجه مِنْ حُجْرتك، ثمّ يتولّى قَتْله»(١٢٦). فقُتل ابن هُبَيرة، ولم تنفعه العهود والمواثيق. وقد كانت حُجّة السّفّاح في قَتْله هي مَيله إلى آل عليٍّ ومُراسلتهم، إلّا أنّ المظنونَ أنّه فعل ذلك في أثناء حِصَاره، قبل أن يمنحَه العبّاسيّون الأمان وليس بعده، وإلّا ما تردّد المنصورُ في قَتْلِه لحظةً واحدة. ثُمّ إنّ الرّاجحَ أنّ مُراسلةَ ابنِ هُبَيرة لبعضِ آل عليٍّ،

---

(١٢٥) تاريخ الأمم والملوك، للطبري ٣٤٤/٧.

(١٢٦) نفسه ٤٥٥/٧.

إن صحّ ذلك، كانت محاولةً منه لشَقّ الصّفّ وزَرْعِ الفتنة بين أبناء العُمومة، وليس محبّة أو مَيلاً إلى آل عليٍّ دون بني العبّاس.

ب ـ الصّراع السّياسيّ الدّاخليّ:

وتعدّ رسائل هذا الموضوع من أغزر ما وصل إلينا من الرّسائل السّياسيّة، وقد تجلّى الصّراع السّياسيّ الدّاخليّ في هذا العصر بين العبّاسيّين والقوى الآتية: ١ ـ قادة الثورة ودعاتها، كأبي مُسلم الخراساني. ٢ ـ آل عليّ وشيعتهم. ٣ ـ الخوارج وأصحاب الثّورات والفتن.

وقد تركت لنا هذه المنازعاتُ رسائلَ عديدة، منها ـ بحسب تسلسلها التّاريخيّ ـ ما تبادله المنصور وأبو مُسلم الخراسانيّ، حينما أراد أن يفتكَ به، بعد أن استقرّ به المقام، وتخلّص من عمّه عبد الله بن عليٍّ؛ منافسه على الخلافة، وكان وجّه إليه أبا مُسلم لقتاله، لا يُبالي أيّهما صَرَعَ الآخر! ولمّا كانت الغَلَبَةُ لأبي مُسلم، بَيَّتَ المنصورُ أمرَه ورأيه للخلاص منه؛ فقد كان لا يرى لنفسه سلطانًا بوجوده، فاستدرجه إليه.

وقد جرت بينهما مُرَاسلاتٌ، منها رسالة أبي مُسْلم ردًّا على رسالةٍ للمنصور يولّيه فيها الشّام ومصر، بدلاً من خراسان، مركزِ قوّته ومَجْمَعِ شيعته. ومنها أنّ المنصور طَلَبَ منه أن يقدمَ إليه، فردّ أبو مُسلم قائلًا: «إنّه لم يَبْقَ لأميرِ المؤمنين ـ أَكْرَمَهُ الله ـ عدوٌّ إلّا أَمْكَنَه الله منه، وقد كُنّا نَرْوي عن مُلوكِ آل سَاسَانَ: أنّ أخوفَ ما يكون الوزراء، إذا سَكَنَتِ الدَّهْمَاء؛ فنحن نافِرون من قُرْبِك، حريصون على الوفاء بعَهْدك ما وَفيتَ، حَرِيُّون بالسَّمع والطّاعة؛ غير أنّها من بعيد، حيث تُقَارِنها السّلامة، فإن أرضاك ذاك، فأنا كأحسنِ عبيدك، فإنْ أَبَيْتَ إلّا أن تُعْطِيَ نفسك إرادتها، نَقَضْتُ ما أبرمتُ من عَهْدك؛ ضَنًّا بنَفْسِي»[١٢٧].

(١٢٧) المصدر نفسه ٤٨٣/٧.

ومن أهمّ الرّسائل السّياسيّة في عهد المنصور تلك التي تبادلها مع محمّد بن عبد الله (النَّفْس الزّكيّة)؛ إذ انقسم حزبُ الهاشميين إلى بني العبّاس وآل عليٍّ بعد أن قامت الدّولة العبّاسيّة. فقد رأى هؤلاء أنّ العبّاسيّين «اغتصبوا الأمر منهم، وابتزّوه ابتزازًا دونهم، وهم الأَوْلى؛ لسَابقتهم، وقديم بلائهم، وسالف جهادهم، وأنّ الشّيعة التي ناصرت، وأقامت مُلْكَ العبّاسيّين شيعتهم، وأنّ أولئك استخدموا مَجْدهم، وبنوا عليه ما أرادوا، واستبدّوا به دونهم، لذلك شغلوا الدّولة بخُروجهم، وتقدّموا بشرفهم التّليد، وحاضرهم العظيم، ودعوا لأنفسهم»(١٢٨).

وأوّل من خرج منهم محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﵃، الملقب بـ (النّفس الزّكيّة)، وكان توارى عن الأنظار، ولم يبايع السّفّاح، فارتاب العبّاسيّون به. وقد حذا حَذْوهم في سريّة الدّعوة وحركة الدّعاة، إلّا أنّ المنصور، بعد أن وَلِيَ الخلافة، بَيَّتَ مَكْره، وأحكم تدابيره، فوضع الأَرْصاد والعيون؛ حذرًا من خروج محمّد وشيعته، وجعل قوّاده يراسلونه، ويُغرونه بالوقوف إلى جانبه.

ثمّ استيقن المنصورُ صِحّةَ عَزْمِ محمّد (النّفس الزّكيّة) على الخروج، فألقى القبض على والده عبد الله، وجماعةٍ من أهل بيته وأقارِبه، وأوثقهم بالأغلال والأثقال، وسَامهم صنوف العذاب والبلاء، على نحوٍ يعجب الإنسان من هوله وقسوته(١٢٩)! خاصّةً إذا صَدَرَ من بني عمّهم العبّاسيّين، الذين طالما أعلنوا في خُطبهم أنّهم إنّما خرجوا انتقامًا لما جرى لأبناء عمّهم من قِبل بني أميّة!

وأيًّا ما كان، فإنّ محمّدًا (النّفس الزّكيّة) عزمَ على الظّهور، فخرج على المنصور سنة (١٤٥هـ)، في المدينة المنوّرة، وكان «من سادات بني هاشم، ورجالهم، فَضْلاً وشَرَفًا

---

(١٢٨) الخطابة (أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب) محمّد أبو زهرة، ص١٢٧.

(١٢٩) تاريخ الأمم والملوك ٥٣٩/٧-٥٤٩.

ودِينًا وعِلمًا وشجاعة وفصاحة ورياسة وكرامة ونُبلاً»[١٣٠]. وكانوا يلقّبونه بالنّفس الزّكيّة وبالمهديّ فبايعوه، وكان يحيى بن زيد إمام الزّيديّة بعد أبيه، أوصى إلى النّفس الزّكيّة، وفوّض له الأمر من بعده. وقيل: إنّ الهاشميين بايعوا محمّدًا بالخلافة، في أواخر الحكم الأمويّ، ومنهم المنصور، إلّا أنّ ذلك فيه نَظَر؛ إذ إنّ الدّعوة العبّاسيّة بلغت في تلك الفترة، المُشَار إليها، مبلغًا عظيمًا من النّجاح، فلا يُعقل أن يصرف بنو العبّاس الأمر إلى غيرهم، فضلًا عن أنّ رسالة (النّفس الزّكيّة) إلى المنصور لا تشير إلى أَمْر هذه المبايعة، وهي من الأهمّيّة بمكان، في ميدان الحِجَاج بين الطّرفين.

وقد خَطَبَ النّفس الزّكيّة في أهل المدينة؛ مُبيّنًا سبب خروجه، واصفًا المنصور بالطّاغية وعدوّ الله! واتّهم العبّاسيّين جميعًا بتحليل الحرام وتحريم الحلال، ثمّ ذكر أنّ له بيعة في جميع بلاد الإسلام. وكان المنصور خَطَبَ في أهل خُرَاسان، عندما ألقى القبض على عبد الله والد (النّفس الزّكيّة)، وجماعة من أهل بيته وخاصّته؛ ليثبت لهم سلامة موقفه، وصحّة ما قام به؛ فيضمن بذلك ولاءهم، ومودّتهم، وممّا جاء في خطبته: «...وإنّ أهل بيتي هؤلاء من ولد عليّ بن أبي طالب تركناهم ـ والله الذي لا إله إلّا هو ـ والخلافةَ، فلم نعرض لهم فيها بقليلٍ ولا كثير، فقام فيها عليّ بن أبي طالب، فَتَلَطَّخَ، وحَكَّمَ عليه الحَكَمين، فافترقت عنه الأمّة، واختلفت عليه الكَلمة، ثمّ وثبت عليه شيعتُه وأنصارُه وأصحابه وبِطانته وثِقاته فقتلوه، ثمّ قام من بعده الحَسَنُ... ».

ويشرح المنصور مواقف آل عليّ في السّياسة إلى يحيى بن زيد، ويعرض لهم بالنّقد والتّجريح، واحدًا تِلْو الآخر، ويُبيّن ما نالهم من الأمويين بسببهم، فيقول: «ثمّ وَثَبَ علينا بنو أميّة، فأماتوا شَرَفنا، وأذهبوا عِزّنا، والله ما كانت لهم عندنا تِرَةٌ يطلبونها، وما كان لهم ذلك كلّه إلّا فيهم، وبسبب خروجهم عليهم، فَنَفَوْنَا من البلاد، فصِرْنا مرّة بالطائف، ومرّة

(١٣٠) الفخري، ص١٦٥.

بالشّام، ومرّة بالشَّرَاة[131]، حتّى ابتعثكم الله لنا شيعةً وأنصارًا، فأحيا شرفنا، وعِزّنا بكم ـ أهلَ خُرَاسان ـ ودَمَغَ بحقّكم أهلَ الباطل[132]، وأظهر حقّنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبيّنا ﷺ، فقرَّ الحقّ مقرَّه، وأظهر منارَه، وأعزّ أنصارَه، و﴿**قُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، والحَمْدُ لله ربّ العالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٥]». أمّا سببُ خروج آل عليّ عليهم، فليس لحقّهم في الخلافة ـ كما يقول ـ وإنّما الظّلم والحَسَد والبغي: «فلمّا استقرّت الأمور فينا على قَرارها، من فَضْل الله فيها، وحُكْمه العادل لنا، وَثَبُوا علينا؛ ظُلمًا وحَسَدًا منهم لنا، وبَغْيًا لما فضّلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراث نبيّه ﷺ:

جَهْلاً عَلَيَّ وجُبْنًا عن عَدُوِّهِمُ لَبِئْسَتِ الخَلّتَانِ: الجَهْلُ والجُبنُ»[133]

ولكيلا يُوصف المنصور بالظّلم والأخذ بالشُّبهة والظِّنَّةِ، مِن أتباعه الذين يتعاطفون مع آل عليّ تعاطفًا كبيرًا؛ أوضح سبب إلقائه القبض على عبد الله وجماعته، وزعمَ أنّه أتى هذا الأمر على يقين وبيّنة دامغة.

هذا، وتُعدّ الرّسائل التي دارت بين المنصور والنّفس الزّكيّة من محاسن الكتب، كما قيل، ليس لبلاغتها وإحكام نَسْجها وحسب، بل لما تضمّنته من الحُجَج والأدلّة لإثبات شرعيّة حقّهما بالخلافة، وبيان وجهة نَظَرِ كلٍّ من الحزبين. أو بالأحرى: المبادئ الفكريّة والسّياسيّة للحزب الحاكم، وللحزب المُعارض؛ إذ كان الحزب الشّيعيّ يمثّل دور المعارضة السّياسيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل، كما كان في العصر الأمويّ.

---

(١٣١) الشَّرَاةُ: ((صُقْع بالشّام بين دمشق ومدينة الرّسول ﷺ، ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحُميمة، التي كان يسكنها ولد علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب، في أيام بني مروان)). فالحُميمة: ((بلد من أرض الشَّرَاة، من أعمال عمّان في أطراف الشّام)). معجم البلدان، لياقوت الحموي ٣٠٧/٢ (الحُميمة)، ٣٣٢/٣ (الشّراة).

(١٣٢) دَمَغَ الحقُّ الباطلَ: مَحَقَهُ وعَلاه وقَهَرَه ومَحَاه وأَبْطَلَه، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فإذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨/٢١].

(١٣٣) تاريخ الأمم والملوك ٩٣/٨-٩٤. والبيت في مختارات ابن الشجري، لـ (قَعْنَب بن أُمّ صاحب)، وهو شاعر إسلامي، انظر: مختارات ابن الشجري، ص٨.

وقد كان المنصور هو المبادر إلى المُراسلة؛ إذ بعث إليه برسالة استهلّها بآياتٍ قرآنيّة ذات دلالة بالغة، ثمّ عرض على النّفس الزّكيّة الأمان له ولأهله ولشيعته وأنصاره، وأن يعطيه أموالًا طائلة، ويقضي له ما شاء من الحاجات، ويُطلق ما في سجنه من أهل بيته وشيعته؛ «ثمّ لا أَتَتَبَّعُ أحدًا منكم بمكروهٍ، فإنْ شئتَ أن تَتَوَثَّقَ لنفسِك، فوجِّهْ إليَّ مَنْ يأخذُ لَكَ من الميثاق والعهدِ والأمان ما أحببتَ، والسّلام»(١٣٤). فالمنصور، في رسالته، يربط النّتيجة بالمقدّمة، التي ضمّنها آيتين من كتاب الله العزيز، للدّلالة على المعنى الذي يبتغيه، بأنّ محمّدًا من الذين يحاربون الله ورسوله، ويَسْعَوْنَ في الأرض فَسَادًا، فجزاؤه أليمٌ في البيان الإلهيّ، إلّا أنّ المنصور يمنّ عليه؛ اتّباعًا لقوله تعالى: ﴿**إلّا الَّذِيْنَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥/ ٣٤].

ويردّ النّفس الزّكيّة على رسالة المنصور برسالة يستهلّها ـ بعد البَسْمَلة وذكرْ المُرْسِل ونَعْته (المهديّ أمير المؤمنين) واسم المُرسَل إليه ـ بقوله تعالى: ﴿**طسم ۝١ تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ المُبِين ۝٢ نَتْلُو عليكَ مِن نَبَإِ مُوسى وفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لقومٍ يُؤمِنُون ۝٣ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في الأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءَهم ويَسْتَحيِي نساءَهُم إنَّه كانَ من المُفْسِدينَ ۝٤ ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُم أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارثِينَ ۝٥ ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامانَ وجُنُودَهُمَا منهم ما كانوا يَحْذَرُون ۝٦**﴾ [القصص: ٢٨/١-٦]. وواضحٌ أنّ محمّدًا، وقد ابتدأ رسالته باسمه، وبلقبه المهديّ، يشيرُ في قوله تعالى: ﴿**ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ...**﴾، إلى فكرة المهديّ المُنتظر الذي سيملأ الأرض عَدْلاً، وأنّه هو المهديّ حقًّا، وكان والده عبد الله يقول: (هذا هو المهديّ الذي بُشِّرَ به، هذا هو محمّد بن عبد الله).

ثمّ بيّن النّفسُ الزّكيّة حُجَجَه، وصوّر اغتصابَ العبّاسيّين للخلافة فقال: «وأنا أَعرِضُ عليكَ من الأمان مثلَ الذي أعطيتَني، وقد تَعْلَمُ أنّ الحَقَّ حقُّنا، وأنّكم إنّما طلبتموه

---

(١٣٤) الكامل، للمبرّد ١٤٨٨/٣.

بنا، ونَهَضتُمْ فيه بشيعتنا، وخَبَطْتُمُوه[١٣٥] بفَضْلِنا، وأنّ أبانا عليًّا عليه السلام كان الوصيَّ والإمام، فكيفَ وَرِثْتُمُوهُ دُونَنَا، ونحنُ أحياءٌ؟! وقد علمتَ أنّه ليس أحدٌ من بني هاشم يَمُتُّ بِمِثْلِ فَضْلِنا، ولا يَفْخَرُ بِمِثْلِ قَدِيمِنَا وحديثنا ونَسَبِنَا وسَبَبِنَا،...»[١٣٦]. ثمّ يفصّل القولَ في مَآثره ومَنَاقبه، ويعرّض للمنصور بأنّه ابن أعجميّة. ويختم كتابه بالهُزْء والسّخرية من أمان المنصور، فيقول: «فأنا أوفى بالعَهْدِ منك، وأَحْرى لقَبُولِ الأمان، فأمّا أمانُكَ الذي عَرَضْتَهُ عليَّ، فأيُّ الأماناتِ هو؟ أَأَمانُ ابنِ هُبَيْرَةَ، أم أمانُ عَمِّكَ عبدِ الله بنِ عليّ، أم أمانُ أبي مُسْلم؟! والسّلام»[١٣٧].

ولمّا وصل كتابُ النّفس الزّكيّة إلى المنصور، قال له أبو أيوب المُوريانيّ وزيره: «دعني أُجِبْهُ عليه». قال: «لا، إذا تقارعنا على الأَحْسَاب فدعني وإيّاه»[١٣٨]. وكان المنصور ـ كما يقول الجاحظ ـ: «داهيًا أريبًا، مُصِيبًا في رأيه سَدِيدًا، وكان مُقَدَّمًا في عِلْم الكلام، ومُكْثِرًا من كِتاب الآثار، ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي الورّاقين، معروفٌ عندهم»[١٣٩].

ولذا لا غَرْوَ إن ألفيناه يقرع الدّليل بالدّليل، ويفنّد الحجّة بالحجّة، في رسالته، فيحاول إسقاط مفاخر (النّفس الزّكيّة) وتفنيدها، وإعلاء شأن العبّاسيّين من النّاحية الدّينيّة. وقد افتتح رسالته بالقول: «أمّا بعدُ؛ فقد أتاني كتابُكَ، وبلغني كلامُكَ، فإذا جُلُّ فَخْرِكَ بالنّساءِ؛ لِتُضِلَّ به الجُفَاةَ والغَوغَاءَ؛ ولم يجعلِ الله النّساءَ كالعُمومةِ، ولا الآباءَ كالعَصَبَةِ[١٤٠] والأولياءِ، ولقد جعل العَمَّ أبًا، وبدأ به على الوالد الأدنى، فقال جَلَّ ثناؤُه عن

---

(١٣٥) خبطتموه: يُقال: خَبَطَ الشيء: وطِئَه وطئًا شديدًا، وخَبَطَ القومَ بسيفه: ضربهم.. .. [القاموس المحيط: مادة: خَبَطَ].

(١٣٦) الكامل، للمبرّد ١٤٨٨/٣-١٤٨٩.

(١٣٧) الكامل ١٤٨٩/٣-١٤٩٠.

(١٣٨) الطبري ٥٦٦/٧.

(١٣٩) البيان والتبيين ٣٦٧/٣. وفي حاشية المحقق (٦): كِتاب الآثار: كتابة.

(١٤٠) العَصَبَةُ: عَصَبَةُ الرجل: بنوه وقرابته لأبيه، وقومه الذين يتعصّبون له وينصرونه. فأمّا في الفرائض فكلّ مَنْ لم يكن له فريضة مُسمّاة فهو عَصَبَةٌ، إن بقي شيء بعد الفرض أخذ. وسمّوا عَصَبَة الرجل بذلك؛ لأنّهم عَصَبُوا به؛ أي أحاطوا به ((الأب طرفٌ، والابن طرف، والعمّ جانب، والأخ جانب)). انظر: [مختار الصّحاح، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط: مادة عَصَبَ].

نبيّه ﷺ: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموتُ إذْ قال لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدي قالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وإلٰهَ آبائِك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ**﴾[١٤١]، ولقد علمتَ أنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّدًا ﷺ، وعُمومتُهُ أربعة، فأجابه اثنان أحدُهما أبي، وكَفَرَ به اثنانِ أحدُهما أبوكَ»[١٤٢]. ومن البيّن أنّ المنصور كان يخشى أن يؤثّر كلامه في جمهور العامّة: «لِتُضِلَّ به الجُفَاةَ والغَوغَاءَ»! ولهذا انبرى يردّ على خصمه، ويوضّح نظريّة العبّاسيّين السّياسيّة في الخلافة. فآل عليٍّ رضي الله عنه يَرَون أنّهم ورثوا الخلافة عن النبيّ ﷺ؛ لأنّ أباهم عليًّا كان الوصيّ والإمام، ولأنّ أمّهم فاطمة بنت الرّسول ﷺ ووريثته، ولأنّ لهم فَضْلاً ليس لأحَدٍ من العالمين، وضّحه النّفس الزّكيّة في رسالته.

ومن طريفِ حُجَجِ النّفس الزّكيّة: أنّه ابنُ خيرِ الأخيار، وابنُ خيرِ الأشرار، وابنُ خير أهل الجنّة، وابنُ خير أهل النّار، كما يقول، ويعني جدّه أبا طالب، الذي نصر النبيّ ﷺ وحماه من أذى قريش. ويردّ المنصورُ بما يُناسب مذهبه السّياسيّ، فيؤكّد المعاني الدّينيّة لخلافتهم، فالإمامة بعد رسول الله للعبّاس بن عبد المطّلب، عمّ النبيّ ﷺ ووارثه، وهو أولى من ابن العمّ: عليّ رضي الله عنه، ومن أبناء البنات، مع أنّها قرابةٌ قريبة، كما جاء في تعبيره؛ «غير أنّها امرأةٌ لا تحوزُ المِيراث، ولا يجوزُ أن تَؤُمَّ، فكيف تُوْرَثُ الإمامةُ من قِبَلِها»؟ أمّا قرابة آل عليٍّ من جهة العُمومة مع الرّسول ﷺ، كما هي قرابة العبّاسيّين سَواء بسَواء، فلا يعتدّ بها في ميدان الحِجاج لشرعيّة الخلافة؛ لأنّ أبا طالب مات في حياته ﷺ ولم يُسْلم، ولذا فلا وراثة له.

ويذكر المنصورُ أنّ كلّ محاولات آل عليٍّ لنيل الخلافة باءت بالفشل، من لدن عليّ رضي الله عنه إلى أن وليها العبّاسيّون، وممّا قاله: «وأَفْضَى أَمْرُ جَدِّكَ إلى أبيكَ الحَسَن، فَسَلَّمه إلى معاويةَ بخِرَقٍ ودَرَاهِمَ، وأَسْلَمَ في يديه شيعَتَهُ، وخرج إلى المدينة، فَدَفَعَ الأمرَ إلى غير أَهْلِه،

---

(١٤١) سورة البقرة: ١٣٣/٢.

(١٤٢) الكامل، للمبرّد ١٤٩٠/٣.

وأخذ مالاً من غير حِلِّهِ، فإنْ كان لكم فيها [الخلافة] شيءٌ؛ فقد بِعْتُمُوه، (...)، ثمّ خَرَجَ منكم غيرُ واحدٍ فَقَتَّلَتْكُم بنو أميّة، وحَرَّقُوكم بالنّار، وصَلَّبُوكم على جُذُوع النَّخل؛ حتّى خرجنا عليهم؛ فأَدْرَكْنا بثأرِكم، إذ لم تُدْرِكوه، ورفعنا أقدارَكم، وأورثناكم أرضهم وديارَهم، بعد أن كانوا يلعنون أباك، في أدبارِ الصّلاة المكتوبة، كما تُلْعَنُ الكَفَرَةُ، فَعَنَّفْنَاهم وكَفَّرْنَاهم، وبَيَّنَّا فَضْلَه، وأَشَدْنَا بذِكْرِه، فاتَّخَذْتَ ذلك علينا حُجَّةً... »[١٤٣].

ثمّ يقارن المنصورُ بين عليّ والعبّاس وحمزة وجعفر ، مبيِّنًا مآثرَ العبّاس في سقاية الحَجيج في الجاهليّة، وولاية زمزم، وفِداء عقيل بن أبي طالب يوم بدر، وغير ذلك. وأهمّ مآثره أنّه أبو القادة الخلفاء، الذين استطاعوا وحدهم أن يظفروا بالخلافة؛ «ووَرِثْنَا دونكم خاتِمَ الأنبياء، وحُزْنا شَرَفَ الآباء، وأدركنا من ثأركم ما عَجَزْتُمْ عنه، ووضعناكم بحَيْثُ لم تَضَعُوا أنفسَكم، والسّلام».

ولا يخلو كلامُ المنصور في رسالته من بعض ما يُخالف الحقائق والتّاريخ، كما قي قوله بأنّ الحسن سلّم الخلافة إلى مُعاوية بخِرَقٍ ودَراهم، وأخذ المالَ من غير حِلِّه؛ إذ أصلح الله به بين فئتين، فحقنَ دماء المسلمين، وحافظ على وحدتهم، كما أنّ الحسن سَئِمَ خِذلان شيعته وأنصاره من أهل العراق، الذين كانوا جَرَّعُوا أباه عليًّا غُصَصَ الغَيظ من قبل، وأفسدوا عليه رأيه بالعِصيان؛ إذ (لا رأيَ لمن لا يُطَاع)، كما جاء في إحدى خطبه [١٤٤].

وأيًّا ما كان، فإنّ هذا الجَدَل الكلاميّ، أو هذه المُناظرة الكتابيّة، لم تُجْدِ نَفْعًا؛ إذ أرسل المنصورُ ابنَ أخيه، ووليَّ عَهْدِه، عيسى بن موسى، لا يبالي أيّهما قتَلَ صاحبَه، كما قال؛ فقد كان يريد إزاحته من ولاية العَهْد لصالح ابنه المهديّ، الذي قَذَفَ الله مودّته في قلوب العامّة، وأجرى على ألسنتهم ذكره!! بحسب تعبيره في رسالة له إلى عيسى. أقول: أرسل المنصورُ عيسى لحرب محمّد (النّفس الزّكيّة)، فظَفِرَ به وقتله، بعد أبدى محمّدٌ شجاعةً عظيمة،

---

(١٤٣) الكامل ١٤٩٢/٣-١٤٩٣.

(١٤٤) انظر: الكامل ٢٩/١-٣١.

وبسالةً فائقة، وتخلّى عنه جُلّ أتباعه سنة (١٤٥هـ). وكان أخوه إبراهيم في البصرة أخذ البيعة له من كثيرٍ من النّاس، وقد اتّفق مع (النّفس الزّكيّة) على إعلان الثّورة في آنٍ معًا، إلّا أنّ إبراهيم كان مريضًا، فتمكّن العبّاسيّون من أخيه، وفَرَغُوا له، بعد أن أعلن خروجه، فالتقاه عيسى بن موسى أيضًا، ودارت عليه الدّوائر؛ فقُتل سنة (١٤٥هـ) في باخَمْرَا، قرب الكوفة، ويُعرف بقتيل باخَمْرَا. وكان محمّد وأخوه إبراهيم من أحسن الطّالبيين خُلقًا، وأنظفهم تاريخًا، لم يُعرف عنهما ما يشينهما في معاملة النّاس، وفي صِدْق العزيمة، إلّا أنّ الحظّ خانهما[١٤٥]!

وقد كانت هذه الثّورة من أهمّ ثورات آل عليّ ﵁ على العبّاسيّين، وأهمُّ ما خلّفته الرّسائلُ المتبادلة بين المنصور و(النّفس الزّكيّة)؛ إذ إنها مِثَالٌ يُحتذى للأدب الرّفيع، والنّتاج الجدليّ الباهر؛ ولأنّها تكشف النّظرية السّياسيّة لكلا الحزبين، ولأنّها أيضًا منبع فيّاض اغترف منه أدباء السّياسة، ولا سيّما شعراء الحزبين؛ إذ بصّرا الشّعراءَ بسُبل الحِجَاج السّياسيّ للخلافة، والانتصار لنظام الحُكم.

وقد ردَّدَ شعراءُ العبّاسيّين ما قاله المنصور في رسالته، واستلهموا أفكاره، فهذا شاعرهم مروان بن أبي حَفْصة (ت ١٨٢هـ) يحتجّ لهم، بحقّ وراثة النّبيّ ﷺ، دون أبناء فاطمة رضي الله عنها، فيقول مادحًا المهديّ[١٤٦]:

يا بنَ الذي وَرِثَ النّبيَّ محمّدًا ... دونَ الأقاربِ من ذوي الأَرْحَامِ

الوحيُ بين بني البَنَاتِ وبينكُمْ ... قَطَعَ الخِصَامَ فَلاتَ حِيْنَ خِصَامِ

أنّى يكون ـ وليس ذاك بكائنٍ ـ ... لبني البناتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ؟

---

(١٤٥) الدّولة العبّاسيّة، لمحمّد الخضري، ص٦٩.

(١٤٦) العقد ٣٣١/١. والأغاني٩٣/١٠، ١٠٠، ١٠١. والأبيات في: شعر مروان بن أبي حَفْصة، حقّقه: حسين عطوان، ص١٠٤.

وقد ردّ شعراءُ الشّيعة عليه، وعلى غيره، ممّن استوحى حُجَج العبّاسيّين في شرعيّة الخلافة، فقال أحدُهم رَدًّا على مروان(١٤٧):

لِمَ لا يكونُ ، وإنّ ذاك لكائنٌ، لبني البناتِ وِرَاثَةُ الأَعْمَامِ؟
للبنتِ نِصْفٌ كامِلٌ من ماله والعمُّ مَتْرُوكٌ بغير سِهَامِ
ما للطَّليقِ وللتّراثِ وإنّما صلّى الطّليقُ مَخَافَةَ الصَّمْصَامِ

وعلى أيّ حال، فإنَّ زَعْمَ الفريقين وراثة الخلافة عن الرّسول ﷺ «زعمٌ باطل؛ لأنّ الولاية العامّة على المسلمين لا تُورث، وإلّا وَرِثَها العبّاس عمّ الرّسول بعده، ولم يرثها أبو بكر الصّدّيق، وحتّى الأموال والأعيان التي تركها الرّسول لا تُورث؛ لما صحّ في الحديث النبويّ من قوله ﷺ: (**إنّا مَعْشَرَ الأنبياءِ لا نُوْرَثُ، ما تركناه فهو صَدَقَةٌ**). وإذا كان هذا الإرث ممنوعًا في الأعيان والأموال فمنعه في ولاية الأمّة ألزم وأوجب؛ إذ ينبغي أن يتولاّها الكفء الصّالح على نحو ما تولاها أبو بكر وعمر»(١٤٨).

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ العبّاسيّين أقاموا شرعيّة دعوتهم في أوّل الأمر، على وصيّة أبي هاشم بن محمّد بن الحنفيّة إلى محمّد بن عليّ العبّاسيّ، ومن ثمّ قيل: إنّ الدّولة العبّاسيّة مِيراث الكَيْسَانِيَّة؛ والمعنى أنّ أمرَ الشّيعة الكَيْسَانِيَّة انتقل إلى العبّاسيّين، وانْماعَ الحزبُ الكَيْسَانِيُّ في البيت العبّاسيّ.

والكَيْسَانِيَّة هم أتباع محمّد بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، المعروف بـ (ابن الحنفيّة)، ولّما تُوفّي أنكرت موتَه جماعةٌ، وأقرّت به أخرى، وتبعت ابنه أبا هاشم، عبد الله بن محمّد، وكان سيّدًا نبيلاً، لا عَقِبَ له. فلمّا دنا أجلُه أوصى بالأمر لمحمّد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، وأعلم خاصّة شيعته بانتقال الأمر إلى بني العبّاس، بناءً على هذه الوصيّة،

---

(١٤٧) الأغاني ١٠/١٠٠. والأبيات لـ (جعفر بن عفّان الطائيّ). ويُريد بالطّليق العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(١٤٨) العصر العبّاسيّ الأوّل لشوقي ضيف، ص٢٠. وحديث (إنّا مَعْشَرَ الأنبياءِ...) في صحيح البخاريّ، أبواب الخُمس، باب (١)، ١٠٤٠/٢ برقم ٢٩٢٦، ومواضع أخرى.

وما عليهم سوى السّمع والطّاعة، وكان ذلك في نهاية المئة الأولى من الهجرة. وقد قام محمّد بن عليّ بالدّعوة خير قيام، وكان الشّخصية العبّاسيّة الأولى، التي تولّت زعامة المعارضة السّياسيّة للحُكم الأمويّ. ثمّ خلفه ابنه إبراهيم المعروف بالإمام؛ إذ انتقلت الإمامة في أولاد محمّد بن عليّ بالنصّ والعَهْد، واحدًا تلْو الآخر. «وهذا مذهب الهاشمِيَّة، القائمين بدولة بني العبّاس، وكان منهم أبو مُسْلم، وسُليمان بن كَثير، وأبو سَلَمَةَ الخَلّال، وغيرهم من شيعةِ العبّاسيّة، وربّما يَعْضُدون ذلك بأنّ حَقَّهم في هذا الأمر يصل إليهم من العبّاس؛ لأنّه كان حيًّا وقت الوفاة، وهو أَولى بالوراثة بعَصَبِيَّةِ العُمومة»[١٤٩].

والحقّ أنّ هذه الوصيّة، لا تتردّد أصداؤها في مُراسلات العبّاسيّين أو خُطَبهم، كما في رسالة المنصور إلى النَّفْس الزّكيّة، التي عرضنا لها فيما سبق، على الرّغم من استقرائه الأدلّة، وسعيه الدّائب لتوظيف الحُجَّة الدّامغة لموقف خَصْمه وأدلّته، واستمالة مشاعر المسلمين، والتّأثير في الرّأي العامّ، الذي يبدو ماثلاً في ذهنه وذهن خَصْمه سَواء بسَواء، بدلالة سِمة الخطابيّة البارزة بوضوح في كلتا الرّسالتين. ومع ذلك، فالمنصور لا يشير إلى الوصيّة من الكَيْسَانِيَّة، وإنّما يتشبّث هو وغيره من بني العبّاس بوِراثة الخلافة عن طريق العُمُومة، ومن ثمّ فهو لا يُقرّ بحقّهم في الخلافة أصلًا، لكي يكون لهم الحقّ في الوصاية.

وهكذا، نادي العبّاسيّون بنظريّة توريث الخلافة، و(العمّ أولى من ابن العمّ)، كما قرّر الإسلام في علم المواريث. وساقوا أيضًا أحاديث نبويّة كثيرة تبشّر بدولتهم، وأنّ النبيّ ﷺ أخبر عمّه العبّاس رضي الله عنه بذلك. أمّا المعارضة الشّيعيّة، فظلّت تنادي بحقّها في الخلافة، وَفْق نظريّتها السّياسيّة، التي أشرنا إليها آنفًا، والتي كانت دافعًا إلى القول بتَوريث الخلافة عند العبّاسيّين، بعد أن انقسم الهاشميون إلى حزبين؛ لتكون حجّتهم أمام الجمهور أبلغ وأشدّ تأثيرًا. ومن ثَمّ استقطبوا كثيرًا من الفُرس وأهل خُراسان، الذين رأوا أنّ قرابة

---

(١٤٩) مقدّمة ابن خلدون ٢١١/١-٢١٢. وانظر: مقالات الإسلاميين، للأشعري، ص٢١.

قريبة تربط العبّاسيّين بالرّسول ﷺ، ولم تعد هذه القرابة مقصورة على آل عليّ ﵁ الذين تعاطفوا معهم إبّان الحكم الأمويّ.

وقد وصلت إلينا بضعُ رسائل أو تزيد قبل خروج محمّد وأخيه إبراهيم، بين المنصور وعامله على المدينة، وبينه وبين عبد الله بن الحسن، والد النّفس الزّكيّة، وفيها يتجلّى حرص المنصور على الظّفر بهما، قبل أن يُعلنا الخروج عليه، وربّما يصعب تدارك الأمر عندئذٍ. وقد مال إلى استعمال أسلوب التّرغيب والإغراء من خلال الولاية وبَذل العطاء والأمان، والحثّ على الاجتماع والتّواصل ورأب الصّدع. وكان المنصور أذكى العيون، خوفًا من محمّد وأخيه؛ إذ تغيّبا، ولم تُعرف وجهتهما، كما قلنا. فكتب إلى أبيهما عبد الله بن الحسن يسأله عنهما، ويأمره بإظهارهما، ويُخبره أنَّه غَيْرُ عاذِره، فردّ عليه أنّه لا يعلم مكانهما، ولا أين توجّها ؟ ثمّ وقعت كتبٌ له بيد المنصور، فردّها مع رسوله، وكتب إليه: «إنّي أُتِيْتُ برسولك، والكُتب التي معه، فردَدْتُها إليك بطوابعها؛ كراهيةَ أن أطَّلِعَ منها على ما يُغَيِّرُ لك قلبي، فلا تَدْعُ إلى التّقاطع بعد التّواصل، ولا إلى الفُرْقة بعد الاجتماع، وأَظْهِرْ لي ابنيك، فإنّهما سيصيران بحيث تُحِبُّ من الولاية والقرابة وتعظيم الشّرف»(١٥٠).

واعتقل الرّشيد من آل عليّ ﵁، موسى الكاظم ابن جعفر الصّادق، لشيءٍ بلغه عنه، فأرسل إليه موسى: «إنّه لن ينقضي عنّي يومٌ من البلاء، إلّا ينقضي عنك معه يومٌ من الرّخاء، حتّى ينقضيا جميعًا، إلى يومٍ ليس له انقضاء، يَخْسَرُ فيه المُبْطِلُون»(١٥١).

وكانت قضية ولاية العهد سببًا في الصّراع السّياسيّ، ومن ثمّ في وصول رسائل عدّة في زمن المنصور، بينه وبين عيسى بن موسى، ابن أخيه ووليّ عهده بعهدٍ من أخيه السّفّاح؛ بيد أنّ أبا جعفر أراد عَزْله، وتقديم ابنه المهديّ عليه، ولجأ في هذا السّبيل إلى الوعد واللّين

(١٥٠) العقد ٥/٧٥. وانظر الرّسائل المتبادلة في هذا الأمر في المصدر نفسه ٥/٧٤-٨٣.

(١٥١) الكامل في التاريخ ٥/٣٣٢. وسير أعلام النبلاء ٦/٤٥٠.

والإغراء تارة، وإلى التّهديد والوعيد والإيذاء تارة أخرى، إلى أن خضع عيسى بن موسى لرغبته، على رَغْمِ أنفه.

وممّا كتب عيسى إلى المنصور، قبل أن يخضع ويلين، قوله: «أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابُك تذكر فيه ما أجمعتَ عليه من خِلاف الحقّ، وركوب الإثم في قطيعة الرّحِم (...)؛ مُكابرةً لله في سمائه، وحَوْلاً على الله في قضائه، ومُتابعة للشيطان في هواه، ومَنْ كابرَ الله صَرَعَهُ، ومَنْ نازعه قَمَعَهُ، ومَنْ ماكره عن شيءٍ خَدَعَهُ، ومن توكّل على الله مَنَعَهُ، ومَنْ تواضع لله رَفَعَهُ (...) فلا يدعُك إلى الأَمْن من البلاء اغترارٌ بالله، وترخيصٌ للنّاس في ترك الوفاء...»[١٥٢]. وفي هذه الرّسالة يحاول عيسى أن يخوّفَ المنصور من عذاب الله بمخالفته الحقّ وركوب الإثم؛ إذ ما من سبيل غير هذا الأسلوب، فليس بمقدوره أن ينازع المنصور المُلك، ولولا حقّه في ولاية العهد ما لجأ إلى استعماله دون خوفٍ أو وَجَل، ومعرفة المنصور بهذا الحقّ وفضل عيسى في توطيد أركان دولته أثّرت أيضًا في حِلْمِه عنه، في بادئ الأمر، وتقبّله لمثلِ هذا الخطاب.

ولم يختلف موقف الخوارج من العبّاسيّين عن موقفهم من الأمويين؛ فقد أنكروا حقّهم في حكم الدّولة؛ إذ لم يُنتخبوا انتخابًا حُرًّا مباشرًا، كما أنّ خلفاءهم لم يستوفوا الشّروط اللازمة للإمام، وفي مقدّمتها العدالة؛ ومن ثمّ فقد أوجبوا على أنفسهم حَرْبهم. وقد قاموا بثورات عديدة في أنحاء مختلفة من الدّولة العبّاسيّة، وكان يَكْثرون في الجزيرة، وعُمان وحضرموت، وخُراسان، وأرجاء من المغرب.

وقد صلت إلينا رسالةٌ لأحد الخوارج، وهو عبد السّلام بن هاشم اليَشْكُرِيّ، كتبها ردًّا على رسالةٍ للخليفة المهديّ[١٥٣]. وكان عبد السّلام خرَجَ بالجزيرة، واشتدّت شوكتُه، فكتب إليه المهديّ رسالةً، جاء فيها: «إنّي قد عَجِبْتُ من إحداثك وبَغْيك؛ حيث أسألك ما

---

(١٥٢) تاريخ الأمم والملوك ١٧/٨. وانظر في خلع عيسى والبيعة للمهدي: ٩/٨-٢٥.

(١٥٣) انظر الرسالتين في: تاريخ خليفة بن خياط ٧٠١/٢-٧٠٣.

نَقَمْتَ إذْ حَكَّمْتَ بكلمة حَقٍّ تُريد بها ما الله مُخْزيك به، وسائلك عنه، مع مُنَاوأتك خليفته، ونَزْعك يدك من طاعته، وشَتْمك أبا الحسن عليّ بن أبي طالب، ووقوعك فيه، وتنقّصك إيّاه، وولايتك مَن عاداه، فالله عصيتَ، ونبيّه عاديت، (...)، فأُقسمُ لأغزينّك أجنادًا مُطيعة، وقوّادًا منيعة، هم الذين يفضّون جمعك، ويهتكون بناءك، فاعمل لنفسك أو دَع».

وقد ردّ عليه عبد السّلام الخارجيّ، برسالةٍ، تعدّ أهمّ نصّ نثريّ وصل إلينا من أدب الخوارج في ذلك العصر، وفيها يبيّن عبد السّلام سبب خروجه، دون خوفٍ أو وَجَل، إذ يُصَوِّب حِرَابَ نَقْده اللّاذع إلى المهديّ، ويعدّد المآخذ عليه، من تعطيلٍ لحدود الله، وجَوْرٍ في الأحكام، وتضييعٍ لحقوق الأمّة، وانصرافٍ إلى اللّهْوِ والملذّات والعَبَث، وما إلى ذلك، ممّا لا يتّفق وأحكام الشّريعة الغرّاء.

وممّا جاء في رسالته: «...أتاني كتابُك، تعجب ممّا نَقَمْتُ إذ حَكَّمْتُ، فلستُ بتاركك في عمياء ممّا أنت فيه، مع أنّك إنّما خَدَعْتَ عن هذا نفسك، وقد عَلِمْتَ أنّي إنّما أَسِفْتُ وحكّمتُ، حين تركتَ الأمّة تائهة مائجة، لا حدودها أقمت، ولا حقوقها أدّيت، واشتغلت بإمائك، وتَنَوَّقْتَ(١٥٤) في بنائِك، مع إدمانك الصّيد، (...)، وقد زادني غيظًا أنّك تسمّيت المهديّ، وأبعد من سمّاك! فنِعْمَ المهديّ أنت؛ إذ بِعْتَ النَّاس بَيْعًا، وأَوْسعت النّاس غَيًّا،...». ثمّ يصفه بالطّاغية، وأن لا حياة له معه، أو مع خروجه عن جادّة الحقّ، وجَوْره في سياسة الرعيّة، ويتّهمه باتّباع وزيره يعقوب بن داود (ت ١٨٦هـ)، والصّدور عن رأيه، الذي يجانب المحجّة، ويجافي الدّين القويم. ولعلّ أغلب هذه المآخذ والمطاعن، ممّا أخذه الخوارج على حكّام بني أميّة، ولطالما تكرّرت في خُطبهم وأشعارهم، فضلاً عن إظهار الاستخفاف بالأعداء، والاستهانة بما يعدّونه لهم من أجناد وكتائب؛ إذِ «الفَتْحُ بيد الله يحكم ما أحبّ،

(١٥٤) تنوّق: بالغ في التجويد، يقال: تنوّق في منطقه، وفي ملبسه: بالغ وتجوّد.

وإنّما أنا عَبْدٌ من عباده، لا أستطيع منه امتناعًا، ولا عن نفسي دفاعًا». وقد أرسل المهديّ جيوشه إلى عبد السّلام، فهزم بعضها، ثمّ قُتِل بقِنّسرين سنة (١٦٢هـ)(١٥٥).

ولّما أفضت الخلافة إلى محمّد الأمين، كان جُلّ رسائل عَهْده في الخلاف بينه وبين أخيه عبد الله المأمون، منها ما كان قبل نشوب الصّراع الدّمويّ، ومنها ما رافقه، ومنها ما كان بعده. فحينما عَزَمَ الأمين على عَزْل أخيه المأمون، وجَعْل ولاية عَهْده لابنه موسى، الذي سمّاه (النّاطق بالحقّ)، ولّما يزل طفلاً رضيعًا، أشار عليه إسماعيل بن صبيح الكاتب ـ كما يروي الطّبريّ ـ أن يكتب إليه يُعْلِمه حاجته إليه، وما يُحِبُّ من قُرْبه، والاستعانة برأيه، ويسأله القدومَ إليه، فقال الفضل بن الربيع: القولُ ما قال يا أمير المؤمنين، قال: فليكتب بما رأى. وممّا كَتَبَهُ: «أمّا بعد؛ فإنّ أميرَ المؤمنين رَوَّى في أمرك، والموضع الذي أنت فيه من ثَغْرِك، وما يُؤَمِّل في قُرْبك، من المُعاونة والمُكَانَفَةِ على ما حمَّله اللهُ، وقَلّده من أمور عباده وبلاده، وفكَّرَ فيما كان أميرُ المؤمنين الرّشيدُ أوجبَ لك من الولاية، وأَمَرَ به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فَرَجَا أميرُ المؤمنين ألّا يدخل عليه وَكَفٌ في دِينه، ولا نَكْثٌ في يمينه؛ إذ كان إشخاصه إيّاك فيما يعود على المسلمين نَفْعُه، ويصلُ إلى عامّتهم صلاحُه وفَضْلُه، وعَلِم أميرُ المؤمنين أنّ مكانك بالقرب منه أَسَدُّ للثغور، وأَصْلَحُ للجنودِ، وآكَدُ للفيء، وأَرَدُّ على العامّة، من مُقَامِك ببلاد خُراسان»(١٥٦).

ولّما حُصِرَ الأمين وخَذَلَه أنصارُه، وأدرك أنّه مغلوب، بعث إلى طاهر بن الحسين برسالةٍ، يعرض عليه فيها أن يمنحَه أمانًا، حتّى يستسلمَ له، ويرسله إلى أخيه، ليرى رأيه فيه. وفيها يقول: «من عبدِ الله محمّد أميرِ المؤمنين إلى طاهر بن الحسين، سلامٌ عليك. أمّا بعد؛ فإنّ الأمرَ قد خرج بيني وبين أخي إلى هَتْكِ السّتور، وكَشْفِ الحُرَم، ولستُ آمَنُ أن يطمعَ في هذا الأمر السّحيقُ البعيدُ؛ لِشَتَاتِ أُلْفَتِنا، واختلافِ كلمتِنا. وقد رضيتُ أنْ تكتبَ

---

(١٥٥) تاريخ الأمم والملوك ١٣٢/٨، ١٤٢.

(١٥٦) المصدر نفسه ٤٠٠/٨–٤٠١. روّى في أمرك: نظر فيه وتفكّر. والوَكَفُ: المأثم والفساد والعيب.

لي أمانًا لأَخْرُجَ إلى أخي به، فإنْ تفضَّلَ عليَّ فَأَهْلٌ لذلك، وإنْ قتلني فمَرْوة كسرت مَرْوة، وصَمْصَامَةٌ قطعت صَمْصَامَة، ولأن يفترسني السَّبعُ أحبّ إليّ مِنْ أن تنبحني الكِلاب»(١٥٧).

وعلى الرّغم من ذلك، فقد قُتل الأمين، ولم تُرْعَ له حُرْمة، وبعث طاهرٌ برأسه إلى المأمون، فلمّا رآه تملّكه الأسى، وأَمَرَ الفضلَ بن سهل أن يُنْشِئ كتابًا عن طاهر بخَبَرِ الأمين، لِيُقْرَأ على النّاس، فكُتبت كتب عدّة لم يقبلها واستطالها، فكتب أحمد بن يوسف (ت ٢١٣هـ) كتابًا، نال به الرّضا والقَبُول. وممّا جاء فيه قولُه: «أمّا بعد؛ فإنَّ المخلوعَ وإنْ كان قَسِيْمَ أميرِ المؤمنين في النَّسَبِ واللُّحْمَةِ(١٥٨)، فقد فَرَّق حكمُ الكتابِ والسُّنّةِ بينه وبينه في الولاية والحُرْمة؛ بمُفارقته عِصْمَةَ الدِّين، وخروجه عن الأمرِ الجامع للمسلمين، يقول الله ﷻ فيما اقتصّ علينا من نبأ نوحٍ وابنه: ﴿**يا نُوحُ إنَّهُ ليس مِنْ أَهْلِكَ إنّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾(١٥٩)، ولا صِلَةَ لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعةَ ما كانت القطيعة في ذات الله. وكتبتُ إلى أميرِ المؤمنين، وقد قَتَلَ الله المَخْلُوعَ ورَدَّاهُ رِداءَ نَكْثِه، وأَحْصَدَ لأمير المؤمنين أَمْرَه، وأَنْجَزَ له ما كان ينتظر من سابقِ وَعْدِه، فالأرضُ بأكْنافِها أَوْطَأُ مِهَادٍ لطاعتِه، وأَتْبَعُ شيءٍ لمشيئتِه...»(١٦٠).

ومن البيّن أنّ هذه الرّسالة تكشف عن دراية سياسيّة، ومقدرة بلاغيّة؛ إذ إنَّ «دقّة التّعبير واضحة في الرّسالة، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين، والرّبط بينه وبين عصيان ابن نوح، وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوّة أبيه وقرابته، وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حُرْمة، فقد خرج من أهله، وهو إنّما تولّى الخلافة ميراثًا منهم، وقد نَكَثَ عهده في الوفاء لأخيه بولاية العَهْد من بعده، هذا العَهْد الذي كتبه بيده، وعلّقه أبوه هارون على

(١٥٧) نثر الدرّ ١٠٥/٣. و تاريخ الخلفاء، ص٢٦٠. المَرْوَةُ: الحجارة. والصَّمْصَامَةُ: السَّيف الصارم الذي لا ينثني.

(١٥٨) القَسِيْمُ: من يُقاسم غيره شيئًا، وقَسِيمُ الشيء: شَطره، ج: أَقْسِمَاء. واللُّحْمَةُ: القرابة، يقال: بينهما لُحْمَةُ نَسَب، ج: لُحَمٌ.

(١٥٩) سورة هود: ٤٦/١١. وواضح أنه يقيس حالة ابن نوح بحالة الأمين؛ لتسويغ قتله، بناء على هذا الدّليل.

(١٦٠) تاريخ الأمم والملوك ٥٠٧/٨–٥٠٨. وجمهرة رسائل العرب ٣١٦/٣–٣١٧ (وقد أثبتُّ ما أورده صاحب الجمهرة).

الكعبة، حتّى لا يستطيع الخروج منه، وقد نال جزاء خيانته، وعادت الأمورُ إلى نِصَابها، فاجتمعت كلمةُ الأمّة بعد فُرقتها، ورُدَّ صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته»(١٦١).

وينبغي لنا أنْ نَعيَ أنَّ رسائلَ الصّراعات السّياسيّة ـ كما هي الحال بين الأمين والمأمون مثلاً ـ لا تمثّل الواقع التّاريخيّ تمامًا؛ فالصّبغة (الإعلاميّة) واضحة جليّة في كثيرٍ منها؛ فالحُكم على شخصيّة الأمين مثلاً، ينبغي أن يأخذ بالحُسْبان التّشويه الذي تعرّضت له شخصيّته من قِبَل أتباع المأمون وبطانته، فالمهزوم مُخطئ مذموم، وظلومٌ غَشُوم! أمّا المنتصر المظفّر، فتحار العقولُ في وَصْفه، وتعجز الصّحفُ عن الإحاطة بمناقبه، وحميد سجاياه، وتَجشّمِه الأهوال في نُصْرة الدّين، والذّود عن حُرَمِ المسلمين، وما إلى ذلك من أقوال ونعوتٍ، يخرج بها أصحابُها عن جادّة الحقّ، ومَحَجَّةِ الصَواب؟!

وفي عهد المأمون خرج نصر بن شَبَث العُقَيْليّ (سنة ١٩٨هـ) في الجزيرة؛ وكان دافعه إلى الثّورة رفضه سياسة العبّاسيّين في تقديم العناصر الفارسيّة في الدّولة؛ إذ عرض عليه أنصارُه اختيار خليفة لحركته، فقال: «إنّما هواي في بني العبّاس، وإنّما حاربتهم مُحاماة عن العرب؛ لأنّهم يقدّمون عليهم العَجم».

وقد حاربه طاهر بن الحسين، ثمّ ابنه عبد الله، وحَصَرَه عبد الله وضيّق عليه، فتحصّن نَصْرٌ، فكتب إليه: «اعتصامُك بالقِلال قَيَّدَ عَزْمَك عن القتال، والتجاؤك إلى الحُصُون، ليس يُنْجِيك من المَنُون، ولَسْتَ بِمُفْلِتٍ من أمير المؤمنين، فإمّا فارِسٌ مُطَاعِنٌ، أو راجِلٌ مُسْتأمِنٌ»(١٦٢). فلمّا قرأه حَصَره الرُّعب عن الجواب، ولم يلبث أن خرج مُسْتأمِنًا صاغِرًا، فبعث به عبد الله إلى بغداد، مع ذُلّ الإسَار والصَّغار.

---

(١٦١) العصـــر العبّاسيّ الأوّل، ص٥٤٣-٥٤٤.

(١٦٢) زهر الآداب ٢/٩٩٠. والقِلالُ: جمع قُلَّة؛ وهي أعلى الجبل.

ج. السّياسة الخارجيّة:

تجلّت بعض معالم السّياسة الخارجية للدّولة الإسلاميّة في بضع رسائل متبادلة بين الخلفاء العبّاسيّين وبعض ملوك الرّوم، وهي النّصوص النّثريّة الوحيدة - فيما أعلم - التي تتّصل بهذا الموضوع، بخلاف الشّعر، الذي وصلت إلينا منه قصائد مُطوّلة، خلا المقطّعات والنّتف، في مديح القادة المنتصرين عليهم، والإشادة ببطولاتهم ودفاعهم عن الإسلام وحصونه.

ومن المحقّق أنّ رسائل عديدة كُتبت في تنظيم العلاقات بين الدّولتين، وما كان يجري بينهما من حروب أو معاهدات، إلّا أنّ ما بين أيدينا منها لا يعدو بضع رسائل، تدور حول فكرة الحرب والسّلم بين الدّولتين، وما يتصل بها من تبليغ الإسلام والدّعوة إلى الله، أو قبول الجزية. وقد كان الخلفاء يرون الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، واجبًا لِزامًا عليهم، لا يعوقهم عن تطبيقه غير صراعات الدّولة الدّاخلية، وما تجيش به من فتنٍ وثورات.

والصّراع بين العرب والرّوم صراع قديمٌ، لا يكاد يخبو سَعيرُه، منذ صدر الإسلام. وكان تأمين ثغور الدّولة وحدودها، وتحصين أطرافها، من أهمّ أعمال الخلفاء العبّاسيّين، بل إنّ أغلبهم في هذا العصر مافتئ يحارب الرّوم بنفسه، ويحقق انتصارات مُذهلة في أراضيهم، كما هو معروف لدى الرّشيد الذي كان يحجّ عامًا ويغزو عامًا، خلا سنين قليلة، وكذا المأمون والمعتصم.

وكثيرًا ما نقض الرّوم عهودهم ومعاهداتهم وغدروا بالمسلمين، ففي عصر الرّشيد نقض (نِقْفُور) إمبراطور الرّوم (سنة ١٨٧هـ) العَهْدَ الذي عُقِدَ بين المسلمين والإمبراطورة (ريني - أو: إيريني) التي خلعها نِقْفُور، وكتب إلى الرّشيد: «من نِقْفُور ملك الرّوم إلى هارون ملك العرب. أمّا بعد؛ فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقامَ الرُّخّ، وأقامت نفسها مقامَ البَيْدَق، فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقًا بِحَمْلِ أمثالها إليها؛ لكنّ ذاك ضَعْف

النّساء وحُمْقُهنّ، فإذا قرأتَ كتابي فارددْ ما حُصّل قِبَلك من أموالها، وافتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلّا فالسّيفُ بيني وبينك». فاستشاط الرّشيد غَضَبًا، وكتب إلى نِقْفُور على ظهر الرّسالة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نِقْفُور كلب الرّوم: قد قرأتُ كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دونَ ما تسمعه، والسّلام»[١٦٣]. وشَخَصَ إليه الرّشيد على رأس حملةٍ كبيرة، ففَتَحَ وغَنِمَ، حتى أناخ بباب هِرقلة، فارتعدت فرائِصُ نِقْفُور فَرَقًا، وتعهّد بأداء الجزية صاغرًا.

وللرّشيد رسالة إلى قُسْطنطين السّادس إمبراطور الرّوم، كتبها عنه أبو الربيع محمّد بن اللّيث؛ وهو من بُلغاء الكُتّاب، قال عنه صاحبُ الفهرست: «...يُعرف بالفقيه، وكان بليغًا مُترسّلاً كاتبًا فقيهًا مُتكلّمًا بارعًا».

والرّسالة تمتدّ إلى نحوِ سبعين صحيفة، وفيها يدعوه الرّشيد إلى الإسلام ويعرّفه به، ويُفَنِّد ما يلوكه الرّومُ من خُزَعبلات وأباطيل حوله، مؤكّدًا صحّة نبوّة محمّد ﷺ بالأدلّة والبراهين العقليّة الدّامغة، وأنّ الله بشّر به في التّوراة والإنجيل، وذكر علامات نبوّته وآيات رسالته، التي لا تخفى على مَنْ طلبها؛ إذ هي جمّة لا يُحصى عددها. كما دعاه الرّشيد إلى التّدبّر والتّفكّر والتّأمّل بهذه الآيات للوصول إلى الحقّ المبين، «فلعمرُ الله لو كان من أَمْر النبي ﷺ ما تَلْحَدُ أنت وقومُك إليه، لَمَا قام معه رجلان، ولا اختلف فيه سَيْفَان، وإنّ فيما صنع الله ﷻ بالفِيل وأتباعه دلالةً على قِبْلة الله وأنبيائه، فاتّقِ الله، فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي ﷺ، وكَشَفَ الأغطية لك عن النّور بآيات الوحي... ».

وقد أفاض ابنُ اللّيث، على لسان الرّشيد، في وصف رسالة الإسلام، وما طُوِي فيها من الهُدى للبشر، وإنقاذهم من ظُلمة الضّلال، وأكّد وحدانيّة الله سبحانه، وهيمنة الإسلام وعظمته، ودعا قسطنطين إلى الإيمان به، والنّظر في أمر دينه، والتثبّت منه، وإلّا

---

(١٦٣) تاريخ الأمم والملوك ٣٠٧/٨-٣٠٨. وانظر: الوزراء والكتّاب، ص٢٠٧. والرُّخُّ والبَيْدَقُ: من قِطع الشِّطْرَنج؛ القائد والجندي.

فعليه أن يدفع الجزية صاغرًا؛ لِمَا في ذلك من الأمن والسّلام والدّعة، وطاعة الله، والامتثال لأوامره: «...وكتابُ أمير المؤمنين نذيرُه بين يَدَيْ جنوده، ومُقَدّمه، إن شاء الله، من جيوشه، إلّا أن تؤدّوا الجزية عن التي دعاكَ أميرُ المؤمنين إليها، وحَدَاكَ ومَنْ قِبَلك عليها، رحمةً للضّعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجّعًا للمساكين ممّا لا تَوَجّع منه لهم من الجَلاء والسّبَاء والقتل والأسر والقهر، وقساوةً من قلوبكم، وأَثَرَةً لأنفسكم، واعتصامًا بخواصّكم، وإجلاءً لعوامّكم الضعفاء الفقراء المساكين، الذين لا تمنعونهم بقوّة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تُراقبون في الرّحمة بهم والتّعطف عليهم أدبَ المسيح إياكم، وقولَه في الكتاب لكم: (طُوبى للذين يرحمون النّاس؛ فإنّ أولئك أصفياءُ الله، ونورُ بني آدم)»(١٦٤).

وتبدّت السّياسة الخارجيّة، في جانبٍ منها، للدّولة الإسلامية في عهد المأمون، في بضعِ رسائل مُتبادلة بينه وبين تيوفيل ملك الرّوم، تخصّ العلاقات السّياسيّة بين الدّولتين، التي لم تَكَدْ تستقرّ على حال، فتارةً في حربٍ، وتارةً أخرى في سِلم ومصالحة. وكان المأمون يُوالي حَملاتِه عليهم، وكثيرًا ما أجأهم إلى طلب الصّلح اضطرارًا، وقد كانت وفاته، في آخر حملاته عليهم سنة (٢١٨هـ).

وفي رسائل المأمون إلى ملك الرّوم يتجلّى اعتداده بإسلامه وقوّة دولته، وضرورة هيمنة الإسلام وسيادته على أعدائه، وعدم الخضوع والاستكانة لهم، فإنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولذا رفض المأمون قراءة كتاب لملك الرّوم بدأ فيه باسمه، فردّه إليه، وردّ على رسالة لـ (تيوفيل) يعرض فيها الهدنة ويمزج لينًا بشدّة، قائلاً: «أمّا بعد؛ فقد بلغني كتابُك فيما سألت من الهُدنة، ودعوتَ إليه من المُوادعة، وخلطتَ فيه من اللّين والشّدّة (...) فلولا ما رجعتُ إليه من أعمال التّؤدَة والأخذ بالحظّ في تقليب الفكرة (...) لجعلتُ جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنّجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم، ويتقرّبون إلى

---

(١٦٤) انظر: جمهرة رسائل العرب ٣/٢١٧-٢٧٤.

الله بدمائكم، ويستقلّون في ذات الله ما نالهم من أَلَمِ شوكتكم...»(١٦٥). ثمّ يوضّح المأمون أنّه يتقدّم إليه بالموعظة أوّلًا ليثبت بها الحجّة عليه، ويدعوه إلى الوحدانيّة والشّريعة الحنيفيّة ـ بحسب تعبيره ـ وإن أبى ففِدْيَة تُوْجِب ذِمَّة، وإلّا فالحرب أبلغ من القول!

وقد سار المعتصم على غِرار المأمون مع الرّوم، في عُنْف اللّهجة وقوّة العزيمة، وأذاقهم سَوْطَ عذاب، وسامهم الذّلّ والصَّغَار في معركته الخالدة معركة عموريّة سنة (٢٢٣هـ)، التي كانت نصرًا عظيمًا للمسلمين، وفتحًا تعالى أن يحيط به (نَظْمٌ من الشّعْر أو نَثْرٌ من الخُطَب)؛ لأنّه يجسّد انتصار الإسلام آنذاك على الكُفر، والإيمان على الشّرك والضّلال، في أعتى حُصونه وأمنع قِلاعه، ولم يثنِ المعتصم عن عزمه على فتح عمورية ما عُرض عليه وبُذل له من المال أو غيره من أشكال الإغراء؛ لأنّ الجهاد في سبيل الله غَرَضُه، والانتقام لما فعله الرّوم بالمسلمين غايته ومَقصده.

وقد وصلت إلينا رسالةٌ للمعتصم إلى ملك الرّوم جوابَ كتابٍ يتهدّده فيه ويتوعّده؛ إذ أمر المعتصم بجوابه، فلمّا قُرِئ عليه لم يقبله، وقال للكاتب: اكتب: «بسم الله الرّحمن الرّحيم. أمّا بعد؛ فقد قرأتُ كتابَك، وفهِمتُ خِطَابَك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار**﴾»(١٦٦).

ويمكن القول: إنّ قوّةَ الدّولةِ العبّاسيّة وخلفائها في هذا العصر ظاهرةٌ جليّةٌ في المُراسلات بين الطّرفين، من حيث استخدام أسلوب التّهديد والوعيد والاستخفاف. وكان الرّوم، في الغالب، هم الذين يطلبون الصّلح والموادعة، ويعرضون الهُدنة وفِكاك الأسرى، فإذا ما انشغل العبّاسيّون بالاضطرابات والفتن الدّاخلية، نقض الرّومُ صُلْحَهم، وعاثوا في الأرض مُفْسدين، ثمّ لا يلبثون أن يطلبوا الصّلح راغمين.

---

(١٦٥) تاريخ الأمم والملوك ٦٢٩/٨-٦٣٠.

(١٦٦) نثر الدرّ ١٢٤/٣. وصبح الأعشى ٢٣٢/١. وتاريخ الخلفاء، ص٢٨٦. والآية من سورة الرعد: ٤٢/١٣.

د. قضايا إداريّة وسياسيّة:

تعدّدت القضايا الإداريّة والسّياسيّة التي تناولتها الرّسائل في هذا العصر، من مِثل تولية الولاة أو عَزْلهم، وأخبار الولايات وأحوالها، والفتوح والمواسم، وأخذ البيعة، ومَنْح الأمان، والتّوجيه والمنشورات (الإعلاميّة)، وما إلى ذلك من أعمالٍ تتّصل بتصريف شؤون الدّولة، وتدبير حُكمها.

وسنعرض ههنا لبعضها، فمن ذلك أنّ المنصور بلغه أنّ أحد عُمّاله يُكثر من الخروج إلى الصّيد، فكتب إليه: «ثَكِلَتْكَ أُمُّك، وعَدِمَتْكَ عشيرتُك! ما هذه العُدَّةُ التي أَعْدَدْتَها للنّكاية في الوحْش؟ إنّا إنّما استكفَيْنَاك أمورَ المسلمين، ولم نَسْتَكْفِكَ أمورَ الوَحْش؛ سلِّم ما كنتَ تَلِي من عملنا إلى فلان بن فلان، والْحَقْ بأهلك مَلومًا مَدْحُورًا»[١٦٧]. وتصوّر هذه الرّسالة شدّة المنصور في إدارة دولته، ومحاسبة عمّاله، وعدم تهاونه في أمور الرّعيّة، ولجوئه إلى سياسة الحزم والعنف التي جنى ثمارها في توطيد أركان دولته، والقضاء على مُناوئيه.

ونمضي إلى عصر الرّشيد، فتلقانا مجموعة من الرّسائل، منها ما هو مُرْسَلٌ إلى البرامكة أو صادرٌ عنهم، أو يخصّ أمر نكبتهم. ونمثّل، ههنا، برسالة يحيى البرمكيّ إلى ابنه الفضل، يطلب منه أن ينقل ديوان الخاتم منه إلى أخيه جعفر: «قد أَمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلى الله أمرَه ـ أن تُحَوَّلَ الخَاتَمُ من يمينك إلى شمالك»؛ فكتب إليه الفضل: «قد سمعتُ لما أَمَرَ به أمير المؤمنين في أخي، وقد أطعتُ أَمْرَهُ، وما انْقَلَبَتْ عنّي نعمةٌ صارت إليه، ولا غَرَبَتْ عنّي رُتْبَةٌ طَلَعَتْ عليه»[١٦٨].

ومن الرّسائل التي يمكن أن نصنّفها ضمن هذا الموضوع، والتي تختصّ بالدّعاوة لبني العبّاس ـ وتقوم مقام الإعلام في عصرنا ـ ما يُعرف برسالة الخميس، وكانت تُقرأ على

---

(١٦٧) تاريخ الأمم والملوك ٦٨/٨. والبداية والنهاية ١٣٥/١٠. مدحورًا؛ يُقال: دَحَرَه دَحْرًا ودُحُورًا: دفعه وأبعده وطَرَده. وفي القرآن الكريم: ﴿ولا تجعل مع اللّهِ إلهًا آخرَ فتُلْقَى في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩/١٧].

(١٦٨) الفخري، ص٢٠٥. وانظر: جمهرة رسائل العرب ١٤٨/٣ وما بعدها.

شيعة العبّاسيّين في خراسان، ولها مكانة سامقة، وشهرة عظيمة. وكانت تُكتب في عهد كلّ خليفة عبّاسيّ، في العصر الأوّل، وموضوعها تأييد الدّعوة العبّاسيّة والخليفة الحاضر، والإشادة بذكره، وعظيم مناقبه ومآثره، وأنّه أولى أهل بيته بالخلافة؛ تفخيمًا لشأنه، وتجديدًا لولائهم له(١٦٩). وقد ذكر صاحبُ الفهرست أنّ لعمارة بن حمزة رسائلَ مجموعة، مِن جُمْلتها (الرّسالة الماهانية) و(رسالة الخميس) التي تُقرأ لبني العبّاس، وهي أولى رسائل الخميس.

وكتب أحمد بن يوسف (رسالة الخميس) للمأمون، يدعو فيها له وللدّولة العبّاسيّة، ويحتجّ له عن قَتْل أخيه. وقد ذكر صاحب الفهرست أنّ «الكتبَ المُجمع على جودتها: عهدُ أردشير، كليلة ودِمنة، رسالة عمارة بن حمزة الماهانيّة، اليتيمة لابن المقفّع، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف»(١٧٠). وجميع هذه الكتب سياسيّة في موضوعها، على اختلافٍ في المقاصد والغايات والأسلوب.

وقد استهلّ أحمد بن يوسف رسالته بتحميدٍ طويل، أسهب فيه بإحكام دقيق، ثمّ انتقل إلى الحديث عن حقّ العبّاسيّين في الخلافة، معوّلاً على قرابتهم من رسول الله ﷺ؛ فهم أحقّ بوراثته، وذاكرًا في هذا الصّدد آياتٍ من القرآن الكريم في حقّ آل البيت، وممّا قاله: «وكان اختيارُ أولي الفضلِ من لُحْمَتِهِ وعَصَبَته لإرْثِ خلافته، من عظيم الزُّلَف التي رَغِبَ إلى الله فيها أنبياؤه، فيما اقتصّ في مُنْزَلِ وَحْيه(١٧١)، واختصّ تبارك وتعالى نبيّه ﷺ بما أَمَرَهُ به من مسألة أُمَّتِهِ تصييرَ مَوَدَّتِهِ في القُربى، جزاءَه ممّن تَبِعَه على الرّسالة، وهداه من الضّلالة، فكانت فضيلتهم عزيمةً من الله ﷻ، دون طلب رسول الله ﷺ، ألزمَه تأديتَه إلى خَلْقه،

---

(١٦٩) انظر: جمهرة رسائل العرب ٣/٣١٧-٣١٨. (والمقصود بالخميس: الجيش الجرّار؛ سُمِّي بذلك لأنّه خَمْسُ فِرَق: المقدّمة، والقلب، والمَيْمَنَة، والمَيْسَرَة، والسّاق أو السّاقة). [القاموس المحيط، والمعجم الوسيط، مادة: خمس].

(١٧٠) الفهرست، ص٢٠٣.

(١٧١) إشارة إلى قوله تعالى على لسان نبيّه زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ [مريم: ١٩/٥-٦].

وألزمهم أداءَهُ، فقال ﷻ: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدَّةَ في القُرْبى**﴾(١٧٢)، ودَلَّ بما أَخْبَرَ به، وأَظْهَرَه من تطهيره إيّاهم، وإذهابه الرِّجْسَ عنهم، على اصطفائه لهم، فقال تعالى: ﴿**إنّما يُرِيْدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْرًا**﴾(١٧٣). وكان ممّا أوجب لهم به حَقَّ الوراثة في مُحكَمِ تنزيله قولُه تعالى: ﴿**وأولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ في كتابِ الله**﴾(١٧٤). ثمّ قَرَن طاعتَهم بطاعته؛ فقال: ﴿**أَطِيْعُوا الله وأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُم**﴾(١٧٥)...».

وعلى هذه الشّاكلة مضى أحمد بن يوسف يحتجّ للعبّاسيين في الخلافة، وتأييد دعواهم، ثمّ أفاض في مدح المأمون، وما جرى له مع أخيه الأمين، وما «ظهر لهم من بيان حُجَّته على مَنْ نَازَعَهُ في الأمر، وشَاهَدُوا من إبلاغه في العُذر، واستظهارِه بالتأنّي والصّبر، ما أزاح عنهم الشُّبْهَةَ، وكَشَطَ(١٧٦) الحَيْرَة، حتّى استراثوا نهوضه بحقّه، وخافوا الزَّيغَ على أديانهم، فيما أعطوه من صَفْقَةِ أيمانهم، وهو ماضٍ على عادته، مُستديمٌ للمُوادَعَةِ (...). وخانَ المخلوعُ فابتغاه بالشِّرَّةِ والغِرَّة(١٧٧)، فتناول أولياءَ الحقِّ باغيًا طاغيًا؛ لِما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحُجَّةِ التي وَجَبَ(١٧٨) لها قلبه، وفُتَّ بها في عَضُدِه، وقِبَلَ الله ما أيّدكم به من النّصر والغَلَبَة فيه، التي جعلها الله للمتّقين...».

وكان لا بُدَّ من الإشادة بأنصار الدّولة أيضًا، وبيان فَضْلِهم في قيام الدّولة أوّلاً، وفي نُصْرة المأمون ثانيًا: «فاجتمع لكم معشر أهل خُراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاثُ خِلال

---

(١٧٢) سورة الشورى: ٢٣/٤٢.

(١٧٣) سورة الأحزاب: ٣٣/٣٣.

(١٧٤) سورة الأنفال: ٧٥/٨. والأحزاب: ٦/٣٣.

(١٧٥) سورة النساء: ٥٩/٤.

(١٧٦) كَشَطَ: كشف وأزال؛ يُقال: كَشَطَ الجلدَ عن الذبيحة: أزاله عنها، وفي التزيل العزيز: ﴿وإذا السماءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١/٨١].

(١٧٧) الشِّرَّةُ: الحِدَّةُ؛ يُقال: أعوذ بالله من شِرَّة الغضب. والغِرَّة: غفلة في اليقظة، ج: غِرَرٌ. (المعجم الوسيط، مادة: غرر).

(١٧٨) وَجَبَ: خَفَقَ واضطرب ورَجَف.

اختصّكم الله بفضيلتها، وسَنِيِّ مراتبها، دون ثلاثٍ شَمِلَتْكُمْ وغيرَكم؛ أمّا الأولى من اللواتي خصّكم الله بهنّ؛ فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرَةِ أهل بيت النبيّ وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين. وأمّا الثّانية فما آثَرَكم الله به من نُصْرته في دعوته الثّانية. وأمّا الثّالثة فما تَقَدَّمتم به من صحّة ضمائركم، ومَحْضِ مُنَاصحتكم...». ثمّ تدعو الرّسالة(١٧٩) أهل خُرَاسان إلى التّآلف والوحدة، وتحذّرهم وَبَال الفُرقة والاختلاف، وتَعِدُهم بتفقّد أحوالهم، والإحسان إليهم.

ومهما يكن الأمر، فقد تناولت الرّسائل مختلف الشّؤون السّياسيّة، وكان لحوادث العصر أثرٌ كبير في ازدهارها، وتنوّع أغراضها، كما افتنّ الكُتَّاب في كتابتها وتدبيجها افتنانًا بديعًا، على نحوٍ جعلها حَسَنة التّراكيب، مُحكمة الصّياغة، متينة السّبك، ذات حظّ وافر من الصّور البيانيّة، والخيال المُفعم بالحركة والحياة، فضلاً عن قُدرتها على الإقناع بما تنطوي عليه من حُجَجٍ وأدلّة عقليّة.

وكلّ ذلك أسهم في رُقيّ الرّسائل السّياسيّة، حتّى ضُرِب المَثَل ببلاغة بعضها، فكان يُحفظ ويُدوّن، وتتعاوره الكتب والألسنة، كما في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف، التي عُدّت هي والرّسالة الماهانية لعمارة بن حمزة من الكتب المُجمع على جودتها وبلاغتها، كما ذكر محمد بن إسحاق النّديم. وكذلك رسائل المنصور ومحمّد (النَّفْس الزّكيّة)، التي تُعَدُّ من نوادر الكُتب ومَحَاسنها.

لذا فقد نافست الرّسائلُ السّياسيّة الرّسائل الأدبيّة والإخوانيّة، من النّاحية الفنّيّة، على الرّغم من الأفق الضيّق الذي يحلّق فيه المترسّلُ؛ وأعني به الموضوع المُحَدَّد، الذي يُشترط على المترسّل الكتابة فيه، والمعاني الرئيسة التي ينبغي له أن يدور في فَلَكها، في كثيرٍ من الأحيان، بخلاف الرّسائل الأدبيّة والإخوانيّة، التي تمنح المترسّل فُسْحَة رَحْبة للتعبير عن مشاعره، وما يعتلج في صدره، وعَرْضِ أفكاره الخاصّة به، وما يتّصل بها من معانٍ، بكلّ

---

(١٧٩) انظر: جمهرة رسائل العرب ٣/٣١٧-٣٣٤. وعصر المأمون ٢/٢٥١-٢٦٠؛ نقلاً عن: اختيار المنظوم والمنثور، لابن طيفور ١٢/١٧٣.

دقائقها وجزئيّاتها. ومِنْ ثمّ أجاد كُتَّاب الرّسائل الأدبيّة والإخوانيّة إجادةً بديعة، حتّى زاحموا الشّعر في كلِّ فنونه وأغراضه، وهؤلاء هم، في الأعمّ الأغلب، كُتّاب الرّسائل السّياسيّة أنفسهم.

ومع ذلك فقد كان للرّسائل الرّسمية النّصيب الأوفى من الاهتمام والحفاوة، على المستوى النّقديّ ـ كما سلفت الإشارة ـ فأُلّفت حولها كتب علميّة أو تعليميّة، رفعت من أقدار كُتَّابها، ونوّهت بفَضْلهم ومحاسنهم. ولعلّ هذه العناية من لدن النقّاد والبلاغيين، تعود إلى اهتمام الخلفاء والوُلاة بها؛ لارتباطها بالخطاب السّياسيّ للدّولة، وما يتضمّنه من توطيد أركانها، وتثبيت دعائمها، فضلًا عن المنفعة الكبرى التي تعود على المترسّل من الدّولة؛ من خلال الكتابة في دواوينها، وارتقاء أعلى المراتب، وأسمى المناصب.

❋ ❋ ❋

٣ـ معالم البناء الفنّي للرّسائل:

قلنا إنّ النّقّاد والبلاغيين العرب احتفوا بفنّ التّرسّل حفاوة كبيرة، كما عنوا بفنّ الخطابة أيضًا. وكانت الرّسائل السّياسيّة أو السّلطانيّة، أهمّ ما عُنوا به؛ «لأنّها الكتب النّافذة في جلائل الخطوب، ومعاظم الأمور، وسياسة الجمهور، وقوام الدّنيا، ونظام الدّين». كما يقول ابن خلف الكاتب[١٨٠].

وكان القلقشنديّ (ت ٨٢١هـ) في كتابه الموسوعيّ: (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، من أهمّ النقّاد الذين احتفوا بفنّ التّرسّل؛ إذ حاول تتبّع الأصول المنهجيّة العامّة لفنّ التّرسّل وتطوّرها، حتّى أوائل القرن التّاسع الهجري.

---

(١٨٠) مواد البيان، تح: حسين عبد اللطيف، ص٥٠٨.

وقد انتهى إلينا من أقوالهم أنّ الرّسالة، تتكوّن من بنية هيكليّة (أو معماريّة) ثلاثيّة، قِوامها: المقدّمة، والعرض أو الموضوع، والخاتمة. إذ ينبغي للكاتب أن يبدأ الكتاب، أو الرّسالة بفصول الصّدور، «ثمّ يأتي على الأعراض التي يتضمّنها الكتاب، ثمّ يختتم بما يليق بالمعنى في فصول الختم»(١٨١). وتشكّل هذه الأجزاء بمجموعها (المقدّمة، والعرض، والخاتمة) وحدة عضويّة مُتكاملة مُتلاحمة الأجزاء، على الرّغم من احتفاظ كلّ جزء بطابعه الخاص، الذي يميّزه عن الآخر، دون أن ينفصل عنه.

أ- المقدّمة:

وتعرف أيضًا بـ (صدر الرّسالة، والافتتاح، وخطبة الكتاب، والاستهلال،. ..)، وتكون جزءًا لا يتجزّأ من نسيج بنية الرّسالة، كما ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمَقْصد الرّسالة أو الغرض. وقد رأى ابن خلف الكاتب أنّ «منزلةَ هذه المقدّمات من كلِّ كلامٍ مؤلّف منزلة الرّأس من الجسد، والأساس من البناء، و كما أنّ الرّأس يضمّ أعضاء الجسد ويرأسها، كذلك المقدّمة التي يقدّمها المُنْشِئ في صدر كلامه تضمّ ما تتبعه، ويقع في ضمنه»(١٨٢).

وإنّما خُصّت الابتداءات بالاختيار، كما يقول ابن الأثير؛ «لأنّها أوّلُ ما يَطْرُقُ السّمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده، توفّرت الدّواعي على استماعه»(١٨٣). وضرب أمثلة على ذلك، منها قوله تعالى في أوّل سورة الحجّ: ﴿**يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج: ١/٢٢]، وعقّب قائلاً: «فإنّ هذا الابتداء ممّا يوقظ السّامعين للإصغاء إليه». ومن أهمّ **عناصر المقدّمة**:

---

(١٨١) المصدر نفسه، ص٤٩٦.

(١٨٢) المصدر نفسه، ص١١٩.

(١٨٣) المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر ٩٨/٣.

ـ البَسْمَلة:

وهي أوّل ما تُفتتح به الرّسائل، وقد كان رسول الله ﷺ يكتب كما تكتب قريش في الجاهلية، عبارة: «باسمك اللّهُمّ»، ثمّ بصيغة: «باسم الله»، بعدما نزل قوله تعالى: ﴿**وقَالَ ارْكَبُوا فيها بِسْمِ الله مَجْريها ومُرْسَاها**﴾ [هود: ١١/ ٤١]، ثمّ كتب: «بسم الله الرّحمٰن»، لمّا نزل قوله تعالى: ﴿**قل ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحمٰنَ**﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠]، ثمّ كتبها الرّسول ﷺ كاملة: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم»، بعدما نزل قولُه تعالى: ﴿**وإنَّهُ مِنْ سُلَيمانَ وَإنَّهُ بِسْمِ الله الرَّحمٰن الرَّحيم**﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٠]. ثمّ تابعه الصّحابة الكرام، ومن بعدهم الكُتّاب؛ تيمّنًا بذِكْرها، وتبرّكًا بالابتداء بها، وعملاً بالأخبار والآثار المرويّة في هذا الشّأن. وقد رُوي أنّ على الكاتب أن يُفرد البسملة في سطرٍ وحدها؛ تبجيلاً لاسم الله تعالى، وإعظامًا وتوقيرًا له. وعلى هذه الطّريقة جرى الكُتّاب في مُكاتباتهم(١٨٤).

ـ العنوان:

والمقصودُ به ذِكْر المرسِل والمُرْسَل إليه في مُستهلّ الرّسالة، والعنوان يختلف باختلاف الأزمان كما يقول الكلاعيّ. وكان الأصل فيه أن يُذكر اسم المرسِل أوّلاً، ثمّ المرسَل إليه، دون تكلّف أو تصنّع. وفي مُكاتبات الرّسول الكريم ﷺ نجد أنّ: «أمراء سراياه ﷺ، ومَن أسلم مِن الملوك تفتتح المكاتبة إليه ﷺ باسمه، ويُثَنّون بأنفسهم»(١٨٥).

وقد جرى ذلك فيما بعد مجرى التّقليد؛ إذ «إنّهم فرّقوا بين مرتبتيْ المتكاتِبَيْن، من الرّؤساء والعظماء والخدم والأتباع، بتقديم اسم المكتوب إليه إذا قصدوا إعظامه وإجلاله،

---

(١٨٤) انظر: الوزراء والكتّاب، ص١٤. وأدب الكُتّاب، ص٣١-٣٢. وموادّ البيان، ص٤٩٢-٤٩٧. وإحكام صنعة الكلام، ص٥٥. وصبح الأعشى ١/ ٤٨٠، ٦/ ٢١١.

(١٨٥) صبح الأعشى ٦/ ٤٥٣. وانظر: الترسّل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص٢٢١.

وتأخير اسمه، إذا أرادوا الإبانة عن إيضاح مرتبته من مرتبة الكاتب إليه. ولِحُسْنِ ما رأوه من هذا التّدبير ساروا عليه، وتركوا الأصل الأقدم»[١٨٦].

وفي الرّسائل السّياسيّة لهذا العصر، التزم الكُتّاب تقديمَ اسم الفاضل على المفضول، حتّى إذا كانت الرّسالة من المفضول، كما هي الحال في مراسلات المنصور وابن أخيه عيسى بن موسى في ولاية العهد، فقد كتب عيسى بن موسى إلى المنصور جوابًا على رسالة سابقة له: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، لعبد الله عبدِ الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى، سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله»[١٨٧]. وكذلك كَتَبَ المأمون إلى الأمين قبل أن يشقَّ عصا الطّاعة: «لعبد الله محمّد أمير المؤمنين من عبد الله بن هارون»[١٨٨].

أمّا إذا وجد المفضول نفسه نِدًّا ونظيرًا للفاضل، فلا يجد حَرَجًا في تقديم اسمه، كما في الثّورات والفتن؛ فقد كان أبو مُسْلم الخراسانيّ يكتب إلى نصر بن سيّار والي الأمويين على خراسان، فيلقّبه بالأمير ويبدأ به، فلمّا قرّر إظهار الدّعوة العبّاسيّة أرسل إليه رسالة عنيفة، بدأ فيها بنفسه، ولم يلقّبه بالأمير[١٨٩].

ولّما استشعر (نِقفور) إمبراطور الرّوم القوّة، خاطب الرّشيد بادئًا بنفسه، فلمّا أذعن صاغرًا، بعد أن وطئت أقدام جيش المسلمين أراضي دولته، وأنذرت بزوال ملكه، أرسل إلى الرّشيد، قائلاً: «لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نِقفور ملك الرّوم»[١٩٠].

وردّ المأمون كتاب (تيوفيل) إليه، حينما بدأ بنفسه ورفض الاطّلاع على مضمونه[١٩١]؛ إذ أثار حفيظته بهذا الصّنيع؛ لأنه اعتدَّ ذلك ـ فيما أحسب ـ قَدْحًا في عظمة

---

(١٨٦) مواد البيان، ص٤٩٦–٤٩٧.

(١٨٧) تاريخ الأمم والملوك ١٧/٨.

(١٨٨) نفسه ٤٠٥/٨.

(١٨٩) نفسه ٣٥٧/٧–٣٥٨.

(١٩٠) نفسه ٣٢١/٨.

(١٩١) تاريخ اليعقوبي ٤٦٥/٢.

مُلكه، وسَعَةِ سلطانه، فضلاً عمّا فيه من تقليل لشأنه وكفايته، وتفخيمًا لشأن الآخر. وفي هذا ما يُشْعِرُ إمام المسلمين أيضًا بانحسار هيمنة الإسلام على العالم، وربّما قاد السّكوت عن مثل هذه الأفعال البسيطة، في ظاهرها، إلى الإرجاف بضعف المسلمين؛ ومن ثمّ الاعتداء على أراضي الخلافة الإسلامية. أضف إلى ذلك أنّ النّزعة الدّينية عند المأمون ـ بوصفه إمامَ المسلمين وحامي حِمى الدّين ـ تأبى عليه أن يُخاطَب من ملك الرّوم بهذا الخطاب. وربّما، أخيرًا، يكون الموقف الذي جرت فيه المُراسلة هو الذي حَتَمَ على المأمون هذا الصّنيع، بعيدًا عن كلِّ هذه التّأويلات.

ـ الدّعاء والسّلام:

ومن الحذاقة في هذا الباب ـ كما يقول ابن الأثير ـ أن يُجعل الدّعاء مُتضمّنًا من المعنى، ما بُني عليه ذلك الكتاب؛ أي ممّا يتناسب ومُقتضى الحال. ويكون موضعه ـ إن وُجِدَ ـ بعد ذكر العنوان، وقبل السّلام، في جملة اعتراضيّة أو جملتين. وأَطَاله الكُتّاب في العصور اللاحقة.

أمّا السّلام فيلزم الاستفتاح به، يقول القلقشندي في تعليل ذلك: «إنّما جُعِلَ السّلام في ابتداء الكتب وصُدورها؛ لأنّه تحيةُ الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، فكما أنّه يُفتتح به الكلام طلبًا للتّأليف، كذلك تفتتح به المكاتبات وتصدّر طلبًا للتّأليف»(١٩٢). وقد ورد في الرّسائل السّياسيّة لعصرنا بصيغة «سلام عليك»، و«سلام عليكم»، و«السّلام عليكم»، وقد يأتي بعده المنادى، نحو: «سلامٌ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله».

أمّا غير المسلمين، أو مَن خَرَجَ على السّلطان منهم، فنصّ السّلام: «سلامٌ على من اتّبع الهُدى»، فالسّلام الذي يدلّ في معناه على السّلامة والأمن والسِّلْم، مَنُوطٌ ـ ههنا ـ باتّباع الإسلام عقيدةً في خطاب غير المسلمين، وسُلوكًا وهَدْيًا ومُعاملة في خطاب المسلمين

---

(١٩٢) صبح الأعشى ٦/٢٢٠.

المُخالفين لمذهب المُرْسِل وقناعاته الفكريّة والدّينيّة، وكأنّ مَنْ خرج على السّلطان خارجٌ من المِلّة!

ومِثالُ المُخالفة في العقيدة رسالة الرّشيد إلى (قُسْطنطين) عظيم الرّوم؛ فقد استهلّها كاتُبها بالقول: «مِن عبدِ الله هارون أمير المؤمنين إلى قُسْطنطين عظيم الرّوم، سلامٌ على من اتّبع الهُدى». وهذه الرّسالة في الدّعوة إلى الإسلام، كما مرّ بنا. وكَتَبَ عبد السّلام اليشكريّ الخارجيّ، الذي خرج في الجزيرة على المهديّ، ردًّا على كتاب له، قائلاً: «من عبد السّلام بن هاشم إلى محمّد بن عبد الله. سلامٌ على مَنِ اتّبع الهُدى، واجتنب الغَيَّ، وقام بالحقِّ؛ فلا الهُدى اتّبعت، ولا الغَيَّ اجتنبت، ولا بالحقّ قمت. أمّا بعد...».

والمُكاتبة بهذه الصّيغة ـ (سلامٌ على من اتّبع الهُدى) ـ مُحاكاةٌ وتقليد لسُنّة الرّسول الكريم ﷺ في مُراسلاته لغير المسلمين، وهي مُستمدّة، في الأصل، من قوله تعالى حكاية عن موسى وهارون عليهما السّلام: ﴿**قَد جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى**﴾ [طه: ٢٠/٤٧] .

وتدلّ هذه الصّيغة في المُكاتبة دلالةً بالغةً على الجَفْوة والبُعْد الفِكريّ والعاطفيّ بين المرسِل والمُرسَل إليه. وربّما نمّت، كما أظنّ، في بعض الأحيان ـ ولا سيّما في الدّعوة إلى الإسلام ـ على التّقرّب من المُرسَل إليه، واستمالته نفسيًّا ووجدانيًّا. أو بعبارة أخرى: هي نوعٌ من التّحريض على قراءة الرّسالة، ومحاولة لإثارة الاهتمام بما يأتي بعدها ـ وهو ما وَسَمَه المرسِل بالهُدى ـ وتدبّره التّدبّر الأمثل. وهو من قبيل براعة الاستهلال؛ وآية ذلك تصدير الرّسول ﷺ كتبه إلى ملوك الأرض ممّن جاوره بها؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إلى سَبِيْلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النّحل: ١٦/١٢٥]. ومهما يكن الأمر فقد دَرَجَ الكُتّاب على كتابتها إلى غير المسلمين والخارجين على شرعيّة السّلطان، وارتضاها النّقّاد والبلاغيون القُدامى أسلوبًا مميّزًا في التّحيّة والسّلام.

ـ الحَمْدَلَة:

وهي ممّا يُستحبّ أن تُفتتح به الرّسائل، وتُسمّى أيضًا بـ (التّحميد). والحكمة من إيرادها تختصّ بشكر الله والاستزادة من نِعَمِهِ سبحانه، وتبرّكًا بذكر اسمه جلّ وعلا، فضلاً عمّا توحي به من التزام المُرسِل أحكام الشّرع، خاصة في الرّسائل السّياسيّة، التي تقتضي نوعًا من (الدّعاوة الإعلاميّة) في ذلك الحين.

ويأتي التّحميد عادة قبل (أمّا بعد)، ولكن أحيانًا يأتي بعدها مُقترنًا بها، كما في كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون، بعد مَقْتل الأمين، يقول: «أمّا بعدُ؛ فالحمد لله المتعالي ذي العِزّة والجَلال، والمُلك والسّلطان، الذي إذا أراد أمرًا فإنّما يقولُ له: كن فيكون، لا إلهَ إلّا هو الرّحمن الرّحيم». ومن البيّن أنّ هذا التّحميد مُلائمٌ لمقصد الرّسالة، وهو ممّا يُحمد للمترسّل، بل لا مَنْدوحةَ له عن ذلك، إنْ أتى بالتّحميد في صَدر كلامه، وأطال فيه، أمّا إذا أوجز فلا يسعه ذلك. وهذه أمورٌ يقتضيها موضوع الرّسالة وطولها أيضًا.

وقد يَرِدُ التّحميد قبل عبارة التّخلّص (أمّا بعد) وبعدها، في سياقٍ معيّن، كما في رسالة الخميس لأحمد بن يوسف الكاتب، التي كتبها للمأمون، كما سلفت الإشارة، إذ قال: «....سلامٌ عليكم؛ فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكم الله(١٩٣) الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أنْ يُصَلِّيَ على محمّد عبدِه ورَسُولِه، أمّا بَعْدُ؛ فالحمدُ لله القادر القاهر، الباعِثِ الوَارث، ذي العِزِّ والسّلطان، والنّور والبُرْهان،...»(١٩٤). وقد أطال أحمد بن يوسف في هذا التّحميد إطالة بديعة، وكأنّما هو الغرض الأساسيّ من الرّسالة، وليس تبيان حقّ العبّاسيّين في الخلافة، واستحقاق المأمون لها. وزعم القلقشنديّ أنّ عبد الحميد بن يحيى الكاتب

---

(١٩٣) في اللسان عن الخليل بن أحمد أنّ ((معنى قولهم في الكتب: أحمد إليك الله؛ أي أحمد معك الله)) [لسان العرب، مادة: حمد].

(١٩٤) جمهرة رسائل العرب ٣١٨/٣. نقلاً عن: اختيار المنظوم والمنثور، لابن طيفور ١٧٣/١٢.

(ت ١٣٢هـ) هو أوّل من أطال التّحميدات في صدور الكتب، مع الإتيان بـ (أمّا بعد)، وتبِعه الكتّاب على ذلك.

ـ الصّلاة على النبيّ:

لم تكن الرّسائل الدّيوانية قبل العصر العبّاسيّ الأوّل تُصدّر بالصّلاة على النّبيّ الكريم ﷺ، إلّا في القليل النّادر. وتكاد المصادر تجمع على أنّ أوّل من جعل هذه الصّلاة سُنّة في المكاتبات هو هارون الرّشيد (١٧٠-١٩٣هـ)، فأصبحت عنصرًا من العناصر المكوّنة لبنية الرّسائل؛ إذ قيل: إنّ الرّشيد أوّل من أَمَرَ أن تُبْتَدَأ مكاتباته الرّسميّة بعد البسملة بالصّلاة على النّبيّ ﷺ(١٩٥). وقيل: إنّ يحيى البرمكيّ أوّل من زاد في الرّسائل: «وأسأله أن يصلّي على محمّد عبده ورسوله»(١٩٦). وقيل أيضًا: إنّ المأمون هو مَن زاد الصّلاة على الرّسول ﷺ(١٩٧). والأرجح أنّ ذلك من صنيع الرّشيد، كما يبدو من مُكاتباته، وما دُبّج في عصره.

ـ فصل الخطاب (التخلّص):

وللتخلّص من المقدّمة إلى الموضوع، استعمل العرب قديمًا عبارة (أمّا بعد) في خُطبهم ومُراسلاتهم، وتوارثها الخَلَفُ عنهم بمنزلة (فصل الخطاب) بين المقدّمة والغرض المذكور، وبها فَسَّرَ بعضُهم قولَه تعالى في داود عليه السلام: ﴿**وآتيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَاب**﴾ [سورة ص: ٣٨/ ٢٠]. وقد ذكر القلقشنديّ أنّ معناها هو: (مهما يكن من شيء) كما قال

---

(١٩٥) أدب الكُتّاب، للصولي، ص٤٠. وصبح الأعشى ٦/٢٢٠.

(١٩٦) الوزراء والكتّاب، ص١٧٧.

(١٩٧) موادّ البيان، ص٤٩٣.

سيبويه[١٩٨]. وتكون «بعد حمد الله، أو بعد الدّعاء، أو بعد قولهم: من فلان بن فلان إلى فلان، فيفصل بها بين الخطاب المتقدّم وبين الخطاب الذي يجيء بعد»[١٩٩].

❋ ❋ ❋

وغنيٌّ عن البيان، أنّ ما تقدّم يشكّل الصّورة النّموذجيّة لبنية المقدّمة؛ غير أنّ الكاتب قد يترخّصُ في التزامها كلّها أو بعضها، إذ هو في حِلٍّ من أمره، فقد يُسْقِط بعض العناصر، أو يزيد عليها، أو يقدّم عُنصرًا من تأخير أو يؤخّره من تقديم، أو يُباشر موضوعه من دون مقدّمة كما في الرّسائل الموجزة. وقد يفتتح الكاتب رسالته بآيٍ من الذّكر الحكيم، أو ببيتٍ من الشّعر، كما في رسالة المنصور إلى والد (النّفس الزّكيّة) عبد الله، فقد افتتحها، قائلاً:

«أُرِيْدُ حياتَه ويُرِيْدُ قَتْلي عَذِيْرَكَ مِنْ خَليلِكَ مِنْ مُرَادِ

أمّا بعد؛ فقد قرأت كُتبك،...». فردّ عليه عبدُ الله بنُ الحَسَن، بادئًا بالشّعر أيضًا:

وكيف أُرِيْدُ ذاك وأنت مِنّي وَزَنْدُكَ حِيْنَ تُقْدَحُ من زِنَادِي
وكيف أُرِيْدُ ذاك وأنت مِنّي بمنـزلةِ النِّيَاطِ مِن الفؤادِ؟[٢٠٠]

والرّسائل السّياسيّة، كما قلنا، تصدر في معظمها عن الدّواوين الرّسميّة، أو تكون موجّهة إلى أرباب السّلطة بمَنَاصبهم لا بذَواتهم، فأحرى بها ـ والحال هذه ـ أن تُراعي التّقاليد المعهودة، والأعراف المرسومة لها، ممّا سَلَفَ ذكره؛ لغَلَبة الجانب الرّسميّ على أعرافها وسَنَنِها ومُوضوعاتها أيضًا.

---

(١٩٨) صبح الأعشى ٢٢٢/٦.

(١٩٩) أدب الكُتّاب، ص٣٧.

(٢٠٠) العقد ٧٥/٥. والبيت الأول (أريد حياته. ..) لعمرو بن مَعْدي كَرِب الزّبيديّ، انظر: شعره، جمعه ونسّقه: مطاع الطرابيشي، ص١٠٧، ١١١. وقوله: عذيرك: أي هات من يعذِرُك. والنِّيَاطُ: عِرْقٌ متّصلٌ بالقلب.

وعلى الرّغم من ذلك فإنّ جُلَّ الرّسائل كان يبدأ بصيغة التّخلّص (أمّا بعد)، وهذا لا يدلّل على عدم وجود عناصر المقدّمة الأخرى في الأصل، بل يُؤكّد وجود هذه العناصر أو بعضها، إنّما أُغفل تدوينها، أو حُذفت؛ لتواتر صيغها المتقاربة في المعاني، ممّا أضحى معروفًا عند جَمْهرة النّاس. وإثبات (أمّا بَعْد) إشارة إلى وجود المقدّمة في الأصل، كما هي إشارة أيضًا إلى سلامة المضمون أو الموضوع الرّئيس للرّسالة من الحَذْف أو البتر.

ومن الرّسائل ما كان يبدأ بالبسملة و(أمّا بَعْد)، ويمكن المرءَ أن يزعم أنّ هذه الصّورة من المقدّمات قد وصلت إلينا كما هي في أصلها؛ إذ قد يُسْقِط المترسّل ـ كما قلنا ـ بعض عناصر المقدّمة. وما يُسَوِّغ له هذا الصّنيع أو غيره، من التّقديم والتّأخير ونحو ذلك، يكمن في الحالة النّفسية للمرسِل وموقفه من المرسَل إليه، كأنْ يكون عدوًّا أو مُمَاحِكًا، وكذلك موضوع الرّسالة ومقصدها، وطبيعة المرسَل إليه ومكانته في الدّولة، فضلًا عن المنهج المرسوم في زمنه هو، وما يرتضيه الذّوق العامّ. والمهمّ في الأمر كلّه أن يتساوق التّقديم أو عدمه في معناه ودلالته، إن وُجد، مع المقاصد الأساسيّة للرّسالة.

ب ـ العرض (أو الموضوع):

وهذا الجزء من بِنية الرّسالة هو الموضوع الذي من أجله كُتبت وله أُنْشئت، وقد أشار النّقّادُ إلى صُعوبة حَصْرِ المعاني والموضوعات التي يتضمّنها، سواء في الرّسائل الدّيوانية أو الرسميّة ـ التي نحن بصدد الحديث عنها ـ أم في غيرها؛ «لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية»، كما يقول ابن خلف الكاتب[٢٠١].

وقد بثّ النّقّادُ والبلاغيّون توجيهاتٍ غير مباشرة في أثناء أبواب مؤلّفاتهم، تخصّ غَرَضَ الرّسالة أو مقصدها، منها ما يتعلّق بالعاطفة والوجدان، ومنها ما يتعلّق بالعقل والفِكر والثّقافة، يصعب الوقوف عليها في هذا المقام. ويُشَار، ههنا، إلى وحدة الموضوع

(٢٠١) موادّ البيان، ص١١٦.

وترتيبه على نحو منطقيّ، تُفضي فيه المقدّماتُ إلى نتائجها. ويرتبط بالمضمون استخدام المترسّل التّضمين والاقتباس والأدلّة النّقليّة، وكذلك ثقافة الكاتب التي تتيح له التّدليل والتّعليل، وملاءمة اللّفظ للمعنى، وكلّ ما من شأنه أن يرقى بفنّ الترسّل وجماليّته.

ج. الخاتمة:

تنوّعت أساليب المترسّلين في اختتام رسائلهم، وتفنّنوا بذلك؛ لأنّها آخرُ ما يبقى في الأسماع، ولأنّها ربّما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال. وكان من صيغ الاختتام عندهم أن تنتهي الرّسالة بالدّعاء، مَشْفوعًا بالسّلام أو من دونه، وتكون صيغة السّلام كاملة: «والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، أو: «والسّلام عليكم»، أو: «والسّلام».

وعلى هذه الشّاكلة اختُتِمت أغلب الرّسائل السّياسيّة لهذا العصر، كرسائل المنصور والنّفس الزّكيّة. و«في الصّناعتين: وتقول في أوّل كتابك: (سلامٌ عليك)، وفي آخره: (والسّلام عليك)؛ والمعنى فيه أنّ الأوّل نكرةٌ، لم يتقدّم له ذِكر، والثاني معرفة يُشارُ به إلى السّلام الأوّل (...) وإلى ذلك يشير أحمد بن يوسف بقوله: اكتب في أوّل كتابك: (سلامٌ عليك)، واجعله تحيّةً، وفي آخره: (والسّلام عليك)، واجعله وداعًا»(٢٠٢).

ويكون الختام أيضًا بأبيات شعريّة، كما في رسالةٍ ليحيى البرمكيّ، أو بآية قرآنيّة، تتفق مع موضوع الرّسالة، كما في رسالة المنصور إلى أبي مسلم، لّما شقّ عصا الطّاعة، وأعلن الخلاف؛ إذ ختمها المنصور بقوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ**﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٥]. ويكون الختام أيضًا بعبارة دينيّة؛ تأكيدًا منهم على التّمسّك بأهداب الدّين، من مثل قولهم: «إن شاء الله»، و«الحمد لله

---

(٢٠٢) صبح الأعشى ٦/ ٢٢٠. وانظر قول العسكري في: الصناعتين، ص١٥٩.

أوّلاً وآخرًا»، و«حَسْبنا الله ونعم الوكيل»، و«لا حول ولا قوّة إلّا بالله»، وتكون أحيانًا مُرفقة بالسّلام.

أمّا الرّسائل الموجّهة إلى غير المسلمين فتُختتم كما بُدِئت بصيغة: «والسّلام على مَنِ اتّبع الهُدى»، كما في رسالة الرّشيد إلى (قسطنطين) ملك الرّوم، ورسالة المأمون إلى (تيوفيل). وثمّة رسائل لم يرد فيها عنصر الختام، ولا سيّما الموجزة منها، والمظنون أنّها سقطت أو بُتِرَت ولم تُثبت، وربّما سقط معها شيء من المضمون أيضًا، ولعلّ المترسّل أغفل الختام عامدًا، بحسب موقفه من المُرسَل إليه وحالته النّفسيّة.

د. تذييل الرّسائل (أو اللواحق):

ويشمل ذكر كاتب الرّسالة وتاريخ كتابتها، والشّهود في بعض الحالات، كالعهود والأمانات ونحوها. وهو من الأهمّيّة بمكان، فتاريخ الرّسالة يوحي بصِدْق الرّواية، وصحّة الخبر، «وتاريخ كلّ شيءٍ آخره، وهو في الوقت غايته، والموضع الذي انتهى إليه، وهو محقّق الخبر، دالّ عليه، على قُرب عَهْدِ الكتابة وبُعْده (...) والرّسم في الكتب الصّادرة عن السّلطان أن تؤرّخ في أعجازها وأواخرها، إلّا أن يكون الكتاب في أمرٍ يحسن الابتداء بذكره، فيؤرّخ في صَدْره باليوم...»[٢٠٣].

وقد وصلت إلينا رسائل عِدّة، كانت مُذيّلةً أو مُلحقةً بذكر كاتب الرّسالة، سواء أكان هو كاتبها أم كان يكتب ما يُملى عليه فحسب، كما في رسالةٍ للرّشيد، إذ جاء في آخرها: «وكتب إسماعيل بن صبيح بين يدي أمير المؤمنين»[٢٠٤]. ويُضاف إلى ذكر الكاتب أو المُنْشِئ سَنة الكتابة، كما في رسالةٍ للمهديّ: «وكتب معاوية بن عبيد الله، في سنة تسع وخمسين ومائة»[٢٠٥]. وقد يُضاف إليها الشّهر، كما في رسالتي الأمين إلى أخويه المأمون

---

(٢٠٣) موادّ البيان، ص٥٠٣، ٥٠٥.

(٢٠٤) تاريخ الأمم والملوك ٣٣٧/٨.

(٢٠٥) نفسه ١٣٢/٨.

وصالح، لمّا بلغته وفاة الرّشيد، ففيهما: «وكتب بكر بن المُعْتمر بين يديّ وإملائي في شوّال سنة ثنتين وتسعين ومائة»(٢٠٦).

وقد يكون التّاريخُ أكثر تحديدًا وتفصيلاً، من مثل كتابٍ للرّشيد إلى عمّاله، ففي آخره: «وكتب إسماعيل بن صبيح، يوم السّبت، لسبعِ ليالٍ بقين من المحرّم، سنة ستٍ وثمانين ومائة»(٢٠٧)، وقد يقتصر على ذكر التّاريخ فحسب، وغالبًا ما يكون مُرسِلها ـ في هذه الحال ـ هو كاتبها. وعلى الرّغم من أنّ الرّسائل الدّيوانية أو الرّسمية تُراعي التّقاليد السُّلطانيّة والأعراف الرّسميّة؛ ابتغاءَ الدّقة في المعلومات وسَوْق الأخبار، إلّا أنّ كثيرًا منها لم يُذكر تاريخه، ولا نعلم إذا كان ذلك سهوًا في التّدوين، أو عَمْدًا، أو أنّ التّاريخ لم يُذكر أصلاً.

ـ الإيجاز والإطناب:

وممّا يجدرُ ذكره ـ في هذا المقام ـ أنّ الرّسائل السّياسيّة في هذا العصر، قد تفاوتت بين الطّول المُستفيض، والمتوسط المعتدل، والموجز المختصر، وذلك بحسب الموضوعات والأفكار التي عرضت لها. وكانت الرّسائلُ الموجزة غالبةً على مطالع العصر، قبل أن يستقرّ الأمر لبني العبّاس، وتتراوح بين الجملة والجملتين، والأسطر القليلة، كما تقتصر على فكرة معيّنة يُراد إيصالها، نظرًا للظروف السّياسيّة واضطراب الأمور آنذاك.

وأغلبُ الرّسائل مُتوسّطٌ مُعتدل، وهي لا تتعدّى، في الغالب، الحديث عن موضوعٍ واحد، قد يشتمل على بعض الأفكار والمعاني الجزئيّة، في فقرة أو بضع فقرات. أمّا الرّسائل الطّويلة فتتناول ـ عادة ـ موضوعات عِدّة، أو موضوعًا واحدًا، يُشعّب فيه القول، وتُبْسط الحُجَج، ويكون الإسهاب في الشّرح والوصف والمقارنات والفِكَر الجزئيّة ونحو ذلك. ومن أمثلتها الرّسالة الماهانيّة، التي كتبها عمارة بن حمزة عن المنصور، ورسالة الرّشيد

---

(٢٠٦) نفسه ٣٦٨/٨، ٣٧٠.

(٢٠٧) نفسه ٢٨٦/٨.

إلى ملك الرّوم، التي زادت على سبعين صفحة تقريبًا، وهي أشبه ببَحْثٍ مُسْتفيض عن الإسلام، وصِدْق نبوّة محمّد ﷺ. ورسالة الخميس لأحمد بن يوسف، التي كتبها للمأمون، وقد بلغت زهاء عشرين صفحة، وقد أشرنا إليها جميعًا.

وظاهرةُ الإسهابِ والتّطويلِ ظاهرةٌ غير مألوفة في أدب العرب؛ إذ كان الإيجازُ دَيْدَنَهم ووَكْدَهم في الجاهليّة، خلا نماذج يسيرة، قد تخرج عن حدود هذه القاعدة قليلاً. وفي العصر الأمويّ ألفينا بعض الرّسائل المطوّلة، ولا سيّما عند عبد الحميد بن يحيى الكاتب، الذي قال عنه المسعوديّ إنّه: (أوّل مَنْ أطال الرّسائل). ولا يعني هذا بالطّبع عدم وجود رسائل مُطوّلة قبله، إلّا أنّه أكثر من التّطويل في رسائله، على غير المألوف.

ويرى محمّد كردعلي أنّ «ملكة التّطويل استحكمت أواخر القرن الثّاني؛ بتكاثر عددِ مَنْ نشأ مِن الفُرس كُتّابًا وخطباء ومؤلّفين»(٢٠٨). وليست عِلّة الإطناب ـ كما أحسب ـ بتكاثر الكتّاب الفُرس؛ بل إنّ ذلك يعود إلى الرّقيّ العقليّ، الذي وَسَمَ العصر كلّه بِمِيْسَمِه، وطَبَعَهُ بطابعِه، وكان ذلك نتيجة مؤثّرات عِدّة، منها ما هو أجنبيّ وافد ومنها ما هو عربيّ أصيل.

والإيجاز والإطناب يعود في حقيقته إلى نفسيّة الكاتب وأسلوبه، والمقام الذي دعاه إلى الكتابة، والذّوق العامّ للعصر، وما إلى ذلك. والتّطويل في عصرنا لم يقتصر على الكتّاب الفُرس أو غيرهم، بل إنّ منهم مَن كان يميل إلى الإيجاز ويدعو إليه، فهذا جعفر البرمكيّ، يقول لكُتَّابه: «إنْ قَدَرْتُم أنْ تكونَ كتبُكُم كُلُّهَا توقيعاتٍ فافعلوا»(٢٠٩).

---

(٢٠٨) أمراء البيان ٢٤/١.

(٢٠٩) الكامل ٣٩٣/١. وانظر: البيان والتبيين ١١٥/١. والعقد ٢٥٢/٢.

سادساً: التّوقيعات

التّوقيعُ ـ في اللّغة ـ أن يصيبَ المطرُ بعضَ الأرضِ ويخطئَ بعضَها، والأَثَرُ الذي يتركه الرّحلُ على ظهر البعير من الدَّبَرِ، ووقّع ظنَّه على الشّيء: قدّره وأنزله، وكذلك الموقِّع يؤثّر في الكتاب حِسًّا أو معنى. وقيل: التّوقيعُ مُشْتَقٌّ من الوقوع؛ لأنّه سَبَبٌ في وقوعِ الأمرِ الذي تضمّنه، أو لأنّه إيقاع الشّيء المكتوب في الخطاب أو الرّسالة، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه؛ لأنّه تأثيرٌ في الكتاب، أو لأنّه سببُ إنفاذ الأمر ووقوعه، من قولهم: أوقعتُ الأمرَ فوقع. وله معانٍ لغويّة أخرى(٢١٠).

ثمّ اكتسب المعنى الاصطلاحيّ الذي نحنُ بصَدَدِه؛ وهو التّعليقُ على الرّسائل الواردة إلى الدّيوان، وبيان رأي وليّ الأمر، أو مَنْ يمثّله من الوزراء والكُتّاب ـ سياسيًّا وإداريًّا ـ في قضيةٍ ما. بتعبيرٍ آخر: تلك العباراتُ أو الجملُ البليغةُ الموجزة المعبّرة التي يكتبها رجالُ الدّولة ـ أو مَن يكتبُ عنهم ـ على ما يُرفع إليهم من شِكايات وقضايا، مُتضمِّنةً ما ينبغي اتخاذه نحوها. وهي بهذا المعنى أشبهُ ما تكون بتوجيه المعاملات الرّسميّة (التّأشيرات) في وقتنا الحاضر. ثمّ توسّعوا في معناها فأصبحت تدلّ على تأشيرة الاسم، وهي كتابته بتلك الهيئة الخاصّة التي تُقابل في الإنجليزية لفظة (Signature).

ويكون التّوقيعُ ـ عادةً ـ في أسفل الرّسالة، وفي بعض الأحيان خلفها أو في أعلاها، بِمِدَادٍ مُغَايِرٍ للونِ الكتاب أو الرّسالة؛ جوابًا على ما يكتبُه رعايا الدّولة، فيما يَحْزُبُهُمْ مِن خُطوب، وما يَعْرُوهم من مَظالم، ويكون الرَّدُّ أمرًا أو نَهْيًا، ترغيبًا أو ترهيبًا، بَذْلاً أو مَنْعًا.

فالتّوقيعاتُ إذن فَنٌّ أدبيٌّ وُلِدَ من رَحِم الترسّل الدّيوانيّ ـ إن صحّ التّعبير ـ إذ هو أصلاً تعليقٌ على الرّسائل الدّيوانيّة بما يناسبها. وقد كان للتّوقيع ديوانه الخاصّ في العصر

---

(٢١٠) انظر: لسان العرب، مادة: وقع .

العبّاسيّ الأوّل؛ ومهمّته النّظر في المظالم ورِقاع الشّكاوى. يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): «ومِنْ خُطَطِ الكتابةِ التّوقيعُ؛ وهو أنْ يجلسَ الكاتبُ بين يَدَي السّلطان في مجالسِ حُكْمه وفَصْلِه، ويُوَقِّعَ على القِصَصِ المرفوعةِ إليهِ أحكامُها، والفَصْلُ فيها مُتَلَقَّاةً مِن السّلطان بأَوْجز لفظٍ وأبلغِه. فإمَّا أن تَصْدُرَ كذلك، وإمّا أن يَحْذُو الكاتبُ على مِثَالِها في سِجِلٍّ يكون بيدِ صاحب القِصَّةِ. ويحتاجُ المُوَقِّعُ إلى عارضةٍ من البلاغةِ يَسْتَقيمُ بها توقيعُه»(٢١١).

وتُسمّى الظُّلامات والشّكاوى هذه بالرِّقاع؛ تَشْبيهًا لها بِرِقَاع الثّوب، كما تُسمّى بالقِصَصِ على سبيل المجاز؛ من باب تسمية الشّيء بما ينطوي عليه؛ إذ تحكي قصّةَ الشّاكي وظُلامتَه. «ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التّوقيعات على أن يوقّع الرّئيس في القِصّة بما يجب فيها، ويذكر المعاني التي يأمر بها. ولم يكن للكُتّاب في ذلك الأمر شيءٌ أكثر من أن يكتبوا لتلك الجملة من التّوقيع ألفاظًا تشرحها، ويقرُبُ من العامّة فَهْمُها، ولا تخرجها عن معنى قصد الرّئيس، إلى أيام الرّشيد...»(٢١٢).

وقد عرف العربُ التّوقيعَ، ووصلت إلينا بعضُ توقيعاتهم، منذ أيّام الفاروق عمر بن الخطاب ﵁. ولا رَيبَ في أنّ التّوقيع أسلوبُ تعبيريّ يتّفق وخصائص الفِطرة العربيّة، من حيث الإيجاز، وقوّة البيان، وشدّة العارضة، وسرعة الخاطر، وحضور البديهة. ثمّ توسّعوا في هذا الفنّ في العصر العبّاسيّ الأوّل، وأضحى مهنة لها أربابها وديوانها الخاصّ، وقد هيّأت لذلك ظروفُ العصر المختلفة.

وكانت عادةً دَرَجَ عليها ملوكُ الفُرس في سالف الأوان؛ إذ عُرف كثير من أكاسرتهم ووزرائهم بتوقيعاتهم البليغة المعبّرة؛ من مثل أردشير، وأنوشروان، وبُزُرجمهر، وغيرهم. وقد روت مصادرُ التّراث العديدَ منها مُترجمًا إلى العربيّة.

---

(٢١١) مقدمة ابن خلدون ٢٦١/١.

(٢١٢) الوزراء والكتّاب، ص٢١٠.

وممّا لا يخفى على ذي نَظَر، أنّ الموضوعات التي عرضت لها التّوقيعات كانت في كثيرٍ من الأحيان سياسيّة أو إداريّة؛ أي تُعنى بقضايا تمسّ سياسة الدّولة ونظمها الإداريّة، على نحوٍ مباشر أو غير مباشر؛ إذ هي موجّهة إلى أولي الأمر، أو من يقوم مقامهم. فمن موضوعات التّوقيعات ما يخصّ الولاة والعمّال، من حيث تعيينهم وعَزْلهم، أو الشَّكَاة منهم، أو الرّضا عنهم. ومنها ما يخصّ حِبَاء السّلطان واستمناحه، وما إلى ذلك من موضوعات وقضايا، لها أثرٌ بيّنٌ في الكشف عن سياسة الدّولة، وكيفيّة التّعامل مع الأحداث والقضايا الإداريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

ويمكن أن نقسم ما وصل إلينا من توقيعات، بحسب المُرْسِل، على قسمين: ١- توقيعات الخلفاء، ٢- توقيعات الوزراء الكتّاب والولاة. نظرًا لتعدّد الموضوعات التي عرضت لها، وصعوبة تصنيفها.

١. توقيعات الخلفاء:

وصلت إلينا توقيعاتٌ عديدة للخلفاء العبّاسيّين، ومن هذه التّوقيعات[٢١٣] ما وقّع به أبو العبّاس السّفّاح إلى عاملٍ له، تُظلّم منه؛ إذ كتب إليه: ﴿**وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّيْنَ عَضُدًا**﴾ [الكهف: ١٨/ ٥١]. فهذه الآية الكريمة تُفيد عَزْل هذا العامل وإقصاءه عن عمله. وكذلك الآية التي وقّع بها المنصور إلى قوم تظلّموا من عاملهم: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدي الظَّالمين**﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤]. وفي كتابٍ من صاحب الهند يخبره أنّ جندًا شَغبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال، فأخذوا أرزاقهم منه، وقّع المنصور: «لو عَدَلْتَ لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا». ووقّع الرّشيد إلى صاحبِ خراسان: «داوِ جُرْحَكَ لا يَتّسع». ووقّع في قصّة البرامكة المعروفة: «أنبتتهم الطّاعة، وحَصَدتهم المعصية». ووقّع المأمون في قصّة مُتظلّم من أخيه: ﴿**فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فلا أَنْسَابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١]. ويبدو، من

---

(٢١٣) انظر: العقد الفريد ٤/ ٢٠٠-٢٠٤.

خلال هذه التّوقيعات، رغبة الخلفاء في إنصاف المتظلّمين، وعَزْل الولاة الظّالمين، وضرورة إقامة العدل بين الرّعيّة.

٢. توقيعات الوزراء الكتّاب والولاة:

وقد برع فيها من الوزراء الكتّاب يحيى البرمكيّ وأولاده، ولا سيّما ابنه جعفر، فقد علا صِيتُه، وسطعَ نجمُه في هذا الميدان؛ إذ كان ـ كما يقول ابن خلدون ـ «يُوَقِّعُ في القِصص بين يَدَي الرّشيد، ويَرمي بالقصّة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافسُ البُلَغاءُ في تحصيلها؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتّى قيل: إنّها كانت تُباع كُلُّ قِصَّةٍ منها بدينار»(٢١٤).

وممّا يُفادُ من هذا القول الإشادة ببلاغة جعفر البرمكيّ أوّلاً، والقيمة الفنّيّة والجماليّة لفنِّ التّوقيع ثانيًا. ومن توقيعاته أنّ النّاس أكثروا من شَكَاةِ عاملٍ، فوقّع: «يا هذا، قد كَثُرَ شاكوك، وقلّ شاكروك؛ فإمّا اعْتَدَلْتَ، وإمّا اعْتَزَلْتَ». ووقّع في رقعة محبوس مُتظلّم: «العُدوان أوْبقه، والتّوبة تُطْلِقُه». ورفع رجلٌ إلى جعفرٍ رقعةً يسأله الاستعانة به، وكان جعفر يعرفه ويَخْبره، فوقّع:

قَدْ رأيناكَ فما أَعْجَبْتَنَا وبَلَوْناكَ فلمْ نَرْضَ الخَبَرَ(٢١٥)

ومن المشهورين بتوقيعاتهم أيضًا الفضل بن سهل ذو الرّياستين، فمن ذلك توقيعه في قصّة مظلوم: «كفى بالله للمظلوم ناصرًا»(٢١٦). ووقّع لرجلٍ ولاّه: «لا تَجْعَلَنَّ توليتي إيَّاكَ نظرًا منّي لك، دون رجائي فيك، للكفاية والغَنَاء والنّصيحة، فتزلّ بك قَدَمٌ، تُورثك النَّدم». ووقع أيضًا: «إنّ أسرع النّيران التهابًا أسرعها خمودًا، فَتَأَنَّ في أمرك». ومن توقيعاته: «نِعْمَ الشَّفيعُ في بقاء النّعمة عليك حُسْنُ سيرتك، واعتمادُ الصّيانة والعَفَاف، فَدُمْ على هذه

---

(٢١٤) المقدّمة ٢٦١/١.

(٢١٥) الوزراء والكتّاب، ص٢٠٥. وانظر: العقد الفريد ٢٠٧/٤، ووفيات الأعيان ٣٤٦/١.

(٢١٦) العقد ٢٠٨/٤.

الطّريقة تَبْقَ لك النّعمة، إن شاء الله تعالى»(٢١٧). ولأخيه الحسن أيضًا توقيعات مشهورة بديعة.

ولطاهر بن الحسين، قائدِ جيشِ المأمون وواليه على خُراسان، توقيعاتٌ بليغةٌ روتها المصادرُ، منها ما يكشف عن سياسته ومَنْهجه في المَنْع والعطاء، وتنفيذ أحكام الشّرع، وفي سياسة عمّاله؛ كتوقيعه في قصّة رجل، شكا أنّ بعض قوّاده نزل في دارٍ له، وفيها حُرَمُه: «إذا رأيته في ناحيةِ دارك فقد حَلَّ لك قتلُه». وفي قصّة قاتل: «لا يُؤخّر قَتْله». وفي قصّة محبوس: «يُخْرَج ولا يُحْوَج». وفي قصّة لصّ: «يُنَفَّذُ حُكْمُ الله فيه». وفي قصّة قومٍ شَغَبوا على عاملهم: «الشَّغَبُ للفُرْقة سَبَبٌ، فلْتُمْحَ أسماؤهم، وتُحْسَنُ آدابُهم، وتُقْطَعُ بالنّفي آثارُهم»(٢١٨).

وكان ابنه عبد الله على شَاكلته في البلاغة وإجادة فنّ التّوقيع؛ من ذلك أنّ أحدَ الخارجين على الدّولة، أهدى إليه هدايا كثيرةً نهارًا، فردّها عبدُ الله، فزاد فيها وردّها ليلاً مع رقعةٍ له، فردّها عبدُ الله مرّة أخرى، ووقّع في الرّقعة: «لو قَبِلْتُ هَدِيَّتَكَ ليلاً لَقَبِلْتُها نهارًا؛ ﴿**بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون** ﴿٣٦﴾ **ارْجِعْ إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لهم بها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وهم صاغِرون** ﴿٣٧﴾﴾»(٢١٩).

ومن التّوقيعات **بآية قرآنية** تناسب الموضوع الذي تضمّنه الطّلب، أو اشتملت عليه القضية ما ذُكر من أنّ أبا محمّد الحسن بن محمّد المهلبيّ وزير مُعزّ الدّولة أبي الحسين أحمد بن بُويه الدّيلميّ، كان قبل اتّصاله بمُعزّ الدّولة وتقلّده مَنْصب الوزارة، يعاني من قلّة ذات اليد وشدّة الفَقْر وضيق الحال. وسافر في بعض الأيّام مع رفيقٍ له، أديبٍ من أهل الأسفار، (يقال له: أبو عبد الله الصّوفيّ، وقيل: أبو الحسين العسقلانيّ)، ولكنّه لقيَ في سَفَرِه هذا

---

(٢١٧) البصائر والذخائر للتوحيدي ١٢٧/٢.

(٢١٨) كتاب بغداد، ص٧٢،٧٣.

(٢١٩) المصدر نفسه، ص٨٣. وتاريخ الأمم والملوك ٨/٦١٠-٦١١. والآيتان من سورة النمل ٢٧/٣٦-٣٧.

مَشقّةً ونَصَبًا، فلا زادَ معه ولا مال. ونزلَ مع رفيقه في بعض الأماكن واشتهى اللّحم، فلم يجد ثمنَه، فأنشدَ ارتجالاً، ورفيقه يسمع:

ألا مَوْتٌ يُبَاعُ فأشْتَريــهِ فهذا العيشُ مالا خيرَ فيهِ

ألا مَوْتٌ لذيذُ الطّعمِ يأتِي يُخَلِّصُني من العيشِ الكريهِ

إذا أبصرْتُ قبرًا من بعيدٍ ودِدْتُ لوَ انَّني مما يليهِ

ألا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

فتأثّر رفيقُه بالأبيات ورثى لحاله، ورقّ له، فاشترى له بدِرْهمٍ لحمًا، وأعدّه وقدّمه إليه، وتفرّقا. ثمّ تتابعتِ الأيّامُ، وتغيّرت الأحوالُ، وحسنت حالُ المهلبيّ، وتولّى الوزارة ببغداد لمعزّ الدّولة البويهيّ. وضاقت الحالُ برفيقه في السّفر الذي اشترى له اللّحم، وحقّق له رغبته، وآل به الأمرُ إلى أن جلس على بِسَاط الفقر والفَاقة. وبلغه تولّي المهلبيّ الوزارة، فشدّ الرّحال وقصده في بغداد، فلمّا بلغه كتب إليه رُقْعَةً تتضمّن أبياتًا، منها:

ألا قُلْ للوزير فَدَتْهُ نَفْســي مَقَالَ مُذَكِّرٍ ما قــد نسيهِ

أتذكرُ إذ تقولُ لضَنْكِ عَيْشٍ (ألا مَوْتٌ يباعُ فأشتريـهِ)

فلمّا قرأ المهلبيّ الأبيات تذكّر صحبةَ رفيقه، وفَضْلَه عليه، وهزّته أريحيّةُ الكرم ورعايةُ حقّ الصّحبة، وردُّ الفضل لأهله والمعروف لمستحقّيه؛ فأمرَ له بسبعمئة درهم، ووقّع في رقعته: ﴿ **مثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء** ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١]. ثمّ دعاه وأكرمه، وقلّده عملاً مناسبًا(٢٢٠).

❊ ❊ ❊

(٢٢٠) وفيات الأعيان٢/ ١٢٤-١٢٥.

من سمات التّوقيع:

التّوقيعُ يحتاجُ إلى مَهارة في السّياسة والإدارة، فضلاً عن قوّة التّعبير. يقول ابنُ خلدون: «واعلم أنّ صاحبَ هذه الخُطَّةِ، لا بُدَّ من أن يُتَخَيَّرَ من أرفع طبقات النّاس، وأهلِ المروءة والحِشْمَةِ منهم، وزيادةِ العلم وعارضة البلاغة؛ فإنّه مُعَرَّضٌ للنّظر في أُصُولِ العِلم، لما يَعْرِضُ في مجالس المُلُوكِ، ومقاصدِ أحكامِهم، من أمثال ذلك ما تدعو إليه عِشْرَةُ الملوكِ من القيام على الآداب، والتّخلُّق بالفضائل، مع ما يُضْطَرُّ إليه في الترسيلِ، وتطبيق مقاصدِ الكلام من البلاغة وأسرارها»(٢٢١).

ولذا كان ثمّة احتفاء بالتّوقيعات؛ لما تتميّز به من قيمة بلاغيّة عالية، وسرعة بديهة في اتّخاذ القرار. وقد كانت توقيعاتهم آية قرآنيّة، أو حديثًا نبويًّا، أو مَثَلاً سائرًا، أو بيتًا شعريًّا، أو إبداعًا ذاتيًّا من عند الكاتب.

ومن التّوقيعات بآية قرآنيّة توقيع السّفّاح إلى قوم شَكَوا غَرَقَ ضياعهم في ناحية الكوفة، فكتب: ﴿**وقيل: بُعْدًا للقومِ الظَّالمين**﴾(٢٢٢). ووقّع الفضلُ بن سهل في قصّة قوم قطعوا الطّريق: ﴿**إنّما جَزَاء الذينَ يُحارِبُونَ الله ورسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَادًا، أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أيديهِم وأَرْجُلُهُم من خِلافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الأَرْضِ، ذلك لهم خِزْيٌ في الدُّنيا، ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم**﴾(٢٢٣).

وأغلبُ هذه التّوقيعات عبارات موجزة، لا تزيد في طولها على سَطْرٍ واحد، ومنها ما لا يتعدّى الجملة أو الجملتين، من مثل توقيع طاهر بن الحسين في قصّة مُسْتجير: «أنا جارُه»، وفي قصّة ساعٍ: «لا يُلتفت إليه»(٢٢٤). ومنهم مَنْ يبسط القول في توقيعه، فيبلغ

---

(٢٢١) المقدّمة ٢٦١/١.

(٢٢٢) العقد الفريد ٢٠١/٤. والآية من سورة هود: ٤٤/١١.

(٢٢٣) العقد ٢٠٨/٤. والآية من سورة المائدة: ٣٣/٥.

(٢٢٤) كتاب بغداد، ص٧٣.

به بضعة أسطر؛ كما في توقيع الفضل بن سهل في رُقْعة سَاعٍ؛ إذ كتب إليه: «نحن نرى قَبُولَ السِّعاية شرًّا منها؛ لأنّ السّعاية دِلالةٌ، والقَبُول إجازة، وليس مَنْ دَلّ على شيءٍ وأَخْبر به، كمَنْ قَبِلَه وأجازه؛ فاتّقوا السَّاعِيَ؛ فإنّه لو كان في سِعَايته صادقًا، لكان في صِدْقه آثمًا؛ إذ لم يحفظِ الحُرْمَة، ولم يَسْتر العَوْرَة»(٢٢٥).

وأيًّا ما كان، فإنّ التّوقيعَ - كما يقول القلقشنديّ - «أمرٌ جليل، ومَنْصبٌ حَفيل؛ إذ هو سبيل الإطلاق والمنع، والوَصْل والقَطْع، والولاية والعَزْل، إلى غير ذلك من الأمور المهمّات والمتعلّقات السَّنيَّة. واعلم أنَّ التّوقيعَ كان يتولّاه في ابتداء الأمر الخلفاء؛ فكان الخليفة هو الذي يُوقّع في الأمور السّلطانيّة، وفَصْل المظالم، وغيرها»(٢٢٦). فلمّا اتّسع المُلك كان الخلفاء يوقّعون بأنفسهم حينًا، ويتركون ذلك لكُتّابهم حينًا آخر. أضف إلى ذلك أنّ التّوقيعَ فنٌّ أدبيٌّ عِمادُه الإيجاز وإصابة المعنى. ومن هنا تكمن قيمته الفنّيّة والجماليّة؛ إذ (البلاغة في الإيجاز) كما يُقال.

(٢٢٥) زهر الآداب ٣٠٣/١.

(٢٢٦) صبح الأعشى ١٤٥/١-١٤٦.

2006 ٢٠٠٦ Al-Furat University

سابعاً: قصص الحيوان

١. نشأة قصص الحيوان وتطوّرها:

قصص الحيوان من أقدم أنواع القصّ، ومن الأنماط القصصيّة الضّاربة الجذور في تراثنا السّرديّ العربيّ. تُعزى فيه الأقوال والأفعال إلى الحيوان؛ بقصد التّهذيب الخُلقيّ، والإصلاح الاجتماعيّ، أو النّقد السّياسيّ؛ فضلاً عن الإمتاع الفنيّ، الذي تحقّقه غرائبيّة قصص الحيوان وعجائبيّتها، وقدرتها على الإدهاش والإثارة، ومن ثمّ الوصول إلى قلب المتلقّي وعَقْله معًا.

وقد كانت الصّورة الأوّليّة والبسيطة لحكايات الحيوان، في نشأتها الأسطوريّة، مجرّد تفسير شعبيّ غير واقعي لحقائق علميّة، أو ظواهر طبيعيّة. وذلك بحسب ما تُمليه الرّؤى الفكريّة للعقل البدائيّ القديم. ومن هذه التّفسيرات ما يتّصل بعالم الحيوان نفسه؛ كأشكاله وحجومه وألوانه وصفاته، ونحو ذلك. ومن الخرافات ما يكون على لسان النبات أو الجماد أيضًا، كما في أسطورة النّرجس (أو: Narcissus) المعروفة عالميًّا.

وقد روى الجاحظ العديدَ منها في كتابه: (الحيوان)، وتبعه كمالُ الدّين الدّميري (ت ٨٠٨هـ) في كتابه: (حياة الحيوان الكبرى)، وغيرهما. فضلاً عمّا ورد منها في كتب الأمثال؛ تفسيرًا لمَثَلٍ معيّن، كما في أسطورة (الضّبّ والضِّفدع) التي رواها الميداني (ت ٥١٨هـ).

ومن هذه القصص أنّ «الأرنبَ التقطَتْ ثمرةً، فاختلسها الثّعلبُ فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضّبّ، فقالت الأرنب: يا أبا الحِسْل، فقال: سميعًا دَعَوْتِ، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلاً حَكَّمتُما، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يُؤتى الحَكَم، قالت: إنّي وجدتُ ثمرةً، قال: حُلْوَة فكُليها، قالت: فاختلسها الثّعلب، قال: لنفسه بَغَى الخير، قالت: فَلَطْمتُه، قال: بحقّك أَخَذْتِ، قالت: فَلَطَمني، قال: حُرٌّ انتصر، قالت: فَاقْضِ بيننا،

قال: قد قَضَيْتُ، فذهبت أقوالُه كلُّها أمثالاً»[٢٢٧]. وفي بعضِ أشعار الجاهليين نماذجُ منها، كما في شعر أميّة بن أبي الصّلت، والأعشى، والنّابغة الذبيانيّ، وغيرهم .

ثمّ انتقلت حكاياتُ الحيوان من النّشأة الفطريّة (الشّعبيّة ـ الفولكلوريّة)، إلى المكانة الأدبيّة السّامقة؛ إذ تُوضع بقَصْد الموعظة والتّعليم، وتنطوي على مغزى أخلاقيّ، أو دَرْسٍ اجتماعيّ، أو هدفٍ تربويّ، أو مضمون سياسيّ ناقد؛ أي يكون لها معنى رمزيّ بوّاح، ما يفتحُ لها باب الأدب على مِصْراعيه.

وقد ذاع هذا النّوع ذيوعًا كبيرًا في الآداب العالميّة، وحَظِي برواجٍ وعناية فائقة؛ لذا فقد تنازعت مُلكيّةَ إبداعه أوّلاً، وقَصَبَ السّبق فيه، حضاراتٌ عديدة. وأدلى الباحثونَ بدَلْوِهم في هذا الأمر، فرأى بعضُهم أنّ هذا الفنّ هنديّ الأصل والمَنْبت، ومن هؤلاء العالم تيودور بنفي Benfey (١٨٠٩-١٨٨١م)، الذي دعا إلى النّظريّة الشّرقيّة، أو نظريّة الاستعارة، في علم (الفلوكلور)، التي ترى أنّ الهند هي المستودع الأساسيّ، والمنبع الثرّ، الذي أمدّ الشّعوب بمادة الإبداع الأدبيّ، في مجال القصص الحيوانيّ أو الخرافي.

ومن الباحثين مَنْ يرى أنّه يونانيّ، سرى إلى الهند، على إثر فتوحات الإسكندر الأكبر الواسعة في المشرق (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)، وتمثّلها حكايات إيسوب Aesop وهزيود Hesiod (في القرنين السّادس والثّامن قبل الميلاد). ومنهم سرت إلى الهند على إثر فتوح الإسكندر للمشرق (٣٥٦-٣٢٣– ق. م).

إلّا أنّ الرّأي الذي يرجّحه كثيرٌ من الدّارسين هو أنّ الهنود أسبق من اليونان في حَلْبة هذا الفنّ؛ إذ استخدمه رجالُ الدّين لبثّ تعاليم (بوذا)، ويظهر ذلك في كتاب (جاتاكا) الدّينيّ؛ فقد حوى حكاياتٍ من تناسخ (بوذا) في صور الحيوانات والطيور، وترجع بعضُ حكاياته إلى قرون طويلة قبل ميلاد المسيح.

---

(٢٢٧) مجمع الأمثال للميداني، ٥١٠/٢.

وقد قال بعضُهم إنّه فَنٌّ يعودُ في نَشْأته إلى أصولٍ فرعونيّة مِصريّة، كما تشير الكتاباتُ التي تركها المصريون القدماء على أوراق البردي، وجدران المعابد (مثل قصّة السّبع والفأر)، وترجع إلى القرن الثّاني عشر قبل الميلاد.

وقال آخرون إنّ البابليين أَسْبَقُ من غيرهم في حَلْبة هذا الفنّ؛ استنادًا إلى مجموعة (أحيقار البابليّ). وقيل: إنّ الإيرانيين هم أوّل من وضع حكايات على لسان الحيوان، وفي الفهرست أنّ «أَوَّل مَنْ صنَّف الخرافات، وجعل لها كُتبًا وأودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفُرس الأُوَل»[٢٢٨].

والحقّ أنّه لا يمكن القَطْع برأيٍ في هذا الأمر؛ فهذه الحكايات ـ كما قلنا ـ تنشأ شعبيّة أو أسطوريّة، ثمّ تأخذ في الارتقاء إلى المكانة الأدبيّة فتتبادل الصّلات مع الآداب الأخرى، وليست هناك أدلّة تاريخيّة، تكشف حقيقة هذه الصّلات، ولا يبعد أن تكون مصر والهند واليونان كلّها، قد أعطت وأخذت فيما يخصّ هذا الجنس الأدبيّ، في وقت معًا طوال العصور.

ولعلّ شعبيّة هذه الحكايات، ومنشأها الأسطوريّ، يكمنان وراء شيوع عددٍ منها لدى كثيرٍ من الأمم، كقصّة صيّاد العصافير الذي دمعت عيناه من البرد؛ فظنّوه صالحًا، فقال أحدُهم: لا تنظروا إلى دموعِ عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه. وهذه الحكاية معروفة في الأدب اليونانيّ والعربيّ والهنديّ. ومثلها قصّة الذّئب الذي يُعدّد الذّنوب على الحَمَل افتئاتًا لكي يسوّغ لنَفْسه أكله، وقد نظمها شعرًا مجنون ليلى، فقال[٢٢٩]:

وكُنْتِ كَذِئبِ السَّوْءِ إذْ قال مَرَّةً   لِبَهْمٍ رَعَتْ، وَالذِّئْبُ غَرْثَانُ مُرْمِلُ

أَلَسْتِ التي مِنْ غَيْرِ شيءٍ شَتَمْتني   فقالتْ: مَتَى ذَا؟ قال ذَا عامُ أَوَّلُ

فقالتْ: وُلِدْتُ العامَ، بل رُمْتَ كِذْبَةً   فهاكَ فَكُلْني، لا يُهَنِّيكَ مَأكَلُ

---

(٢٢٨) الفهرست، ص٤٧٦.

(٢٢٩) ديوانه، تح: عبد الستار فراج، ص٢١٧ – ٢١٨. غرثان: جائع، مُرْمل: نافد الزاد.

وقد عُني العرب بالقصّ على لسان الحيوان، وعرفوه معرفة واضحة منذ أقدم العصور، بل إنّنا «لا نستطيع أن نعفي أسطورة الحيوان في العالم كلّه من التّأثير العربيّ؛ إمّا بما قام به الأديب العربيّ من نَقْلٍ للمأثور الهنديّ أو الفارسيّ، إلى المأثور العالميّ كلّه، وإمّا بما أبدعه العرب أنفسهم في هذا الميدان، إضافةً وتضمينًا ورمزًا»(٢٣٠). وقد زخر الأدب العربيّ بقصص الحيوان، فروت مصادر التّراث طائفة كبيرة منها، كالمجاميع الأدبيّة، وكتب الأمثال، والنّوادر، والأسمار والخرافات، وأيام العرب، وغيرها.

ومن هذه القصص ما رواه التّوحيديّ، إذ ذكر أنّ طائرًا أَوْلَمَ وليمة؛ «فأرسل رُسُلَه ليدعو إخوانه، فغَلِطَ بعضُ الرّسل، فجاء إلى الثّعلب، فقال: أخوك يقرأ عليك السّلامَ، ويسألك أن تتجشّم العناء إليه في يوم كذا، وتجعل غداءك عنده. فقال الثّعلبُ: قل له السّمع والطّاعة. فلمّا رجع، وأخبر الطّير بغَلَطِه، اضطربت الطّيورُ من ذلك، وقالوا له: يا مشؤومُ! أَهْلكتنا، وعرّضتنا للحَتْفِ، ونَغَّصْتَ أَمْرنا علينا. فقالت القُنْبُرَةُ: إن أنا صرفتُ الثّعلب بحِيلةٍ لطيفةٍ، مالي عندكم؟ قالوا: تكوني سيّدَتنا، عن رأيك نصدرُ، وعلى أمْرك نعتمد. فقالت: مكانَكم، ومَشَتْ إلى الثّعلب، فقالت له: أخوك يقرأ عليك السّلامَ، ويقول: غدًا يوم الاثنين، وقد قَرُبَ الأُنس بحضورك، فأين تُحبّ أن يكون مجلسك مع الكلاب السّلوقيَّة أم الكلاب الكُرْدِيَّة؟ فَتَجَرَّعَها الثّعلب، ثمّ قال: أبلغي أخي السّلام، وقولي له: والله أنا مَسْرورٌ بقُرْبك، شاكرٌ لله ـ سبحانه ـ على ما منحني من مكانك، ولكن تَقَدَّمَ لي نَذْرٌ، منذُ دهر، بصومِ الاثنين والخميس، فلا تنتظرني»(٢٣١).

* * *

---

(٢٣٠) أديب الأسطورة عند العرب، لفاروق خورشيد، ص٩٨.

(٢٣١) البصائر والذخائر ١/٢٣٤-٢٣٥. في مختار الصّحاح: ((القُبَّرَةُ: واحدة القُبَّر؛ وهو ضرب من الطّير. و(القُنْبُرَاء) بالمدّ، وضمِّ القاف والباءِ، لغة فيها، والجمعُ (القَنَابِر)، والعامّة تقول: (القُنْبُرَة)، وقد جاء ذلك في الرَّجَز)). انظر: مادة (قَبَرَ). وكذلك القاموس المحيط، المادّة نفسها.

٢. قصص الحيوان في العصر العبّاسيّ:

وفي كَثْرة وجود هذه الحكايات دلالةٌ على اهتمامِ العرب بهذا الفنّ، ووَلَعِهم به، واتّخاذهم إيّاه سبيلاً للعِبرة والموعظة الأخلاقيّة، وحِجَابًا يَشِفّ عمّا وراءه، سواء أكانت من نوع الحكاية الفطريّة الشعبيّة، أم من النّوع الأدبيّ، الذي يُضمّن دلالات خُلقيّة وتعليميّة وسياسيّة. غير أنّها كانت تُروى شِفاهًا، من دون جمع أو ترتيب معيّن، حتّى عصر التّدوين. وبفعل الامتزاج الاجتماعيّ والثّقافيّ الواسع في العصر العبّاسيّ الأوّل، تعرَّف العربُ حكايات الأمم الأخرى.

وفي العصر العبّاسيّ الأوّل على وجه التّحديد خطا هذا الفنُّ خطواتٍ واسعة، بعد الانفتاح على الثّقافات الأخرى. ومَن يقف وقْفةً عَجْلى على الفهرست يجد ما يَرُوقه في ميدان السّرد الحكائيّ، خاصّة في باب (أسماء الكتب المصنّفة في الأَسْمار والخُرافات). وقد ذكر فيه جماعةً ممّن عاشوا في ذلك العصر، فقال: «وكان قبل ذلك ممّن يعمل الأسْمار والخُرافات على ألسنة النّاس والطّير والبهائم جماعةٌ منهم: عبد الله بن المقفّع، وسهلُ بن هارون بن راهبون، وعليّ بن داود كاتب زُبَيدة، وغيرهم».

ومن المعلوم أنّ ابنَ المقفّع هو إمامُ هذا الفنّ، ورائدُه في الأدب العربيّ الإسلاميّ؛ فقد كان «أوّل مَنْ نَقَلَ هذا الفنّ القصصيّ من مرحلته الشّفاهيّة (الشّعبيّة) عند العرب إلى الأدب المدوّن (الكتابيّ)، في أوّل خُطوة من نوعها في تاريخ الأدب العربيّ القديم، عامّة، والإبداع القصصيّ، خاصّة. وتزداد هذه الخطوة أهمّيّة، إذا وضعنا في الاعتبار أنّ هذه هي المرّة الأولى في التّراث الأدبيّ عند العرب، التي يُوضع فيها ـ بعد الشّعر ـ أوّل كتابٍ قصصيّ مجموع في صعيدٍ واحد»[٢٣٢].

(٢٣٢) حكايات الحيوان في التراث العربي، لمحمّد رجب النّجار، مجلّة عالم الفكر، ص١٩٠.

وقد ترجم ابنُ المقفّع كتاب (كليلة ودِمنة) من الفارسيّة الفهلويّة، وكان تُرجم إليها من السّنسكريتيّة، في زمن كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م). وسنقف عليه لدى الحديث عن ابن المقفّع في هذا الكتاب.

وحَذا حَذْوَ ابنِ المقفّع غيرُ واحدٍ من الكُتّاب، فنسجوا على مِنواله، بعد أن أدركوا أهميّة ما قام به، وبُعْدَ أثره في النّفوس. وكان الفُرس يعتدّون كليلةَ ودِمنة أثرًا فارسيًّا، لذا أبدوا عنايةً فائقةً به، وهالوا المالَ هَيْلاً لمن عُني به، خاصّةً أسرة البرامكة في عهد الرّشيد. فهذا يحيى البرمكيّ يجيز أبان بن عبد الحميد اللّاحقي (ت نحو ٢٠٠هـ) مئة ألف درهم، وقيل: بل أكثر من ذلك؛ لنَظْمِه (كليلة ودِمنة) شِعْرًا. وممّن نظمها أيضًا سهلُ بن نُوبخت، وعليُّ بن داود كاتب زُبيدة، وبشرُ بن المعتمر، وغيرهم.

وممّن نَظَمَها، لاحقًا، الوزير ابن الهبّارية (ت ٥٠٤هـ)، بعنوان: (نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة). وممّن ألّف على غِرارها وحذا حذوها سهل بن هارون، وعليّ بن داود، وإخوان الصّفا (في القرن الرّابع الهجريّ) في رسالة (تداعي الحيوانات على الإنسان). بل إنّ بعضَ الباحثين رأى أنّ اسم (إخوان الصّفا) مُقتبس من (كليلة ودِمْنة)؛ إذ ورد هذا الاسم في أوّل فصل (الحمامة المطوّقة). وكذلك صنع أبو العلاء المعرّي (ت ٤٤٩هـ) في كتاب (القائف)، وهو على مِثال كليلة ودمنة، في ستين كُرَّاسَة. وله أكثر من كتاب في هذا الفنّ، وصل إلينا منها: (الصّاهل والشّاحج).

كما ألّف ابن ظفر الصّقليّ (ت ٥٦٥هـ) كتابه: (سُلوان المُطاع في عدوان الأتباع)، وألّف شيخ الإسلام عزّ الدّين بن عبد السّلام (ت٦٧٨هـ) كتاب (كشف الأسرار عن حكم الطّيور والأزهار)، وابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ) كتاب: (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء)، وغير هؤلاء كثير. وقد ظلّ تأثير كليلة ودمنة حيًّا، على الرّغم من توالي العصور، نظمًا ونثرًا وإبداعًا واستلهامًا، وظللنا نشير إلى ابن المقفع بالبَنَان، وحُقَّ له، فهو الذي أخذ

بزِمَام القافلة ـ أعني القصّ على لسان الحيوان ـ في مَسَالك كثيرة العِثَار، فهلك بعد أن استبانَ لها سَواء السّبيل.

وكان أوّل الكتّاب لحُوقًا بابن المقفّع سهل بن هارون (ت ٢١٥هـ)؛ إذ ألّف عددًا من القصص. وأهمّها كتاب (ثعلة وعَفْراء ـ في رواية: عفْرة)، وقد ذكره الجاحظ ومحمد بن إسحاق النّديم وغيرهما. وكان ألّفه للمأمون، وهو في مُعارضة (كليلة ودِمنة)، ولم يَبْقَ منه غير هذه النّصيحة السّياسيّة: «اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق، مُقَدَّمًا قبل الذي تجودون به من تفضُّلِكم؛ فإنّ تقديمَ النّافلةِ مع الإبطاء عن الفريضة مُظاهِرٌ على وَهَنِ العقيدة، وتقصير الرّويّة، ومُضِرٌّ بالتّدبير، مُخِلٌّ بالاختيار، وليس في نَفْعِ مَحْمدته عِوَضٌ من فساد المروءة، ولزوم النّقيصة». وقد أشاد بهذا الكتاب غيرُ واحدٍ من القدماء، فقد قال الحصريّ: «وكتابه هذا مملوء حِكَمًا وعلمًا»، وقال المسعوديّ: إنّه يزيد على (كليلة ودِمنة) في حُسْن نَظْمه(٢٣٣).

إلّا أنّ ما يُؤسف له أنّه لم يصل إلينا، وكذلك كتبه الأخرى، التي يُفهم من عنواناتها أنّها في القصّ على لسان الحيوان، وهي: كتاب (الغزالين) وكتاب (أدب أسد بن أسد ـ وفي رواية:أسل بن أسل).

ومن حُسْن الطّالع أنّ كتابه الموسوم بـ (النّمر والثّعلب) قد سَلِم من غِيَر الدّهر. وهو قصّة طويلة على لسان الحيوان تدور حول ثلاث شخصيّات رئيسة، وهي النَّمِر الملك، والثّعلب الحكيم، والذّئب الجحود. وهي تتسلسل تسلسلاً منطقيًّا محكمًا، في وحدة موضوعيّة متماسكة، دون أن تتخلّلها حكاياتٌ فرعيّة، عدا حكاية صغيرة، جاءت لغرض التّشبيه، في معرض الحديث عن الجاهل، ولم تؤثّر في سير الأحداث. وهو يصوّر فيها خروجَ

---

(٢٣٣) زهر الآداب للحصري ٥٧٧/١. ومروج الذهب للمسعودي ٩٢/١.

الولاة واستبدادهم بأمور ولاياتهم، بعد أنْ تقوى شوكتُهم، وتشتدَّ عريكتُهم، محاولين الانفصال عن سلطان الخليفة الشّرعيِّ.

وهو في أثناء حديثه يبثُّ مواعظه ووصاياه وأفكاره السّياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، دون أن يخاف أو يخشى أحدًا؛ لأنَّه ، في ظاهر الأمر ، إنَّما يحكي قصّة. وكان سهلٌ أيضًا «ممّن يعمل الأَسْمار والخرافات على ألسنة النّاس». بحسب تعبير صاحب الفِهْرست، لذا فإنّ كتابيه (المخزوميّ والهذليّة) و(الوامق والعذراء) ربّما كانا على ألسنة النّاس مباشرة.

وكان تأثير سهل بن هارون في غيره لا يقلّ عن أثر ابن المقفّع فيه، فهذا صاحب الفهرست يشهد أنّ عليّ بن داود، المعروف بكاتب زُبَيدة بنت جعفر، وكان أحد البُلغاء، ويسلك في تصنيفاته طريقة سهل بن هارون. ويعني بذلك القصّ على ألسنة الحيوانات، وربّما قَصَدَ بطريقة سَهْلٍ سَوْقَه الحكايات والقصص على لسان الإنسان مباشرة. ولعلّ سهلَ بن هارون هو أوّل من فعل ذلك في كتابٍ مجموعٍ مدوّنٍ في تاريخ الأدب العربيّ؟! ولعليّ بن داود من الكتب، التي يُرجّح أنّها على لسان الإنسان: (الجرهمية وتوكيل النّعم) و (الحرّة والأمة) و(الظّرّاف)، ولم تصل إلينا.

وكان علي بن عُبيدة الرّيحاني (ت ٢١٩هـ) من أقطاب هذا الفنّ أيضًا، في العصر العبّاسيّ الأوّل، وكان «أحد البلغاء الفُصحاء، ومِن النّاس مَنْ يُفَضِّله على الجاحظ، في البلاغة وحُسْن التصنيف». وله اختصاصٌ بالمأمون، كما يقول محمد بن إسحاق النّديم ، وقد عدّه من الشّعراء الكُتّاب، المقلّين في الشّعر. و«يسلُكُ في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحِكْمة، وكان يُرمى بالزّندقة، وكان كاتبًا بارعًا، وله مع المأمون أخبار... »[٢٣٤]. وقد ذكر صاحبُ الفِهْرست له العديد من المؤلّفات والتّصانيف، غالها رَيْبُ الزّمان، خلا شذرات مبثوثة في كتب التّراث.

---

(٢٣٤) الفهرست، ص١٩٣. وانظر: معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠م، ١٤/ ٥١.

ولعلّ من بين مؤلّفات هؤلاء الأعلام ما هو ترجمة عن الفارسيّة أو الهنديّة؛ إذ إنّ كثيرًا منهم كان من أَرُوْمَةٍ فارسيّة، يُتقن لغةَ قومه؛ غير أنّ المصادر لم تُفصح - في الأعمّ الأغلب - عن ذلك. ولكنّ بعضًا من أسماء المؤلّفات نفسها يبدو فارسيًّا، فعلى سبيل المثال فإنّ كتاب (الوامق والعذراء) لسهل بن هارون يتّفق في عنوانه مع قصّة فارسيّة، تحمل العنوان نفسه، من بقايا العصر السّاسانيّ. وهي قصّة فارسيّة قديمة، نقلها إلى العربيّة أبو الرّيحان البيرونيّ (ت٤٤٠هـ). وقد «حُكي أنّ الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان، في أيّام الخلفاء العبّاسيّين، كان جالسًا ذات يومٍ في ديوانه بنيسابور؛ إذ جاءه شخصٌ وأَتْحَفَهُ بكتابٍ وَضَعَهُ بين يديه، فسأله عن الكتاب، فقال: هو قصّة (الوامق والعذراء)؛ وهي قصّة لطيفة ألّفها الحُكماء لكسرى أنوشروان. فقال الأمير: نحن قوم نقرأ القرآن، ولا نريد شيئًا غير القرآن والحديث النّبويّ، ولا شأن لنا بهذا الكتاب فإنّه من تأليف المجوس، وهو عندنا مَردود، فأمر أن يُطرحَ الكتاب في الماء، وأمر كذلك أن يُحرق كلّ كتاب من تصانيف العجم والمجوس يُعْثَرُ عليه من حدود ولايته»[٢٣٥].

ومن قصص الحيوان في الأدب العبّاسيّ، غير المجموعة في صَعيدٍ واحد، ما يُطلق عليه خُرافات الأمثال، وقد رَوَتْ كتبُ المصادر طائفةً منها، وهي لا تختلف عن أمثال (كليلة ودِمنة) سوى أنّها رُويت مفردةً، في سياقٍ أو موقف معيّن. وهي تعدّ ضربًا من التّمثيل الرّمزيّ أو الكنائيّ، الذي يتّضح معناه بعد سَرْده سَرْدًا تمثيليًّا كاملاً؛ أي بصورة المَثَل القصصيّ، كما في رسالةٍ لأبي جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ)، الخليفة العبّاسيّ المشهور إلى يزيد بن عُمَر بن هُبَيْرَة؛ والي الأمويين على العراق، حين تحصّن بواسط من جيش العبّاسيّين الذي يقوده المنصور. وكان المنصور قال عن يزيد: إنّه يُخَنْدِق على نفسه مِثْل النّساء، فبلغ قولُه ابنَ هُبَيْرَة؛ فأرسل إليه يقول: إنّي خارجٌ يوم كذا وكذا، وداعيك إلى المُبارزة؛ فقد بلغني

---

(٢٣٥) الأدب الفارسي، لمحمّد محمّدي، ص١٠٢ – ١٠٣، نقلاً عن كتاب تذكرة الشعراء للمؤلف الفارسي دولتشاه السّمرقندي، ص٣٠، ط. ليدن.

تجبينُك إيّاي؛ فكتب إليه المنصور: «يا بن هُبَيْرَة! إنّك امرؤٌ مُتعَدٍّ طَورَك، جارٍ في عِنَان غَيِّك، وقد ضربتُ مَثَلي ومَثَلك: بلغني أنّ أَسَدًا لَقِيَ خنزيرًا، فقال له الخنزيرُ: قاتِلني، فقال الأَسَدُ: إنّما أنت خنزير، ولستَ لي بكُفءٍ ولا نظير، ومتى فعلتُ الذي دعوتني إليه، فقتلتُك، قيل لي: قتلت خنزيرًا؛ فلم أعتقد بذلك فخرًا ولا ذِكْرًا، وإن نالني منك شيءٌ كان سُبَّةً عليّ، فقال: إن أنت لم تفعل رجعتُ إلى السِّباع، فأعلمتُها أنّك نَكَلْتَ عنّي وجَبُنْتَ عن قتالي، فقال الأَسَدُ: احتمالُ عارِ كَذِبِكَ أَيْسَرُ عليّ من لَطْخِ شاربي بدَمِك»[٢٣٦].

ومن البيّن أنّ هذا المَثَل الرّمزيّ القصصيّ يصيبُ المعنى الذي رامه المنصورُ إصابةً موفّقة، لجَودة الكناية فيه، وحُسْن التّشبيه، وإخراج المعنى في صورة حسيّة زاخرة بالحياة والحركة. ولو أراد التّعبير عن هذا المعنى برسالة عاديّة لَمَا وقعت في نفس المرسَل إليه وقوع هذا المَثَل القصصيّ، ولو أبدع في تَنْميقها وتَحْبيرها، ولما كان الردّ مُقْنِعًا، على نحوٍ يَخْلص المنصور فيه من سُبَّةِ الجُبن وعار الخِذْلان.

وكان الخليفة المُعتصم حَبَسَ قائده الأفشين، بعد أن ثبتت له خيانتُه وزندقتُه، فأرسل الأفشين إليه، أنّ مَثَلي ومَثَلك يا أمير المؤمنين مَثَل رجلٍ ربّى عِجْلاً، حتّى حَسُنت حالُه، وكان له أصحاب، فاشتهوا أَكْلَهُ، فاتّفقوا على أن يُحسّنوا له ذَبْحه، فزعموا أنّه أسدٌ، وليس عِجْلاً! فكان كلّما سأل أحدًا قال له إنّه أسدٌ، ولا بدَّ أن يرجع إلى جِنْسه، حتّى صَدَّق صاحبُ العِجْل، فأمر به فذُبح! «ولكنّي أنا ذلك العِجْل كيف أقدر أن أكون أسدًا»[٢٣٧]؟ فالأفشين هنا يشير إلى حَسَدِ رجال الدّولة له، بعد أن عَلَتْ مَرْتبتُه عند الخليفة، فتألّبوا عليه، واتّهموه زُوْرًا وبُهْتَانًا عند الخليفة، حتّى صَدَّقهم ونكَبه. فهي دعوة إلى تحرّي الدّوافع الخفيّة لاتهامه، ومن ثمّ التّخلّص منه، ويبدو أنَّ المعتصم كان مُقتنعًا بصَواب حُكْمه فيه، فذهبت دعوته أَدْرَاجَ الرّياح!

---

(٢٣٦) تاريخ الأمم والملوك ٧٨/٨.

(٢٣٧) المصدر نفسه ١١٣/٩.

٣ـ وظائف قصص الحيوان ومقاصدها:

لعلّ ما يلفت النّظر حقًّا، في هذا الفنّ الأدبيّ، هو المغزى الرّمزيّ الذي تنطوي عليه القِصَصُ، وتَشِفُّ عنه أحداثُها؛ إذ إنّ «ظاهرها لهوٌ، وباطنها حِكْمة»، بحسب تعبير ابن المقفّع. ومضمون هذه الحِكمة، يتمثّل في تحقيق الغاية التي يرمي إليها كاتبُها، فهي إمّا أن تكون تربويّة تعليميّة، تستهدف النّقد الاجتماعيّ والأخلاقيّ، من خلال نقد بعض العادات والتّقاليد، أو تأكيد قيم معيّنة، أو كشف سلوكٍ ما. ومن ذلك قصّة المَثَلِ الذي رواه الميدانيّ، وهو: (كَيْفَ أُعَاوِدُكَ وهَذَا أَثَرُ فَأْسِكَ)؛ ويُضرب لمن لا يفي بالعهد، وفي قصّته يتجلّى غَدْرُ الإنسان ووفاءُ الحيوان!

وقد تكون الغايةُ التي يبتغيها الكاتب سياسيّةً، أو قد تكون مزيجًا من السّياسة والاجتماع، وهو الأعمّ الأغلب؛ إذ إنّ إصلاح المجتمع والرّقيّ به، يؤدّي إلى تقويم سلوك الحاكم والمحكوم معًا، على نحوٍ تُراعى فيه الحقوق والواجبات. وقد كانت الغايةُ أو الوظيفة السّياسيّة ماثلةً في ذِهْن القدماء، فصنّفوا قصصَ الحيوان ضمن (علم تدبير المُلك والسّياسة، أو السّياسة المُلوكيّة، أو السّلطانيّة).

وكذلك أَلْـمَحَ كُتّابُ هذا الفنّ إلى هذه الغاية في مقدّمات كتبهم، أو في مضموناتها، مُسْتعصمين بالحيوان؛ بوصفه قِناعًا يسترُ ما وراءه، ورمزًا يُومِئ إلى المرموز إليه، وسِتارًا للنّقد السّياسيّ، وما ينضوي تحته من تَعْريةِ الأنظمة السّياسيّة، وكَشْفِ زَيْفها، ومُرُوقِها عن جادّة الصّواب، ومحَجّة الطّريق المستقيم. وما يتبع ذلك كلّه من إلحاق العَنَتِ والظّلم والإجحاف بحقِّ المحكومين المغلوبين على أمرهم قَهْرًا وقَسْرًا، الذين قد يكونون في حالة استلاب فكريّ سياسيّ؛ أعني قد يُغرّر بهم، من خلال ترويج نظريّات سياسيّة باطلة في الحكم، كتأليهِ الحاكم وعِصْمتِه، وحقّه الإلهيّ في الحُكم دون غيره، وما إلى ذلك، من مبادئ وأفكار، ما أنزل الله بها من سُلطان.

وههنا يَنْهَدُ الكاتبُ (الملتزم)، إلى إصلاح هذه الأنظمة، وتبيان حقوق الرّعيّة عليها؛ علّها تنهضُ من كَبْوتها، وتطالب بحقّها، أو تثور في وجه ظالمها. ولمّا كان الحاكم الذي يرومُ إصلاحَه الكاتبُ، ظالمًا مُسْتبدًّا - بالضّرورة - فالحِكْمة تقتضي أن يُرَاوغ الكاتبُ - إن صحّ التّعبير - في إيصال أفكاره السّياسيّة خاصّةً، فيلجأ إلى التّستّر أو التّقنّع بالرّمز الحيوانيّ؛ ليخرقَ بذلك الحظرَ المفروضَ على مَن يتناول السّلطة بالنّقد والتّجريح، فيأمن بذلك مَغبّة بَطْشِها ومُسَاءلتها؛ إذ هو - في واقع الأمر - إنّما يحكي قصّة خرافيّة، وإن بَدَت دلالاتُها واضحة جليّة. المهمّ أنّه لا ينقد الوضع السّياسيّ صراحةً، بحيث يجترئ المحكوم على السّلطة، بحقٍّ أو بغير حقّ.

وقد تمثّل ابنُ خلدون (ت ٨٠٨هـ)، في مَعْرِض حديثِه عن (أسباب سقوطِ الدّول وخَرابِ العُمْران)، بقصّة رمزيّة على لسان الحيوان، تفيد أنّ «الظّلم مُؤذِنٌ بخَرَابِ العُمْران»؛ إذ عرّض (المُوبذان) - وهو صاحب الدّين عند الفُرس - أيّام الملك بَهْرَام، للمَلِكِ في إنكار ظُلْمه وغَفْلته «بضرب المِثَال في ذلك على لسانِ البُوم، حين سمع المَلِكُ صَوتَها، وسألَه عن فَهْمِ كلامِها، فقال له: إنّ بُومًا ذَكَرًا يَرُوم نِكاحَ بُومٍ أنثى، وإنّه شَرَطَتْ عليه عشرينَ قريةً من الخراب، في أيّام بَهْرَام، فقَبِلَ شَرْطَها، وقال لها: إن دامت أيّامُ المَلِكِ أقطعتُك ألفَ قرية، وهذا أسهلُ مَرامٍ، فتنبّه المَلِكُ مِن غَفْلته...»(٢٣٨).

وتحفِلُ كثيرٌ من قصص الحيوان، كما في كليلة ودِمْنة، بالعديد من المبادئ والأفكار والمُثُل السّياسيّة والإداريّة والاجتماعيّة والتّربويّة التي تصلح، في كثيرٍ من الأحيان، لكلّ زمانٍ ومكان. وهذا سرّ ذيوعها على الرّغم من كرور الأيّام وتعاقب الأعوام؛ إذ هي ذات طابع إنساني عامّ، لا تنحصر فائدتُه في زَمَنِ كتابتِه فحسب.

ولعلّ الوظيفةَ السّياسيّةَ في القصّ على لسان الحيوان، لا تتمثّل في كَشْفِ الظّلم والفَسَاد فحسب، بل ربّما تُتخذ بعض الحكايات والأفكار بمنزلة دستور تعليميّ، يسير على

---

(٢٣٨) المقدّمة ٣٠٥/١. وانظر: مروج الذهب ٢٦٥/١-٢٦٧.

نهجه الطّامحون إلى الحقّ والفضيلة والعدل. فعلى سبيل المِثَال، يُحَذّرُ المَثَلُ القائلُ: «إنّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأبيضُ»، الذي رواه الميدانيّ، الحاكمَ من الفُرْقةِ وآثارِها السَّيّئة، على مُسْتوى الفرد والأمّة، من خلال مَوْرِدِ المَثَل، أو القصّة الأصليّة التي يُحيل إليها المَثَلُ: «يُروى أنّ أميرَ المؤمنينَ عليًّا ﷺ قال: إنّما مَثَلي ومَثَلُ عُثْمان كَمَثَلِ أثْوارٍ ثلاثة كُنَّ في أَجَمَةٍ؛ أبيض وأسود وأحمر، ومعهنّ فيها أَسَدٌ، فكان لا يقدِرُ على شيءٍ منهنّ؛ لاجتماعهنّ عليه، فقال للثّور الأسود والثّور الأحمر: لا يدُلُّ علينا في أَجَمَتِنا إلّا الثّورُ الأبيض؛ فإنّ لونَه مَشْهور، ولوني على لونكما، فلو تركتُماني آكلُه صَفَتْ لنا الأَجَمَةُ، فقالا: دونَكَ فكُلْه، فأكله. فلمّا مضت أيّامٌ، قال للأحمر: لوني على لونك، فَدَعْني آكل الأسود؛ لِتصفو لنا الأَجَمَةُ، فقال: دونَك فكُلْه، فأكله. ثمّ قال للأحمر: إنّي آكِلُكَ لا مَحالة، فقال: دعني أنادي ثلاثًا، فقال: افْعَلْ، فنادى: ألا إنّي أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثّورُ الأبيض. ثمّ قال عليٌّ ﷺ: ألا إنّي هُنْتُ ـ ويُروى: وَهَنْتُ ـ يوم قُتِلَ عُثْمان»[٢٣٩].

وقد رأى بعضُ الباحثِينَ أنّ نَشْأَةَ قصصِ الحيوان ترتبطُ أصلاً بالسّياسة، وأنّها تنشأ في عُهود الظّلم والاستبداد والقَهْر، حينما يكون التّصريحُ سَبَبًا في إثارة مَوْجِدَةِ الملوك وحَنَقِهم. وقد يَسْتَدلّون على ذلك بأنّ أشهرَ كتّابها، كانوا من العبيد والأرقّاء والموالي؛ أي من المستضعفين المقهورين.

يقول أحمد أمين: «وتَبَيَّنَتِ الحاجةُ الشّديدة إلى هذا النّوع في عصور الاستبداد، يوم كان الملوك والحكّام يضيّقون على النّاس أنفاسَهم؛ فلا يستطيع ناقدٌ أن ينقدَ أعمالهم، ولا واعظ أن يُومِئ بالموعظة الحسَنة إليهم، ففشا هذا الضّربُ من القول والقصص. يقصدون فيه إلى نُصْحِ الحكّام بالعَدْل، وكأنّهم يقولون: إذا كانت الحيوانات تَمْقُتُ الظّلمَ، وتحقّقُ العَدْلَ، فأوْلى بذلك الإنسان! وإذا كان الولاة والزّعماء، تأخذهم العِزّة بالإثم، ويَسْتَعْظِمون

---

(٢٣٩) مجمع الأمثال ١/١١٠. وصبح الأعشى ١/٣٥٢.

أن يُصَرّح لهم بنُصْحٍ أو نَقْد، فلا أقلّ من وضع النّصيحة على لسان البهائم! وإذا كان في التّصريحِ تعريضُ الحياة للخطر، ففي التّلميح نجاةٌ من الضّرر»(٢٤٠).

غير أنّه ليس لِزامًا أن تكونَ عهودُ الظّلم والاستبداد سَبَبًا في وجود هذه القصص أو خَلْقها؛ إذ إنّ كثيرًا منها إنّما وُضع للتّسلية والإمتاع، أو للموعظة الأخلاقيّة المجرّدة، أو لهدفٍ تربويّ تعليميّ، لا علاقة له بالسّياسة. ويُراد منها ـ في هذه الحال ـ البُعْد عن حدّة الوعظ المباشر، وصُعوبته على النّفس، التي تشعر بالاستعلاء والفَوقيّة، من قبل النّاصح، وإن أخفى ذلك، أو ما كان في حُسْبانه أصلاً.

وأخيرًا، يمكن القول إنّ قصص الحيوان توفّر للكاتب إمكانات تعبيريّة أفضل، وهي شكلٌ فنّي ذو أبعاد دلاليّة واسعة؛ إذ يُتيح للمُتلقّين فُسْحة رَحْبة للتّأويل، أو لنقل: إمكانات لا حَصْرَ لها لتجسيد النّصّ القصصيّ (استقباليًّا)، وَفْقًا لآفاق توقّعاتهم، أو دائرة اهتماماتهم المختلفة.

(٢٤٠) ضحى الإسلام ٢٢٢/١.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

الفصل الثاني

من عباقرة التّجديد في النثر العبّاسيّ

أولاً- عبد الله بن المُقَفَّع

ثانيًا- سهل بن هارون

ثالثًا- محمّد بن عبد الملك الزيّات

رابعًا - الجاحظ

خامسًا- التّوحيديّ

جامعة الفرات Al-Furat University 2006

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

أوّلاً: عبد الله بن المُقَفَّع

١.حياتُه[٢٤١]:

هو أبو محمّد عبد الله بن المُقَفَّع، فارسيّ الأصل، قيل إنّ اسمه كان (روزبه بن داذويه)، فلمّا أسلم تسمّى بعبد الله، وتكنّى بأبي محمّد، كما يُقال له: أبو عمرو، وأبو عمر.

وُلد في قرية جُور الفارسيّة، إحدى قرى (فيروز آباد)، ثمّ انتقلت أسرتُه إلى البصرة، واختُلف في تحديد تاريخ ولادته، وأكثرهم يقول إنّه وُلد سنة ١٠٦هـ. لُقّب بابن المُقَفَّع، لأنّ والده كان يعمل في دواوين الخَراج في زمن الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ، فاحتجنَ قِسْمًا من أموال الدّولة لنفسه، فضربه الحجّاجُ على يده حتّى تقفّعت؛ أي تشنّجت ويَبِسَتْ. والرّاجح أنّه لم يُسْلم، وبقي مجوسيًّا، وعلى دينه نشأ ابنُه.

اجتهد ابنُ المُقَفَّع في تحصيل الثّقافة الفارسيّة، وألمّ بلغُتها وعلومها ومعارفها، ومن خلالها أطلّ على الثّقافة الهنديّة واليونانيّة. نشأ في البصرة في ولاء (آل الأهتم) التّميميّين المشهورين بالفصاحة واللّسن والخطابة، وتردّد على المِرْبد، وكان سُوقًا تجاريّة وثقافيّة عظيمة، فنهِلَ من علوم اللّغة والأدب والعلم.

كتب في أوّل عَهْدِه لبعض وُلاة الدّولة الأمويّة، فلمّا قامت الدّولة العبّاسيّة اتّصل بعيسى بن عليّ العبّاسيّ، عمّ السّفّاح والمنصور، وكتب له، وأسلم على يديه، وكان مجوسيًّا. كما كتب لسليمان بن عليّ العبّاسيّ في ولايته على البصرة، فلمّا خرج أخوه عبد الله بن عليّ على

---

(٢٤١) انظر في ترجمته وأخباره: الوزراء والكتّاب للجهشياري: ، ص١٠٣–١١٠. والفهرست، ص١٨٩–١٩٠. ووفيات الأعيان ٢/١٥١–١٥٥. وسِيَر أعلام النبلاء ٦/٤٠٦–٤٠٧. والبداية والنهاية ١٠/١٠٤. وأمراء البيان لمحمّد كرد علي ١/٩٩–١٥٨. وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/١٩٥–٢٢٨. ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين، ص٤٠، ٤٦–٤٩. والعصر العبّاسيّ الأوّل، ص٥٠٧–٥٢٦، والفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف، ص١٣٤–١٤٤.

ابن أخيه الخليفة المنصور، وطلب الخلافةَ لنفسه، وجّه إليه المنصور أبا مُسْلم الخراسانيّ فهزمه، فلجأ إلى أخويه عيسى وسليمان في البصرة، فطلبا له الأمان من المنصور، وكُلّف ابن المُقَفَّع بكتابة الأمان، وتشدّد فيه حتّى لا يترك للمنصور سبيلاً للإيقاع بعبد الله بن عليّ عمّه. فلمّا عزلَ المنصورُ عمَّه سليمان عن ولاية البصرة، وولّى مكانه سفيان بن معاوية المهلّبيّ، قتل سفيانُ ابنَ المُقَفَّع شرَّ قتْلَة نحو سنة (١٤٢هـ).

واختلفَ الباحثون في سَبَبِ قَتْله؛ إذ ذهب بعضُهم إلى أنّ السّببَ يرجع إلى تشدّد ابن المُقَفَّع في كتابة الأمان؛ فسأل المنصور عن كاتبه، «فقيل: ابن المقفّع، كاتب عيسى بن عليّ، فقال أبو جعفر: فما أحَدٌ يكفينيه»؟ فلمّا قتلَه سفيانُ بنُ معاوية المُهَلّبيّ - والي البصرة بعد عَزْل سليمان، وكان يَجِد عليه مَوْجِدة شديدة ؛ إذ كان ابن المُقَفَّع يسخر منه، فقتله شرَّ قتْلَة - «وقع ذلك من المنصور بالموفق، فلم يطلب بثأره، وطُلّ دمه»، كما يقول محمّد بن إسحاق النّديم[٢٤٢].

في حين تذكر مصادرُ أخرى أنّ المنصور هو من أوعز بقَتْله[٢٤٣]؛ إذ كانت صيغةُ الأمان شديدةً عليه، «وكان الذي شقّ على أبي جعفر أنْ قال [ابن المقفّع] في النّسخة: يُوقّع بخطّه في أسفل الأمان: وإنْ أنا نلْتُ عبدَ الله بن عليّ، أو أحدًا ممّن أَقْدمه معه بصغيرٍ من المكروه أو كبير، أو أوصلتُ إلى أحدٍ منهم ضررًا، سرًّا أو علانية، على الوجوه والأسباب كلّها، تصريحًا أو كِناية أو بحيلةٍ من الحِيَل، فأنا نَفِيٌّ من محمّد بن عليّ بن عبد الله، ومَولودٌ لغير رِشْدَة، وقد حَلّ لجميع أمّة محمّد خَلْعي وحَرْبي والبراءةُ منّي، ولا بيعة لي في رقاب

(٢٤٢) الفهرست، ص١٩٠.

(٢٤٣) انظر: أمالي المرتضى ١٣٦/١. ووفيات الأعيان ١٥٢/٢. وسِيَر أعلام النبلاء ٤٠٦/٦. والبداية والنهاية ١٠٤/١٠ (ولم يذكر ابن كثير سبب قتله).

Al-Furat University 2006

المسلمين، ولا عَهْد ولا ذِمّة، وقد وَجَبَ عليهم الخروج من طاعتي (...). وكتبتُ بخَطّي، ولا نيّة لي سواه، ولا يقبل الله منّي إلّا إيّاه»[٢٤٤].

إلّا أنّ المرءَ يمكن أن يزعمَ أنّ كتابَ الأمان هذا، كان سَبَبًا مهمًّا من أسباب مَقْتله، أو بالأحرى أهمّها على الإطلاق، ولم يكن السّبب الوحيد؛ إذ تآزرت أسبابٌ أخرى، كوقوف ابن المقفّع إلى جانب أعمام المنصور، وكتاباتِه السّياسيّة النّاقدة، وحَنَقِ بعض الوُلاة وأرباب السّلطة عليه، كسُفيان بن معاوية، وأبي أيوب المُوريانيّ الذي كان يخشاه على مَنْصبه؛ لأنّ الخليفةَ كان يُدرك مؤهّلات ابن المقفّع وكفايته ومعرفته بالسّياسة وشؤونها، وقد صرّح المنصور بذلك؛ «فلم يزل أبو أيوب خائفًا له، يسعى ويدبّ في أمره حتّى قَتَله»[٢٤٥].

وقيل: إنّما قُتل على الزَّنْدقة والكيد للإسلام، والرّاجح أنّه قُتِل لسببٍ سياسيّ لا لزَنْدقةٍ أو كُفر، إنّما لموقف ابن المُقَفَّع من المنصور وكتاب الأمان؛ علمًا أنّ كثيرًا من الباحثين رأى أنه كان صحيحَ الإسلام حَسَنَ العقيدة. يقول محمّد كرد علي: «دان ابنُ المقفّع بالإسلام عن عقيدةٍ وعِلْم، وغدا في الكُهولة نابهَ الذّكر، وما زاده إعلانه الإسلام إلّا ما أوجب عليه القيام به من التّكاليف. وما كان له مطمع دنيويّ يتطلّبه بإسلامه، وهو الرّجل الذي لابَسَه المسلمون على مجوسيّته، وعهِد إليه أمراءُ الإسلام بشؤون دواوينهم»[٢٤٦]. وما بين أيدينا من أدبه لا يدلّ على زندقته بأيّ حال من الأحوال، إن لم نقل خلاف ذلك، ولعلّ ما يُعزى إليه من الآراء والكتابات التي تَقْدح بصِحّة عقيدتِه كانت قد صدرت عنه قبل إسلامه.

---

(٢٤٤) الوزراء والكتّاب، ص١٠٤. ومحمّد بن علي؛ هو والد المنصور. ومولود لغير رِشْدَة (بكسر الراء وفتحها): أي غير صحيح النّسب.

(٢٤٥) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٢٤٦) أمراء البيان ١/١٠٤.

وأيًّا ما كان، فإنّ سببَ مَقْتله سياسيٌّ، «وما عَدِمَ السّاسةُ حُجَّةً يتوكَّؤون عليها، أو تأويلاً يأتيهم به المنافقون، لقَتْلِ مَن استُهدفوا لغَضبهم»(٢٤٧)!

وقد كان ابن المُقَفَّع وَقورًا حكيمًا حليمًا نبيلَ الخُلق، يتسامَى عن الصّغائر والدّنايا، ولا يجعل للهوى سُلطانًا على عقله. وكان سَخيًّا مُحْسِنًا كريمًا وفيًّا، يتعطّف على أصحابه ويُحسن إليهم. يقول الجهشياريّ: إنّه «كان سَرِيًّا سَخِيًّا، يُطْعِمُ الطّعام، ويتّسعُ على كلّ مَن احتاج إليه... وكان يُجري على جماعاتٍ من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمئة إلى الألفين في كلّ شهر»(٢٤٨). وتُروى عنه حكايات مأثورة تدلّ على كَرَمِه الفيّاض، فضلًا عن حدّة ذكائه وسُرعة بَديهته وعُمْق فِكْره وسعَة معرفته وإشراق أسلوبه.

٢ـ أدبه وآثاره:

ابنُ المُقَفَّع رائدُ النّثر السّرديّ العربيّ، وعَلَمٌ من أعلام الكتابة الدّيوانيّة، وأحد عباقرة التّجديد في النّثر العربيّ،، وإمام الكتابة السّياسيّة في النّثر العربيّ القديم. جمع بين الثقافات العربيّة والإسلاميّة والفارسيّة والهنديّة واليونانيّة، فتمثّلها وأبدع أدبًا خالدًا أبدَ الدّهر.

وقد تنوّعت مؤلّفاتُه تنوّعًا واضحًا؛ إذ كتب في الأدب والسّياسة والتّاريخ والسّيَر والأخلاق والحِكْمة. يقول الأصمعيّ: «صنّف ابن المقفّع المصنّفات الحِسَان، منها (الدّرّة اليتيمة) التي لم يُصنّف في فنّها مِثْلها»(٢٤٩).

ترك ابنُ المُقَفَّع للفِكْر الإنسانيّ والمكتبة العربيّة تُراثًا زاخرًا وكنوزًا ثمينة، ترجمةً وتأليفًا. وقد رجّحَ بعضُ الباحثين أنّ ابنَ المُقَفَّع ترجم كُتُبًا عن اليونانيّة في الفلسفة والمنطق والنّجوم وغيرها، ومنهم مَن رأى أنّها كانت مَنقولة في الأصل إلى الفارسيّة، فترجمها ابنُ

---

(٢٤٧) المرجع نفسه ١٢٨/١.

(٢٤٨) الوزراء والكتّاب، ص١٠٩.

(٢٤٩) وفيات الأعيان ١٥١/٢.

المُقَفَّع إلى العربيّة. كما ترجم عن الفارسيّة كُتبًا منها: كتاب (خُداينامه) أي سِير المُلوك أو كتاب المُلوك؛ وهو كتاب تاريخيّ في سِير مُلوك الفُرس، وقد نقل عنه الفردوسيّ في كتابه (الشاهنامه). وكتاب (آيين نامه)، وهو في عادات الفُرس وأنظمتهم وقوانينهم، و(الآيين) كلمة فارسيّة بمعنى القانون أو الرّسوم. وكتاب (مَزْدك). وكتاب (التّاج في سيرة أنوشروان)؛ وهو كتاب تاريخيّ في سِيرة كسرى أنوشروان.

إلّا أنّ هذه المؤلّفات لم يصل إلينا منها سوى شَذرات وقُطوف انطوت عليها بعضُ المصادر التّاريخية والأدبيّة، ولا سيّما (عيون الأخبار)، لابن قتيبة الدّينوريّ (ت ٢٧٦هـ)، وما أثبته ابنُ المقفّع نفسه، في كتبه التي وصلت إلينا، من حِكمٍ وآراء سياسيّة نافذة.

ومن حُسْنِ الطّالع أنّ بعضَ كتاباته في هذا المضمار قد سلمت من غِيَرِ الدّهر، وهي: الأدب الصّغير، والأدب الكبير، وقطوف من الدّرة اليتيمة، أو اليتيمة في السّلطان، ورسالة الصّحابة، فضلًا عن درّة القصص: (كليلة ودِمنة).

ويحسن بنا، في هذا المقام، أن نقفَ على أهمّ مؤلّفاته التي وصلت إلينا، لنحلّل مضموناتها، ونقف على فِكْر صاحبها وحكمته وعقله الرّاجح وأسلوبه البليغ، وهي:

أ ــ رسالة الصّحابة:

تُعَدُّ هذه الرّسالة نموذجًا مُتميّزًا للكاتب المُصْلح المُناوئ للجَور والاستبداد وظُلْم الوُلاة، والمقصود بـ (الصّحابة): أتباع السّلطان وصحابته من البِطانة والوُلاة والقَادة والأعوان؛ أي خاصّة السّلطان، ومَوضع ثقتِه، «الذين هم بهاءُ فِنائه، وزينةُ مَجْلسه، وألسنةُ رعيّته، والأعوان على رأيه، ومواضع كرامته، والخاصّة من عامّته»[٢٥٠].

---

(٢٥٠) رسالة الصحابة لابن المقفّع، ص١٢٩. (ضمن رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف: محمّد كرد علــي، ص١١٧-١٣٤). وهي المُرادة عند الإطلاق.

وقد استهلّها بالدّعاء لأمير المؤمنين والثّناء عليه؛ «فإنّ أميرَ المؤمنين ـ حَفِظه الله ـ يجمع، مع علمه، المسألةَ والاستماع، كما كان وُلاةُ الشّرّ يجمعون، مع جَهْلهم، العُجْبَ والاستغناء، ويستوثق لنفسه بالحُجَّة ويتّخذها على رعيّته فيما يَلْطُف له من الفَحْصِ عن أمورهم، كما كان أولئك يكتفون بالدَّعة، ويَرْضون بدُحُوض الحُجَّة وانقطاع العُذْر في الامتناع، أن يجترئ عليهم أحدٌ برأيٍ أو خَبَر»[٢٥١].

وابن المقفّع لم يصرّح باسم الخليفة، إلّا أنّ الظّاهر أنّه المنصور، إذ يترحّم في رسالته على أبي العبّاس السّفّاح. وهو في هذا الاستهلال يشير إلى دولة بني أميّة، مع بيان فَضْل المنصور وما يتحلّى به من حميد الخِصال، وعظيم السّجايا. وهذا المدح يَشِي بمُحاولة ابن المقفّع استعطاف الخليفة واستمالته؛ لينظرَ في مضمون الرّسالة بعين الاهتمام والقَبُول، وليضمن مَغبّة جُرأته في توجيه الخليفة وإرشاده بجملة من التّدابير، التي يصلح بها مُلكه، وينتظم من خلالها جهاز دولته.

وكأنّ المنصور بحاجة إلى مَن يعلّمه كيف يسوس دولته ويختار بطانته! ولذا، لا عجبَ إن رأى طه حسين أنّ هذه الرّسالة هي سبب قَتْله، إذ قال: «ولكن لابن المقفّع رسالة، أخشى أن تكون هي التي قتلته؛ لأنّها تُوشك أن تكون برنامج ثورة، وهي موجّهة إلى المنصور»[٢٥٢]. بيد أنّ الرّسالة أميل إلى الإصلاح منها إلى الثّورة، ولعلّها من الأسباب التي أودت بحياة صاحبها، وليست السّبب المباشر.

إذن، الرّسالةُ نَقْدٌ لنظام الحُكْم في ذلك العصر، ومحاولة لإصلاحه، وكأنّها دُستورٌ لسياسة الدّولة وإدارة شؤونها، أو تقريرٌ عن وضعيّة الحُكْم عصرئذٍ، وبيانٌ لوجوه إصلاحه. وقد ذكر بروكلمان أنّه: «ربّما كانت هذه الرّسالة مُذكّرة خاصّة، لم يقصد نشرَها، كُتبت

(٢٥١) المصدر نفسه، ص١١٧.

(٢٥٢) من حديث الشعر والنثر، ص٤٦-٤٧.

بتكليفٍ من عيسى بن عليّ وأخيه سليمان والي البصرة»[٢٥٣]. وسواء أكتبت بتكليفٍ من عيسى وأخيه أم بمُبادرةٍ من صاحبها، فإنّ الرّسالة نموذجٌ فريدٌ للأدب السّياسيّ المُلتزم بقضايا الإصلاح وهموم الرّعيّة. وهي تتّسق مع ما كتبه صاحبُها في ميدان الكتابة السّياسيّة في إطارها التّنظيريّ الفكريّ، بَيْدَ أنّها جنحت إلى التّصريح دون التّلميح، كما في (كليلة ودِمنة).

وفي (رسالة الصّحابة) يتحدّث ابنُ المقفّع، بعد أن مهّد لرسالته بإطراء أمير المؤمنين والثّناء على مَناقبه الحَميدة، التي تدفع صاحب الرّأي ـ كما يقول ـ إلى أن يُفصحَ عمّا يَعْتَمِلُ في صَدْره، «ولا يَزيد صاحبُ الرّأي على أن يكونَ مُخبرًا أو مُذَكِّرًا، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مَقبولٌ، إنْ شاءَ الله».

ثمّ طَفِقَ ابنُ المقفّع يذكر القضايا التي كانت له وجهة نظرٍ سياسيّة فيها، وأُولاها قضيّة الجُنْد من أهل خُراسان؛ «فإنّهم جُنْدٌ لم يُدْرَكْ مِثْلُهُمْ في الإسلام، وفيهم صِفَةٌ بها يتمُّ فَضْلُهُمْ، إن شاءَ الله»، إلّا أنّهم يحتاجون إلى التّأديب، وتقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم؛ إذ إنّ مَنْ «يَصُول على النّاس بقَوْمٍ لا يَعْرف منهم المُوافقةَ في الرَّأيِ والقول والسِّيرة، فهو كراكبِ الأَسَدِ الذي يَوْجَلُ مَنْ رَآهُ، والرَّاكِبُ أَشَدُّ وَجَلًا»[٢٥٤]. لذا ينبغي وضع قانون لضَبْط أحوالهم يُسَاسون من خلاله ويُحاسبون. وقدّم مقترحات تخصّهم، منها أنّ طاعةَ الإمام واجبةٌ في غير معصية الخالق، وذلك في «عَزَائم الفَرائِض والحدود، التي لم يجعل الله لأَحَدٍ عليها سُلْطانًا، ولو أنّ الإمام نَهى عن الصَّلاة والصّيام والحجِّ، أو مَنَعَ الحُدُود، وأباحَ ما حرَّم الله، لم يكن له في ذلك أمر». في حين أنّ طاعةَ الإمام واجبةٌ «في الرَّأي والتَّدْبير والأمر الذي جعل الله أَزِمَّتَه وعُرَاه بأيدي الأئمَّة، ليسَ لأَحَدٍ فيه أَمْرٌ ولا طاعة، من الغزوِ

---

(٢٥٣) تاريخ الأدب العربي ١٠٠/٣.

(٢٥٤) رسالة الصحابة، ص١٢٠.

والقُفُول، والجَمْعِ والقَسْمِ، والاستعمالِ والعَزْل، والحُكْم بالرّأي فيما لم يكن فيه أَثَرٌ، وإمْضَاء الحُدُود والأحكام على الكِتاب والسُّنَّة...»(٢٥٥).

وممّا يُنْظر فيه لصلاح الجُنْد «ألا يُوَلّي أَحَدًا منهم شيئًا من الخَرَاج؛ فإنّ ولايةَ الخَرَاج مَفْسَدةٌ للمُقَاتِلة»، وسَبَبٌ في بَطَرِهم واشتغالهم بأمور المال والدّراهم والدّنانير، ونبّه على أنّ من المجهولين منهم مَنْ هو أفضل من بعض قادتهم؛ «فلو التُمِسُوا وصُنِعوا، كانوا عُدَّةً وقُوَّةً، وكان ذلك صلاحًا لِمَنْ فوقهم من القادة، ومَن دونهم من العامّة»(٢٥٦). كما ينبغي تعهّد أدبهم وتعليمهم القرآن الكريم، والتّفقّه في السُّنَّة، والتّحلّي بالأخلاق الفاضلة، وتعيين مواقيت مُحدّدة لأرزاقهم، وتقصّي أحوالهم، وأخبارهم عن طريق ثِقَات رجاله وأصحابه.

ثمّ انعطف من أَمْر الجُنْدِ إلى أهل العراق، مُشيدًا بأخلاقهم، فإنّ لهم «مِن الفِقْه والعَفَاف والألباب والألسنة شيئًا، لا يكاد يُشَكُّ أنّه ليس في جميع مَنْ سِواهم من أهل القِبلة مِثْلُه...». فهم خير من يُستعان بهم في شؤون الحُكم، إلّا أنّهم حُمِّلوا ما اجترحه شِرَارُ وُلاتهم من قبلُ، ومن أعانهم ولاذَ بهم، «وتعلّق بذلك أعداؤهم من أهلِ الشّام، فَنَعَوْهُ عليهم»(٢٥٧). ويذكر أنّ أهلَ المَلَق والمُصانعة من أهل العراق هم الذين تواردوا على المناصب، وتزاحموا لنيلها! وإذ رأى ذلك أهل الفَضْل «كَرِهوا أن يُرَوْا في غير مَوْضعهم، أو يُزاحِمُوا غير نُظَرائهم»(٢٥٨).

ويعرضُ ابنُ المقفّع لقضية جوهريّة في القضاء؛ إذ يشير إلى تناقض الأحكام الشّرعيّة، «التي بلغ اختلافُها أمرًا عظيمًا، في الدِّماء والفُرُوج والأموال»، فما يُسْتَحَلّ في

(٢٥٥) نفسه، ص١٢١.

(٢٥٦) نفسه، ص١٢٣.

(٢٥٧) نفسه، ص١٢٥.

(٢٥٨) نفسه، ص١٢٦.

ناحية، يُحرّم في ناحية أخرى! ويقترح ابنُ المقفّع أن يضعَ المنصورُ قانونًا قضائيًّا مُوحّدًا؛ «فلو رأى أمير المؤمنين أن يَأْمُرَ بهذه الأَقْضية والسِّيَرِ المختلفة، فتُرفع إليه في كتاب، ويُرفع معها ما يَحْتَجُّ به كلُّ قومٍ من سُنَّة أو قياس، ثمّ نظر في ذلك أمير المؤمنين، وأَمْضى في كلِّ قضيّةٍ رأيه الذي يُلهمه الله، ويَعْزِمُ عليه عَزْمًا، ويَنْهَى عن القضاء بخلافه، وكَتَبَ بذلك كتابًا جامعًا؛ لرجونا أن يجعل الله في هذه الأحكام المختلطة الصَّواب بالخطأ حُكمًا واحدًا صوابًا»(٢٥٩).

ويبدو أنّ هذه الدّعوة إلى إصلاح التّشريع وجمع السّنن والأحكام والأقضية، قد لاقت قَبُولًا في نفس المنصور، فطلب من الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) «أن يؤلّف في الفقه كتابه (الموطّأ). وقد قال له: إنّي أريد أن تُرْسِل لي به؛ لأكتب منه نُسَخًا، يرجع إليها النّاس في الأمصار؛ غير أنّ مالكًا لم يرتضِ الفكرة؛ لأنّ المسلمين في كلِّ بلدٍ رَووا من السّنّة النّبويّة ما دانوا به. غير أنّه ألّف (الموطّأ)، وذاعت أحكامه الفقهيّة في الحِجاز، وفي كثيرٍ من الأمصار»(٢٦٠).

ثمّ انتقل ابن المقفّع إلى الحديث عن أهل الشّام: «فإنّهم أَشَدُّ النَّاسِ مُؤْنَةً، وأخوفُهم عداوةً وبائِقَةً»؛ لزوال سلطان الخلافة عنهم، فمِن صَواب الرّأي ـ عنده ـ أن يصطنع خيارَهم، ويستميل إليه مَنْ يرجو الوفاء وصادق الودّ عنده. ويقارن حالهم في الدّولة العبّاسيّة بحال أهل العراق في عصر بني أميّة؛ إذ كانوا في حزب المُعارضة عصرئذٍ. ويدعو المنصور أن يرغبَ عن سيرة الأمويين في العراق، ويأخذ أهل الشّام باللّين، ويردّ عليهم فَيْئَهم، فلا تُخْشى غوائلهم؛ «فلعمري لئن أُخِذُوا بالحقّ ـ ولم يُؤْخَذُوا به ـ إنّهم لَخُلَقَاءُ ألّا تكون لهم نَزَوَات ونَزَقات»(٢٦١).

---

(٢٥٩) نفسه، ص١٢٦-١٢٧.

(٢٦٠) العصر العبّاسيّ الأوّل، ص٥١٩. وانظر: مقدّمة ابن خلدون ٢١/١.

(٢٦١) رسالة الصحابة، ص١٢٩.

ويلتفت ابن المقفّع إلى صحابة الخليفة وبِطانته، فيذكر أنّ أكثرهم ليسوا بذوي حَسَبٍ، ولا فيهم غَناء، وقد قال الأوّل:

لا يَصْلُحُ النّاسُ فَوْضى لا سَرَاةَ لهم ولا سَرَاةَ إذا جُهّالُهُمْ سَادُوا(٢٦٢)

ويذكر أنّ «أمْرَ هذه الصّحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم، أمّا العَجَبُ، فقد سَمِعْنا من النّاس مَنْ يقول: ما رأينا أعجوبةً قطُّ أعجبَ من هذه الصّحابة، ممّن لا ينتهي إلى أدبٍ ذي نَباهةٍ، ولا حَسَبٍ معروف، ثمّ هو مَسْخُوط الرّأي، مشهورٌ بالفُجور في أهل مِصْره (...) فصار يُؤْذَنُ له على الخليفة قَبْلَ كثيرٍ من أبناء المهاجرين والأنصار، وقبل قرابة أمير المؤمنين، وأهل بُيوتات العرب، ويُجْرَى عليه من الرّزق الضِّعْفُ، ممّا يَجْرِي على كثيرٍ من بني هاشم، وغيرهم من سَرَوَاتِ قُرَيش»(٢٦٣).

ومن البيّن ـ فيما أحسب ـ أنّ هذا الكلام، على ما فيه من الدّقّة وصَواب الرّأي، لا يُعجب المنصور، الخليفة الحازم الدّاهية؛ إذ فيه قَدْحٌ صُرَاحٌ به، وإن كان غير مباشر؛ فاختيار المرء دليل عَقْله وذكائه، والطّعن في أمر اختيار الخليفة لبطانته وأعوانه، طَعْنٌ في صواب عقلِه وحُسْن اختياره، خاصّة عندما يصفهم بصفات لا تليق بأصحاب الخليفة وأعوانه، الذين يجدر بهم أن يكونوا ـ كما يرى ـ من أهل الرّأي والشّرف والمشورة والنّجدة والحَسَب والعفاف والفِقه في الدِّين. «فأمّا مَنْ يتوسَّلُ بالشَّفاعات، فإنّه يكتفي أو يُكتفى له بالمعروف والبرِّ، فيما لا يُهَجِّنُ رَأْيًا، ولا يُزيل أمرًا عن مَرْتبته، ثمّ تكون تلك الصّحابة المخلصة على منازلها ومَدَاخلها، لا يكون للكاتبِ فيها أَمْرٌ في رَفْع رزقٍ ولا وَضْعه، ولا للحاجب في

---

(٢٦٢) البيت للأفوه الأوديّ؛ وهو شاعر جاهلي، انظر: الطرائف الأدبية للميمني، ص١٠ (ديوان الأفوه الأوديّ).

(٢٦٣) رسالة الصحابة، ص١٣٠.

تقديم إذْنٍ ولا تأخيره»[٢٦٤]. وهنا، يشير إلى المكانة المرموقة للكتّاب والحجَّاب في الدّولة، وما لهم من نفوذ واسع.

ويُوصي ابنُ المقفّع الخليفة بـ «أهل بيته وبني أبيه وبني عليّ وبني العبّاس؛ فإنّ فيهم رجالاً لو مُتِّعُوا بجِسَام الأمور والأعمال، سَدُّوا وجوهًا، وكانوا عُدَّة لأخرى»[٢٦٥]. ولعلّ هذه التّوصية تقوّي ما زعمه بروكلمان من أنّ الرّسالةَ كُتبت بتكليفٍ من أعمام الخليفة. وقد أوصى ابنُ المقفّع الخليفةَ بأقاربه غير مرّة في رسالته. وكأنّ المنصور ازْوَرّ عن كثيرٍ منهم، من ذوي النّباهة والكفاية والمقدرة، وقدّم عليهم الموالي وبطانة السّوء، «على غيرِ قديمٍ سَلَف، ولا بلاءٍ حدث»!

ثمّ يتناول ابنُ المقفّع مشكلةَ الخَرَاج، أو الضّرائب المفروضة على الأراضي، وما فيها من فوضى وعدم انتظام، ودعا إلى وضع الأمور في نِصابها، كاختيار عمّال الخَرَاج الأكفياء وتفّقدهم، وتدوين الدّواوين الخاصّة بذلك، «وإثبات الأصول، حتّى لا يُؤْخَذَ رَجُلٌ إلّا بوظيفةٍ قد عرفها وضمِنها، ولا يجتهدَ في عِمارة إلّا كان له فَضْلُها ونفعها...[و] في ذلك صلاحٌ للرّعية، وعمارةٌ للأرض، وحَسْمٌ لأبوابِ الخيانة، وغَشْمِ العُمَّال. وهذا رأيٌ مُؤْنَتُه شديدةٌ، ورجالُه قليلٌ، ونَفْعُه مُتأخّر»[٢٦٦].

ولعلّ حديثَ ابنِ المقفّع عن الخَراج كان وراء الاهتمام بتصنيف كُتب الخَرَاج فيما بعد. وكان أبو عُبيد الله، معاوية بن يسار (ت١٧٠هـ)، «صنّف كتابًا في الخَرَاج، ذكرَ فيه أحكامَه الشَّرعيّة ودقائقَه وقواعدَه، وهو أوّل مَنْ صنّف كتابًا في الخَرَاج، وتبعه النّاس بعد ذلك»[٢٦٧]. وكان كاتب المهديّ قبل الخلافة، وقد ضمّه المنصور إليه - كما يقول صاحب

(٢٦٤) المصدر نفسه، ص١٣١.

(٢٦٥) نفسه، ص١٣١.

(٢٦٦) نفسه، ص١٣٢. وغَشْمُ العُمَّال: ظلمهم.

(٢٦٧) الفخري لابن الطّقطقا، ص١٨٢.

الفخري[٢٦٨]. وعزم على أن يستوزره، ولكنّه آثر به ابنه المهديّ، ثمّ وَزَرَ للمهديّ بعد وفاة المنصور، وقد أحدث إصلاحاتٍ عديدة في أمور الخَرَاج. وربّما كانت (رسالة الصّحابة) محرّضًا للقيام بها، أو لعلّ المنصور أوصاه بذلك، وبتصنيفِ كتابٍ في الخَرَاج أيضًا، قبل وفاته.

وقبل أن يختتمَ ابنُ المقفّع رسالته يوصي الخليفة بأهل جزيرة العرب، من الحِجاز واليمن واليَمامة وما سوى ذلك؛ «أن يختار لولايتها الخِيَار من أهل بيته وغيرهم»، وأن تسخو نفسُه عن أموالهم من الصّدقات وغيرها؛ لفقر بلادهم وجَدْبها.

ثمّ تطرّق إلى أخلاق النّاس وفَسَادِها، والحاجةِ الملحّة إلى تقويم أَوَدِها، فقال: «وأهل كلّ مِصْر وجُنْدٍ أو ثَغْر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه، والسُّنَّة، والسِّير، والنّصيحة، مؤدِّبون مقوِّمون، يُذكّرون ويُبصّرون الخطأ، ويَعِظُون عن الجهل، ويمنعون عن البِدَع، ويُحَذِّرون الفِتَن، ويتفقّدون أمور عامّة مَنْ هو بين أَظْهُرِهم، حتّى لا يخفى عليهم منها مُهِمٌّ، ثمّ يستصلحون ذلك، ويُعالجون ما استنكروا منه بالرّأي والرّفق والنُّصح، ويرفعون ما أعياهم...»[٢٦٩].

ثمّ يختتم ابنُ المقفّع رسالته، ببيانِ فَضْل صلاح الحاكم على رعيّته، فإذا صلحَ الحاكم صلح الوُلاة والخاصّة جميعًا، وبصلاح الخاصّة تَصْلُحُ العامّة. ولنسمعه يقول: «وقد علمنا عِلْمًا لا يُخالِطُه شَكٌّ، أنّ عامَّةً قَطُّ لم تَصْلُح من قِبَلِ أَنْفُسِها، ولم يأتها الصّلاح إلّا من قِبَل خاصّتها، وأنّ خاصّة قطُّ لم تصلح من قِبَل أنفسها، وأنّها لم يأتها الصّلاح إلّا من قِبَل إمامها». ويعلّل مقولته هذه تعليلاً عقليًّا بديعًا، مبيّنًا فَضْل الإمام وصَلاحه، ثمّ يدعو فيقول: «ولا حول ولا قوة إلّا بالله، وهو رَبُّ الخَلْق، ووليّ الأمر، يقضي في أمورهم، يُدَبِّر

---

(٢٦٨) المصدر نفسه، ص١٨٢.

(٢٦٩) رسالة الصحابة، ص١٣٣.

أمره بقُدرةٍ عزيزة، وعِلْمٍ سابق، فنسأله أن يعزِمَ لأمير المؤمنين على المراشد، ويحصّنه بالحفظ والثّبات والسّلام، ولله الحمدُ والشّكر»(٢٧٠).

وهكذا، نجد أنّ ابن المقفّع في هذه الرّسالة يشارك في السّياسة مشاركة علمية تعليمية؛ فيحدّد مواطن الوهن والضّعف في كيان الدّولة، ويقترح الحلول النّاجعة لإصلاحها، وَفْقَ منهج عمل محدّد دقيق، يُعنى بقضايا الأمّة في ذلك العصر، أو لنقل: بأهمّها من النّاحية السّياسيّة والعسكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، كطاعة الإمام، وأمر الجُنْد من أهل خُراسان، وموقف الدّولة من أهل العراق وأهل الشّام، وحال القضاء والخَراج، والأحكام الشّرعيّة، ورجال الدّولة أو صحابة الخليفة وبطانته، وغير ذلك.

ويظهر ابن المقفّع في رسالته هذه، بل في سائر كتاباته التي وصلت إلينا، مُفكّرًا سياسيًّا بارزًا، وحَصيفًا قادرًا على مخاطبة السّاسة ورجال الحُكم، ومُثقّفًا بثقافةٍ سياسيّة واسعة، تنمّ على سَعَةِ اطّلاعه وعُمْق معرفته، التي دارت في فَلَك الثّقافة الفارسيّة خاصّة، ونَهِلَتْ من مَعِينها الفيّاض. «وقد يكون ابن المقفّع تأثّر في هذه الرّسالة ببعض أنظمة الحُكم السّاسانيّة، وبما سمعه عن قانون (جوستنيان) الرّوماني؛ ولكن من المحقّق أنّه صَدَرَ فيها عن فِطْنةٍ وقوّة ملاحظة لأحوال الدّولة الإسلاميّة في عصره، وما حَذِقَه من شؤون السّياسة، التي استوحاها ممّا قرأه عند الأوائل»(٢٧١).

ولعلّ أهمّيّة هذه الرّسالة تكمن في مخالفتها المنهج السّائد للرّسائل السّياسيّة عصرئذٍ؛ أعني (الاتجاه الرّسمي) في التّرسّل السّياسيّ، الذي يعبّر عن رغبات الحاكم ومواقفه الفكريّة. ولذا كانت خطوة رائدة لابن المقفّع، الذي يُساور نَفْسَه هاجسُ الإصلاح الاجتماعيّ والسّياسيّ، فيضيق به ذَرْعًا، حتّى ينفثه حِكَمًا فريدة من نوعها، تلذّ لها العقول

---

(٢٧٠) رسالة الصحابة، (ضمن جمهرة رسائل العرب) ٣/٤٧-٤٨. وهذه الخاتمة غير واردة في الطبعة المعتمدة من قبل، والمرادة عند الإطلاق.

(٢٧١) العصر العبّاسيّ الأوّل، ص٥٢٠.

والأسماع. إلّا أنّ الطّامّة الكبرى في هذا الأمر، أنّ اعتدادَ السّاسةِ وعُجْبَهم بآرائهم وتدابيرهم في شؤون الحُكم، يجعلهم يتخوّفون من ذيوعها وانتشارها؛ لأنّ هذا الأمرَ قد يكون مَدْعاةً إلى التّطاول على سُلطانهم والتّدخّل في أعمالهم، ممّا يضعف شوكتهم، ويبصّر العامّة بحقوقها فتنهد إلى المطالبة بها، والخوض في غِمار أمورٍ، يستعظم أولو الأمر أن يتناولها العامّة، أو تتعاورها ألسنتهم.

ب ـــ الأدب الصغير، والأدب الكبير[٢٧٢]:

مدلول كلمة (أدب) عند ابن المقفّع، ينصرف إلى التّربية الخلقيّة، في ميادين الاجتماع والسّياسة على وجه الخصوص؛ وليس إلى المعنى الخاص للأدب. أمّا كلمتا: (الصغير، والكبير) في العنوان، فليستا وصفًا لكلمة (الأدب)؛ إنّما وَصْفٌ للكِتَاب ـ كما رأى أحمد أمين ـ إذ «شاع استعمال هذا التّعبير في ذلك العصر؛ فقالوا كتاب: (الطّبقات الكبير)، لابن سعد. وأحيانًا يحذفون كلمة (كِتاب) ويُبقون الوصف، فيقولون: (السِّيَر الكبير، والسِّيَر الصغير، لمحمّد بن الحسن الشّيبانيّ). ومن هذا: (الأدب الصغير، والأدب الكبير)، فليس الصغير والكبير وَصْفين للأدب، ولكن للكِتاب المفهوم ضمنًا»[٢٧٣].

ويتضمّن (الأدب الصغير) طائفةً من الوصايا والمواعظ الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة. وقد ذكر ابن المقفّع في مقدّمته حاجة العقول إلى الأدب، ودوره في تنميتها، ثمّ بيّن مصادرَه في تأليف الكتاب، وهي الإفادة من أقوال السابقين، والتّجربة الذاتية.

---

(٢٧٢) طبع كتابا: (الأدب الصغير) و(الأدب الكبير) غير مرّة؛ فقد نشرهما أحمد زكي باشا سنة ١٩١١م، ونشرهما محمّد كرد علي ضمن (رسائل البُلغاء)، ونشرتهما دار مكتبة الحياة ببيروت، مع آثار ابن المقفّع الكاملة، ونُشرا بتحقيق: إنعام الفوال، عن دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م. ونشرتهما دار الجيل، بعناية: سعيد عقيل، ط١، ٢٠٠١م. (وهي المرادة عند الإطلاق). وثمّة طبعات أخرى كثيرة.

(٢٧٣) ضحى الإسلام ١/١٩٩.

وأفصح عن غايته من وضع الكتاب في ختام مقدّمته، فقال: «وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلامِ النّاس المحفوظ حُروفًا، فيها عَوْنٌ على عِمارة القلوب وصِقالها، وتَجْلِيَةِ أبصارِها، وإحياءٌ للتّفكير، وإقامةٌ للتّدبير، ودليلٌ على محامِدِ الأمور، ومكارمِ الأخلاق، إن شاء الله»(٢٧٤).

ومن حِكم ابن المقفّع ووصاياه في هذا الكتاب: «على العاقلِ أن يتفقّد محاسنَ النّاسِ ويحفظها على نفسه، ويتعهّدها بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوي. وعلى العاقل ألّا يخادن ولا يُصاحبَ ولا يجاورَ من النّاس، ما استطاعَ، إلّا ذا فضلٍ في العلم والدّينِ والأخلاقِ فيأخذ عنهُ، أو موافقًا لهُ على إصلاحِ ذلك فيؤيّد ما عندهُ، وإن لم يكن لهُ عليهِ فضلٌ. فإنّ الخصال الصّالحة من البرّ لا تحيا ولا تنمى إلّا بالموافقين والمؤيّدين، وليس لذي الفضلِ قريبٌ ولا حميمٌ أقربَ إليهِ ممّن وافقهُ على صالحِ الخصال فزادهُ وثبّتهُ، ولذلك زعم بعضُ الأوّلينَ أنّ صُحبةَ بليدٍ نشأ مع العلماء أحبّ إليهم من صُحبةِ لبيبٍ نشأ مع الجهّال».

أمّا ما يتعلّق بالحِكَم السّياسيّة المباشرة، فلم يبسط ابن المقفّع فيها القول، بل أوجز، وممّا قاله: «ولايةُ النّاس بلاءٌ عظيم، وعلى الوالي أَرْبَعُ خِصَالٍ، هي أعمدة السّلطان وأركانه، التي بها يقوم، وعليها يَثْبُت: الاجتهاد في التّخيُّرِ، والمبالغةُ في التّقدُّمِ، والتّعهُّدُ الشّديد، والجزاءُ العتيد»(٢٧٥)، ثمّ يُفصّل القولَ في هذه الخِصال تفصيلاً مُوجزًا ودقيقًا. وقال أيضًا: «لا يُسْتَطاعُ السّلطان إلّا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء إلّا بالمودّةِ والنّصيحة، ولا المودّةُ إلّا مع الرّأي والعفاف»(٢٧٦). وهذا الكتابُ لا يعتمد منهجًا معيّنًا في مضمونه؛ إنّما هو خطرات وشذرات بليغة موجزة، انقدحت في ذِهْن صاحبها، فدبّجها دون ترتيب معيّن، وتلك طبيعة التّأليف عصرئذٍ.

---

(٢٧٤) الأدب الصغير (ضمن كتاب: الأدب الكبير والأدب الصغير)، ص٧٨.

(٢٧٥) الأدب الصغير، ص٨٥. ومعنى العتيد: المهيّأ والحاضر؛ وفي التنــزيل العزيز: ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْد﴾ [سورة ق: ١٨/٥٠].

(٢٧٦) الأدب الصغير، ص٨٦.

أمّا كتابُ (الأدب الكبير) فكتاب سياسيّ في المقام الأوّل، وقد نقل عنه كلُّ من ألّف في ميدان السّياسة الملوكيّة فيما بعد. ومضمونه موزّع على موضوعين كبيرين؛ الأوّل: في آداب السّلطان وصُحْبته، والثاني: في الصّداقة والصّديق وآداب الاجتماع.

وفيه يبيّن ابن المقفّع علاقة الرّاعي بالرّعيّة، والحقوق والواجبات التي تقيم العدل والمساواة والتّوازن بين الحاكم والمحكوم. وقد صدّر ابن المقفّع كتابه بمقدّمة بيّن فيها فَضْل الأقدمين، وعلوّ كعبهم في العلم، وصنيعه هو في هذا الكتاب، فقال: «ولم نجدْهم [القدماء] غادروا شيئًا، يَجِدُ واصفٌ بليغٌ في صِفَةٍ له مَقَالاً لم يسبقوه إليه؛ لا في تعظيمٍ لله ﷻ، وترغيبٍ فيما عنده، ولا في تصغيرٍ للدّنيا، وتزهيدٍ فيها، ولا في تحرير صُنُوف العِلم، وتقسيم أقسامها، وتجزئةِ أجزائها، وتوضيح سُبُلها، وتبيين مآخِذِها، ولا في وجهٍ من وجوه الأدب، وضروب الأخلاق. فلم يَبْقَ في جليلِ الأمرِ، ولا صغيره، لقائلٍ بعدَهم مقالٌ. وقد بَقِيَتْ أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصِغَارِ الفِطَن، مُشْتَقَّةٌ من جِسَام حِكَمِ الأوَّلين وقولِهِم. فمن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأَدَبِ، التي يحتاجُ إليها النّاس»[٢٧٧].

فابن المقفّع، ههنا، يكشف عن المَنْهَلِ الذي استقى منه أفكاره، وهو فِكر القدماء، ولا سيّما الأدب السّاسانيّ الفارسيّ، إضافة على ما تشتقّه العقول الفَطِنة من لطائف الأمور ودقائقها؛ ويعني بذلك صنيعه في الكتاب. ولا ينبغي أن نفهم أنّ عملَه كلّه مُترجمٌ أو مَنقول؛ إنّما هو تواضع العارف، وتقدير العالم لقيمة علم الأقدمين. فضلاً عن أنّ نسبة الأقوال والأفكار إلى غير المعاصرين لها، أدعى للقبول، وأحرى بالسّماع.

وقد استحوذ موضوع السّلطان وصُحْبته على ذهن ابن المقفّع، فهو لا يفتأ يذكره في أكثر من كتابٍ ومقام. وفي (الأدب الكبير) يتناول السّلطان بالنّصح في شؤونه كلّها، الخاصّة والعامّة، والصّفات التي يجدر أن يتحلّى بها، وكيفيّة التّعامل مع ولاته وعمّاله ورعيّته. فعلى السّلطان أن يستعين بالعلماء وأهل المروءة والدِّين؛ فهم الأعوان والإخوان

---

(٢٧٧) الأدب الكبير، ص٨.

والبطانة، ولا يُغرم بالمديح؛ إذ لا يعدم أن يكون كَذِبًا وتملّقًا، وأن يعلم أنّ رضا النّاس غاية لا تُطلب. يقول مخاطبًا السّلطان: «فعليك بالتماس رضا الأخيار منهم، وذوي العَقْلِ؛ فإنّك متى تُصِبْ ذلك تَضَعْ عنك مؤونة ما سواه»(٢٧٨). ويحثّه على احتمال نُصْح النّصيح وعَذْله، والاستماع إلى الرّأي الآخر: «عَوِّدْ نفسَكَ الصّبر على من خالفك من ذوي النّصيحة، والتّجرُّع لمرارة قولهم وعَذْلهم، ولا تُسَهِّلَنَّ سبيلَ ذلك إلّا لأهلِ العقل والسِّنِّ والمروءة؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترِئ به سَفيهٌ، أو يستخفّ به شانِئ»(٢٧٩).

وعلى السّلطان أن يحذر من الإفراط في الغضب، والتّسرّع في الرّضا، وأن يكون حازمًا رزينًا. وليس له «أن يَغْضَبَ؛ لأنَّ القُدرةَ من وراء حاجته، وليس له أن يكذبَ؛ لأنَّه لا يقدِرُ أَحَدٌ على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يَبْخَلَ؛ لأنّه أقلُّ النّاسِ عُذْرًا في تَخَوُّفِ الفقر، وليس له أن يكون حقودًا؛ لأنَّ خَطَرَهُ قد عَظُمَ عن مجازاة كلِّ النّاس، وليس له أن يكون حَلّافًا؛ لأنَّ أَحَقَّ النّاس باتّقاء الأَيْمان المُلوك؛ فإنّما يحمِلُ الرّجلَ على الحَلِف إحدى هذه الخِصَال: إمّا مَهَانَةٌ يجدُها في نفسه، وضَرَعٌ وحاجةٌ إلى تصديق النّاس إيّاه؛ وإمّا عِيٌّ بالكلام، فيجعَل الأيمانَ له حَشْوًا ووَصْلًا؛ وإمّا تُهَمَةٌ قد عَرَفَها من النّاس لحديثه، فهو يُنَزِّل نفسَه منزلةَ مَنْ لا يُقْبَلُ قولُه إلّا بعد جَهْدِ اليمين؛ وإمّا عَبَثٌ بالقول، وإرسالٌ للّسانِ على غيرِ رويّةٍ، ولا حُسْنِ تقديرٍ، ولا تعويدٍ له قَوْلَ السَّداد والتّثبّت»(٢٨٠).

وعلى السّلطان أن يكون عادلًا غير مُولع بسُوء الظَّنّ، وأن يتفقّد أمور رعيّته كلّها، جليلها ودقيقها، وألّا يكون حسودًا حقودًا. و«جِمَاعُ ما يحتاج إليه الوالي من أمرِ الدُّنيا رأيانِ: رأيٌ يُقَوِّي به سُلْطانه، ورأيٌ يُزَيِّنُهُ في النّاس؛ ورأيُ القوّةِ أَحَقُّها بالبُدَاءَةِ، وأَوْلاهُما بالأَثَرَة،

---

(٢٧٨) نفسه، ص١٣.

(٢٧٩) نفسه، ص١٤. والشانِئ: هو المُبغض.

(٢٨٠) نفسه، ص١٨-١٩. والضَرَعُ: التذلّل، والخضوع، والاستكانة، وبذل ماء الوجه.

ورأي التَّزيين أَحْضَرُهما حَلاوةً، وأكثرُهُما أَعْوَانًا، مع أنَّ القوَّةَ من الزّينةِ، والزّينةَ من القوّة؛ ولكنَّ الأَمْرَ يُنْسَبُ إلى مُعْظمِه وأَصْلِه»(٢٨١).

وعلى هذا النّحو، يمضي ابنُ المقفّع في رَسْمِه صورة الحاكم المِثالي؛ من حيث المؤهّلات التي ينبغي أن يحوزها ويتّصف بها، والضّوابط والتّدابير التي تضمن له صلاحَ المُلْك وطاعةَ الرّعيّة وولاءها. ثمّ ينتقل إلى تبيان آداب صُحبة السّلطان، فيحذّر منها، ويرغّب بالابتعاد عن السّلطان؛ ف «إن ابتُليتَ بصُحْبةِ السُّلطان، فعليكَ بطُول المُواظَبَةِ في غير مُعاتبةٍ، ولا يُحْدِثَنَّ لك الاستئناسُ به غَفْلةً ولا تهاونًا. إذا رأيتَ السُّلطان يَجْعَلُكَ أَخًا؛ فاجْعَلْه أبًا، ثمّ إن زادك فَزِدْه. إذا نَزَلْتَ من ذي مَنْزِلَةٍ أو سُلْطانٍ، فلا تَرَيَنّ أنّ سُلْطانَه زادكَ له توقيرًا وإجلالاً، من غير أن يَزِيدَكَ وُدًّا ولا نُصْحًا، وأنّك ترى حقًّا له التَّوقيرَ والإجلالَ. وكُنْ في مُدَاراته والرّفق به كالمُؤْتَنِفِ ما قبلَه، ولا تُقَدِّرِ الأمر بينك وبينه على ما كنتَ تعرفُ من أخلاقه؛ فإنَّ الأخلاقَ مُسْتحيلةٌ مع المُلْك، وربّما رأينا الرّجل المُدِلَّ على ذي السّلطان بقِدَمِهِ قد أَضرَّ به قِدَمُهُ... »(٢٨٢).

ثمّ يمضي ابن المقفّع على هذه الشّاكلة، من إسداء الحِكَم النّافعة والوصايا القيّمة، التي تُمتع العقل وتلذّ الوجدان، والتي تضمن إقامة علاقة منطقيّة ومُتوازنة بين الحاكم والمحكوم؛ فتراه ـ مثلًا ـ يحذّر صاحب السّلطان مِن الإكثار من ألفاظ المَلَقِ، ولا سيّما إذا كان بمنزلة الثّقة من السّلطان؛ إلّا إذا كان ذلك على رؤوس الأشهاد. ويحذّره من مُشايعة الهوى، والميل مع الوالي على الرّعيّة، (وهذا هلاك الدِّين)، أو الميل مع الرّعيّة على الوالي، (وهذا هلاك الدّنيا).

ويوصي صاحب السّلطان ألّا يكون لحوحًا، وأن يرفق بالمسألة، ولا يكثر من الإدلال على السّلطان لبلاءٍ قديم عُرف به، ولا يقع في قلبه تعتّبٌ على السّلطان أو استزراء

(٢٨١) نفسه، ص٢٢.

(٢٨٢) نفسه، ص٢٣. والمُؤْتَنِفُ؛ يُقال: ائتنف الشيء: ابتدأه وأخذ به، واستقبله. ومُستحيلة: متحوّلة ومتغيّرة.

له؛ لأنّه إن وقع في القلب، بدا في الوجه، إن كان حليمًا، وبدا على اللّسان، إن كان سفيهًا. ويحذّر ابن المقفّع وزير السّلطان من أعدائه؛ «لأنّه مَنْفُوسٌ عليه مكانه بما يُنْفَسُ على صاحب السّلطان، ومحسودٌ كما يُحْسَدُ؛ غيرَ أنّه يُجْتَرَأُ عليه، ولا يُجْتَرَأُ على السّلطان؛ لأنّ من حاسديه أَحِبَّاء السّلطان وأقاربه، الذين يشاركونه في المداخل والمنازل»(٢٨٣). ويحضّ الوزير على التّحفّظ في القول، والحرص على الإجابة، ومجانبة المَسْخوط عليه من السّلطان حتّى يتوبَ عليه، والخضوع له إلّا فيما يكرهه ذو الدِّين والعِرْض والمروءة، والبُعد عن الكذبِ، والإجابةِ عن سؤال وُجّه إلى غيره؛ لأنَّ «استلابَك الكلامَ خِفَّةٌ بك، واستخفافٌ منك بالمسؤول وبالسّائل، وما أنتَ قائلٌ إنْ قالَ لك السّائِلُ: ما إيّاكَ سألتُ، أو قال لك المسؤولُ عند المسألةِ يُعَاد له بها: دُوْنَكَ فَأَجِبْ»(٢٨٤)؟!

ويطلب ابن المقفّع من الوزير أن يراعي آداب الاستماع للسّلطان، والإصغاء إلى كلامه؛ فيقول: «إذا كَلَّمَكَ الوالي فأَصْغِ إلى كلامِهِ، ولا تَشْغَلْ طَرْفَكَ عنه بنَظَرٍ إلى غيره، ولا أَطْرَافَكَ بعَمَلٍ، ولا قلبَك بحَدِيثِ نَفْسٍ، واحذَرْ هذه الخَصْلَةَ من نفسك، وتعاهَدْها بجهْدِك»(٢٨٥).

ويحثّ الوزير على الرّفق بنظرائه من الوزراء والخِلاّن والدّخلاء، وأن يتّخذهم إخوانًا، ولا يجترئَنَّ على خلافِ أصحابه، ثقةً منه باعترافهم بفضل رأيه؛ لأنَّ «النّاس يعترفون بفَضْلِ الرّجُل، وينقادون له، ويتعلّمون منه، وهم أَخْلِيَاء، فإذا حَضَرُوا السّلطانَ، لم يَرْضَ أحدٌ منهم أنْ يُقِرَّ له، ولا أن يكون له عليه في الرّأي والعلم فَضْلٌ، فاجترؤوا عليه

---

(٢٨٣) نفسه، ص٢٨. منفوسٌ: محسود؛ يُقال: نَفَسَ الشيء وبه على فلان: حسده عليه، ولم يَرَه أهلاً له.

(٢٨٤) نفسه، ص٣١.

(٢٨٥) نفسه، ص٣٢.

بالخلاف والنقض؛ فإن نَاقَضَهم صار كأَحَدِهم، وليس بوَاجدٍ في كلِّ حِينٍ سامِعًا فَهِمًا أو قاضيًا عَدْلاً، وإن تَرَكَ مُنَاقضتهم، كان مَغْلوب الرّأي مَرْدُودَ القَوْل»(٢٨٦).

ويحذّر ابن المقفّع جليس السّلطان من الاستئثار بصُحبته، وأن يكتم ما يكرهه من رأيه: «ذلّل نفسَك باحتمال ما خالفكَ من رأي السّلطان، وقَرِّرْها على أنّ السّلطان، إنّما كان سلطانًا لِتَتّبعَهُ في رأيه وهواه وأمرِه، ولا تُكلّفه اتّباعك، وتغضب من خِلافه إيّاك»(٢٨٧). ولا يفتأ ابن المقفّع يحذّر من صُحْبَة السّلاطين، ويذكر مَضارّها وأخطارها: «فإن كنتَ حافِظًا إن بَلَوْكَ، جَلْدًا إن قَرّبوك، أمينًا إن ائْتَمَنُوكَ، تُعلّمهم وأنتَ تُريهم أنّك تتعلّم منهم، وتؤدّبهم وكأنّهم يؤدّبونك، تشكُرُهم ولا تُكَلِّفهم الشّكر، بصيرًا بأهوائهم، مُؤْثِرًا لمنافِعهم، ذليلاً إن ظلموك، راضيًا إن أَسْخطوك؛ وإلّا فالبُعْدَ منهم كلّ البُعْدِ، والحَذَرَ كلَّ الحَذَر»(٢٨٨).

ومن حكمه ووصاياه الاجتماعيّة والأخلاقيّة ذات الدّلالة البالغة واللّفظ الدّقيق الرّشيق قوله في الأدب الكبير: «ذلّل نفسك بالصّبر على جار السّوء، وعشيرِ السّوء، وجليسِ السّوء؛ فإنّ ذلك ممّا لا يكادُ يخطئُكَ، واعلم أنّ الصّبر صبرانِ: صبرُ المرءِ على ما يكرهُ، وصبرهُ عمّا يحبّ. والصّبرُ على المكروهِ أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبهُ مُضطرًّا. واعلم أنّ اللئامَ أصبر أجسادًا، وأنّ الكرامَ هم أصبرُ نفوسًا. وليس الصّبرُ الممدوحُ بأن يكون جِلْد الرّجلُ وَقاحًا على الضّربِ، أو رِجْلهُ قويّةً على المشي، أو يدهُ قويّةً على العملِ، فإنّما هذا من صفات الحمير. ولكنّ الصّبر الممدوحَ أن يكونَ للنّفسِ غَلوبًا، وللأمورِ مُحتملًا، وفي الضّراء مُتجمّلًا، ولنفسهِ عند الرّأي والحفاظِ مُرتبطًا وللحَزْمِ مُؤثرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقّةِ التي يرجو حسن عاقبتها مستخفًّا، وعلى مجاهدةِ الأهواء والشّهواتِ مُواظبًا، ولبصيرتهِ بعَزْمهِ مُنفّذًا».

---

(٢٨٦) نفسه، ص٣٣.

(٢٨٧) نفسه، ص٣٦.

(٢٨٨) نفسه، ص٣٨.

ويمكن القول إنّ (الأدب الكبير) بصفحاته السّبعين أو تزيد في بعض الطّبعات، وبمقدّمته الواضحة، التي ربّما كانت بداية لمقدّمات التّآليف، وبموضوعه المحدّد في السّياسة والاجتماع؛ يمثّل نتاجًا سياسيًّا فكريًّا مُتميّزًا في النّثر العربيّ القديم.

ج ــ كليلة ودِمنة:

من المعلوم أنّ ابن المقفّع ترجم كتاب (كليلة ودِمنة) من الفارسية الفهلوية، وكان تُرجم إليها من السّنسكريتيّة، في زمن كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م). وقد أشار ابن المقفّع إلى أنَّ الكتاب «ممّا وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث، التي التمسوا بها أبلغ ما يجدون من القول في النّحو الذي أرادوا»[٢٨٩]. وقد عُثر على بعض قصص الكتاب وأبوابه في (البنجاتنترا Panchtantra: أسفار الحِكْمة الخمسة، أو: الأبواب الخمسة)، وكذلك في (المهابهاراتا Mahabharata)؛ ملحمة الهند الكبرى، وغيرها من مؤلّفات الهند. وكأنما لا يعود الكتاب إلى أصلٍ واحد عندهم، ولعلّ قول ابن المقفّع بأنّ الكتاب «ممّا وضعته علماء الهند» يوحي بذلك.

وربّما كان مُستمدًّا من أصول مختلفة، كان بعضها تراثًا شعبيًّا، ومُلكًا مُشاعًا في البصرة بيئة ابن المقفّع، التي كانت تُسمّى أرض الهند؛ لحضور التّراث المعرفيّ الهنديّ فيها، ولكثرة مَنْ فيها منهم. وقد يكون ابن المقفّع قرأ حكايات كتابه، أو رُويت له شِفاهًا، في مَيْعَةِ شبابه ورَيْعَان صباه، ثمّ دوّنها قصصيًّا على هذا النّحو البديع.

ومن المحتمل أن يريد ابن المقفّع بقوله: «وهو ممّا وضعته علماء الهند» أن يشير إلى مصادره المعتمدة في الكتاب؛ حِرصًا منه على الرّواية الموثوق بها، فضلاً عن رغبته في رَوَاج الكتاب، وإضفاء قيمة أدبيّة عليه، حين ينسُبُه إلى حُكماء الهند؛ لِما لهم في النّفوس من جليل المنزلة، وعظيم الشّأن. وقد ساور الجاحظَ شكٌّ في نسبة بعض المؤلّفات إلى القدماء؛ فقال:

---

(٢٨٩) كليلة ودمنة، تح: عبد الوهاب عزّام، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٨٦م، ص٣. (وهي المرادة عند الإطلاق). ونظرًا للاختلاف بين طبعات الكتاب، سنعتمد غير طبعة منه، ونشير إلى ذلك عند التوثيق.

«ونحن لا نستطيع أن نعلم أنّ الرّسائل التي بأيدي النّاس للفُرس، أنّها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولّدة،؛ إذْ كان مثل ابن المقفّع وسهل بن هارون، وأبي عبيد الله، وعبد الحميد وغيلان، يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرّسائل، ويصنعوا مثل تلك السِّير»(٢٩٠).

والتخفّي في إهاب القدماء، تنضوي تحته دوافع وأغراض مختلفة، كالشعوبيّة وتمجيد الأجداد، وضمان الذّيوع والسّيرورة. ولهذا الغرض زعم الجاحظ أنّه كان ـ في بَدْء عهدِه بالكتابة ـ يَنْسُبُ الكتاب الكثير المعاني، الحسن النّظم ـ كما يقول ـ إلى ابن المقفّع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدّمين، ممّن سما قدرهم، وعلا ذكرهم؛ ليُقبل النّاس عليها، ويسارعوا إلى نَسْخِها؛ «لا لشيءٍ إلّا لنسبتها للمتقدّمين، ولما يُداخل أهل هذا العصر من حَسَدِ مَنْ هو في عصرهم، ومُنَافستِه على المناقب التي عُني بتشييدها»(٢٩١).

وصفوة القول أنّ بعض أبوب (كليلة ودِمنة) هنديّ الأصل، وبعضها الآخر من عمل الفرس، وما تبقّى من عمل ابن المقفّع وصنعته، وربّما أضيفت إليه قصص أنشأها اللاحقون. ولا ينبغي لنا أن نفهم أنّ ترجمة ابن المقفّع كانت حرفيّة، بل كانت تتلاءم مع روح اللّغة المُترجم إليها، وهي إلى التأليف أقرب منها إلى التّرجمة؛ إذ تصرّف فيها تصرّفًا واسعًا، يبدو لنا جليًّا من خلال الرّوح الإسلاميّ المتمثّل في مواضع كثيرة من الكتاب، فضلاً عن التّحوير الذي أضفاه على أفكار الكتاب ومعانيه؛ لتوافق الذّوق العربيّ، وتتّفق والسّياق الاجتماعيّ والتّاريخيّ الإسلاميّ، الذي تمَّ إبداع النّصّ في إطاره.

كما أنّ الكتابَ لا يختلف في فِكْره الإصلاحيّ، عمّا كتب ابن المقفّع، من خلال استقراء مؤلّفاته الأخرى، ففي (الأدب الصّغير) يتحدّثُ عن سياسة النّفس، وفي (الأدب الكبير) يكتب في سياسة الدّولة والأخلاق. أمّا (رسالة الصحابة) فهي أشبه ما

(٢٩٠) البيان والتبيين ٢٩/٣.

(٢٩١) صبح الأعشى ٤٥٠/١٤.

تكون بتقرير عن الوضعيّة العامّة في الدّولة العبّاسيّة النّاشئة، مع بيان سُبل إصلاح الفاسد منها. والحقّ أنّ ابن المقفّع كان «أوّل من دشّن القول في (الإيديولوجيا السّلطانيّة) في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة (...). وقد انصرف باهتمامه إلى الكتابة السّياسيّة، كما كانت في ذلك العهد (الأخلاق والآداب السّلطانيّة)، فترجم فيها عن الفارسيّة، وأنشأ كتبًا من تأليفه الخاصّ»(٢٩٢).

أضف إلى ذلك، أنّ المقدّمة المعروفة بـ (عرض الكتاب ـ أو غَرضه)، التي كتبها ابن المقفّع، وذكر أنّه وضع هذا الباب/ المقدّمة: «لمن أراد قراءته، وفهمه، والاقتباس منه»، لا تختلف في الأسلوب عن الأبواب الأخرى، من حيث القصّ على لسان الحيوان، والاستطراد في سرد الحكايات أو الأمثال وتداخلها.

وفي (باب الفحص عن أمر دِمنة) ـ الذي وضعه ابن المقفّع أيضًا؛ إذ هو غير موجود في (البنجاتنترا)، ولا في غيرها من الأصول، كما رأى بعض الباحثين ـ في هذا الباب، ينتصر ابن المقفّع للعدل والإنصاف، فينصب مَحْكمة للشّرّير (دِمْنة)، الذي أفسد المودّة المعقودة بين الأسد/ الملك، والثّور (شتربة)، فأهلك الثّورَ بخبثه ومَكيدته، في حين أنّ النّصّ الهنديّ ينتصر للوزير الظّالم؛ إذِ الغايةُ تسوّغ الوسيلة، فلم يندم الأسد على هلاك الثّور، بل لم يفكّر به أصلًا، وجعل (دِمنة) الشّرير وزيره، وعاش سعيدًا(٢٩٣).

إذن، يأبى ابن المقفّع أن ينجوَ الشّرّير (دِمْنة) من العقاب الجدير به، فيعقد له مَحْكمة إسلاميّة الطّابع، تُصْغِي إلى دِفاعه، وتُشْهد الشّهود، وتتردّد فيها عبارات ذات طابع دينيّ مثل الآخرة والقيامة، وتحكم على دِمْنة، وَفق ما يقتضيه الشّرع الإسلاميّ بأن يُقتل في محبسه شرّ قتْلة؛ إرضاء للمتلقّي في انتصار الخير على الشَّرّ، في خاتمة القصّة، وتنبيهًا لأولي الأمر؛

(٢٩٢) العقل السّياسيّ العربيّ، لمحمّد عابد الجابري، ص٣٤١.

(٢٩٣) مقدّمة تحقيق (كليلة ودِمنة) لعبد الوهّاب عزام، ص٤٨

لكي يتبيّنوا حقيقة مَن يحيطون بهم مِن الوزراء والأعوان، وتحذيرهم من مَكْرهم ومخادعتهم؛ لكيلا يتّضع شريفٌ، ولا يعلو وَضيع.

وأيًّا كان الشّأن، فإنّ ابنَ المقفّع أفاد أيّما إفادة من الحكايات الهنديّة، ولكنه قام بتأويلها، وإعادة تفسيرها، لذا لا غرو إن قال صاحب الفهرست إنّ ابن المقفّع قام بتفسير الكتاب. والمقصود بإعادة التّفسير ـ في علم (الفلوكلور) ـ إضفاء معانٍ جديدة على قيمٍ قديمة، يحملها القصصُ المنقول أو الموروث. وهي عملية تقتضي هنا أن يقوم ابن المقفّع، فنيًّا، بإعادة بناء النَّصّ الأدبيّ وإخضاعه (سوسيولوجيًّا) للبيئة الجديدة؛ حتّى يكون المتلقّي مشدودًا إلى الإبداع الجديد، وإلّا فشلت العمليّة السّرديّة.

والفنّ لا يمكن أن يُترجم إلى لغةٍ ما، إلّا إذا تلاءم مع روح اللّغة المُترجم إليها، ومَنَحَهُ المترجِم من رُوحه ووجدانه ما يضيف إلى الأصل، فيصبح النَّصّ خَلْقًا جديدًا. وما قام به ابن المقفّع كان عَمَلًا يُكافئ الأصل؛ أي إنّه نصٌّ أدبيٌّ له قيمته الفنيّة المميّزة، والمغايرة، في الوقت نفسه، لسواه. وهذا ما يُسمّى بالتّرجمة المتكافئة[٢٩٤].

ومهما يكن، فإنّ الكتابَ بصياغته العربيّة الرّائدة لابن المقفّع قد أثّر تأثيرًا كبيرًا في الفكر العالميّ، بَلْهَ العربيّ؛ «فقد تنافست الأممُ في ادّخاره منذ كُتِب، وحرصت كلّ أمّة أن تنقله إلى لغتها. فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلّا تُرجم هذا الكتاب إليها. وبحقّ عُنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب، الذي يحوي من الحِكم والآداب، وضُروب السّياسة، وأفانين القصص ما يملأ القارئ عِبْرة وإعجابًا وسرورًا»[٢٩٥].

أمّا تأثيره في الفِكر العربيّ فقد كان كبيرًا أيضًا؛ إذ أخذ الشّعراء ينظمونه، والكتّاب يحاكونه، بعد أن راج رواجًا مميّزًا، خاصّة بعد مَقْتل ابن المقفّع. وكان الفُرس يعتدّونه أثرًا فارسيًّا، لذا أبدوا عناية فائقة به، وهالوا المال هَيلًا لمن عُني به، خاصّةً أسرة البرامكة في عهد

---

(٢٩٤) انظر: حكايات الحيوان في التراث العربي، ص١٩٥. وأديب الأسطورة عند العرب، ص١٦، ١٠١.

(٢٩٥) مقدّمة تحقيق (كليلة ودِمنة)، ص١٤.

الرّشيد. فهذا يحيى البرمكيّ يجيز أبان بن عبد الحميد اللاحقي (ت نحو ٢٠٠هـ) مئة ألف درهم، وقيل: بل أكثر من ذلك؛ لنظمه (كليلة ودِمنة) شعرًا[٢٩٦]. وممّن نظمها أيضًا سهل بن نُوبخت، وعليّ بن داود كاتب زُبيدة، وبشر بن المعتمر، وغيرهم[٢٩٧]. وممّن نظمها، لاحقًا، الوزير ابن الهبارية (ت ٥٠٤هـ)، بعنوان: (نتائج الفِطنة في نَظْم كليلة ودمنة).

وممّن ألّف على غِرارها وحذا حذوها سهلُ بن هارون، وعليّ بن داود، وإخوان الصّفا (في القرن الرّابع الهجريّ) في رسالة (تداعي الحيوانات على الإنسان)، بل إنّ بعض الباحثين رأى أنّ اسم (إخوان الصّفا) مُقتبس من (كليلة ودمنة)؛ إذ ورد هذا الاسم في أوّل فصل (الحمامة المطوّقة). وكذلك صنع أبو العلاء المعرّي (ت ٤٤٩هـ) في كتاب (القائف) وهو على مِثال كليلة ودمنة، في ستين كُرَّاسَة، وله أكثر من كتاب في هذا الفنّ، وصل إلينا منها: (الصّاهل والشّاحج). كما ألّف ابن ظفر الصّقليّ (ت ٥٦٥هـ) كتابه: (سُلوان المُطاع في عدوان الأتباع)، وابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ) كتاب: (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء)، وغير هؤلاء كثير. وقد ظلّ تأثير كليلة ودمنة حيًّا، على الرّغم من توالي العصور، نَظْمًا ونَثْرًا وإبداعًا واستلهامًا.

وفي كلِّ ما تقدّم بيانه ما يؤكّد أهميّة هذا الكتاب، وبُعْده الفكريّ العميق. وقد أشار ابنُ المقفّع غير ما مرّة في باب (عرض الكتاب)، إلى غايات الكتاب ومقاصده الخفيّة، التي ألحّ على قارئ الكتاب أن يتدبّرها ويعرف حقيقتها؛ ليدخل إلى عالمها الحقيقي، ويفهم ما يريده مُبدعها. وممّا قاله في هذا الشّأن: «ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه، التي وُضعت له، وإلى أيّ غاية جرى مؤلّفه فيه، عندما نَسَبَه إلى البهائم، وأضافه إلى غيرِ مُفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً؛ فإنّ قارئه متى لم يفعل ذلك، لم يدرِ ما أُريد

---

(٢٩٦) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص٢٤١.

(٢٩٧) الفهرست، ص٤٧٧.

بتلك المعاني، ولا أيّ ثمرة يَجتني منها، ولا أيّ نتيجة تحصل له من مقدّمات ما تضمّنه هذا الكتاب». وكذلك ذكر أنّ للكتاب أربعة أغراض، ينبغي للقارئ معرفتها؛ ليستدل على قيمة الكتاب، وسُبل الانتفاع به، «...والغرض الرّابع، وهو الأقصى، وذلك مَخْصوصٌ بالفيلسوف خاصّة». والمقصود بهذا الغرض الوقوف على المعاني الباطنة للكتاب، كما ذكر ابن المقفّع.

وفَهِمَ الدّارسون أنّ الغرض «يمكن تلخيصه في أنّه النّصح للخلفاء، حتّى لا يحيدوا عن طريق الصّواب، وتفتيح أعين الرّعية حتّى يعرفوا الظّلم من العدل، وحتّى يطالبوا بتحقيق العدل. ولم يوضّحه ابن المقفّع؛ لأنّ في إيضاحه خطرًا عليه من المنصور، ولعلّ هذه النّزعة فيه كانت من الأسباب في الإيعاز بقَتله»[٢٩٨]!

فالكتاب، إذن، يحكي قصّة الصّراع بين الإرادة والوعي، أو بين السّلطة والثّقافة، أو السّيف والقلم. وكان حسّ ابن المقفّع الإصلاحيّ النّقديّ دافعًا إلى تلميحه الصّريح ـ إن جاز التعبير ـ إلى غايات الكتاب، دون مُواربة؛ قَصْدًا إلى توجيه القارئ ليبلغ غايات الكتاب الباطنة.

والرّاجح أنّه نَقَلَه، أو فسّرَه، بحسب تعبير صاحب الفِهْرست، في بدايات نشوء الدّولة العبّاسيّة، أي قبل كُتبه السّياسيّة الأخرى، وليس بعدها، ولا سيّما (رسالة الصّحابة)، التي أعاد فيها القول جَذَعًا، على نحوٍ صريح، بما يتّفق ـ في مواضع عِدّة ـ مع كليلة ودِمنة، بعد أن أبى عليه واجبه في (الالتزام الأدبيّ)، والقيام بتأدية رسالته الفكريّة في مواجهة السّلطة، وتبصيرها والرّعيةَ سَواء السّبيل.

وقديمًا، عَرَفَ الفُرس بُعْدَ أثر (كليلة ودمنة) في نفوس السّاسة، وقيمته عندهم؛ إذ روى أبو حنيفة الدِّينوريّ (ت ٢٨٢هـ) أنّ كسرى أبرويز، في صراعه مع (بهرام جوبين)،

---

(٢٩٨) ضحى الإسلام ٢١٩/١.

قال: «ما خِفت بهرامَ قطُّ كخوفي منه السّاعة، حين أُخْبِرْتُ بإدمانه النّظر في كتاب (كليلة ودِمنة)؛ لأنّ كتاب (كليلة ودِمنة) يفتح للمرء رأيًا أفضل من رأيه، وحَزْمًا أكثر من حَزْمه؛ لما فيه من الآداب والفِطن»(٢٩٩).

كان الإصلاحُ السياسيّ والاجتماعيّ وُكْدَ ابنِ المقفّع ودَيْدَنَه، بعد أن تعمّق في دراسة الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة، وثَقِفَ آداب قومه الفُرس المتعلّقة بشؤون الدّولة وقواعد الحُكم وسياسة الرّعية، فأراد أن يقدّم حصيلة معرفته في هذا الميدان؛ لِما يرى من اضطراب الأمور، واختلال القيم، وانعدام الحريّة السّياسيّة، في عهدٍ تأسيسيّ لسلطة جديدة. لا بدَّ لها ـ والحال هذه ـ من دُستورٍ تعليميّ في الحُكم، يهتدي الحاكم بهديه، فلا يظلم الرّعية، ويُحسن السّيرة فيهم. ولعلّ أفضلَ قالبٍ يصبّ فيه خبرته ومعارفه تلك، هو القصّ على لسان الحيوان، أو الحكاية المقنّعة ـ إنّ صحّ التّعبير ـ التي يضمن بها غائلة السّلطة الجائرة.

ومنذ البَدْء نتبيّن أنّ سببَ تأليفِ الكتاب هو غاية له، في الوقت نفسه. فالكتاب ـ كما في الحكاية الإطاريّة أو الأساسيّة له ـ أُعِدَّ لإصلاح الملك الظالم (دَبْشليم) الذي طغى وبغى، وتجبّر وتكبّر، وعَبَث بالرّعية، وأساء السّيرة، وكان لا يرتقي حالُه إلّا ازداد عُتُوًّا. وكان في زمانه رجلٌ حكيمٌ فيلسوف، يُقال له (بيدبا)، فاستقرّ رأيه أن يواجه الملك، بما يُعيده إلى جادّة الصّواب، ومحجّة الهُدى، ثمّ ألّف هذا الكتاب «ليكون ظاهره لَهْوًا للخَوَاصّ والعَوَامّ، وباطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الخاصَّة»(٣٠٠).

وهكذا، يسعى الفيلسوفُ من خلال الحكاية المقنّعة إلى تقويم الملك، وإرشاده إلى سُبُلِ السَّلام، مع نفسه ومع الرّعية، ومِن ثمّ مع أعدائه ومناوئيه. وفي نهاية المطاف يتوقّف الملك عن توجيه الأسئلة للفيلسوف: «فلمّا انتهى المنطقُ بالفيلسوف إلى هذا الموضع سكت الملك». وهذه هي النتيجة المنطقيّة للتخلّص من فعل السّرد أو القصّ، بيد أنّه تخلّصٌ مُوَفَّقٌ

---

(٢٩٩) الأخبار الطِّوال، ص٨٦.

(٣٠٠) كليلة ودمنة، ص٤٩ (ط. المرصفي).

محمودٌ مرموزٌ في الوقت نفسه؛ إذ يُشعر القارئ أنّ الفيلسوف حقّق غايته من الكتاب/ القصّة، وهي ما أَخْبَرَ به الفيلسوفُ الملكَ، قائلًا: «فإنّه قد كَمُلَ فيك الحِلْمُ والعلم، وحُسْن العقل والنيّة، وتَمَّ فيك البأس والجود، واتّفق منك القولُ والعمل؛ فلا يوجد في رأيك نَقْصٌ، ولا في قولك سَقَطٌ ولا عَيْبٌ. وقد جمعتَ النّجدةَ واللّينَ؛ فلا توجد جبانًا عند اللّقاء، ولا ضيّق الصّدر، عند ما ينوبُك من الأشياء»(٣٠١). ولا يخفى المغزى السّياسيّ الأخلاقيّ لهذا الكلام؛ إذ إنّ فيه توجيهًا للحاكم أن يكون مثل (دَبْشليم)، بالصّفات التي حدّدها الفيلسوف، بعد صلاحه.

بعبارة أخرى: تقوم بِنية الإطراء على ثنائيّة ضِدّية، قِوامها صفات المدح والثّناء، التي تستحضر في الذّهن، بالضّرورة، الصّفات النّقيضة لها، غير المصرّح بها. فَذِكْرُ ما يُحْمَدُ عليه الحاكم أو المرء، على وجه العموم، يستحضر في ذهنه الفعلَ النّقيض، الذي يُذمّ عليه إن أتاه. فصِفَةُ الحِلم والعلم ـ على سبيل المثال ـ تقتضي البُعد عن السّفاهة والجهل، وكذا البأس والجود، وتمام الرّأي، والنّجدة واللّين، والعدل، وما إلى ذلك. فيكون هذا المديح، إذن، بمنزلة المعيار الذي يضبطُ السّلوك السّياسيّ والاجتماعيّ للحاكم؛ بل هو محاولة لإغرائه بالتوحّد ـ إن جاز التّعبير ـ مع الممدوح/ المِثال، أو النّموذج.

وفي السّياق نفسه، فإنّ (بيدبا) الفيلسوف، في باب (مقدّمة الكتاب) حينما يستحضر ذِكْر الملوك، الذين كانوا أجدادَ (دَبْشليم)، وكان الأَوْلى والأَشْبه به، كما يقول، أن يسلكَ سبيلَهم، ويتّبعَ آثارَهم ويقفو محاسنَ ما أبقوه له؛ إنّما يطالب (دَبْشليم) بأن يكون ابنًا بارًّا بآبائه العظام العُدول. ويرفض في الوقت نفسه، سلوكَ الملك وأسلوبَه في ممارسة السّلطة، إذ إنّ الإشارة إلى ماضي الأجداد المجيد وتراثهم الزّاخر، تجعل منه نموذجًا أخلاقيًّا وسياسيًّا للملك؛ بوصفهم شخصيّات مثالية، تُشعر الملك ـ ضِمْنًا ـ بما يجب أن يكون عليه، وبالماضي الذي يرتبط به ارتباطًا لا فِكاك منه؛ إذ إنّه يستمدّ شرعيّته في المُلْكِ من خلال ارتباطه

(٣٠١) المصدر نفسه، ص٢٨٨ (ط. المرصفي).

بأجداده، الذين لولا نسبتُه إليهم، ما ملّكه النّاس أمرهم: «واجتمعوا يملّكون عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم». وهكذا، يبدو أنّ استدعاء الشّخصيات السّياسيّة المِثالية، أو الإشارة إلى ماضي الأسلاف المجيد يعبّر، ههنا، عن رَغْبة إصلاحيّة، وليس محاولة إثباتٍ لشرعيّة النّظام الحاكم، والمحافظة عليه.

ولعلّنا نتّفق مع ما ذهب إليه أحمد أمين، حين رأى أنّ ابن المقفّع في موقفه من الخليفة المنصور، يحاكي موقف (بيدبا) من (دبشليم). لذا رأى ابن المقفّع أن يُفيد من الكتاب، بحسب رؤيته الخاصّة به، والمُتساوقة مع الإطار السّياسيّ والاجتماعيّ لعصره؛ ليعمل في الخلفاء والرّعيّة، ما فعله (كليلة ودِمنة) في الملك (دَبْشَليم)، ومن جاء بعده من الملوك، في الهند وفارس، وهذا هو الغرض الرابع من الكتاب، والمخصوص بالفيلسوف.

وهذا هو واجب الحكماء في كلِّ زمانٍ ومكان؛ إذ إنّ «الملوك لا تُفيق من السَّوْرَة إلّا بمواعظ العُلماء، وأدب الحُكماء، والواجب على الملوك أن يتّعظوا بمواعظ العلماء، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحِكْمتها، وإظهار الحُجّة البيّنة اللازمة لهم؛ ليرتدعوا عمّا هم عليه من الاعوجاج، والخروج عن العدل»[٣٠٢].

بيد أنّ هذه التَّقِيَّة، أو الحكاية المقنّعة ـ إن جاز التّعبير ـ لم تُفِدْ ابن المقفّع، فلم يحقّق بُغيته، كما حقّقها (بيدبا) الفيلسوف، فذهب ضحيّة فكره الإصلاحيّ، على الرّغم من محاولته التّضليليّة البديعة، لضمان عادية الغاشم وحَيْف الظالم، ولكن هيهات (لا يُنجي حذر من قدر)! ولعلّ السبب في ذلك يكمن في كونه ألحّ في باب (عرض الكتاب) على ضرورة تدبّر المعاني الباطنة والخفيّة لكتابه، في إشارةٍ مباشرة ـ إلى حدٍّ كبير ـ إلى غايته الخفيّة من الكتاب؛ ما أثار عليه حفيظة السّلطة، ممثّلة في شخص الخليفة الدّاهية أبي جعفر المنصور، الذي كان «من الحزمِ وصَوابِ الرّأي وحُسْنِ السّياسة على ما تجاوز كلّ وصف»، كما جاء في

(٣٠٢) كليلة ودمنة، ص٤٥، (ط. المرصفي). السَّورة من السلطان: سَطْوَتُه، ومن الغضب: شِدّته وحِدّته وهِياجُه.

تعبير المسعوديّ(٣٠٣). ولكنّه كان يضرب بشدّة على يَدَيْ مَنْ تسوّل له نفسُه المَساس بسلطته القويّة، إذ هو (سلطان الله في أرضه) كما قال في خُطبةٍ له. وهذا ما حَدَاه على قتل عمّه عبد الله بن عليّ، بعد أن أمّنه، وكذا الحال مع أبي مُسلم الخُراسانيّ، الذي كانت له اليدُ الطُّولى في قيام دولتهم، ومع ذلك لقي المصير نفسه، وبعد أن قتله، قال لابن أخيه عيسى بن موسى ـ وكان استرجعَ لَمّا رآه مقتولًا ـ: «خَلَعَ الله قلبك! وهل كان لكم مُلْكٌ، أو سلطانٌ، أو أَمْرٌ، أو نَهْيٌ، مع أبي مُسلم»(٣٠٤). وفي هذا دلالة بيّنة على منهج المنصور في الحُكم.

والمهمّ في الأمر، أنّ ابنَ المقفّع دفع حياته ثمنًا لفكره الإصلاحيّ، ومَوقفه الجادّ من قضايا عَصْره، وأهمّ معالم هذا الفكر هو كتاب (كليلة ودِمنة). وليس قتله عائدًا إلى زَنْدقته وشعوبيّته ـ المزعومتين ـ كما رأى أحد الباحثين، حين قال: «إنّ ابن المقفّع دفع دمه ثمنًا لأوّل كتاب من كتب الأدب القصصيّ العربيّ، المرتبط ارتباطًا كاملاً بالتّراث الأسطوريّ. ولعلّ هذه الحقيقة تُعطي لهذا الكتاب أهمّيّته الحقيقيّة في فنّ الكتابة العربيّة كلّها، كما تعطي ثقلها الحضاريّ لرجال الفكر العرب، ولدورهم الطّليعيّ في الدّفاع عن الفكر والتّضحية من أجل حضارة الإنسانيّة، وبقاء كرامة الإنسان»(٣٠٥).

ولستُ أرى هذا الرّأي ـ على الرّغم من وَجاهته ـ في سبب قَتْل ابن المقفّع؛ إذ إنّ كتابَ الأمان، الذي كتبه لعبد الله بن عليّ عمّ المنصور، هو أهمّ الأسباب في قَتْله، كما قلنا من قبل. أمّا (كليلة ودمنة) و(رسالة الصّحابة)، وغيرهما من معالم الفِكْر السّياسيّ لابن المقفّع، فكانت بمنزلة الحوافز والمقدّمات الأوّليّة، التي أثارت مَوْجِدة المنصور عليه؛ أي إنّ سببَ قتله سياسيّ، يكمن في محاولة تدخّل الثّقافة بمسار السّياسة، وبيان ما لها وما عليها.

---

(٣٠٣) مروج الذهب ٣/٣٢٠.

(٣٠٤) الكامل لابن الأثير ٥/٦٣. استرجع: قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٣٠٥) أديب الأسطورة عند العرب، ص١٠٢.

ومعظم قِصص الكتاب تحمل مغزًى سياسيًّا، إذ إنّ أصل تأليفه سياسيّ، أو لنقل: إنّ حكاية الكتاب الأساسيّة سياسيّة، فضلاً عن أنّ كثيرًا من قصصه تحفلُ بالحِكم والأقوال والمواعظ السّياسيّة، التي تُعنى بموضوع السّلطان، وما يتصل به من بقاء المُلك، والحفاظ عليه، والتزام الحاكم واجباته تجاه رعيّته، ليكون سياسيًّا ناجحًا، والأخلاق التي تليق به، كالعَدْل والحَزْم والأناة والصّبر وحُسْنِ العفو وسياسة الجُنْد، وما إلى ذلك.

ويضمّ باب (عرض الكتاب) الكتاب كلّه قصصيًّا، من خلال وحدة الرّاوي (بيدبا الفيلسوف) والمروي له (دَبْشليم الملك)؛ إذ يحدّد له الملكُ الموضوعَ الذي يبتغي الخوض فيه أو معرفة مَغْزاه، وإن كان (بيدبا) هو الذي يحفِزُه إلى هذا التّحديد، من خلال مُتعة السّرد ولذّة القصّ وغرائبيّته، والسّعي إلى تأكيد صحّة قضيةٍ سياسيّة أو قاعدة أخلاقيّة أو حِكْمة اجتماعيّة تربويّة، فيسأل الملك سؤاله المتكرّر دائمًا: وكيف كان ذلك؟ ما يشي برَغبةٍ جامحةٍ في السّماع والتّلقّي. وغالبًا ما يشرع (بيدبا) يسردُ بادئًا بعبارة (زعموا أنّ)، التي تفيد أنّ الأحداث غير محدّدة الزمان؛ إذ هي تمثيلٌ كِنائيّ لمعنى حِكمي، يريد المبدعُ إيصاله. ولعلّ في هذا الصّنيع إثارة تشويقيّة للمتلقّي، فَضْلًا عن الوظيفة الإبلاغيّة أو المعرفيّة. وأحيانًا لا يشرع (بيدبا) يسردُ مباشرة، بل يمهّد لصنيعه ببعض الحِكَم والأقوال التي تنبثق من الحكاية نفسها، أو تؤكّدها الحكاية فيما بعد.

ونمثّل على هذا بما جاء في مطلع باب (إيلاذ ـ أو إيلاد ـ وإيراخت وشادرم ملك الهند)؛ إذ نقرأ: «قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرتَ في أمرِ العَجِل غير المتّئِد، ولا النّاظر في العواقب. فأخبرني ما الذي إذا عمل به المَلِكُ كَرُم على رعيّته، وثبّت مُلكه، وحفِظ أرضه؟ آلحِلْم أم المروءة أم الجود أم الجرأة؟ قال الفيلسوف: إنّ أفضلَ ما حَفِظ به المَلكُ مُلْكه، وثبّت به سُلطانه، وكرّم به نفسه، هو الحِلْم والعقل؛ لأنّهما رأس الأمور ومِلاكها، مع مُشاورة اللّبيب الرّفيق العالم (...) كما زُعم لنا ممّا كان بين (شادرم) ملك الهند، و (إيراخت)

امرأته، وإبلاد صاحب سرّه ورأيه. قال المَلك: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: ذُكر لنا أن....». وقد يؤخّر (بيدبا) حِكْمته إلى نهاية القصّة، كما فعل في باب (البوم والغِربان).

وقد أشرنا إلى أنّ ملخّص الحكاية الإطاريّة للكتاب هو أنّ الإسكندر الأكبر لمّا تغلّب على مُلوك الهند، واستولى على بلادهم، ملّك عليهم رجلًا من ثِقَاته، ثمّ انصرف عن الهند. فما لبث أن خلعوه، «واجتمعوا يملّكون عليهم رجلًا من أولاد ملوكهم، فملّكوا عليهم مَلِكًا يقال له (دَبْشليم)، وخلعوا الرّجل الذي كان خلّفه عليهم الإسكندر، فلمّا استوثق له الأمر، واستقرّ له المُلك، طغى وبغى، وتجبّر وتكبر (...) فلمّا رأى ما هو عليه من المُلك والسَّطوة، عبثَ بالرَّعية، واستصغر أمرَهم، وأساء السّيرةَ فيهم، وكان لا يرتقي حاله إلّا ازداد عُتُوًّا. فمكثَ على ذلك بُرْهةً من دَهْره. وكان في زمانه رجلٌ فيلسوف من البَراهمة، فاضل حكيم، يُعرف بفَضْله، ويُرجع في الأمور إلى قوله، يُقال له (بَيْدَبا). فلما رأى المَلِكَ، وما هو عليه من الظلم للرعيّة، فكّر في وجه الحِيلة في صَرْفه عمّا هو عليه، وردّه إلى العدل والإنصاف»(٣٠٦).

ثمّ تتوالى الأحداث إلى أن استقرّ الرّأي على تأليف كتاب (كليلة ودمنة)؛ «ليكون ظاهره لهوًا للخواصّ والعوامّ، وباطنه رياضة لعقول الخاصّة. وضمّنه أيضًا ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه، وأهله وخاصّته، وجميع ما يحتاج إليه من أمرِ دِينه ودُنياه، وآخرته وأولاه»(٣٠٧).

وعلى الرّغم من أنّ هذا الباب يشكّل إطارًا قصصيًّا رابطًا لجميع أبواب الكتاب، إلّا أنّ كلّ بابٍ قائمٌ بذاته ومُستقلٌّ عن غيره من أبواب الكتاب الأخرى، على الرّغم أيضًا من وجود الرّاوي/ بيدبا، خلف الشّخصيات، مُفسّرًا ما تقوم به، على نحوٍ غير مُحايد في سَرْد الأحداث، فضلًا عن وجود ابن المقفّع ـ دون ريب ـ خلف شخصيّة (بيدبا). ومن ثَمّ

---

(٣٠٦) كليلة ودمنة، ص٢٩-٣٠ (ط. المرصفي).

(٣٠٧) المصدر نفسه، ص٤٩ (ط. المرصفي).

تتآزر الأبوابُ جميعها لخدمة البنية الكلّية للكتاب/ القصّة، وتحقيق الغرض الأقصى، والمغزى الخفيّ المَسْتور من فعل القصّ.

ويُعَدّ باب (الأسد والثّور) بداية لصُلْب الكِتاب، وما سبقه من أبواب، إنّما هي مقدّمات ـ ثلاث أو أربع على اختلاف الطّبعات ـ وفيه يرمز الأسد إلى السّلطة العُليا في الدّولة، ومَوقفه تجاه حاشيته، ومُسْتشاريه، ووزرائه، وسِيرهم، وما يحدث في غِمار ذلك من حِيَل ومَكايد ودَسّ وافتراء، لبلوغ أماني النَّفْس وحظوظها، والاستئثار بعظيم المنزلة ورفيع الجاه. كما صنع (دِمنة) الشّرير، الذي تآمر على الثّور (شتربة)، بعدما عَلَتْ مَنْزلتُه عند المَلك (الأسد)، وأضحى أقربَ أعوانه إليه، فحسَده (دِمْنة) وكاد له عند الأسد، حتّى فَتَكَ به، وأرْداه قتيلاً. وتمثّل هذه القصّة حالة وزراء السّلاطين وأعوانهم في كلّ العصور، قبل عصر ابن المقفّع وبعده. وقد اصطلى بنار السّياسة ووَيلاتها عددٌ من وزراء عَصْر ابن المقفّع.

ويجسّد باب (البوم والغِربان) صورة من صور الحياة السّياسيّة لكلِّ العصور؛ إذ يمثّل السّياسة الخارجيّة للدّول، وكيفية حفاظها على أمنها واستقرارها، وما ينبغي للحاكم أن يصنعه تجاه عدوّه المظهر للمودّة والإخاء؛ إذ «ليس أحدٌ بحقيق، إذا أتاه أمرٌ من عدوّه الذي يتخوّفه على نفسِه وجُنْده، وإن كان يلتمس الأمان والصّلح، ويُظهر المودّة لجنده والسّلامة لأصحابه، أن يثقَ به، ولا يطمئنّ إليه، ولا يغترّ بقوله؛ فإنّه قد يكون بأشباه ذلك يطلب النُّهْزَة والفُرصة. ومَثَلُ العدوّ الذي لا ينبغي أن يُغترّ به، وإن هو أظهر المودّة والصّفاء، ومَنْ يسترسل إلى عدوّه ويطمئنّ إليه، فيصيبه الشَّرّ ما أصاب البومَ من الغِربان. قال المَلِكُ: وكيف كان ذلك؟ قال الفيلسوف: زعموا أنّ... »[٣٠٨].

ويمكن القول إنّ كلّ بابٍ من أبواب الكتاب احتوى عددًا من الحكايات أو الأمثال الحيوانيّة، التي تشكّل جزءًا من الحكاية الرّئيسة للباب؛ إذ كان أغلبها متولّدًا من رَحِم الحكاية الرّئيسة وناجمًا عنها. فهي قد تأتي بُرهانًا على قولٍ ما، أو تفسيرًا أو تأويلاً لما يهدف

(٣٠٨) المصدر نفسه، ص١٤٧-١٤٨.

إليه المُبدع، أو سَرْدًا لمادّة أدبيّة أو تعليميّة، كبعض الحِكَم والأمثال والوصايا؛ أي إنّ ثمّة تداخلاً بين الحكايات، دون انقطاع يضرّ بوحدتها البنيويّة الفكريّة المحكمة، وكأنّما هي حلقات في سلسلة مُترابطة. ومن الأمثلة على ذلك: باب (الأسد والثّور)، وباب (البوم والغِرْبان)، وغيرهما.

وأخيرًا، لعلّ فيما حفَلَ به الكتاب، من حِكَمٍ ومواعظ وأقوال ووصايا زخرت بها القصص، خير مِثالٍ على إنسانيّة الكتاب وعالميّته، وما ظفر به من ترجمات عديدة، شملت جُلّ لغات العالم الحيّة، إن لم نقل كلّها، إذ إنّ مِيزةَ هذا الفنّ تبرز بشكلٍ جليٍّ في أنّ مقاصده أو وظائفه السّياسيّة والتّربويّة والاجتماعيّة والجماليّة الفنيّة، تصلح ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ لكلّ زمانٍ ومكان.

ومن أمثلة هذه الحِكَم والأقوال السّياسيّة في كتاب (كليلة ودِمنة) قوله: «وقد قالت العلماء: أربعةٌ لا ينبغي أن تكون في الملوك: الغَضَب؛ فإنّه أجدر الأشياء مَقْتًا، والبُخْل؛ فإنّ صاحبَه ليس بمَعْذور مع ذَاتِ يدِه، والكَذَب؛ فإنّه ليس لأحدٍ أن يجاوره، والعُنْف في المحاورة؛ فإن السّفه ليس من شأنها»(٣٠٩). وقوله: «العاقلُ يُصانع عدوّه إذا اضطرّ إليه؛ فيظهر له وُدّه ويُريه من نفسه الاسترسال إليه، إذا لم يجد من ذلك بُدًّا، ويعجّل الانصراف عنه، إذا وجد إلى ذلك سبيلاً»(٣١٠). وقوله: «من غَالبَ الملكَ الحازمَ الأريبَ المصنوع له، الذي لا تُبْطره السّرّاء، ولا يُدْهِشُه الخوف، فإنّ حَيْنه يجدرُ به»(٣١١).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الحِكَم السّياسيّة التي يزخر بها الكتابُ، كانت مادّةً خِصْبةً، ومَرْعى مُمْرِعًا، لمصنّفي المصادر التّراثية، كابن قتيبة الدّينوريّ (ت ٢٧٦هـ)، الذي نَهِلَ من معين (كليلة ودِمنة) في كتب السّلطان، والحرب، والسّؤدد، وغيرها، من كتابه

(٣٠٩) كليلة ودِمنة، ص٤٢-٤٣ (ط. المرصفي).

(٣١٠) كليلة ودِمنة، ص٢٣٥.

(٣١١) نفسه، ص١٧٢. والحَيْن: الهلاك، والمِحنة.

الموسوعيّ: (عيون الأخبار) وحذا حذوَه آخرون. كما كانت هذه الحِكم من الأزواد الثّقافيّة التي ينبغي لمن يروم الكتابة في دواوين الدّولة أن يلمّ بها. وكانت هذه الحِكم أيضًا مَنْهَلاً عذبًا لكتّاب السّياسة ـ فيما بعد ـ أي لمن ألّف في (السّياسة الملوكيّة أو السّلطانيّة)، كالماورديّ (ت ٤٥٠هـ) في كتابه: (تسهيل النّظر وتعجيل الظّفر في أخلاق المَلِك وسياسة المُلْك)، والطّرطوشيّ (ت ٥٢٠هـ) في كتابه: (سِراج الملوك)، وابن الأزرق (ت ٨٩٦هـ) في كتابه: (بدائع السّلك في طبائع المُلْك) وغيرهم كثير.

٣ـ خصائص وسمات أسلوبيّة: ع

ارتقى ابن المقفّع مكانةً مرموقةً في تاريخ الأدب العربيّ؛ إذ جعله محمد بن إسحاق النّديم على رأس البُلغاء العشرة في زمانه، وأشار إلى أنّ «الكتبَ المُجْمع على جَودتها: عهدُ أردشير، كليلة ودِمنة، رسالة عمارة بن حمزة الماهانيّة، اليتيمة لابن المقفّع، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف»[٣١٢]، فذكر لابن المقفّع كتابيه كليلة ودِمنة واليتيمة.

وأشاد الجاحظ بأدبه في (البيان والتبيين) غيرَ مرّة، وعدّه من أبيناء اللّسان. وجعل ابنُ طيفور رسائله في نهاية المُختار من الكلام وحسن التّأليف والنّظام. ووصفه ابنُ خلّكان بـ(الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرّسائل البديعة). وقال فيه أبو العيناء: «كلامُه صريح، ولسانُه فَصيح، وطبعُه صحيح، كأنّ بيانَه لؤلؤ مَنثور، ووَشْيٌ مَنْشور، ورَوضٌ مَمْطور»[٣١٣].

وكذا قرّظه غيرُ واحدٍ من القدماء، وعلى غِرارهم رأى كثيرٌ من المعاصرين أنّه من أكبر أئمة البلاغة والكتابة عند العرب. «ولا نطيل بنَقْل ما قاله أعيان البيان في بلاغة ابن المُقَفَّع؛ فإنّ كتابته تدلّ على نفسها، ولم يعرف لمتقدّم ولا لمتأخّر أن نقل إلى اللّسان العربيّ شيئًا في الأدب والعلم، لا تحسّ فيه أثر اللّغة المنقول عنها إلّا ابن المُقَفَّع. وكانت التّرجمة غالبة

---

(٣١٢) الفهرست، ص٢٠٣.

(٣١٣) أمراء البيان١/١٠٧.

عليه في أوّل حياته، فلمّا استوت أدواتُه أنشأ ينشئ رأسًا، فبذّ البُلغاء في النّاحيتين: في التّرجمة والتّأليف»(٣١٤).

وممّا يجدر ذكره أنّ طه حسين في كتابه (من حديث الشّعر والنّثر) كان له رأي ينطوي على غُلوٍّ وشَطَطٍ في بلاغة ابن المقفّع وأسلوبه؛ إذ رأى أنّه يجد مَشَقّة في التّعبير عن المعاني، فله عبارات من أجود ما تقرأ في العربيّة وبنوع خاصّ في الأدب الكبير وفي كليلة ودِمْنة، ولكنّه عندما يتناول المعاني الضّيقة التي تحتاج إلى الدّقة في التّعبير يضعُفُ، فيكلّف نفسَه مَشَقّة ويكلّف اللّغة مشقّة. كما أنّ القارئ يحسّ بشيء من الالتواء والدّوران في أسلوبه. يقول: «ابنُ المُقَفَّع مع أنّه زعيمُ الكُتّاب، وصاحبُ الآيات، وواضعُ المَثَل الأعلى للكتابة، لم يكن عظيمَ الحظّ من الفصاحة والنّحو العربي. إنّ ابن المُقَفَّع لم يكن أكثر من مُسْتشرقٍ يُحْسن اللّغة العربيّة والفارسيّة، ويبذل جهدًا عظيمًا، فيوفّق كثيرًا ويخطئ أحيانًا».

وقد ردّ كثير من الباحثين على كلام طه حسين الذي لم يكن له ما يُسوّغه أو يثبته من الأدلّة والبراهين، ومنهم شوقي ضيف الذي تصدّى له، ورأى أنّه أسرف في إزرائه عليه، وفي عَدِّهِ مُسْتشرقًا كالمُسْتشرقين الغربيين في عصرنا، فهؤلاء لا يعيشون في بيئات عربيّة كبيئة البصرة التي نشأ فيها ابن المُقَفَّع، وهم لا ينقلون إلى العربيّة آثارَ قومِهم الأدبيّة على نحوِ ما كان ينقل ابنُ المُقَفَّع عن الفارسيّة، ثمّ هم لم يُوظّفوا في الدّواوين العربيّة ولم يعملوا فيها كُتّابًا يكتبون الرّسائل السّياسيّة الرّسميّة، على نحو ما وُظّف ابن المُقَفَّع. ولم يكن كاتبًا فحسب، بل كان يُحْسنُ صوغَ الشّعر العربيّ أيضًا.

وقد أجمع معاصروه على أنّه كان آيةً في البلاغة، وجعلوه على رأس البُلغاء العشرة الذين سمّوهم في هذا العصر، وبلغَ من إعجابهم به أنّهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة. والجاحظ نفسه يقول في بعض رسائله إنّ الكتّاب النّاشئين كانوا يتدارسون آثارَه ليحذقوا البيانَ ويُلقحوا عقولهم وألسنتهم بخير لَقاح.

---

(٣١٤) نفسه ١/١٠٨.

فلم يكن ابن المُقَفَّع بليغًا فحسب، بل كان من أكبر بُلَغاء عصره، ومن الخطأ البيّن أن يُقال عنه إنّه كان كأحد المُسْتشرقين، يتعثّرُ في أساليبه وتضطربُ لغتُه، ويعييه أحيانًا الأداءُ السّليم، ويستعصي عليه استعصاءً. فقد كانت اللّغة العربيّة تستقيمُ له، وكان أعجوبةَ زمانِه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنّصاعة حينًا والعذوبة والرّشاقة حينًا آخر(٣١٥).

ولعلّ دقّةَ التّعبير وسهولتَه المأنوسة الواضحة من أهمّ سمات أسلوب ابن المُقَفَّع؛ وقد نصحَ مرّةً بعضَ الأدباء، فقال: «إيّاك والتّتبع لوحشي الكلام طمعًا في نيل البلاغة؛ فإنّ ذلك هو العِيّ الأكبر». وكان يقول: «عليك بما سهُلَ من الألفاظ، مع التّجنّب لألفاظ السِّفلة»(٣١٦).

وحقًّا كان يتخيّرُ مفرداتِ كلامِه ويصطفي ألفاظَه التي تطابقُ معانيه وتشِفُّ عنها، فلا إغرابَ في اللّفظ ولا ابتذال ولا حَشْو ولا اسْتكراه؛ لأنّ غايتَه الإفهام قبل كلّ شيء، فالمعنى أساسُ صَنْعتِه والفِكْرةُ غايتُه التي لا حَيْدة عنها. أمّا الألفاظُ فأرديةٌ للمعاني والأفكارِ وقوالبُ يَصُبُّ فيها عُصَارةَ فِكْرِه الإصلاحيّ الاجتماعيّ الذي لا يَنْضُب. فكان يقفُ إذا ما كتبَ، فقيل له في ذلك، فقال: (إنّ الكلامَ يزدحمُ في صدري فأقف لتخيّره).

لذا لاعجبَ إن خلا كلامُه من الصّنعة والمُحسّنات البديعيّة والأخيلة، إلّا ما جاء عفوَ الخاطر؛ إذ هو رجلُ عقلٍ أوّلًا ورجلُ أدبٍ ثانيًا، يتوخّى العبارةَ المطبوعة الواضحة الدّقيقة التي تدلّ على المعنى، وتجلو الفكرةَ والمقصدَ، وتشحذ الأذهان. واسمعه كيف يفرّع الفكرة: «قد يسعى إلى أبوابِ السّلطانِ أجناسٌ من النّاسِ كثيرٌ، أمّا الصّالحُ فمدعوّ، وأمّا الطّالحُ فمقْتحِم، وأمّا ذو الأدبِ فطالبٌ، وأمّا من لا أدبَ لهُ فمُختلِسٌ، وأمّا القوي

---

(٣١٥) العصر العبّاسيّ الأول، ص٥٢١-٥٢٦.

(٣١٦) أمالي المرتضى١/١٣٧.

فمُدافعٌ، وأمّا الضعيف فمدفوعٌ، وأمّا المحسنُ فمستثيب، وأمّا المُسيء فمُستجير. فهو مُجَمَّعُ البَرّ والفاجر، والعالمِ والجاهلِ، والشّريفِ والوضيعِ»[٣١٧].

ومن الأمثلة على دقّة التّعبير لديه، واستخدامه الألفاظ العَذْبة والمخارج السّهلة ـ وهي سمة عامّة في كتاباته كلّها ـ قوله: «إن رأيتَ نفسَك تصاغرت إليها الدّنيا، أو دَعتْكَ إلى الزّهادةِ فيها على حالِ تعذّرٍ من الدّنيا عليكَ، فلا يغرنّكَ ذلك من نفسِكَ على تلكَ الحال، فإنّها ليست بزَهَادةٍ، ولكنّها ضَجَرٌ واسْتِخذاءٌ وتغيّرُ نَفْسٍ عندَ ما أعجزَكَ من الدّنيا، وغَضَبٌ منكَ عليها ممّا التوى عليكَ منها. ولو تمّمْتَ على رفضِها، وأمسكتَ عن طلبها أوشكتَ أن ترى من نفسِكَ من الضّجرِ والجَزعِ أشدّ من ضَجَرك الأوّل بأضعاف، ولكن إذا دعتكَ نفسُكَ إلى رَفْضِ الدّنيا وهي مُقبلةٌ عليكَ، فأسرعْ إلى إجابتها»[٣١٨].

أمّا الأسلوبُ السّائدُ لدى ابن المقفّع في عمومِ كتاباته فهو الأسلوب المُرْسَل (أو المُطْلَق)؛ وهو مَذْهبُ الطّبع، ومُجاراة السَّجيّة، «وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقًا، ولا يقطّع أجزاءً؛ بل يُرسل إرسالًا، من غير تقييدٍ بقافية ولا غيرها»، كما يقول ابن خلدون الذي رأى أنّ «المحمودَ في المخاطبات السّلطانيّة الترسّلُ؛ وهو إطلاق الكلام، وإرساله من غير تَسْجيع، إلّا في الأقلّ النّادر، وحيث ترسله المَلَكة إرسالًا من غير تكلّفٍ له، ثمّ إعطاء الكلام حقّه في مُطابقته لمقتضى الحال؛ فإنّ المقامات مختلفة، ولكلّ مقامٍ أسلوب يخصّه من إطنابٍ، أو إيجاز، أو حَذْف، أو إثبات، أو تَصْريح، أو إشارة وكناية واستعارة»[٣١٩].

ويُعرف بالأسلوب السّهل المُمتنع، ويقوم على متانة السّبك، وقوّة التّراكيب، وإجلال المعنى، والتّعبير السّهل، الذي تطول فيه الجملةُ بطول الفواصل الفكريّة، وتقصر بقصرها. كما يمتاز أيضًا بوضوح النّزعة العقليّة، والعناية بالتّفصيل والشّرح وتبيان دقائق

(٣١٧) الأدب الصغير، ص٨٨.

(٣١٨) الأدب الكبير، ص٦٩.

(٣١٩) المقدّمة ٢/٢٧٠.

المعاني، وسعة الأفق في إعمال التّفكير. وأكثر ما يُستخدم الأسلوب المُرسل في ميدان النّثر التّأليفيّ، والوصايا، والمحاورات، والمناظرات، والسّرد القصصيّ، خاصةً في كتاب (كليلة ودِمنة). وأحسبُ أنّ ابنَ المقفّعِ عَنَاه حينما سُئِل عن البلاغة، فأجاب: «التي إذا سَمِعَها الجاهلُ، ظنّ أنّه يُحْسِنُ مِثْلَها»(٣٢٠).

وإيثار هذا الأسلوب، في كثيرٍ من الأحيان، يعود إلى إطلاق حركة الفِكْر والعقل من أيّ عقالٍ، قد يشدّهما، ويعطّل حركتهما. ولهذا تكون الوظيفة الإبلاغيّة، أو المعرفيّة، هي الغاية الأساسيّة التي ينشدها الأديب في المقام الأوّل. ولا يعني هذا الكلام إهمال الوظيفة الجماليّة، أو الانفعاليّة، في النّصوص؛ إذ ليست هذه الوظيفة في ظاهر النّصّ اللّفظيّ أو المعنوي فحسب، بل هي كامنة في نسِيج النّصّ الأدبيّ، وما ينضوي في إهَابه من قيم جماليّة، ودلالات إيحائيّة وحضاريّة عميقة.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب في كتابات ابن المقفّع قوله: «إن استطعتَ أن تضعَ نفسَكَ دونَ غايتكَ في كلّ مجلسٍ ومقامٍ ومقالٍ ورأيٍ وفعلٍ فافعل، فإنّ رفعَ النّاس إيّاكَ فوقَ المنزلةِ التي تحطّ إليها نفسَك، وتقريبهم إيّاكَ إلى المجلسِ الذي تباعدتَ منهُ، وتعظيمهم من أمركَ ما لم تُعظّم، وتزيينهم من كلامكَ ورأيكَ وفعلكَ ما لم تُزيّن هو الجمالُ. لا يُعجبنّكَ العالمُ ما لم يكن عالمًا بمواضع ما يعلمُ، ولا العاملُ إذا جهلَ موضعَ ما يعملُ. وإن غلبتَ على الكلامِ وقتًا فلا تغلبنّ على السّكوتِ؛ فإنّهُ لعلّهُ يكونُ أشدّهما لكَ زينةً، وأجلبهما إليكَ للمودّةِ، وأبقاهُما للمَهَابةِ، وأنفاهما للحَسَدِ»(٣٢١).

غير أنّ ابنَ المقفّع يعمد في بعض الأحيان إلى استخدام الأسلوب المتوازن الذي يقوم على تقسيم العبارات، وبراعة الموازنة بين الجمل؛ إذ تتعادل فيه الألفاظُ، وتزدوج الجملُ في تنسيقٍ مُنتظم، يتراوح بين الإيجاز والمساواة والإطناب، بحسب مُقتضى الحال. وهو شبيهٌ

---

(٣٢٠) أمالي المرتضى ١٣٧/١.

(٣٢١) الأدب الكبير، ص٥٩.

بالسَّجْع في تعادل الفقرات، إلّا أنّه لا يتقيّد بالتَّقْفِيَة. يقول: «الناسُ، إلّا قليلاً ممّن عصمَ اللهُ، مَدْخُولونَ في أمورهم: فقائلهم باغٍ، وسامعهم عيّابٌ، وسائلهم مُتعنّتٌ، ومُجيبهم مُتكلّفٌ، وواعظُهمُ غيرُ محقّقٍ لقولهِ بالفعلِ، ومَوعوظهم غير سليمٍ من الاستخفافِ، والأمينُ منهم غيرُ مُتَحفّظٍ من إتيان الخيانة، والصَّدوقُ غيرُ محترسٍ من حديث الكَذَبةِ، وذو الدّينِ غيرُ متورّعٍ عن تفريطِ الفَجَرةِ، والحازمُ منهم غيرُ تاركٍ لتوقّعِ الدّوائرِ. يتناقضُون البناء، ويترقّبون الدّول، ويتعايبونَ بالهَمْز، مُولعونَ في الرّخاء بالتّحاسدِ، وفي الشّدّةِ بالتّخاذُلِ»(٣٢٢). إلّا أنّ الأسلوب الغالب على كتاباته هو الأسلوب المُرسل، كما قلنا من قبل، وأحيانًا يعمد إلى التّوازن والازدواج، وقلّما يلجأ إلى السّجع إلّا ما يأتي عفو الخاطر.

وخلاصة القول أنّ ابن المقفّع أستاذٌ في التّرجمة والإنشاء على حدٍّ سواء، استطاع - كما يقول شوقي ضيف(٣٢٣) - أن يملأ أواني العربيّة بمادّة أجنبيّة غزيرة، دون أن يحدث فيها انحرافًا من شأنه أن يجرَّ ضربًا من الازدواج اللّغويّ، فلكلّ لغةٍ صياغتُها وأنماطُها الخاصّةُ في التّعبير، ولها أيضًا صُوَرُها وأخيلتُها التي قد تستعصي على الأداء في لغةٍ أخرى. وشيءٌ من ذلك لا يصادفنا عند ابن المُقَفَّع، فقد استطاع أن يحتفظ للعربيّة في ترجماته بمقوّماتها الأصيلة، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصّور الفارسيّة وذوق اللّغة العربيّة، بحيث لا نحسّ عنده نُبُوًّا ولا انحرافًا، ما يشهد له بمَقْدرته البيانيّة، وأنّه استطاع أن يحوزَ لنفسِه السّليقة العربيّة التّامّة بكلّ إشاراتها وسِماتها اللّغويّة. والحقّ أنّه كان آيةً من آيات البلاغة والبيان.

---

(٣٢٢) الأدب الصغير، ص٨٩.

(٣٢٣) العصر العبّاسيّ الأوّل، ص٥٢٢.

ثانيًا: سهل بن هارون

١ـ حياتُه:

هو أبو عَمرو (وقيل: أبو محمّد): سهل بن هارون بن راهبون. اختلف القدماء في تحديد مَسْقَط رأسِه، كما اختلفوا في رَسْم اسم جدّه، فقيل: إنَّه ولد في مَيْسَان، وهي «كُورَة واسعة كثيرة القرى والنّخل بين البصرة وواسط». وقيل: ولد في دَسْتُمِيْسَان، ونَسَبَه إليها كثيرون، وهي «كُورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز وهي إلى الأهواز أقرب». وقيل: إنّه من أهل نيسابور. ولعلَّه من أهل مَيْسَان، فقد ذكرها في شعره مادحًا أهلها بما يشي أنّه منهم.

غادر مَسْقط رأسِه إلى البصرة، وكانت آنذاك قبّة الإسلام وخزانة العرب، وكان مِرْبدها عُكاظ الإسلام، ومُلتقى الشّعراء والمتكلّمين الأعلام. وكانت بحُكْم مَوقعها وقُربها من بلاد فارس، موئلَ مختلفِ الأجناس والأعراق، من هنود وفرس ويونان ونبط... ففرَاجَ الفِكْرُ، ونَفَقَتْ تجارةُ العقل، فنَهِلَ من مواردها سَهْلٌ وعَلّ.

ثمّ ما لبث أن ذهب إلى بغداد، حاضرة الإسلام، وأمّ الدّنيا آنذاك، شأنه شأن كثير من ذوي النّباهة والذّكاء، ومن سَمَت نفوسُهم إلى المجد والشّهرة، من خلال الالتحاق بوظائف الدّولة ولا سيّما الدّواوين.

وقد تحقّق لسهلٍ ما أراد، فقد صار كاتبًا في دواوين يحيى البرمكيّ، مُلازمًا له، شديد الإعجاب به، مُطْنبًا في وصف بلاغته وبلاغة ابنه جعفر. ثمّ كتب سهل بين يدي الرّشيد، وجلّت منزلته عنده، وخُصّ به.

ثمّ بزغَ نجمُه في زمان المأمون، فقد كان على علاقة وطيدة مع الفضل بن سهل، خصيصًا به وبأخيه الحسن، فقدّمه الفضل إلى المأمون، فأعجب به وببلاغته وعقله، وجعله قيِّمًا أو كاتبًا على خزانة الحِكمة، (وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص).

ويرى أحمد أمين أنَّ بيت الحِكمة كان مجموعة خزائن، وكلّ مجموعة من الكتب خزانة، وأنّ سهلاً كان مُشْرفًا على قسم كتب الفلسفة التي نُقلت من جزيرة قبرص وبلاد الرّوم . وجعل شوقي ضيف مهمّته الإشراف على نَقْلِها إلى العربيّة .

صفته وأخلاقه:

يقول الجاحظ: «كان سهلٌ في نفسه عتيقَ الوجه، حَسَنَ الشّارة، بعيدًا من الفَدَامة، مُعتدل القامة، مقبول الصُّورة، يُقضَى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرِقّة الذّهن قبل المُخاطبة، وبدقّة المذهب قبل الامتحان، وبالنُّبل قبل التكشّف». وهذه صورة بارعة، رسمها فنّان مُبدع، التقى سهلاً وحاوره وروى عنه، وكان شديد الإعجاب به إلى حدّ بعيد.

وقد «قيل للحرّانيّ: بينك وبين سهل بن هارون صداقة فانْعته لنا كي نعرفَ، فقال: هو كالخير، وازنُ العلم، واسعُ الحِلم، إنْ فُوخر لم يكذب، وإنْ مُوزِحَ لم يغضب، كالغيث أين وقعَ نَفَعَ، وكالشّمس حيث أوفت أَحْيَتْ، وكالأرض ما حمّلتها حَمَلَتْ، وكالماء طَهُورٌ لمُلْتَمسه، وناقعٌ لغُلَّةِ مَنِ احْتَرَّ إليه، وكالهواء الّذي نَقْطِفُ منه الحياة بالتّنسُّم، وكالنّار الّتي يعيش بها المَقْرُور، وكالسّماء الّتي قد حَسُنت بأصناف النّور».

وممّا يُثير العَجَبَ حقًّا، أنْ يكون الرّجل على هذا القَدْر من الحِكْمة والعِلْم، والأخلاق والحِلْم، ويُوصف بعد ذلك كلّه بالبُخل؛ فقد أجمعتِ المصادرُ الّتي ترجمت له على أنّه كان نهايةً في البُخل، وأَوْرَدَتْ حكاياتٍ ونوادرَ طريفة في هذا الشّأن. حكى الجاحظ أنّ رجلًا لقي سهلَ بن هارون، «فقال: هَبْ لي ما لا ضَرَرَ به عليك، فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم، قال: لقد هوّنتَ أمر الدّرهم، وهو طائع الله في أرضه الّذي لا يَعصي، وهو

عُشْر العَشَرة، والعَشَرة عُشْر المائة، والمائة عُشْر الألف، والألف دِيَةُ المسلم؛ ألا ترى إلى أينَ انتهى أمرُ الدّرهم الّذي هوّنته! وهل بيوتُ الأموالِ إلّا درهم على درهم»؟!

وقد أجمعت المصادرُ على أنّه كان حكيمًا حليمًا وشاعرًا أديبًا، لُقّب لحكمته بـ (بُزُرْجمهر الإسلام)، وعدّه محمد بن إسحاق النّديم من البُلغاء، كما عدّه من الشّعراء الكُتّاب، وقال فيه الجاحظ: «من الخطباء الشّعراء الذين قد جمعوا الشّعرَ والخطبَ، والرّسائلَ الطِّوالَ والقِصَارَ، والكُتُبَ الكِبارَ المُخلّدة، والسِّير الحِسَان المدوّنة، والأخبار المُولّدة».

ورأى ابن نُباتة أنّه انفرد «في زمانه بالبلاغة والحِكْمة، وصنّف الكتب الحسنة مُعارضًا بها كتب الأوائل، حتّى قيل له: بُزُرْجمهر الإسلام، وله اليد الطّولى في النّظم والنّثر».

ولعلّ في هذه النّقول ما يدلّ على سَعَةِ عِلمه، ومَبْلغ حِكْمته، وإنَّ لقب (بُزُرْجمهر الإسلام) وحده كافٍ لتصوّر منزلة سهل العلميّة في ذلك العصر. أمّا وفاته فقد حدّدها ياقوت الحمويّ بسنة ٢١٥هـ(*).

٢ـ أنواع رسائله وموضوعاتها الأساسيّة:

سهلٌ من أكبر كُتّاب الترسّل في عصره، كتب (الرّسائل الطّوال والقِصار)، بين يدي يحيى البرمكيّ والرّشيد والمأمون، وخلّف (ديوان رسائل) كما ذكر صاحب الفهرست، لم يصل إلينا منه إلّا بضع رسائل احتفظت مصادر التراث بها، وهي قليلة على كلّ حال.

أ- الرّسائل الأدبيّة (رسالة البخل):

(*) انظر في ترجمته: البيان والتبيين ١/٥٢ ومواطن أخرى. والعقد الفريد ٥/٥٨ – ٦٢. والفهرست، ص٤٧٦،٢٦٥،٢٧١،٢٠٢،١٩٢. ومضاهاة أمثال كليلة و دمنة بما أشبهها من أشعار العرب، ص٧. وزهر الآداب وثمر الألباب١/٥٧٧. وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون، ص٢٤٣–٢٤٤. ومعجم الأدباء، (ط. دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩١م) ٣/٤٠٥. والوافي بالوفيات للصفدي، ١٦/١٨–٢٠. وفوات الوفيات للكتبي ٢/٨٤– ٨٥. وسَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة، ص٢٤٢– ٢٤٨. وحياة الحيوان الكبرى للدميري١/٤٨٠. وهدية العارفين للبغدادي ١/٤١١ ومعه إيضاح المكنون ٢/٤١. والعصر العبّاسيّ الأول، ص٥٢٧، والفن ومذاهبه في النثر العربي ص١٤٤. والأعلام، ٣/١٤٣. ومعجم المؤلفين ١/٨٠٣ ومصادر غيرها.

صدّر الجاحظ كتاب (البخلاء) برسالة سهل بن هارون في موضوع البخل؛ وهي الرّسالة الأدبيّة الطّويلة التي سَلِمت من عَوَادي الدّهر. وقد أُخذت دليلاً على شعوبيّته من ناحية، وعلى بُخْله من ناحية أخرى. والمظنون أنّها لا تقوم دليلاً على شعوبيّته، أمّا بشأن البُخْل فلم يكن المُراد منها مدحه وذمّ الكرم، كما ذكر كثيرٌ ممّن ترجم له من القدماء والمحدثين، بقدر ماذمّ فيها السّرف والتّبذير، ودافع عن الاقتصاد وحسن التّدبير.

وذكرت أغلب المصادرأنّ سهلاً أرسل نسخةً من رسالته إلى الحسن بن سهل وزير المأمون، فوقّع على ظهرها: «لقد مدحت ما ذَمَّه الله، وحسَّنت ما قبّح الله، وما يقوم صلاحُ لفظك بفسادِ معناك، وقد جعلنا نَوَالك عليه قبول قولك فيه»(٣٢٤). واختلفت المصادر في ألفاظ هذا التّوقيع، غير أنّها تدور في فلك معناه إلى حدٍّ ما.

وذكر أبو هلال العسكريّ أنّ سَهْلاً أرسلها إلى المهديّ، فقال له المهديّ: «بئس الشّيءُ مدحتَ، وقد أخذنا بقولكَ فيكَ فحَرَمْناك»(٣٢٥). وثمّة مَن ذكر أنّه أرسلها إلى المأمون. والأرجح ما ذكرتْهُ أغلب المصادر ـ وهي كثيرة ـ من أنّه أرسل هذه الرّسالة إلى الحسن بن سهل في وزارته للمأمون، ولم يُذكر أنّ سهلاً التقى الخليفة المهديّ، وربّما لم يغادر البصرة مدّة خلافته.

ومهما يكن الأمر، فقد طبّقت شُهرة هذه الرّسالة الآفاق، وجلّهم يذكر أنّها في مدح البُخْل وذمّ الكرم. والحقّ أنّه لم يمدح بُخْلًا ولم يذمّ كرمًا ـ كما أسلفت ـ إنّما ذمّ الإسراف ودعا إلى الاقتصاد بشيءٍ من المبالغة. وأظن أنّ ما وقّعه الحسن بن سهل على ظهر الرّسالة كان من قبيل المداعبة والتّندّر والظّرف، ليس غير. أو أنَّ معرفة النّاس لـه بالبُخْل، كانت مدعاةً لهذا التّأويل والتّهويل، وهذه عادة اجتماعيّة معروفة؛ فما إنْ يُعرف امرؤٌ بسمةٍ أخلاقيّة ما، حتّى يُفسّر جلّ ما يصدر عنه وَفْقًا لهذه السّمة وعلى هَدْيها.

---

(٣٢٤) زهر الآداب ٢/٨٣١.

(٣٢٥) جمهرة الأمثال للعسكري ١/٥٤٤.

ثمّ إنّ توقيع الحسن، حسب رواية صاحب الفهرست، أقرب إلى الصّواب، ونصّه: «وصلت رسالتك ووقفنا على نَصيحتك، وقد جعلنا المكافأةَ عنها القبول منك والتّصديق لك والسّلام»(٣٢٦). وهو ما ينطبق ومضمون الرّسالة، فلم يمدح ما ذمّه الله، ولا حسّن ما قبّح.

كذلك فإنَّ مفهوم البُخْل في العصر العبّاسيّ يختلف عنه في عصرٍ سابق، نتيجة تطوّر الحياة الاجتماعيّة وتعقّدها. يقول مصطفى ناصف: «إذا تأمّلنا قصص الجاحظ وجدنا كلمة البُخلاء تطلق على شيءٍ لا علاقة له بالعُرف البدويّ القديم. كلمة البخل في كتاب الجاحظ ربُّما تعني قواعد التّعامل في المدينة ومفارقاتها. كان الكريم في المدينة ينفق من مالِ غيره، أو يضع الإنفاق في موضع الدّعاية والسّلطة، أو يحبّ أن يُقال عنه إنّه بدويٌّ أصيل. كانت عبارة الكرم أو الشّجاعة قد فقدت بعض ارتباطها بالنّجدة والإغاثة والتّضحية، ومع ذلك فقد خُيّل لنا أنّ كلماتٍ كثيرة بقيت على حالها، وقد حدّثنا الجاحظ أنَّ النّاس يختلفون في مدلولات الكلمات. وأنّ البُخلاء سمّوا البُخْل إصلاحًا، والشُّحّ اقتصادًا، وحاموا على المَنْع وسمّوه الحزم»(٣٢٧).

ورأى شوقي ضيف أنّه في فاتحة الرّسالة «يتوجّه بالحديث فيها إلى بني عمِّه، وظنَّ القدماء أنّه يريد بني عمِّه الحقيقيين من آل راهَبُون، وأغلب الظّنّ أنه يقصد العرب»(٣٢٨). وهذا الرّأي مبنيٌّ على أنَّ الرّسالة كُتبت شعوبيّة على العرب، وإذْ زعمتُ أنّها لا تحتمل هذا التّأويل، فإنّي لا أستبعدُ أن يقصدَ بها العربَ وغيرَهم أيضًا، لا لغرضٍ شُعوبيّ، إنّما تبيانٌ لمنهجٍ اقتصاديٍّ، وعَرْضٌ لبلاغةِ لسان، ألم يقلْ الحصريّ إنّه ألّفها «ليظهر قدرته على البلاغة»؟ فضلاً عمّا يرمي إليه من إصلاحٍ اجتماعيٍّ وأخلاقيٍّ؛ فهو ينتقد بصورة غير مباشرة ما آلَ إليه حال المجتمع من بذخٍ وترفٍ.

---

(٣٢٦) الفهرست، ص١٩٢.

(٣٢٧) محاورات مع النثر العربي، ص١٠٧-١٠٨.

(٣٢٨) العصر العبّاسيّ الأول، ٥٣٦.

وتتجلّى في رسائل سَهْلٍ، كما في سائر نَثْرِه، غزارة أفكاره، وعُمْق معانيه، ودقّة تصويره، وإعمال الخيال فيه. تُسعفه في ذلك مقدرة بلاغيّة عالية، وثقافة موسوعيّة نادرة، تنهال على فِكْره أشتاتُ المعاني والصّور، فيصوغها في قالبٍ فنيٍّ بديع، وأسلوب أدبيّ باهر، يبالغ في تَحْبيره وتَدْبيجه وتَنْميقه، حتّى يصل إلى الغاية المثلى منه.

وقد بدا من خلال رسالته في البُخل ـ كما اصطُلح على تسميتها ـ أنّه يفترع موضوعًا جديدًا في الأدب العربيّ، يُعنى فيه بالجانب الاجتماعيّ، وسياسة الاقتصاد. وتَبيْنُ فيها شدّةُ تأثّره بثقافة عَصْرِه، ولا سيّما الثّقافة الفارسيّة، التي تربّى في حِجْرها أدبُ السّياسة والاجتماع، كما يَبِيْنُ أَثَرُ الثّقافة اليونانيّة. فالرّسالةُ حوارٌ جدليٌّ شائق، تصوّر تمكّنه من الجدل والمناظرة وعلم الكلام، وامتلاكه ناصية البيان.

وقد أدارها سهلٌ على فكرة واحدة قِوامها الاقتصاد في المعاش وحسن التّدبير، وذمّ السّرَف والتّرَف والتّبذير، وبثّ في تضاعيفها معاني وأفكارًا جزئية، باسطًا أدلّته وحُجَجه على سلامة أفكاره ودقّتها، ووضوح معانيه وصحّتها.

وإذا كان سهلٌ بخيلاً في حقيقة أمره ـ كما ذكرت المصادر ـ فالرّسالة لا تمثّل هذه الحقيقة، ولا تقوم دليلاً عليها، إلّا إذا زعمنا أنّ البخل كان دافعًا غير مباشر لكتابة هذه الرّسالة، وأنّه ألبسها لَبوس الاقتصاد ليكون حِجابًا يستر بخله. علمًا أنّ سهلاً لا ينفي هذه الحقيقة، بيد أنّه ينسبها إلى الحزم وصيانة النّعمة. والحقّ أنّ هذه الرسالة تمثّل هذا المعنى تمامًا، وليس البخل.

ولا أبالغُ إذا قلت إنّ كلّ الحكايات التي وردتنا في باب البخل، يمكن أن تُفسّر على هذا النّحو؛ أي الحضّ على الاقتصاد وحفظ النّعم. أمّا غايته في إثبات براعته البلاغيّة، ومهارته في الجدل والحِجاج، فلا مِرية فيها، ولا يتطرّق إليها الشّك. وما كان حديثُ مَن انتقدَ مذهبه، وتتبّع آراءه التي بثّها في كتبه، لِيَدْفعَه إلى كتابتها لولا هذه الغاية، التي رام تحقيقها، وكانت هاجسًا يُلحّ عليه في كثيرٍ ممّا كتب وألّف.

وقد بدأ سهلٌ رسالته بالدّعاء لُمنتقديه، بصلاحِ أمرهم، وجَمْع شملهم، وتعليْمِهم الخير، وأن يكونوا من أهله. ولعلّ هذا الاستهلال في ذاته يملك دلالةً إيحائيّة مهمّة على مَهارة سهلٍ الفكريّة؛ إذ يشكّل مقدّمة منطقيّة تَشِي ببُطلان مَزاعمهم، وفَساد عُقولهم، وانتهاجهم سُبل الضّلال، كما تَشي بمَهارته في مخاطبة عقل المتلقّي، ومعرفته بكيفيّة استلاب مشاعر الآخرين.

وقد أردفه بأقوالٍ مأثورة، لها الدّلالة نفسها، فقال: «قال الأحنفُ بن قيس: يا معشرَ بني تميم، لا تُسْرِعوا إلى الفِتنة، فإنّ أسرعَ النّاسِ إلى القتال، أقلُّهم حياءً من الفِرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أنْ ترى العيوبَ جَمَّةً، فتأمّل عيّابًا، فإنّه إنّما يَعِيبُ بفَضْل ما فيه من العَيْب. وأوّلُ العَيْبِ أن تعيبَ ماليس بعَيْبٍ. وقبيحٌ أن تَنهى عن مُرْشِد، أو تُغْرِيَ بِمُشْفِق. وما أردنا بما قلنا إلّا هدايتكم وتقويمكم، وإلّا إصلاحَ فسادِكم، وإبقاءَ النِّعمة عليكم. ولئن أخْطأنا سبيلَ إرشادكم، فما أخطأنا سبيلَ حُسْنِ النّية فيما بيننا وبينكم»[٣٢٩].

ثمّ راح سهلٌ يعرض ما عِيب عليه من آراء وأقوال، في فِقَر مُقسّمة، ويفنّدها بادئًا بعبارة: (وعبتموني) أو (وعِبتم عليّ)، أو نحو ذلك. والرّسالة تشكّل وحدة متكاملة متناسبة في أفكارها ومعانيها، إذ تتناول موضوعًا واحدًا.

وللتدليل على غزارة فِكره، وقدرته على تشقيق المعاني وتفريعها، وبَسْط الأدلّة وتوليدها، وعلى مضمون الرّسالة أيضًا، أسوق بعضًا منها، يقول: «وعبتم عليّ قولي: مَنْ لم يتعرّف مواقع السَّرَفِ في الموجود الرّخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في المُمْتَنِعِ الغالي؛ فلقد أُتِيْتُ من ماء الوضوء بكَيْلة[٣٣٠]، يدلُّ حَجْمُها على مَبْلَغ الكفاية وأَشَفَّ من الكفاية، فلمّا

---

(٣٢٩) البخلاء للجاحظ، ص٩ ومابعدها.

(٣٣٠) الكَيْلة: وعاءٌ يُكال به أو المرّة من الكيل، جمعه: كيْلات.

صِرْتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التّوفير عليها من وظيفة الماء، وجدتُ في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمتُ أنْ لو كنتُ مَكَّنْتُ الاقتصادَ في أوائله، ورغبتُ عن التّهاون به في ابتدائه، لخرج آخرُهُ على كفاية أوَّله، ولكان نصيبُ العُضْو الأوّل كنصيب الآخر. فعبتموني بذلك، وشنَّعْتُموه بجهْدِكم، وقَبَّحْتموه. وقد قال الحسنُ عند ذكر السَّرَفِ: إنّه ليكونُ في الماعُونين الماءِ والكلأ. فلم يرضَ بذلك في الماء، حتّى أردَفَه بالكلأ».

وهو، كما نرى، يَبْسُطُ مَقُولَته في الاقتصاد، التي عِيبتْ عليه، ويدلّل عليها بمِثَالٍ من واقع النّاس، ينمُّ على دقّة ملاحظاته، وعُمْق أفكاره، وهيمنة المنطق عليها، وتعليل كلامه تعليلاً عقليًّا، يسدّ به منافذ الرّأي على خصومه. ثمّ أكّده بقول الحسن البصريّ، وإيراده لهذا القول، يتضمّن دلالةً واضحةً على شدّةِ شكيمتِه في الجَدَل والحِجَاج، ومَهَارته في مخاطبة النّفوس؛ لأنّ إيرادَ أقوال الرّجال المشهورين الأعلام، يقوّي الحُجّة ويُفحم الخصم.

ولهذا السّبب أكثر سهلٌ من الاستشهاد بأقوال الرّسول ﷺ، وهو القدوة والمثال، والصّحابة والتّابعين والرّجال المشهورين، واعيًا وظيفة هذا الاستشهاد أو التّضمين، لذلك قال في ختام رسالته: «فلستم عليَّ تَرُدُّون، ولا رأيي تُفَنِّدون»؛ أي إنّما تردُّون أقوال السّلف الصّالح، وتخالفون نَهْجهم وسِيرتهم، وليس رأيي أو سيرتي. وهذه ضربة في الصّميم؛ إذ نَسَبَ نفسَه إلى الصّلاح والاستقامة والرّشد، عن طريق اتّباع السّنّة النّبويّة، واتّخاذ الصّحابة والأولياء قدوةً ومثلاً أعلى، وثَلَبَ خُصومَه، وطَعَنَ عليهم، بمُخالفتهم الحقّ، وبُعْدهم عن سَنَنِ الصالحين.

فإيرادُ الأقوال والاستشهاد بها لا يحقّق وظيفةً تعبيريّةً جماليّةً وحسب، كما لا يدلّ على امتلاك الكاتب ثقافة إسلاميّة عالية ليس غير، إنّما يَشِي بمَقْدرةٍ كبيرة على التّفكير الصّحيح، والمنطق الدّقيق، ومَهَارة مُتميّزة في إفحام الخصوم، والنّيل منهم.

ويقول سهلٌ في موضع آخر: «وعِبتموني بخَصْفِ النِّعال، وبتَصْدير القميص. وحين زعمتُ أنّ المخصوفةَ أبقى وأَوْطَأ وأَوْقَى، وأنْفَى للكِبْرِ، وأشبهُ بالنُّسُكِ، وأنَّ التّرقيع من

الحَزْم، وأنّ الاجتماعَ مع الحفظ، وأنَّ التَّفَرُّقَ مع التّضييع. وقد كان النّبيُّ ﷺ يَخْصِفُ نعلَه، ويرقعُ ثوبَه، ويَلْطَعُ إصبعَه، ويقول: لو أُتيتُ بذراعٍ لأكلت، ولو دُعيتُ إلى كُراعٍ لأجبت. ولقد لَفَّقَتْ سُعدى ابنةُ عوفٍ إزارَ طلحةَ، وهو جوادُ قريش، وهو طلحةُ الفيّاض. وكان في ثوب عُمَرَ رِقَاعُ أَدَمٍ. وقال: من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مُؤْنَتُه، وقلَّ كِبْرُه. وقالوا: لاجديدَ لمن لا يلبسُ الخَلَقَ»(٣٣١).

وأحسب أنّ مهارته في التّعليل والتّحليل، وثقافته الواسعة، قد استبانت وتجلّت، كما استبان أنّه لا يمدح بُخْلاً، ولا يذمّ كرمًا، في حين يرى شوقي ضيف أنّ سَهْلاً «يُورد دفاعه عن البُخْل ومحاسنه، مُستعينًا بقدرته على الجدل، وصنع الحُجَج المنطقيّة، وبما حفظ من بعض أقوال الرّسول ﷺ والصّحابة والتّابعين، وهم إنّما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشّطط في الإسراف»(٣٣٢).

ولا أظنّ أنَّ سَهْلًا يعدو ما كانوا يريدونه، في هذه الرّسالة خاصّة، فهو إنّما يدعو إلى الاقتصاد وعدم الشّطط في الإسراف أيضًا، على اختلافٍ في الغايات؛ إذ إنّ الرّسول ﷺ، وصحابتَه الكرام، يبتغون الزّهد في متاع الدّنيا الزّائل، وبرقها الخُلّب، بينما يدعو سهلٌ إلى تثميرِ المال وطلبِ الغنى، وهو ما لا يُنكره الرّسول الكريم ﷺ، والصّحابة أيضًا، إنْ أدّى المرء حقوق ربّه، وحقوق العباد.

وهذا ما حثّ عليه سهلٌ ودعا إليه في رسالته هذه؛ فرأى أنّ الإنفاق في أهواء النّفس وميولها يحجبها عن أداء الحقوق الواجبة عليها، وأنّ الإنفاق في الحقوق، يحجز المرء عن الإنفاق في ميول النّفس ورغباتها الجانحة. ولنسمعه يقول: «وزعمتُ أنّ كسبَ الحلال

---

(٣٣١) البخلاء، ص١١ –١٢. تصدير القميص: تقوية صدره برقعة أو بطانة. لَفَّقَت: لَفَقَ الثوبَ ولَفَّقَه: ضمَّ إحدى الشقتين إلى الأخرى وخاطهما. وحديث: (لو أُتيتُ بذراعٍ لأكلت...) في: صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها ٨٤٩/٢ برقم ٢٤٢٩ (بلفظٍ مشابه). وطلحة: هو طلحة بن عبيد الله، التّيميّ القرشيّ؛ صحابي شجاع من العشرة المبشّرين بالجنة، قُتل رضي الله عنه يوم الجمل سنة ٣٦هـ. انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢٥١/١ – ٢٥٢. ويعني بعمر: عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والأَدَمُ: جمع أديم، وهو الجلد.

(٣٣٢) العصر العبّاسيّ الأول، ص٥٣٦.

مُضَمَّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأنَّ الخبيثَ يَنْزِع إلى الخبيث، وأنّ الطَّيِّبَ يدعو إلى الطّيّب، وأنَّ الإنفاقَ في الهوى حِجابٌ دون الحقوق، وأنَّ الإنفاقَ في الحقوق حِجَازٌ دون الهوى، فعبتم عليَّ هذا القول. وقد قال مُعاوية: لم أرَ تبذيرًا قَطُّ، إلّا وإلى جانبه حَقٌّ مُضَيَّعٌ. وقد قال الحسن: إذا أردتمُ إنْ تعرفوا من أين أصابَ ماله، فانظروا في أيِّ شيءٍ يُنْفِقُه؟ فإنَّ الخبيثَ يُنْفَقُ في السَّرَف»[٣٣٣].

وهذه دعوةٌ إلى كسب المال الحلال، كما هي دعوة إلى أداء الحقوق، فليس حقيقًا علينا، بعد هذا كلّه، أنْ نزعم أنّ الرّسالة في مدح البخل وذمِّ الكرم. وحقيقٌ بنا أن نعيَ تطوّر دلالات الجودِ والكرم العربيِّ في عصر بني العبّاس، وتبدّل المفهومات والقيم الاجتماعيّة.

وهذا ما حدا سهل بن هارون على أنْ يدعو إلى طلب الغنى، في عصرٍ مُغَايرٍ تمامًا لعصر الرّسول الكريم وصحابته العُدول. فقد كان قِرى الضّيف، وإطعامُ الطّعام، وإكرامُ المُنتجعين، وأداءُ الحقوق، غايةَ الجود والكرم العربيّ، وسِمَة من سِماته المثلى، وليس البَذخ والسَّرَف في رغبات النّفس الجامحة المتمثّلة في حبّ الصّيت وطلب السّمعة والادعاءات الزّائفة، ونحو ذلك، ممّا لم يكن، في جملته، متأصّلاً في الطّباع، وشيمة من شيم النفوس.

ولو أراد سهلٌ النّيل من العرب، والإزراء عليهم، في هذه الرسالة، لنَحَا غيرَ هذا النّحو، ولَسَلَكَ أكثرَ من سَبيلٍ، كأنْ يسخر من كَرَمِ حاتمٍ الطائيِّ مثلاً، وغيره من أجواد العرب، ويندّد بهم، ويسفّه خِلالهم.

ويرى محمّد زغلول سلّام أنّ الدّفاع عن الكرم «على تلك الصّورة التي ترامت إلينا في عطاء الخلفاء أو الكرماء من عربٍ وفُرس، لم يكن في الحقيقة لوجه الله، فَضْلًا على أنّهم لم يُنفقوا هذا المال ممّا حصّلوا وجهدوا فيه بقدر ما كان جبايةً من الرّعيّة، كان ينبغي إنفاقُه في صالحها، ليعودَ عليهم بالنّفع»[٣٣٤].

---

(٣٣٣) البخلاء، ص١٣. ويعني بمعاوية: معاوية بن أبي سفيان وبالحسن: الحسن البصريّ.

(٣٣٤) الأدب في عصر العبّاسيّين، ص١٣٥.

ومن نافلة القول أنّ المجتمع العبّاسيّ آنذاك، كان ينقسم إلى طبقتين: واحدة في رَفَاهةٍ ونعيم، وأخرى في شقاءٍ وجحيم؛ إذ إنّ كثيرًا من الخلفاء العبّاسيّين مَضوا هم ورجالاتهم يحتكرون لأنفسهم المال، بحيث كانت هناك طبقَة خاصّة تنعم بالحياة إلى غير حدّ، وطبقة عامّة قُتِّرَ عليها في الرّزق، فهي تشقى إلى غير حَدّ.

فأيّ كرم هذا الذي يتغنّى به أربابه، ويُشَنِّعون على مخالفيه؟ وقد نبّه سَهْلٌ في مقامٍ من رسالته على هذا الأمر، فقال: «ونهى أبو الأسودِ الدُّؤليُّ، وكان حكيمًا أديبًا، وداهيًا أريبًا، عن جُودِكم هذا المولّدِ، وعن كَرَمِكُمْ هذا المُسْتَحْدَثِ». فهو يشير إلى تبدّل المفهومات منذ العصر الأمويّ، عمّا كانت عليه في العصر الجاهليّ والإسلاميّ.

وقد كان إعطاءُ الأمانِ مَثَلًا في ذينك العصرين، مَنْقبةً مَحْمودةً، وخَلّةً فاضلةً من مكارم الأخلاق، يجورُ المرءُ على نفسِه في سبيل إبراره وتنفيذه ـ والأمثلةُ على ذلك لا تُحصى ـ فأضحى في العصر العبّاسيّ ذريعةً ناجعةً للفَتْك بالخصوم، وإسقائهم كأس المَنُون، ولو أقسم المرءُ على نَفْسِه الأيمان المُغلّظة، وحرّرَ العُهودَ الموثّقة، وآلى بكلِّ ما هو مُقدّس لديه، مُحتجًّا بذرائعَ واهية، لا يقبلها دِينٌ، ولا يسوّغها مَنْطق.

ورأى شوقي ضيف أنَّ غزارةَ فِكْرِ سَهْلٍ تتّضحُ في هذه الرّسالةِ، «وكأنّه يستمدُّ من مَعينٍ لا يَنْضُب، كما يتّضحُ إلحاحُه على المعاني، حتّى لكأنّه يريدُ أن يحصرَها ويحيطَ بكلِّ دقائقِها. وتأمّل في ردِّه على مَن يستحثّ الهَرِمَ على إنفاقِ مالِه على النّاس وفي الملذّات، وفي الوجوه التي وضعها تحت عينيه مُخوِّفًا له ومُحذّرًا مِن تَضْييعِ مالِه، فستراه يجمعُ هذه الوجوه في استقصاءٍ وتفصيلٍ دقيق؛ فهو قد يُعَمَّر، وقد يُرزَق الولد، وقد تنزل به بعضُ الكوارث، وحينئذٍ إمّا أن يحاولَ استردادَ مالِه من بعضِ مَنْ أعطاه لهم، ويُرَدّ خائبًا مَحْسورًا، وإمّا أن يشكوَ إلى بعضِ النّاس قلّته، ولكن لن يرحموه. وفي الحالين يكون قد ضعُفَ عن الكَسْبِ

وطَلَبِ الرّزق، وبذلك ضيّق سَهْلٌ الأبواب على مَن يتّسعُ في العطاء والإنفاق حين تتقدّم به السّنُّ، بل لقد أغلقها إغلاقًا إلّا بابًا واحدًا فتحه على مَصَاريعه هو باب الشُّحّ»(٣٣٥).

ومن غير المعقول أن يكونَ عدمُ الإنفاق في السَّرَف والملذّات شُحًّا؟ فهو يقول صراحةً إنّه لا ينبغي أنْ يغترّ المرءُ بكِبَرِ سِنّه، فيدعوه ذلك «إلى إخراج ماله من يديه، وتحويلِه إلى مِلْك غيره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه، وتسليط الشّهوات عليه»، وقد قال تعالى: ﴿**ولا تجعلْ يدكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقْعُدَ مَلُومًا محسورًا**﴾ [الإسراء:١٧/ ٢٩]. فهو لم يقل بعدم أداء الحقوق والواجبات، كما رَبَأ بالمرء عن أن يقعد مَلُومًا مَحْسُورًا.

وسهلٌ في كلامِه هذا يصوّرُ حالَ المجتمع آنذاك، ويكشفُ لنا جَوْرَه على الضّعيف، وعدمَ مدِّ يدِ العونِ له، ويهيبُ بالمرء أن يحافظَ على ماله، حتّى لا يُضطرّ إلى مسألةِ النّاس، ويُريق ماءَ وجهِه، مُؤكّدًا كلامَه بما ورد في الأثَر: «اعمل لدنياك عملَ مَن يعيشُ أبدًا، واعمل لآخرتك عملَ مَن يموتُ غدًا». لهذا أرى في هذه الرّسالة، كما رأى غيري من قبل(٣٣٦)، انتقادًا من طَرَفٍ خَفيّ، لأحوال المجتمع وتصرّفات أولي الأمر يومذاك.

وقد استقصى سَهْلٌ حديثَه في الاقتصاد استقصاءً تامًّا، فعرضَ كلّ ما عِيبَ عليه ودافعَ عنه بحرارةٍ وحماسة، على شكلِ مقدّماتٍ منطقيّة، دلّل عليها، واستقرى البراهين والحُجَج من أجل إثباتها.

وتطرّقَ في تضاعيفِ رسالتِه إلى فَضْلِ الغِنى، وما وردَ فيه من آثارٍ مَرويّة عن حُكماء العرب، وقارنَ بين المالِ والعِلم، مُفضّلًا المالَ عليه. وأورد أدلّته على ذلك، فجعل المالَ أصلاً، والعِلْمَ فرعًا، ولا يستوي أصلٌ وفَرْع، مُستمدًّا ذلك من مُصطلحات الفقهاء المسلمين. وإنْ كان هذا التّفضيل يحتمل المناقشة وعرض وجهات النّظر، فلسنا بصدد الحديث عنه.

---

(٣٣٥) العصر العبّاسيّ الأول، ص٥٣٨-٥٣٩.

(٣٣٦) الأدب في عصر العبّاسيّين، ص١٣٥.

وأيًّا ما كان، فإنّ سَهْلاً في رسالتِه هذه، يُرينا تطوّر العقل العبّاسيّ وما أصابه من رقيٍّ، ومن نموٍّ، ومن ثَراءٍ، ومن قُدرةٍ على الحِجَاج وبَسْط الأدلة، حتّى ليتحوّل الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يُشبه مُناظرًا جَدِلاً، لا يزال يورد من الحُجَجِ والأدلّة المنطقيّة ما يحاول به أن يُفْحِم خَصْمه ويقهره[٣٣٧].

وقد بدا واضحًا من خلال ما ذكرتُ من مَقْبوسات، أنّ سَهْلاً لا يحفِلُ بالتّصوير البيانيّ في هذه الرّسالة؛ إذ تقلّ الصّورُ البيانيّة فيها، من تشبيهاتٍ واستعاراتٍ وكناياتٍ، ونحو ذلك، إلّا ما جاء عفو الخاطر، وعلى نحو غير مقصود للزّينة أو الزّخرفة، إنّما للإيضاح وتجسيم الأفكار، من مثل قوله: «لا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بطُول عُمره، وتقوُّس ظهرِه، ورِقّة عَظمه، وَوَهَنِ قُوّته، أن يرى أكْرُومته[٣٣٨]، ولا يُخْرِجه ذلك إلى إخراج ماله من يديْه، وتحويله إلى مِلْكِ غَيْره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه، وتسليط الشّهوات عليه». فالكناية واضحة في العبارات الأولى، ترمي إلى تصوير الشّيخوخة، وكبر السّنّ، بما يدلّ على ذلك. وجاءت الاستعارة في العبارات الأخيرة لتعطيَ الكلام قوّة في التّأثير، وعُمْقًا في الإيحاء والتّكثيف، دون تعقيدٍ في الصّورة أو تكلّف.

ولعلّ قلّة عنايته بالصّورة في هذه الرّسالة، تكمن في أنّه في معرض حِجاجٍ وجَدَل. يهدف إلى إثبات صحّة فِكْره، وصواب مَذْهبه، وسَدَاد رأيه، وتفنيد مزاعم خصومه، بالأدلّة والبراهين والحُجَج. فهو يخاطب العقل بالدّرجة الأولى أكثر ممّا يخاطب الشّعور، ولا يعني هذا أنّه لم يُعنَ بأسلوبه، فقد أربى فيه على الغاية. وقلنا إنّ أحدَ دوافع تأليفها كان إظهار براعته الفنّيّة، وقدرته البلاغيّة، وحقًّا فعل. وبما أنّ سَهْلًا يمتلك أدوات الخطابة، فقد ظهر عنصر الخطابيّة والتّقريريّة واضحًا في أسلوبه، وكان أحد الأسباب التي دَعَتْهُ إلى التّركيز على اتّخاذ الشّواهد والأدلّة لتأكيد مَقولاته، فقلّ اهتمامه بالتّصوير.

---

(٣٣٧) العصر العبّاسيّ الأول، ص٥٣٩.

(٣٣٨) الأكْرومة: الفَعلة الكريمة.

ب ـــ الرّسائل الإخوانيّة:

لا شكَّ أنَّ لسهلٍ رسائلَ إخوانيّة كثيرة، تبادلها مع كُتّاب عصره وبلغائه، شأنه في ذلك شأن كتّاب عصر بني العبّاس جميعًا. فقد نمت الرّسائلُ الإخوانيّة في هذا العصر نموًّا واسعًا؛ وهي الرّسائل التي تصوّر عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رَغبةٍ ورَهبةٍ، ومن عتابٍ واعتذارٍ واستعطافٍ، ومن تهنئةٍ ورثاءٍ أو تعزية. وكانت هذه العواطف تُؤدّى في العصر الأمويّ بالشّعر، أما في العصر العبّاسيّ فقد صارت تُؤدّى بالنّثر أيضًا. إلّا أنّ نصيبَ سهلٍ منها لم يكن وافرًا، كما أسلفت، إذ لم تسعفنا المصادر إلّا برسالتين، يمكن تصنيفهما ضمن هذا النّوع من الرّسائل.

أمّا الرّسالة الأولى، فقد «كتبَ إلى صديقٍ له أَبَلَّ من ضَعْفٍ: بلغَني خَبَرُ الفَتْرةِ في إلمامِها وانحسارِها، والشَّكَاةِ في حُلولها وارتحالها، فكادَ يشغلُ القَلَق بأوّله عن السّكون لآخره، وتُذْهِلُ الحيْرة في ابتدائِه عن المسرّةِ في انتهائه، وكان تغيّري في الحالين بقَدْرِهما؛ ارتياعًا للأولى وارتياحًا للأخرى»(٣٣٩).

وواضحٌ أنّ موضوعَ الرّسالةِ تصويرُ عاطفته تجاه صديقه، وما ألمّ به من قلقٍ عليه في مَرَضِه، وسُرورٍ بشِفائه. وقد عبّر عن المعاني النّفسيّة الدّقيقة تعبيرًا تصويريًّا فنّيًّا، من خلال الاستعارة، التي قصدَ منها التّشخيص والتّجسيد الحسّيّ، فجعل الفَتْرةَ تلمّ وتَنْحسر، والشَّكاةَ تحلّ وترتحل. وصوّر عاطفته تجاه صديقه أبلغ تصوير، في لفظٍ وجيز، ومعنًى بديع.

والرّسالة على إيجازها مُثقلة بالمعاني، تصوّر تصويرًا دقيقًا حالته العاطفيّة والنّفسيّة، كما تصوّر مهارته البيانيّة، وقدرته التّعبيريّة الموجزة، مع طلاوة اللّغة، وحُسْن الدّيباجة.

أمّا رسالته الثّانية، فقد رواها الحصريّ فقال: «قال محمّد بن زياد الزّيادي: وَجَدْتُ على سهل بن هارون في بعض الأمرِ فهجوتُه، فكتب إليّ: أمّا بعد؛ فالسّلام على عهدك وداعَ ذي ضَنٍّ بك، في غير مَقْلِيَة لك، ولا سلْوَة عنك، بل استسلامٌ للبَلْوَى في أمرك، وإقرار

---

(٣٣٩) سرح العيون، ص٢٤٥. أَبَلَّ: شُفي. الفترة: الوعكة والمرض والضعف. الشّكاة: الشكوى والمرض.

بالمُعجزة في استعطافك، إلى أوانِ فَيئتك، أو يجعل الله لنا دَولةً من رَجْعتك، والسّلام. وكتب في أسفل الكتاب:

إنْ تَعْفُ عن عبدِك المُسيء ففي عفوك مَأْوًى للفضلِ والمِنَنِ
أَتيتُ ما أستحقُّ من خطأ فجُدْ بما تستحقُّ من حَسَنِ»(٣٤٠)

وهو في هذه الرّسالة يستعطفُ هاجيه ويسترضيه، في دقّة لفظٍ، وتمام معنى، ويعبّر عمّا في نفسه تعبيرًا دقيقًا مُوجزًا. ويبدو أنّه يميل إلى الإيجاز في رسائله الإخوانيّة. وهي ظاهرة كانت موجودة لدى كُتّاب العصر العبّاسيّ الأوّل.

ج ــ الرّسائل الدّيوانيّة:

هذا النّوع من الرّسائل يصدر عن دواوين الحكّام والوُلاة والأمراء، ويُعنى بشؤون الدّولة السّياسيّة، ويتضمّن العهود والتّقاليد وانتقال الخلافة والفتوحات والدّعوة إلى الطّاعة، والحثّ على الجهاد، وما إلى ذلك من رسائل ذات طابع رسميّ إداريّ، تصدر عن ديوان الرّسائل الذي ظهرَ، على أرجح الأقوال، في أوائل العصر الأمويّ، في زمن معاوية بن أبي سفيان، وتطوّر سريعًا حتّى عمّ الولايات المختلفة.

وقد ازدهرت الرّسائل الدّيوانيّة في العصر العبّاسيّ ازدهارًا مُنقطع النّظير، نتيجة التّحوّل السّياسيّ الكبير، والحوادث السّياسيّة التي رافقته، كما قلنا لدى الحديث عن التّرسّل السّياسيّ.

ومن المحقّق أنَّ سَهْلاً كتب هذا النّوع من الرّسائل بين يدي الرّشيد خاصّة، فبعد نَكْبة البرامكة، اختصّ به، وكتبَ بين يديه. روى سهلٌ أنّ يحيى البرمكيّ كتب للرّشيد من سجنه قبل موته: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، قد تقدّم الخصمُ لموضع الفَصل، وأنتَ على

---

(٣٤٠) زهر الآداب ٥٧٨/١ (بهذا اللفظ). سرح العيون، ص٢٤٦. مقلية: بُغض.

الأثر، والله الحَكَم العدل». ثمّ أُوصِل إلى الرّشيد، بعد موت يحيى، فلمّا قرأه استمدَّ، يقول سهلٌ: «ولا أدري لَمن الرُّقعة. فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أكفيك؟ قال: كلّا، إنّي أخافُ عادةَ الرّاحة...، قال سهلٌ: فوقّع فيها: (الحَكَمُ الذي رضيت به في الآخرة لك، هو أعدى الخصوم عليك في الدّنيا، وهو مَنْ لا يُنقض حُكْمُه، ولا يُردّ قَضَاؤه)، ثمّ رمى الكتاب إليّ، فلمّا رأيته علمتُ أنّه ليحيى، وأنّ الرّشيد أراد أن يُؤثر الجواب عنه»(٣٤١).

ولعلّ هذا الخبر يؤكّد أنّ سَهْلًا كثيرًا ما كتبَ عن الرّشيد، وإلّا لما طلب منه أن يكفيه مؤونة الكتابة في رقعة يحيى البرمكيّ، وأنّ الكتابة بين يدي الرّشيد من أهمّ مهامّه التي يضطلع بها، بيد أنّ الرّشيدَ أراد أن يُؤثر الجواب عنه، وكثيرًا ما فعلَ ذلك هو أيضًا.

وأيًّا ما كان، فإنّ هذه الرّسائل لم تصل إلينا، فيما أعلم، إلّا أنَّ كتابه (النّمر والثّعلب)، حوى بين دفتيه ثماني رسائل، مُتبادلة بين النّمر/ الملك، والذّئب/ الوالي المتمرّد، في مزاوجة بديعة بين القصّ على لسان الحيوان والتّرسّل.

وتُعدّ رسائله هذه نموذجًا للرّسائل الدّيوانيّة، التي كان يحوكها سهلٌ في الدّواوين. صحيحٌ أنّها على لسان الحيوان، لكنّها شخصيّات رامزة لأخرى حقيقيّة تتقنّع وراءها، ثمّ إنّها في عواطفها ومُيولها ورَغباتها وأفكارها إنسانيّة، فالنّمر يرمز إلى الخليفة الشّرعيّ، والذّئب يُمثّل كلّ والٍ مُتمرّد جاحد، خارج على طاعة هذا الخليفة، والثّعلب يمثّل الوزير الكاتب، النّاصح والمشير.

ورسائلُ سهلٍ هذه في الذّروة والأوج من البيان الرّفيع، والبلاغة العالية، والبراعة الفنّيّة، وقد قصدَ سهلٌ إلى ذلك قَصْدًا؛ إذ قال في ديباجة كتابه: «أمّا بعد؛ أيّدك الله بتوفيقه، وعَصَمَكَ بتسديده، فإنّي رأيت أن أصنع لك كتابًا في الأدب والبلاغة والتّرسّل والحروب والحيل والأمثال و...»(٣٤٢).

---

(٣٤١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ١٧٢/٢ (بهذا اللفظ). العقد ٦٩/٥. استمدّ: وضع قلمه في المِداد.

(٣٤٢) النمر والثعلب، ص٨.

فذكْرُ الرّسائلِ على لسان الشّخصيّات كان غايةً أساسيّة، ومرمى جوهريًّا لدى سهل، ليس من النّاحية التّعليميّة وحسب، إنّما لإثارة المتعة الفنّيّة لدى المتلقّي، من خلال إدهاشه بهذه الخطابات المتوهّجة التي تقمّص فيها سهلٌ أدوار شخصيّاته ببراعة فائقة، فضلاً عن العجائبيّة التي تثير النّزعة الفكاهيّة في نفس القارئ، لصدورها عن شخصيّات حيوانيّة، كما أنّ هذه الرّسائل أدّت دورًا أساسيًّا في تطوّر سير أحداث القصّة.

وموضوع هذه الرّسائل سياسيّ صِرف؛ إذ إنّ مضمونها يُمثّل حوارًا سياسيًّا حادًّا، بين النّمر/ الملك، والذّئب/ الوالي المتمرّد، كلٌّ يُدلي بحُجَّتِه، وتتفرّع في معانيها وأغراضها، إلى رسائل في التّوبيخ والتّقريع، أو التّهديد والإنذار، أو الاعتذار والاستعطاف، أو تكون ذات صبغة عسكريّة، حين تنشب المعارك بين الطّرفين، فتُرسَل الرّسائل للتّخويف وإثارة الرّعب في قلب الخصم؛ إذ تصف قوّة المُرسِل، النّمر غالبًا، بعُدّته وعَتاده، وثَبَات قوّاده، وأن الدّوائر ستدور على هذا الخصم حتمًا. وهذه الرّسائل لا تمتلك قيمة تاريخيّة كالرّسائل السّياسيّة المحض، بقدر ما تتمتّع بقيمة أدبيّة فنيّة عالية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الرّسائل، لم يكتبها النّمر، أو الذّئب، بل كاتبُ كلٍّ منهما. أمّا النّمر فلا نعرفُ كاتبَه، إذ لا يَذكرُه سهلٌ، وإنّما يذكرُ عباراتٍ تدلّ على أنّ له كاتبًا مثل: (فأمر بالكتاب إليه) أو (وأمر بالكتابة إليه). أمّا الذّئب فكاتبه الثّعلب، يفهم من حواره معه ما يُريد كتابته إلى النّمر، ويكتب حسب مشيئته، ويكون أمر الذّئب بالكتابة واضحًا، مثل: (اكتب ولا تراجعني)، أو (اكتب له بتجديد الخلاف عليه)، ونحو ذلك. وسهلٌ في هذا الصّنيع يُحاكي الخلفاء والولاة والأمراء ومن لفَّ لفّهم، في طريقة كتابة الرّسائل الدّيوانيّة في العصر العبّاسيّ الأوّل؛ إذ كان الكُتّاب ـ غالبًا ـ هُمُ الذين ينفردون بكتابة هذه الرّسائل، بتكليفٍ من أولي الأمر.

ورسائل سهل الدّيوانيّة تزخر بالصّور والوصف النّابض بالحركة والحياة، كما تزخر بالفِكَر الدّقيقة، والمعاني المبتكرة، التي يتصيّدها تصيّدًا من أغوار الفِكر. يقول في رسالة

بعث بها الذّئب إلى النّمر، مُعتذرًا ومُستعطفًا قبل أن يتمادى في عصيانه: «...فأمّا ما ذَكَرَه الملكُ من رَبْك عيشٍ تناسَيْتُه، وثوب ضُرّ لبسته، وظُفْرٍ من دَهْرٍ خَدَشني، ونابٍ منه جَرَحني، حتّى استنقذني الملكُ من غَمْرة العَطَب، وانْتَاشَني من هُوّة الهَلَكة... على أنّ يدَ الملك، عندي، بيضاءُ مشكورة، ليست بمرفوعة ولا مكفورة، طَلْعُها في قلبي نَضيد، وظلُّها عليَّ ممدود، خَصْبة خَضِرَة، أَغْذُوها بماء الشُّكر، وأُنَمِّيها بجميل الذّكر، لا يحْصُدُها تقادُمُ الأيام، ولا يُقْدَحُ فيها بِزَنْدِ الملام، وأرتضع دِرَّتها فَوَاقًا عن فَوَاق، فأغترفُ منها بسَجْلٍ ذي عِرَاق، فأين ذهبَ المَلكُ في ظَنِّه؟ وأنا ابنُ نعمتِه والشّاربُ في بُلَهْنيتِه، ذراني جناحُه، وكَنَفني رَجَاجُه، يعقِلُني وَزَرُه، ويُنْجيْني عَصَرُه»(٣٤٣).

وواضحٌ أنّ سهلًا في هذه الرّسالة، يبلغ الذّروة من البيان الرّفيع؛ فقد عبّر عن المعاني تعبيرًا بديعًا، وجسّدها باستخدام الحلى البيانيّة، والصّور الفنّيّة، ونقل القارئ إلى عالمٍ مُفعم بالحركة والحياة، من خلال الاتّساع في مَرمى الخيال، وإثارة المشاعر الوجدانيّة والعواطف النّفسيّة، والوضوح الحسّيّ، والتّجسيد للمعاني العقليّة المجرّدة.

ويقترنُ في هذه الرّسائل جمال التّصوير بجمال التّفكير، وطرافة المعاني بطرافة الصّور؛ فتتحقّق الإثارة الفنّيّة والمتعة الجماليّة. وتُمثّل هذه الرّسائل حوارًا سياسيًّا حادًّا، يُذكّرنا بالرّسائل السّياسيّة في ذلك العصر، يتقمّص فيها سهلٌ دور القائد العسكريّ ببراعة فائقة، تبدو في نَبراته الحادّة، وخطابه القويّ، والقصد إلى التّهويل والمبالغة من خلال استخدام الصّور البيانيّة وإعمال الخيال إلى مدى غير يسير. يقول في رسالة أخرى على لسان الذّئب/ الوالي المتمرّد: «...حتّى ظننت أنّ صرعتَك حرامٌ على الدّهر، وأنّ يومَك مَنْسيٌّ إلى

---

(٣٤٣) النَّمر والثعلب، ص٢٠-٢١. رَبْك عيش: يقال: رَبَك الشيءَ رَبْكًا: أي خَلَطَه، ورَبَك الرّجلَ: ألقاه في الوَحَل. الغمرة: الشدّة والضلالة التي تغمر صاحبها. انتاشني: جذبني واستخرجني. الدِّرَّةُ: اللبن أو كثرته. والفواق: الوقت بين الحلبتين، والوقت بين قبضتي الحالب للضّرع. السَّجْلُ: الدّلو العظيمة المملوءةُ ماءً، وقيل: إذا كان فيه ماء قلّ أو كثر، وجمعه: سِجالٌ وسُجُولٌ، والمراد هنا: الدّلو الضخمة. والعِراق: الخَرْز المثني في أسفل مزادة أو راوية، أو جلدة تُجعل على طرفي الجلد إذا خُرِزَ في أسفل المزادة، أو الخَرْز في وسط القربة. (اللسان: مادة سجل – عرق). البُلهنية: الرّخاء وسعة العيش. الرَّجاح: الحِلْم. والعصر: الملجأ والمنجاة.

الحَشْر، كأنّك لم ترَ أولي العِناد الظّاهر، والعِزّ القاهر، وذوي التّحاشد والتّناصر، قد طغوا فبغوا، وقسَوْا فاجْترَوا، وأوسعوا فأفسدوا فكيف قطعَ الدّهرُ آمالَهم، وضعضع أركانَهم، وهدم بنيانَهم، وفرّق جماعتهم، وصَدَعَ شملَهم، وفلّل حدَّهم، وأسلمهم إلى مصارع خزيهم، ونوازل النّقم بهم...، فتحسبني عُود المُنكسِر، وهَشِيم المُحْتَظِر ، كلّا بل عُصبت بالسّاعد الأشد، ورُميت بالخصم الألد، ودُميت بالحجرِ المُعد، شوكة طعنكم الله بحدّها فلا ينتعش شابِكُها، ولا يخبو لَظَاها. بها شَجِيَ العُتاةُ المتكبّرون، والظَّلَمَةُ الجبّارون مثلك، فارْبَعْ على ظَلْعِكَ أيُّها النّمِر، فإنّا لن تحمل أبداننا ذلّ سلطانك علينا، ولن نظلم أنفسنا بحُكْمك فينا»[٣٤٤].

وفي هذا التّرادف ما يدلّ دلالةً بالغةً على عُمْقِ تفكيرِ سهل، وقدرته على تنويع المعاني وتفريعها، وتأكيدها وتصويرها بقالب فنّيّ باهر، يحرك المشاعر ويُثيرها. وهو في أفكاره ومعانيه يمتحُ من معين التّراث العربيّ، ومن القرآن الكريم. ففي هذه الرّسالة يستلهم فِكْرته الأساسيّة من القرآن، وكثيرًا ما ضربَ الله ـ سبحانه ـ الأمثالَ بزوال الدّول وهلاكها، وعتوّها عن أمر ربّها، بعد أن كانت في نعيمٍ مقيم، وظلٍّ ظليل، وعيش رغيد. وضَرْبُ الأمثالِ سبيلٌ يسلكه الحُكماء أمثال سهل بن هارون، والحكمة من ذلك، «أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدّمات مضمومة إلى نتائجها، وتصريف القول في ذلك، حتّى يتبيّن لسامعه ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزومهم الآداب أو تضييعهم إيّاها. ولهذا بعينه قصّ اللهُ علينا أقاصيصَ مَن تقدّمنا ممّن عصاه وآثر هواه، فخسِرَ دينَه ودنياه، ومَن اتّبع

---

(٣٤٤) النمر والثعلب، ص٤٠-٤١ (ط.الكعبي). وهشيم المحتظِر: اليابس المُتفتّت من شجر الحظيرة، والمحتظِر: صانع الحظيرة لمواشيه من هذا الشجر، قال تعالى:﴿ إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحُتَظِر﴾ [سورة القمر: ٣١/٥٤]. وارْبَعْ على ظَلْعِكَ: أي إنّك ضعيف، فارفُق بنفسك ولا تحمِل عليها أكثر ممّا تُطيق. وهو مَثَلٌ انظر: جمهرة الأمثال ١١٧/١ برقم ١١٢. ومجمع الأمثال ٢٩٣/١ برقم ١٥٥٣. وأساس البلاغة: مادة: ربع – ظلع.

رضاه، فجعل الخيرَ والحُسنى عقباه، وصيّر الجنةَ مثواه ومأواه، وقال في مثل ذلك: ﴿**ولقد وَصَّلْنَا لهم القول لعلَّهم يتذكّرون**﴾»(٣٤٥).

ويضرب سهلٌ الأمثال في أكثر من رسالة، لتكون دليلًا وحجّة على متلقّي الرّسالة، ولكي يُوهن من عَزْمه، ويفتّ في عَضُدِه، ويبعث في نفسه الرّهبة، ولِيُظْهِرَ فَيض حِكْمته أيضًا. ولا يقتصر تأثّره على التّراث العربيّ، بل يتعدّاه إلى الثّقافة الفارسيّة خاصّة، وما أُثر عنها من سياسةٍ حكيمة، وأدبٍ اجتماعيّ، نَهِلَ من مَعينه سهلٌ وارتوى، فانعكس ذلك في فِكْره وعقله، فضلًا عن الثّقافة اليونانيّة التي استمدّ منها قدرته على الجدل والمخاصمة.

وهكذا، يتّضح من خلال ما تقدّم، أنّ سَهْلًا يمتلك مَقدرةً لا يُستهان بها، في ميدان الفِكر السّديد، والمعنى المُبتكر، والصّورة الفاتنة، حتّى لَتغدو رسائلُه آيةً في البلاغة والبيان. وهو، كما وَصَفَه محمّد كرد علي: «أحدُ أفرادٍ قلائل، زانوا بما صاغوا من الكلام أدبَ العرب واختطّوا لمن بعدهم خُططَ التّفكير والتّصوير على النّمط الفارسيّ العربيّ. وكلامُه في بابه لُبابُ البلاغة، ومِثالُ الفصاحة، لا تبلى جِدَّ تُه على وجه الأيّام، ولا يحتاج في الحُكم عليه إلى محكمةِ نَقْضٍ وإبرام»(٣٤٦).

٣ـ منـزلته وأثره في النّثر العربيّ:

قلنا إنّ سهلاً كان كاتبًا بين يدي يحيى البرمكيّ، ومن بعده الرّشيد الذي أبقى على حياته، لأنّ الحاجةَ إليه قرّبت منه وأبقت عليه ـ بحسبِ تعبير الرّشيد ـ ثمّ في دواوين المأمون، وقيّمًا على دار الحِكْمة أيضًا. ولعلّ في عمله هذا ما يدلّ دلالة بالغة على بُعْد صِيْته في التّرسّل والكتابة، ولا سيّما أنّ مَنْ ذكرت كانوا من جَهابذة البلاغة وأمراء البيان، فاختيارُهم له كان دليلَ مكانتِه في نفوسهم.

(٣٤٥) البرهان في وجوه البيان لابن وهب، ص١٤٦. والآية من سورة القصص: ٥١/٢٨.

(٣٤٦) أمراء البيان ١٩٠/١.

وقد عرف القدماءُ منزلةَ سهلٍ وأشادوا به، وتلقّفوا كلامَه وحكمه، وتخرّجوا على أسلوبه في البلاغة والتّرسّل. وهذا الجاحظ، أديب العربيّة غير مُدافع، «يفضّله، ويصف براعتَه وفصاحتَه، ويحكي عنه في كتبه»، كما يقول محمد بن إسحاق النّديم. وقد ذكرنا قولَ الجاحظ فيه: «من الخطباء الشّعراء الذين قد جمعوا الشّعر والخطب، والرَّسائلَ الطِّوالَ والقِصارَ، والكتبَ الكبارَ المُخلَّدَة، والسِّيرَ الحِسَان المدوَّنة، والأخبار المولَّدة»(٣٤٧).

كما أنّ أبا حيّان التّوحيديّ (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة) ينوّه في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) بسموِّ مكانة سهلٍ في البلاغة والفِقَر؛ حين يسخرُ من الصّاحب بن عبّاد وتملّقِ النّاس له، فلا يقال له: «أخطأت أو قصّرت أو لحنت أو غَلِطت أو أخللت، لأنَّه نشأ على أنْ يُقال: أصاب سيّدُنا، وصَدَقَ مولانا، ولله دَرُّه، ولله بلاؤه، ما رأينا مِثْلَه، ولا سمعنا مَنْ يقاربه... قد استدرك مولانا على الخليل في العَروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللّغة... وعلى الجاحظ في الحيوان، وعلى سهل بن هارون في الفِقَر، وعلى يوحنّا في الطّبّ...»(٣٤٨).

وفي هذا دلالة بيّنة على أنّ سَهْلًا كان مميّزًا في الفِقَر، وأنَّ النّاس يُكبرون فيه هذه المسألة ؛ لذا فهو ـ بالنّسبة إليهم ـ مِثَالٌ يُقاس عليه، كالخليل في العَروض، وأبي عمرو بن العلاء في اللّغة. ولإكبار التّوحيديّ له، ولمعرفته بجَلال قَدْره؛ فقد أورد كثيرًا من فِقره وأخباره في كُتبه، خاصّة في (البصائر والذّخائر).

وإذا كانت منزلةُ سهل في المشرق العربيّ على هذا القَدْر من الرّفعة، فإنَّها لم تكن تقلّ عنها في مغربه، بل لعلّها فاقتها، فقد تأثّر به بلغاؤهم وأدباؤهم، ونقلوا عنه، وحاكوه في كثير من تآليفه. يقول ابن شرف القيروانيّ (ت٤٦٠هـ): «واحتذيتُ فيما ذهبت إليه، ووقع تعريضي عليه؛ مِنْ بَثِّ هذه الأحاديث ما رأيت الأوائل قد وضعته في كتاب (كليلة ودمنة)،

---

(٣٤٧) البيان والتبيين ٥٢/١

(٣٤٨) الإمتاع المؤانسة، ٥٨/١.

فأضافوا حِكَمه إلى الطّير الحوائم، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم؛ لتتعلّق به شهواتُ الأحداث، وتُسْتعذب بسَمَرِه ألفاظ الحُدَّاث. وقد نحا بذا النّحو سهل بن هارون الكاتب في تأليفه كتاب (النّمر والثّعلب). وهو مشهور الحكايات، بديع المُراسلات، مَليح المكاتبات»[٣٤٩].

وفي هذا الكلام دلالة واضحة على شُهْرة حكايات سهل، وبَديع مُراسلاته، ومن ثَمّ ذيوع صِيْته عندهم، واشتهار كُتبه فيما بينهم، فضلًا عن مُحاكاتهم لموضوعاته، وتأثّرهم به .

وفي الأندلس كان سهلٌ مَضْربَ المثَل في البلاغة والتّرسّل، يقول ابن زيدون في رسالته الهزليّة، التي يسخر فيها من ابن عَبْدوس على لسان ولاّدة: «...وأنّ عبد الحميد بن يحيى باري أقلامك، وسهل بن هارون مُدوّن كلامك، وعمرو بن بحر مُسْتمليك...»[٣٥٠]. ولا أدلّ من هذا الكلام على حضور هؤلاء في نفس ابن زيدون وعقله. واستدعاؤهم في رسالته ـ على هذا النّحو دون غيرهم من أرباب البيان ـ يَشي بمكانتهم في النّثر العربيّ عامّة، ولدى ابن زيدون خاصّة.

وهذا ابن حزم يُفاخر في رسالته: (فضْل الأندلس ورجالها) بابن شُهيد (ت٤٢٦هـ) وبلاغته، ويقرنه بسهل والجاحظ، كيف لا ؟ وهما، في رأيه، القمّة التي وصلت إليها الكتابة الفنّيّة، يقول: «ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شُهيد صديقنا وصاحبنا، وهو حيٌّ بعد، لم يبلغ سنّ الاكتهال، وله من التّصرّف في وجوه البلاغة وشِعابها مقدارٌ يكاد ينطقُ فيه بلسانٍ مُركّبٍ من لسانِ عمرٍو وسَهْلٍ»[٣٥١].

ويبدو أنّ لهاتين الشّخصيتين حضورًا مميّزًا، ومكانةً مرموقة في ضمير الأندلسيّين. وما ذكرتُه من أقوال البُلغاء فيه، ومَدْحهم له، وإعجابهم به، يدلّ على تأثيره البالغ في الأدب

---

(٣٤٩) أعلام الكلام، ص١٣. (وهو منشور بعنوان رسائل الانتقاد ضمن رسائل البلغاء).

(٣٥٠) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص٤.

(٣٥١) رسائل ابن حزم ٢/١٨٨.

العربيّ عامّة، وفي أدب هؤلاء ونفوسهم خاصة، فضلًا عن منزلته في الأدب بوصفه واحدًا من أبرز كُتّاب التّرسّل في النّثر العربيّ القديم، كما كان أهمّ كاتب ظهر في القرن الثّاني الهجريّ.

٤ـ سمات أسلوبه :

أ ـــ النّزعة العقليّة:

ينزِعُ سهلٌ إلى تحكيمِ العقل نُزوعًا واضحًا في نَثْرِه، ويصبُغُ أدبَه بصِبْغةٍ عقليّة واضحة، تلذّ العقلَ قبل أن تلذّ الشّعور، إذ يطغى عليه الجدَلُ والحوارُ والحِجاج والسّفسطة، وبَسْطُ الأدلّة والبراهين، واستخدامُ الأقيسة المنطقيّة، والتّحليلات العقليّة والفلسفيّة، حتّى في نوادره وفكاهاته. «قال دِعْبلُ الشّاعر: أقمنا عند سهل بن هارونَ فلم نبرحْ، حتّى كِدْنَا نموتُ من الجوع، فلما اضطررناه قال: ياغلام ويْلَك غدِّنا، قال: فأُتينا بقَصْعةٍ فيها مَرقٌ فيهِ لحمُ ديكٍ عاسٍ هَرِم، ليس قبلَها ولا بعدَها غيرُها، لا تحزُّ فيه السّكّين، ولا تؤثّر فيه الأضراس. فاطّلع في القَصْعة، وقلّب بصرَه فيها، ثمّ أخذَ قِطْعَةَ خبزٍ يابس، فقلَّب جميعَ مَافي القَصعة حتَّى فقدَ الرَّأسَ من الدِّيك وحده، فبقي مُطرِقًا ساعَةً، ثمّ رفع رأسَه إلى الغلام فقال: أين الرَّأس؟ فقال: رميتُ به، قال: ولِمَ رميتَ به؟ قال: لم أظنّك تأكله، قال: ولأَيِّ شيءٍ ظَننتَ أنّي لا آكلُه؟ فوالله إنّي لأَمْقتُ مَن يرمي برجليهِ فكيف مَن يرمي برأسِه؟ ثمّ قال لَهُ: لو لم أكرهْ مَا صنَعتَ إلّا للطِّيَرةِ والفَألِ لكَرِهْتُه؛ الرأسُ رئيسٌ وفيهِ الحواسُّ، ومنه يصدَح الدّيك، ولولا صوتُه ما أرِيدَ، وفِيهِ فَرقُه الذي يُتبرّك به، وعَينُهُ التي يُضْرَب بها المثَل؛ يقال: شرابٌ كعينِ الدّيك، ودِمَاغُه عجيبٌ لوجَع الكُلية، ولم أرَ عَظمًا قَطُّ أهشَّ تحت الأسنانِ من عَظْمِ رأسِهِ، فهَلّا إذْ ظننتَ أنّي لا آكلُه، ظننتَ أنّ العِيالَ يأْكُلُونه؟ وإنْ كانَ بلَغَ من نُبْلِك أنّك لا تأْكلُه، فإنّ عِنْدَنا من يأْكُلُه، أوَ ما علمتَ أنّه خيرٌ من طَرَف

الجَناحِ، ومن السَّاق والعُنق، انظرْ أين هو؟ قال: والله ما أدري أينَ رميتُ بهِ؟ قال: لكنِّي أدري أنّك رمَيتَ بهِ في بطنِك، والله حسيبُك»(٣٥٢).

ولعلّ هذه النّزعة كانت من أهمِّ دواعي إعجاب الجاحظ به، وفَرْط ثنائه عليه. ولولا إعجابُ الجاحظ به، وهذه الصّلة الفنّيّة التي تقوم على وجود ملامح أسلوبيّة مُشتركة بين الرّجلين، ولا سيّما في الحِجَاج العقليّ والمُزاوجة، لحَجَبَ الغَمام قمّةً من قمم البيان العربيّ.

ومن أقوالِه في تمجيدِ العقل ووَصْفِه، أنّ «معنى الإنسان العقل، إذا رُزِقه استحقّ اسم الإنسان، وإذا عُدِمه فقد نقُص، ولا يلزمه إلّا اسم الصّورة. ثمّ قال: فإن لحق بعضًا، وقصّر بعضًا فهو إنسان ناقص»(٣٥٣).

وسُئل في مَعْرض حواره عن الأحمق الدّاهي من أين أتاه الدّهاء والمكر وهو مَوصوف بالنّقص؟ فقال: «لن تجدَ منه ذلك إلّا في دَقائِق الأمور وسَفْسَافها وذوات الدّناءة منها، ولم يُؤتَ الأحمق من التّدبير المستبطن للدّهاء، ولطلب الحيلة شيئًا، إلّا وذو الحِجَا فيه أقوى سببًا، وأبلغ مَرامًا، وأوفر فيما يريد فيه حظًّا؛ ولكنّ شرفَ همّة اللّبيب، وكَرَم طَبْعه، يحجبانه عن استعمال فَهْمه فيما نظر فيه الأحمق ونَطَق بخبرته. وكثيرًا ما تجدُ ذلك في شِرارِ النّاس وسُقّاط الإماء، وقد قال بعض الحُكماء: عرفت كلّ شيء ما خلا الرَّعَن. فلا تحسبه ذلك من الأحمق فضلاً فيه قصّر عنه المُقَدَّم في اللّبّ عليه، ولكنّه لما أعلمتُك»(٣٥٤).

وفي هذا الكلام طرافةٌ في التّفكير، وعُمْقٌ في المعنى، ونُزُوعٌ عقليّ واضح، أضفى على كلامه جمالًا في الأداء.

---

(٣٥٢) الحيوان للجاحظ ٣٧٤/٢ – ٣٧٥.

(٣٥٣) النمر والثعلب، ص٤٧.

(٣٥٤) المصدر نفسه، ص٧٥ – ٧٦ (ط. الكعبي). دقائق: جمع دقيق: وهو الأمر الحقير الصغير، ههنا. السَّفْسَاف: الرّديء الحقير من كلّ شيء وعمل، جمعه سَفاسِف. الرَّعَن: الحمق، والأرْعَن: الأهوج في منطقه.

ب ـــ التّلوين الموسيقيّ:

لم يكن حرصُ سهل بن هارون على اقتباس الفِكَر الدّقيقة، والمعاني المبتكرة وتوليدها، بأشدّ من حرصه على إمتاع القارئ فنيًّا، والاستحواذ على مشاعره، وامتلاك لبّه. وهو في هذا المقصد يسلك أكثرَ من سبيل، ففضلاً عن اللّفظ الموحي المعبّر المصقول، والتّعبير الرّصين، والصّورة الإيحائية، يجنحُ إلى إشاعة الإيقاع الموسيقيّ، والجَرْس الصّوتيّ في أدبه؛ من خلال خلق التّوازن بين الجمل، ومُعادلة الألفاظ بعضها ببعض، وكأنّ كلامَه نَغْمةٌ مُوسيقيّة، كما يقول محمّد كرد علي، تعرف انتهاء جملتِه من رَنّتها، بعد أن ملكت عليك مشاعِرَك، وأدخلت السّرور على نفسك. يقول في وصف العقل والعلم: «أمّا العقلُ فإنّه قائمٌ لكلِّ محمود، وجُنَّةٌ من كلِّ مدفوع، حياةُ النّفس وراحةُ البَدَن، مُدّتُه إلى السّرور، وأيامُه إلى السَّلامة، جامعُ شَمْلِ المذاهب، وراجعُ فَوْتِ كلِّ ذاهب، كَنَفُ الرَّحمة ومفتاحُ الهدى، إتاحة المودّة للصّائبين، والسّاقطُ بالظَّنِّ عن اليقين، وزارعُ الخير ومثمر الفطنة...»[٣٥٥].

وعلى هذا النّحو من النَّفَسِ المُسترسل يمضي سهلٌ في وصف العلم، فلا يترك معنى إلّا أحصاه، بألفاظٍ تقطرُ عُذوبةً وحَلاوةً، وتنمُّ على ذخيرةٍ لغوية لا يُدْرَك كُنْهها، ولا يُسْبَرُ غَوْرها. وبهذا التّوازن الدّقيق بين جملِه نُحِسّ نغمات موسيقيّة تنبعثُ من تردادها، وتقطيعًا صوتيًّا ينتج عن تعادل أصواتها. وهذا الإيقاع الموسيقيّ لديه، ينشأ عن تقسيمِ الجمل، ومُعادلة الألفاظ، بحيث يتّشح أسلوبه بحِلْية التّوازن والازدواج، أو في بعض الأحيان بحِلْية السّجع.

ج ـــ دقّة التّعبير:

جمع سهلٌ في أدبه جلالَ التّفكير وجمالَ التّعبير، وعُني بتنميق أسلوبه وتجويده، فاختار ألفاظَه بدقّة، ورصفها رَصْفًا بديعًا دون نبوّ أو شذوذ. وقد بان لنا من خلال ما مرّ بنا من أمثلة، كيف يبالغُ في اختيار ألفاظه، ويسلكها في سلكه، ويرصفها في عقوده، فتجيء

---

(٣٥٥) النمر والثعلب، ص٥١.

جزالة من دون تعمّل، وسلاسة من غير ما تبذّل، ونمطًا عاليًا من السّهل الممتنع، يتدفّق حكمة، ويسيل بيانًا(٣٥٦).

وسهلٌ في نَثْره مُفكّرٌ حكيم، عدا عن كونه أديبًا بارعًا، لذا فإنّ الملاءمة بين اللّفظ والمعنى عمادُ فنّه، وأساسُ صنعته، فلا يجور أحدهما على الآخر، فلفظُه يُساير معناه. ولا عجبَ في ذلك؛ فالبلاغة عنده تكمن في الإيجاز في القول، والإصابة في المعنى. علمًا أنّه لا يعتمدُ الإيجاز إذا كانت الفكرة تستلزم الإطناب، فيفرّع عندئذٍ المعاني، ويطابق بين المعنى والمبنى، ويجانس بين الفكرة العقليّة الدّقيقة، واللّفظة اللّغويّة الرّشيقة.

يقول: «قد أعلمتُك أنّ أحدًا لا يكمل في كلِّ الخِلال، حتّى لا يأتيه عَيْبٌ من بين يديه ولا خَلْفه؛ ولكنّ ذا اللبّ إذا خالطه بعضُ المساوئ، كان له من عقله ساترٌ يحجبه عن أعين النّاس، فإن لم يقدرْ على ما ستره، أحسنَ مُداراة نفسه، حتّى ينصرفَ عنه قبحُ الاسم منه إلى ضِدّه: فيقال للجُبنِ منه حَذَر، وللبُخلِ تقدير، وللمسَبَّة فيه انتصار، وللحِرص اكتساب، وللعِيِّ صمت، وللفظاظة قوّة، ولإفراط العقوبة تأديب، وللغضب عزّ... وحُسْنُ هذه الأسماء كلّها مُنْصرفٌ في الجاهل إلى قُبحها»(٣٥٧).

فسهلٌ هنا يعرض لفكرةٍ عقليّة طريفة، تستند إلى تصوّر دقيق لبواطن النّفس البشريّة، عبّر عنها بلغةٍ رشيقة، مُتتبّعًا دقائق المعاني، ومُستقصيًا لها بتفصيلٍ دقيق. لذا تنوّع أسلوبُه في أداء التّراكيب، فالتزم الأسلوب المُرسل في العبارات الأولى، لأنّه يشرح فكرة عقليّة دقيقة، تتناسب مع إرسال الكلام إرسالًا يجلو المعنى، ويكشف عنه النّقاب دون تقييد بتقسيم العبارات إلى جملٍ قِصار متناسبة في الطّول والأداء، ليبدو عنصر الإيقاع الموسيقيّ واضحًا، كما فعل في الجمل المتوازنة في المثال نفسه.

---

(٣٥٦) انظر: أمراء البيان ١/١٩٠.

(٣٥٧) النمر والثعلب، ص٦٣-٦٤.

وقد أشاد ابن حزم الأندلسيّ بسهلٍ وبلاغته، وأشار إلى أنّ بلاغته تميلُ إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامّة، على خلاف بلاغة الجاحظ. ومَقْصدُه ينصرفُ إلى أنّ الجاحظ يستعمل كلمات العوامّ وألفاظ المُكْدين والمُولّدين، كما في كتاب البخلاء. وللجاحظ في هذا المنزع دوافع وأهداف أوردها في مقدّمات كثيرٍ من كتبه. أمّا سهل فينتخب ألفاظَه بدقّة؛ لأنّه يخاطب في أدبه كبارَ البُلغاء، وهذا يعود إلى طبيعة عمله في الدّواوين وإشرافه على بيت الحِكْمة.

وقد أشار الجاحظ نفسُه إلى بلاغة الكُتّاب عامّة، وهو يعني كُتّاب الدّواوين، فقال: «أمّا أنا فلم أرَ قطُّ أَمْثَلَ طريقةً في البلاغة من الكُتّاب؛ فإنّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّرًا وَحْشيًّا، ولا ساقطًا سُوقيًّا». وأثنى عليهم بأنّهم: «لا يقفون إلّا على الألفاظ المُتخيَّرة، والمعاني المُنتخَبة، وعلى الألفاظ العذْبة والمخارج السَّهلة، والدّيباجة الكريمة، وعلى الطّبع المتمكِّن، وعلى السَّبْك الجيِّد، وعلى كلِّ كلامٍ له ماءٌ ورَونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصّدور عَمَرتها وأصلحتها من الفَساد القديم، وفتحت للِّسانِ بابَ البلاغة، ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حِسان المعاني»[٣٥٨].

د ــ التّضمين والاقتباس والاستشهاد:

إنّ من أهم خصائص أسلوب سهل كثرة التّضمين والاقتباس، ولا سيّما في قصّة النّمر والثّعلب. وتختلف وظائفُ الاقتباس وغاياته بحسب الموضوع المطروق. ولعلّ أحد مميّزات قصّة النّمر والثّعلب عن كليلة ودمنة، اقتران أدب العرب وحكمتهم، بحِكَم الأمم الأخرى، وأعني بأدب العرب الأمثال والأشعار وغيرها ممّا ضمّنه سهلٌ قصّتَه.

وظاهرةُ الاقتباس تبدو عند سهل في مواضع دون سواها من أدبه، بحسب ضرورة المقام. وقد مرّت بنا بعض الأمثلة على ذلك، خاصّةً في رسالة البخل التي أكثرَ فيها من الاستشهاد بالأحاديث النّبويّة والأقوال المشهورة ليدعم أفكاره، كقوله: «وزعمتُ أنّ

---

(٣٥٨) البيان والتبيين ١/١٣٧.

كَسْبَ الحَلال مُضَمَّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأنَّ الخبيثَ يَنْزِع إلى الخبيث، وأنّ الطَّيِّبَ يدعو إلى الطّيّب، وأنَّ الإنفاقَ في الهوى حِجابٌ دون الحقوق، وأنَّ الإنفاقَ في الحقوق حِجَازٌ دون الهوى، فعِبتم عليَّ هذا القول. وقد قال مُعاوية: لم أرَ تبذيرًا قَطُّ، إلّا وإلى جانبه حَقٌّ مُضَيَّعٌ. وقد قال الحسنُ: إذا أردتمُ أنْ تعرفوا من أين أصابَ ماله، فانظروا في أيِّ شيءٍ يُنْفِقُه؟ فإنَّ الخبيثَ يُنْفَقُ في السّرف».

وعلى أيّ حال، فإنّ الاقتباسات كانت وسيلةً مهمّة لإظهار البراعة في البيان والبلاغة، تُرضي ذوق المتلقّي وتُمتعه، وتزيده معرفةً وثقافة.

2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

ثالثًا: محمّد بن عبد الملك الزيّات

١. حياتُه[٣٥٩]:

هو أبو جعفر، محمّد بن عبد الملك بن أبان، اشتهر بابن الزَّيَّات لأنَّ جدَّه أبانًا كان تاجرًا بالزَّيت، وأسرة ابن الزَّيَّات عربيّة الأصل. ولد محمّد سنة (١٧٣ هـ)، ونشأ يحبُّ الأدبَ ويَنْهَلُ منه، ومن علوم اللّغة والآداب الأجنبيّة وغيرها. وقد حاول أبوه أنْ يصرفه إلى التّجارة دون جدوى.

وكان ابن الزَّيَّات «نادرةَ وقته عقلًا وفَهمًا وذكاءً، وكتابةً وشعرًا وأدبًا، وخبرةً بآداب الرّياسة وقواعد المُلْك»[٣٦٠]. عيّنه الحسنُ بن سهل كاتبًا في الدّواوين بعد أن امتدحه، وما لبث أن استوزره المعتصم، وأقبلت عليه الدّنيا؛ فامتدحه الشّعراء، وانْتَجَعَهُ القُصَّاد، ونهض بأعباء الوزارة خير نهوضٍ.

ووَزَرَ للواثق بعد المعتصم، وكان في صدره مَوْجِدة عليه، فآلى أن يقتلَه إن صار الأمرُ إليه، فلمّا استُخلف عفا عنه قائلًا: «والله، ما أبقيتُك إلّا خوفًا من خُلوّ الدّولة من مِثْلك، وسأكّفر عن يميني؛ فإنّي أجدُ عن المال عِوضًا، ولا أجد عن مِثْلك عوضًا»[٣٦١].

وكان ابن الزّيّات رجلَ دولةٍ حازمًا، حريصًا على أموال الدّولة، شديدًا في محاسبة الوُلاة عليها، والضّرب على أيديهم. وقد حاول أن يضع حدًّا لعَبث القُوَّاد الأتراك وجُنْدهم، وينبّه الخليفة على فسادهم وظلمهم، ويُعيد للخلافة هيبتها، في زمنٍ غلبَ قادةَ الجُنْد من الأتراك فيه على الخليفة.

---

(٣٥٩) انظر، في ترجمته: تاريخ الأمم والملوك ١٥٦/٩–١٦١. والأغاني ٤٦٣/٢٢–٥٠٥. والفهرست، ص١٩٧. وإعتاب الكتّاب لابن الأبار، ص١٣٣–١٣٨. ووفيات الأعيان ٩٤/٥–١٠٣. والفخري، ص٢٣٣–٢٣٥. وسير أعلام النبلاء ٤٣٠/٩–٤٣١. وأمراء البيان ٢٧٨/١–٣٠٦. وكتاب محمّد بن عبد الملك الزيّات (سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه) ليحيى الجبوري، ص٩–٧٤.

(٣٦٠) الفخري، ص٢٣٣–٢٣٤.

(٣٦١) الفخري، ص٢٣٤.

وكان ابن الزّيّات شديدًا على المتوكّل قبل خلافته، يعامله بقَسوة وجَفاء، ولمّا توفّي الواثق أشار ابن الزّيّات بخلافة ابنه، فلما وَلي أخوه المتوكّل، استوزرَ ابنَ الزّيّات أربعين يومًا ليطمئنّ. ثمّ ما لبث أن أغراه به خَصْمه الألدّ أحمد بن أبي دؤاد المعتزليّ، قاضي القضاة، وأطمعه في ماله، حتّى أصاخ إليه، فقبض عليه وطالبه بالأموال. ثمّ أدخله التّنُّورَ الذي كان ابن الزّيّات اتّخذه لمعاقبة أرباب الدّواوين والمُطالبين بالأموال، فعُذّب فيه عذابًا شديدًا، حتّى مات سنة (٢٣٣هـ).

ويُعزى قَتْل ابنِ الزّيّات إلى جملة أسبابٍ منها: إشارته بتولية محمّد بن الواثق بدلًا من المُتوكّل، وكان ابن الواثق غلامًا صغيرًا، فقام ابن أبي دُؤاد بأمر المتوكّل، فأفلح في ذلك. وكذلك قسوة ابن الزّيّات على المتوكّل في حياة أخيه الواثق، والتّضييق عليه في النّفقات؛ بحجّة أنه كان مُسْرفًا في اللّهو والملذّات. فضلًا عن مَكايد حُسّاده وخصومه؛ لسياسته الحازمة القاسية، وقد نُسِبَ إليه أنّه قال: «الرّحمة ضَعْفٌ في الطّبيعة، وخَوَرٌ في المُنّة»[٣٦٢].

ويُذكر أنّ المتوكّل لم يجدْ عنده من الأموال، ما يستوجب ذلك العقاب، فقال لابن أبي دؤاد: «أطمعتني في باطلٍ، وحملتني على أَمْرٍ لم أجد منه عوضًا»[٣٦٣]. وفي مَقْتلِه قال بعض الشّعراء[٣٦٤]:

يكاد القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ　　إذا ما قيل قد قُتِلَ الوزيرُ
أميرَ المؤمنين قتلتَ شَخْصًا　　عليه رحاكُمُ كانت تدورُ
فمَهْلاً يا بني العبّاسِ مَهلاً　　لقد كُوِيت بِغَدْركمُ الصّدورُ

وقد قيل: إنّ قائل هذه الأبيات هو الحسن بن وهب (ت ٢٦٤هـ) وكان صديقًا لابن الزّيّات، وظلّ وفيًّا له بعد نكبته، فقال قصيدة في رثائه، منها هذه الأبيات؛ إلّا أنّه

---

(٣٦٢) الأغاني، ٥٠٣/٢٢.

(٣٦٣) الأغاني ٥٠٢/٢٢. وانظر: تاريخ الأمم والملوك ١٦١/٩.

(٣٦٤) الفخري ص١٤٩. والأبيات من قصيدة في الأغاني منسوبة إلى الحسن بن وهب: ٥٠٤/٢٢-٥٠٥.

أنكرها خوفًا من بَطْش السّلطان وبطانته، ولكنّها عُرفت له؛ لأنّها مكتوبة بخطّه[٣٦٥]. وكان ابن الزّيّات قلّده ديوان الرّسائل لمّا ولي الوزارة، فربّما ركنَ إليه في التّرسّل، فقلّت رسائلُ ابن الزّيّات في كتبِ الأدب، مع استفاضة شُهْرته في مِضمار البلاغة.

٢ـ أدبُه:

تذكر المصادرُ التي ترجمت لابن الزّيّات أنّه كان كاتبًا بليغًا، وشاعرًا مجيدًا. يقول ابن خلّكان عنه: «كان من أهل الأدب الظّاهر والفَضْل البَاهر، أديبًا فاضلًا بليغًا عالمًا بالنَّحو واللُّغة».

وما عفا الواثقُ عنه ـ وكان أقسمَ على قَتْلِه إن تولَّى الخلافة ـ إلّا لعِلْمه، ولحاجة الدَّولة إليه، كما قال الواثق نفسه، وكان يقول أيضًا: (السُّلطان إلى محمّد بن عبد الملك أحوج من محمّد إلى السُّلطان).

وقد طلب الواثقُ إلى الكُتّاب جميعًا، أن يكتبوا بين يديه كتابًا بتولِّيه الخلافة وذِكْرِ وفاة المعتصم، فكتبوا وعرضوا ذلك عليه، فلم يرضَ بـه، وطلب من ابن الزَّيَّات أن يكتب هو، فكتبَ كتابًا استحسنه الواثق، وغَفَرَ لـه، وقلّده الوزارة.

وقد شغل ابنُ الزَّيَّات منصبه كاتبًا ووزيرًا نحو عشـرين سنة، ومع ذلك لم تصلْ إلينا رسائل كثيرة لـه، مع كثرة الرَّسائل الموجَّهة إليه. ولعلَّه كان يعتمدُ على غيره في الرَّدِّ عليها، كما أنّ مَقْتلَه من قبل الدَّولة وكثرةَ حُسّادِه سَبَبٌ في ضياع رسائله أو قسمٍ كبير منها. وما وصل إلينا من أدبه يدلّ على بلاغته وموقعه بين أدباء عصره، وفيه يقول البُحتريّ (ت ٢٨٤هـ) من قصيدةٍ بديعة[٣٦٦]:

---

(٣٦٥) الأغاني، ٥٠٣/٢٢. وانظر: محمّد بن عبد الملك الزيّات (سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه)، ص٣٨-٧٣.

(٣٦٦) ديوان البحتري ٦٣٦/١.

لَتَفَنَّنْتَ في الكتابة حتّى عَطّلَ النّاسُ فَنَّ عبدِ الحميدِ
في نظامٍ من البلاغةِ ما شَـ ـكَّ امرؤٌ أنّه نظامٌ فريدِ
وبديعٍ كأنَّه الزَّهَرُ الضَّا حِكُ في رَوْنقِ الرّبيع الجديدِ

وذكرَ صاحبُ الفهرست أنّ له (ديوان رسائل)؛ إلّا أنّه لم يصل إلينا غير ما تناثر في كتب التّراث. وبما أنّه قضى «مَغْضوبًا عليه من قبل المتوكّل؛ أي من قبل السّلطة وأعوان السّلطة، وأنّه كان في عهد وزارته كثير الخصوم النّاقمين عليه، والحُسّاد، والمُتضرّرين من سياسته وشدّته، كلّ هذه الأمور ساعدت على ضياع رسائل ابن الزّيّات، وكذلك ضياع قسم كبير من شعره»[٣٦٧].

٣ـ أسلوبه وخصائص نَثْره:

تبدو في أسلوب ابن الزَّيّات معالم أساليب العصر ومؤثّراته كقوَّة التّعبير، والوضوح، وسهولة الألفاظ، وجمال العبارة، والأداء البليغ، واستخدام التّرادف والازدواج. ويغلب على أسلوبه طابع الجدِّ والقوَّة والحزم، مع الوضوح والإيجاز، ولا يميل إلى الإطالة إلّا في بعض الرَّسائل التي يستدعي موضوعها ذلك. **ومن خصائص أسلوبه**[٣٦٨]:

أ ــ الإيجاز:

ضربٌ من الاقتصاد في التَّعبير مع الاتِّساع في المعنى ليحيط الكاتب بكلِّ ما يدور في نفسه، مع الوفاء برَصانة اللَّفظ وجزالته، والدِّقة في انتخابه. يقول ابن الزَّيّات مُبيِّنًا علاقة الحاكم بالمحكوم: «إنَّ الله أوجبَ لخُلفائه على عبادِه حقَّ الطَّاعة والنَّصيحة، ولعَبيدِه على خُلفائه بَسْطَ العَدْلِ والرَّأفةِ، وإحياءَ السُّننِ الصَّالحة، فإذا أدَّى كلٌّ إلى كلٍّ حقَّه، كان ذلك

(٣٦٧) محمّد بن عبد الملك الزيّات (سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه)، ص١١١.

(٣٦٨) انظر: العصر العبّاسيّ الأول، ص٥٦٢ ومابعدها. ومحمّد بن عبد الملك الزيّات (سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه)، ص١١١ ومابعدها.

سببًا لِتمام المعونة، واتِّصال الزِّيادة، واتِّساق الكلمة، ودوام الأُلفة»[٣٦٩]. والإيجاز هو السِّمة الغالبة على كتابات ابن الزَّيَّات، ولكنَّه قد يطيل إذا اقتضى الأمرُ ذلك .

ب ــ البساطة والوضوح:

وهي صفةٌ غالبة في أسلوبه؛ إذ يتجنَّبُ التّكلُّفَ والتّعقيد، ويؤثرُ البساطةَ والوضوح، وعَرْضَ أفكارِه بتسلسلٍ ومنطقٍ كما في المثال السابق .

ج ــ قِلَّة السَّجْع:

أسلوبه يكاد يخلو من السّجْع، كما يتّضح في أكثر رسائله، وقد يَرِدُ لديه عفوَ الخاطر، فمن ذلك قولُه: «إنّ من حقِّ الأولياء على السُّلطان تنفيذَ أمورِهم، وتقويمَ أَوَدِهم، ورياضةَ أخلاقِهم، وأن يميّز فيقدّم مُحْسِنَهم، ويُؤخِّر مُسيئهم؛ ليزدادَ هؤلاء في إحسانهم، ويزدجرَ هؤلاء عن إساءتهم».

د ــ الميل إلى الازدواج والتّرادف:

هذه سِمَةٌ وجدناها عند سهل بن هارون من قبل، وقد مرَّ بنا أنَّ الازدواج يضفي على الأسلوب التّوازن الإيقاعيّ والجَرْس الموسيقيّ والانسجام بين الحروف. ومن أمثلته قوله: «ثمّ وهبَ له الظّفر، ودوّخَ لـه البـلاد، وشرَّد به العدوَّ، وخصّه بشَرَفِ الفتوح شرقًا وغربًا، برًّا وبحرًا».

هـ ــ مُراعاة مُقتضى الحال:

ابن الزَّيَّات حين يكتب إلى الوُلاة على لسان الخليفة يتَّضح في أسلوبه الحزم والقوَّة والإيجاز، وحين يكتب إلى أصدقائه يُظهر اللِّين ودماثة الخُلق، وحين يكتب في أمور الحرب يُطيل ويُطنب، ويشتدُّ في مواضع الشِّدَّة، ويلين في مواضع اللّين، وحين يكتب في أمور الخلافة تظهر لديه الصِّبغة الدِّينية، كما تظهر لديه ثقافته التّاريخيّة في السِّياق الذي يقتضيها. كما صنعَ في العَهْد الذي كتبه للواثق على مكَّة المكرَّمة بحَضْـرة والده المعتصم: «أمّا بعد، فإنّ أميرَ المؤمنين قد قلّدك مكّةَ وزمزم، تراثَ أبيك الأَقْدَم، وجَدِّك الأكرم، ورَكْضَةَ جبريل،

---

(٣٦٩) العقد الفريد٤/٢٤٠.

وسُقْيَا إسماعيل، وحَفْرَ عبدِ المطّلب، وسِقاية العبّاس؛ فعليك بتقوى الله تعالى، والتّوسعةِ على أهل بيته»(٣٧٠). ولعلّه أَوْجز عَهْدٍ في العصر العبّاسيّ الأوّل؛ بل هو كذلك فيما وصل إلينا من العهود.

وقد ذكر فيه قضايا تاريخيّة وإسلاميّة، يطول ذكرها؛ إذ أشار إلى قصّة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام، حين ولدت إسماعيل، فتملّكتِ الغَيْرَةُ قلبَ سارة الزّوجة الأولى لإبراهيم عليه السلام، فألجأته إلى إنزالهما بِوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ؛ كما وَرَدَ في البيان الإلهيِّ: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم: ٣٧/١٤]. ولمّا لم يجدا ماءً، هبط جبريل عليه السلام راكضًا على موضع بئر زمزم، فانفجرت منه الماء ـ بإذن الله ـ ثمّ مرّت الأيّام فانطمرت البئر، فحفرها عبد المطّلب جدّ الرّسول الكريم ﷺ، وسقى منها الحجيج، ثمّ وَرِثَ السّقاية العبّاس بعد أبي طالب، وهو جدّ العبّاسيّين. وقد أُعجب المعتصم بهذا العهد إعجابًا كبيرًا.

---

(٣٧٠) زهر الآداب وثمر الألباب ١٠٢٦/٢. ويعني بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام، وبجدّه الأكرم: إبراهيم خليل عليه السلام.

رابعًا: الجاحظ

١ـ حياتُه[٣٧١]:

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، رأس كُتّاب العصر العبّاسيّ غير مُدافَعٍ ولا مُنازَعٍ، قيلَ: إنّه عربيٌّ من كِنانة، وقيلَ: بل هو كنانيٌّ بالولاء. لُقِّب بالجاحظ لنُتوءِ حَدقَتَيْه وجُحوظهما. وُلدَ بالبصرة في أسرةٍ مُتواضعة، فقيرة الحال، نحو سنة (١٥٩ هـ)، ومات والده وهو مازال صغيرًا، فَعُنيتْ به أمُّهُ وأدخلتهُ الكتاتيب.

ثمّ أقبل على حلقات العلم في المساجد، وفي سوق المِرْبد، يسمع من الأعراب الفُصحاء، ويأخذ عن علماء اللّغة والمتكلّمين، وينهَلُ من مَعين فِكْرهم، فتتلمَذَ على يد كبار العلماء كالأصمعيّ وأبي عُبَيدة في اللّغة، والأخفش في النّحو، والنّظّام في علم الكلام والاعتزال، وغيرهم.

وقد أقبل على قراءة كلِّ ما تُرجِم من الثّقافات الأجنبيّة، وكانَ شَغوفًا بالقراءة إلى حدٍّ كبيرٍ، فقد قيل: إنّهُ كان لا يقع في يده كتابٌ إلّا قرأهُ، وكان يكتري دكاكين الورّاقين، ويَبيتُ فيها للقراءة والنّظر.

(٣٧١) انظر، في ترجمته وآثاره: الفهرست، ص٢٩١–٢٩٦. ومعجم الأدباء، تح: إحسان عباس، (ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م) ٥/٢١٠١–٢١٢٢. وإعتاب الكتّاب، ص١٥٤–١٥٦. ووفيات الأعيان ٣/٤٧٠–٤٧٥. وأمراء البيان ٢/٣١١–٤٨٧. والجاحظ، حياته وآثاره، لطه الحاجري. والجاحظ، لشارل بللا. والنزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، لفيكتور شلحت. والجاحظ معلّم العقل والأدب، لشفيق جبري. وتطوّر الأساليب النثريّة في الأدب العربي، لأنيس المقدسي، ص١٦٨–١٨٦. والعصر العبّاسيّ الثاني، ص٥٨٧–٦١٠، والفنّ ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف، (وقد أفدنا إفادةً كبيرة منه، ههنا، وأعدنا القول مكرورًا عنه في بعض المواضع). وملامح النثر العبّاسيّ، لعمر الدقّاق. والدراسات والبحوث التي بسطت القول مطوّلاً عن الجاحظ وآثاره وأدبه وسمات أسلوبه كثيرة جدًّا. وبحثُ الجاحظ هذا، في الأصل، محاضرةٌ لم أعد صياغتها وتوثيق النّقول والنّصوص فيها بالطريقة الأكاديميّة، فليعُلم.

Al-Furat University

اتّصل الجاحظُ بالمأمون، وعمل في ديوان الرّسائل مدّة ثلاثة أيّام، ثمّ استُعفِيَ فأُعفِي. ويبدو أنّ حال العمل في الدّيوان لم توافقْهُ؛ لِمَا فيه من الكيد والحَسَد، إضافةً إلى طبيعة الجاحظ غير المنسجمة مع رتابة الشّؤون الرّسميّة والإداريّة.

وفي عهد المُعتصم اتّصل الجاحظُ بمحمّدِ بن عبد الملك الزّيّات وزيرِه، وقدّم إليه كتابه (الحيوان)، فكافأه بخمسة آلاف دينار.

ثمّ اتّصل بأحمد بن أبي دُؤاد، عدوّ ابن الزّيّات، الذي عفا عن الجاحظ بعد مَقتل ابن الزّيّات، وقرّبه منه، وكان أحمد من بُلغاء النّاس وفصحائهم، برعَ في الفقه وعلم الكلام. وكان صاحب منزلة عند المأمون، ثمّ المُعتصم الذي جعلهُ قاضي القُضاة، وقد أهدى إليه الجاحظ كتابه (البيان والتّبيين)، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار أيضًا.

في عصر المتوكّل كان الجاحظ صديقًا لوزيره الفتح بن خاقان. وقد أهدى إليه الجاحظُ كتابه (مناقب جُند الخلافة وفضائل الأتراك)؛ فأجرى عليه راتبًا شهريًّا كان يتقاضاهُ من خِزانة الدّولة. ويُقال: إنّ المتوكّل طلب من الجاحظ أن يُؤدّب أولاده، فلمّا حضر ورآهُ، اسْتقبَحَ شكله وصَرَفه، بعد أن أمر له بعشرة آلاف درهم. وقيل: بل كانَ الجاحظ مُصابًا بالفالج والنّقرِس، فلم يستطع أن يُلبّي طلب المتوكّل، واعتذر عن المثول بين يديه.

وبعدَ مرضٍ طويل انهالتْ الكتب الثّقال يومًا على الجاحظ، فقضتْ عليه سنة (٢٥٥هـ)، بعد أنْ عاشَ ما يقرب من القرن، وذهبَ ضحيّة آثر الأصدقاء وأعزّهم عليه.

٢ـ أدبُهُ وآثارُهُ:

يُعدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العبّاسيّ، وهو الثّمرة النّاضجة لكلِّ الجهود العقليّة الخصبة التي نهضَ بها المُعتزلة، من حيث وضوح المنطق، وقوّة الاستدلال، ووضوح المعاني. ولذا قال عن كُتُبِه ابنُ العميد: «إنّ كُتُبَ الجاحظ تُعلِّمُ العقلَ أوّلًا، والأدبَ ثانيًا»، وقال أيضًا عنه: «إنّ النّاس عِيالٌ عليه في البلاغة والفصاحة». وقال المسعوديّ: «كتبُ

الجاحظِ، معَ انحِرافِهِ المشهُورِ، تجلو صَدَأ الأذهَانِ، وتكشف واضح البُرهان ؛ لأنّه نَظَمَها أحسنَ نَظْمٍ، ورَصَفَها أحسَنَ رَصْفٍ، وَ كَساها مِنْ كلامِهِ أجْزَلَ لفظٍ...».

وقد نال الجاحظ شُهْرةً مُدوّية في عصره وبعد عصره، فكثيرًا ما لهجَ النقّاد والأدباء بمَدْحه والثّناء عليه. وقد مكّنهُ طولُ عمره، ودَأبُه على المُطالعة، وقدرتُه على الاستيعاب من الإكثار من التّأليف والتّصنيف. يقول المسعوديّ: «لا يَعلمُ أحدٌ من الرّواة وأهلِ العلمِ أكثرَ كُتُبًا مِن الجَاحِظ».

وقد أحبَّ الجَاحِظُ الكِتابَ، وأطالَ صُحْبته، وأشادَ بفَضْلِه، يقول مثلًا: «الكتابُ وعاءٌ مُلِئَ عِلمًا، وظَرفٌ حُشِيَ ظرفًا، وإناءٌ شُحِنَ مزاحًا وَجِدًّا، وإنْ شئتَ كانَ أبينَ مِنْ سَحْبان وائل، وإنْ شئتَ كانَ أعيا مِنْ بَاقل...».

ويمتاز الجاحظ بأنّهُ لم يترك موضوعًا عامًّا إلّا وكتبَ فيه، ومن أشهر مُؤلّفاته:

البيان والتّبْيين:

وهو مِنْ أجلِّ كتب الجاحِظ، بل هو أشرفها، يقول المسعوديّ: «وللجاحِظ كُتُبٌ حِسانٌ مِنْها كِتابُ البيان والتّبْيين، وهو من أشرفها؛ لأنّهُ جمعَ فيه بينَ المَنْظوم والمَنْثور، ودُرَر الأشعار، ومُستَحْسَن الأخبَار، وبليغ الخُطب». وهو مِنْ الكتب التي أشار إليها القُدماء على أنّها من أصول الأدب، كما ذكر ابن خلدون. ولعلّ تفضيل كتاب (البيان والتَّبْيين) على سائر كتب الجاحِظ يرجع إلى أنّهُ كتابٌ أدبيّ صِرْف، وثيق الصِّلة بتراث العرب، وحياتهم الأدبيّة. طُبع غير مرّة، أجودها في أربعة أجزاء، بتحقيق عبد السّلام هارون.

الحيوان:

إذا كان كتاب (البيان والتَّبْيين) يكشف عن أدب الجاحِظ وفنّه، فإنَّ كتاب (الحيوان) يكشف عن فِكْره وثقافته وعِلْمه. وتتجلّى أهمّيّته في أنّهُ أوّلُ كتابٍ عربيٍّ جامعٍ

يتناول موضوعَ الحيوان، ويُعَدُّ دائرةَ معارف واسعة، فقد حَوَى طائفةً من المعارف الطبيعيّة، والمسائل الفلسفيّة، كما تحدّث في السّياسة وعلم الكلام والطّبِّ وغير ذلك.

والجاحظ في كتابه (الحيوان) يمزج العلم بالأدب مَزْجًا بديعًا، يظهر فيه عقلُ الجاحظ الدَّقيق، وثقافته الموسوعيّة، وبيانه الرّفيع. طُبع غير مرّة، أجودها بتحقيق عبد السّلام هارون.

البخلاء:

يُعَدُّ أبرز أثرٍ للجَاحِظ، يتّسم بالطّابع الإنشائيّ الأدبيّ، والصّبغة الفنّيّة، وهو يدلُّ على حقيقة شخصيّة الجَاحظ بملكاته المتعدِّدة، كإشراق الأسلوب، وبراعة التّصوير، والقدرة على التّحليل النّفسيّ، ورَصْد المنازع والطّباع الإنسانيّة، وتصوير الانفعالات، والدّعابة والظّرف.

ولعلَّ هدفَ الجاحظ من هذا الكتاب يكمُنُ في الرّدّ على الشُّعوبيّين الذين طعنُوا على العرب في بيانهم وفصاحتهم وشجاعتهم وغير ذلك؛ بل طعنوا عليهم في أخصِّ مزاياهم، ألا وهي ظاهرة الكَرَمِ التي يفخر بها العرب. ولذلك قلَّلَ الشُّعوبيّون من قيمتها، وسخروا مِمّن تغنّى بها، وامتدحُوا قيمةً مُناقضة لها وهي البُخْل، فسخر الجاحظُ من البُخلاء؛ إذ كان ذا نزعة عروبيّة واضحة، وأكثر الذين عمد إلى تصويرهم كانوا من الفُرس، مع أنَّ البُخْلَ ظاهرةٌ شائعةٌ في كلِّ المجتمعات. وكتاب (البُخلاء) مُعْتدل في حَجْمه، نُشِر غير ما مرّة، أجودها بتحقيق الدّكتور طه الحاجري في جزءٍ واحد.

٣ـ أسْلوبُه ومَذهَبُهُ الفنّيّ:

عبّر الجاحظُ في بيانٍ عَذْبٍ عن موضوعاتٍ كثيرة، وكانت كتابته ذات موضوع قبل أنْ تكونَ ذات أسلوب، عِلْمًا أنّهُ لم يكن يهمل أسلوبَه، بل كان يُعنى به عنايةً شديدةً، فهو يهتمُّ بألفاظه ومعانيه جميعًا، دون أنْ يَجورَ أحدهما على الآخر. يقول: «شَرُّ البُلَغاءِ مَنْ هيّأَ رَسْمَ المَعْنى قبلَ أنْ يُهيِّئ المَعْنى، عِشقًا لذلِكَ اللّفظِ، وشَغَفًا بذلكَ الاسْم، حتّى صَارَ يَجُرُّ إليهِ المَعْنى جَرًّا، ويلزمهُ به إلزامًا، حتّى كأنَّ الله تعالى لمْ يَخلقْ لذلكَ المَعْنى اسْمًا غيرهُ».

ومن أهمّ سمات أسلوبه:

أ ـــ الواقعيّة:

مَنْ يتابع الجاحِظ في كتبه ورسائله يجده شَغوفًا بحكاية الواقع، لا يتستّر ولا يتخفّى، وقد دافع مرارًا عن هذا المنهج، وقال: (إنّ مَنْ يعدل عنه لا بُدّ أنْ يكون صاحب رياء ونِفْاق).

وقد أثّرت الواقعيّة في كتابات الجاحظ آثارًا مختلفة، كما بيّن ذلك الدّكتور شوقي ضيف، منها: أنّه يُعنى بحكاية عَصْره وتمثيله تمثيلًا دقيقًا، بحيث تعدّ أعماله أهمّ مرجع لحقائق العصر الذي عاش فيه؛ إذ نراهُ يصوّر هذه الحقائق بكلّ ما فيها من طُهْر ووِزْر ودِين وزَنْدقة وجِدّ ولَهْو.

ومن آثار الواقعيّة في كتاباته ما يُلاحظ عليه من تدقيقه في ألفاظه، وانتخابها بحيث يلائم ما يصفه أو يصوّره، حتّى إنّه ليحكي كلامَ المجانين وأهلَ الغَفْلة والصّعاليك واللّصوص والعوامّ بما فيها من لحن وخطأ، لينقل إلينا الواقع بكلّ ما فيه. يقول في كتابه (البخلاء): «وإنْ وجدتُم في هذا الكِتاب لحْنًا أو كلامًا غير مُعْرِبٍ، أو لفظًا معدولًا عن جهته، فاعلموا أنّا إنّما تركنا ذلك؛ لأنَّ الإعرابَ يُبغّضُ هذا الباب، ويخرجُهُ من حَدِّه، إلّا أنْ أحكي كلامًا من كلام مُتعاقلي البُخَلاء، وأشحّاء العُلماء، كسَهْل بن هارون وأشباهه».

ولعلّ من آثار الواقعيّة في كتاباته عدمَ عنايته بالتّشبيهات والاستعارات، إلّا ما جاءَ عَفْوَ الخاطر، أو كان الغرضُ منه تمثيل الواقع، فالكتابة عنده ليستْ زُخرفًا خالصًا، بل هي معانٍ تُؤدّى بدِقّة. وليس معنى ذلك أنّ الجاحِظ لم يكن دقيقَ التّصوير، إنّما ترك الأخيلة لِمَا فيها من مُبالغات، وإلّا فهو مُصوّرٌ بارعٌ يعرفُ كيفَ ينقلُ المَشاهدَ بكلِّ تفاصيلها ودقائقها، مُستعينًا بقُدْرته على الملاحظة. ويبدو ذلك واضحًا في كتابه (البُخَلاء)، حينما يصوّر جَشَعَ النّهمين وحركاتِ أيديهم وقَسَمات وجوههم.

ب ــ الاستطراد:

يُلاحِظُ كلُّ مَنْ يقرأ كتابات الجاحظ حالةً من التّشعّث في التّأليف، فهو دائمًا يتنقل من بابٍ إلى بابٍ، ومن خبرٍ إلى خبرٍ، ومن شعرٍ إلى فلسفةٍ، ومن جِدّ إلى هَزْلٍ وهكذا؛ إذ كان يتّخذ الاستطراد مَنْهجًا في تآليفه، خاصّةً في حيوانه وبيانه، وقد اعترفَ به مرارًا واحتجَّ له. يقول في (الحيوان): «قدْ عَزَمْتُ، والله المُوفِّقُ، أنْ أوشّحَ هذا الكتابَ، وأفصّل أبوابه بنوادِرَ مِنْ ضُروبِ الشّعر وضُروبِ الأحاديثِ؛ ليخرُجَ قارئُ هذا الكتابِ مِنْ بابٍ إلى بابٍ، ومنْ شَكْلٍ إلى شَكْلٍ، فإنّي رأيتُ الأسماعَ تَمَلُّ الأصواتَ المُطربَةَ والأغاني الحَسَنَةَ، والأوتارَ الفصيحة إذا طالَ ذلك عَلَيْهَا».

فالجاحظُ يعترفُ بأنّه يستطرد عَمْدًا خَشْيَةَ مَلَلِ القارئ، غير أنَّ هناك عِلّةً أخرى لاستطراد الجاحِظ، ذكرها صراحةً في حيوانِهِ حينَ قال: «قدْ صَادفَ هذا الكتابُ منّي حالاتٍ تمنعُ منّي بُلوغ الإرادة فيهِ، أوّلُ ذلِكَ العِلّةُ الشّديدةُ، والثّاني قِلّةُ الأعوانِ، والثّالثُ طولُ الكتاب...».

فهو يعترفُ بأنّ مرضَهُ أدخل الخَلَلَ على تأليف كتابه؛ إذ ألّفهُ وهو مفلوج، وألّف بعده كتاب (البيان والتَّبْيين)، فظهر فيهِ الخللُ والاستطراد أكثر ممّا ظهر في كتاب (الحيوان). وقد ساعدتهُ على الاستطراد ثقافتُهُ الواسعة بجميع معارف عصره من هنديّة وفارسيّة ويونانيّة وإسلاميّة.

ج ــ التّلوين الموسيقيّ:

إذ نجدهُ يُعنى بأصواته عنايةً فائقةً، لا عن طريق استخدام السّجع، وإنّما عن طريق التّرادف والتّوازن الصّوتي الدّقيق، يقول: «جَنّبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنْ الحَيْرة، وجَعَلَ بيْنَكَ وبينَ المعرفة نَسَبًا، وبينَ الصِّدق سَبَبًا، وحَبّبَ إليكَ التّثبُّتَ، وَزيّنَ في عينيكَ الإنصافَ، وأذاقَكَ حَلاوةَ التّقوى، وأشعَرَ قلبَكَ عِزَّ الحَقّ، وأودعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليقين، وطَرَدَ

عَنكَ ذُلَّ اليأس، وعرّفكَ ما في الباطِل مِنْ الذِّلةِ، وما في الجَهل مِنْ القِلَّةِ». فكلُّ جملةٍ تُقابل أختها في هذا النّصِّ، وفي غيره أيضًا.

د ـــ النَّزعة العقليّة:

وهي من أهمِّ سمات أسلوب الجاحظ، وصَنْعته الفنّيّة؛ لأنّه كان مُتكلِّمًا، أي يُتقِنُ عِلْمَ الكلام، وقد وصفَ الجاحظُ نفسُه المُتكلِّمَ في عصره، فقال: «لا يَكونُ المُتكلِّمُ جَامعًا لأقطار الكلام، متمكِّنًا في الصّناعةِ، يصلُحُ للرِّياسة، حتّى يكون الذي يُحسِنُ من كلام الدِّين في وَزْنِ الذي يُحْسِنُ مِنْ كلام الفلسَفة».

وقد تربّى الجاحِظُ في بيئة المتكلِّمين، على يد أستاذه النّظّام، فأخرجهُ لَسِنًا جَدِلًا، يعرف كيف يحاور، وكيف يستخدم المنطق ليدعم آراءه، وينصر أفكارَه. وقدْ تشبّث بطريقة الحوار والجدَل، وتحدَّث عن محاسن الأشياء، ثمّ عاد وتحدَّث عن مساويها. وهو دائمًا يعرض أفكاره في صورة حِجَاجٍ، يقوم على براهين وأدلّة ومقدِّمات وأقيسَة. ويُعَدُّ أهمَّ كاتبٍ في العصر العبّاسيّ حكَّمَ المنطق في كتاباته جميعها.

يقول في نصٍّ يتحدَّث فيه عن الخير والشّرّ، وأنّهما ضروريّان لصلاح الكون: «اعلمْ أنَّ المَصلحة في أمْر ابتدَاء الدُّنيا إلى انقضاء مُدَّتها، امتزاج الخير بالشّرِّ، والضّارِّ بالنَّافع، والمكروهِ بالسَّارِّ، والضَّعَةِ بالرِّفعَةِ، والكثرة بالقِلّةِ، ولو كانَ الشَّرُّ صِرْفًا هَلَكَ الخَلقُ، أوْ كَانَ الخيرُ مَحضًا سَقطَتِ المِحْنةُ، وتقطّعتْ أسبابُ الفِكْرة، وَمَعَ عَدَم الفِكرة يَكون عدمُ الحِكمةِ...».

ثمّ يستطرد في كلامه مُدافعًا دفاعًا قويًّا عن ضرورة بقاء الشّرّ في الكون، وهو دفاعٌ يستمدُّه الجاحِظُ من التّفكير الدّقيق في حقائق الكون. وهو تفكيرٌ يقوم على المنطق والاستدلال والقياس، وعلى التّأثّر ببعض آراء المتكلِّمين، ولذلك قال ابن العميد: «إنّ كُتُبَ الجَاحظ تُعلِّمُ العقلَ أوّلًا، والأدبَ ثانيًا». فالعقل عنده أساس صَنْعتهِ، وكأنّما سُخِّرَ العقلُ للجَاحِظ، ولعلّ ذلك ما جعلَ المأمون يقول لَهُ، وقدْ قرأ كتبه في موضوع الإمامة: «قد

كان بعضُ مَن يُرتضى عقلُه، ويُصَدَّق خبره، خبّرنا عن هذه الكُتب، بإحكام الصّنعة، وكثرة الفائدة، فقلنا له: قد تُربي الصِّفة على العِيان، فلمّا رأيتُها رأيتُ العِيانَ قد أَرْبى على الصِّفة، فلمّا فَلَيتُها أَرْبى الفَلْيُ على العِيَان، كما أَرْبى العِيانُ على الصِّفة».

ومن المؤكّد، كما يقول الدّكتور شوقي ضيف، أنَّ العربيّة لم تعرف كاتبًا فرضَ نفسَه على عصره والعصور التّالية، كما عرفت الجاحظ، الذي ملأ الدُّنيا، وشغل النّاس بمَلَكاته النّادرة، وثقافته الموسوعيّة، وما اتّصف به مِن طوابعَ عقليّة، ومِن نَقْلٍ لكلِّ الصُّور الحياتيّة في مُجتمعه، ومِن استطرادات تحمل كثيرًا من الطُّرف والنّوادر، ومن أسلوبٍ مُتوازنٍ مُزدوجٍ، يَرُوعُ القارئ بجَرْسه وإيقاعه، كما يُمتع بمضامينه العقول والأفئدة.

ـــ نموذج من رسائل الجاحظ: رسالة التّربيع والتّدوير

هي رسالةٌ تجمع بين دفَّتيها جلال التَّفكير الدَّقيق، وجمال التَّعبير الأنيق، كتبها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهّاب، أحد أصحاب محمّد بن عبد الملك الزَّيَّات، ووصفه فيها بأنَّه: «يعدُّ أسماء الكُتب ولا يفهم معانيها، ويحسُدُ العلماء من غير أنْ يتعلَّق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلّا الانتحال لاسم الأدب».

وقد ذكرَ أنَّه كان يُطاوله ويُنافسه ويحسده، ولذلك ألَّف فيه هذه الرِّسالة، يسأله فيها عن بعض معارف عَصْره المُشْكلة في المنطق والفلسفة والكيمياء والإنسان والحيوان وتاريخ العرب وغيرهم من الأمم وغير ذلك. وهو يُنهي هذه الأسئلة الكثيرة التي امتدَّت في خمسين صفحة بقوله: «وقد سألتُكَ، وإنْ كُنْتُ أعلمُ أنَّكَ لا تُحْسِنُ من هذا قليلًا ولا كثيرًا، فإنْ أردْتَ أنْ تعرِفَ حقَّ هذه المسائل وباطنها... فألزِمْ نَفْسَكَ قراءةَ كُتبي ولُزُومَ بابي».

والجاحظُ يستهلُّ رسالتَه على هذا النَّمط: «كان أحمدُ بنُ عبدِ الوهّابِ مُفرِطَ القِصَر، ويدَّعي أنَّه مُفرِطُ الطُّولِ، وكان مُربَّعًا، وتحسبُهُ لسَعَةِ جُفْرتِهِ واستفاضةِ خاصرتِهِ مُدوّرًا، وكان خَشِنَ الأطرافِ، قصيرَ الأصابعِ، وهو في ذلك يدَّعي السَّباطةَ والرَّشاقةَ، وأنّه عتيقُ

الوجهِ، أخمصُ البطنِ، مُعتدلُ القامةِ، تامُّ العظمِ. وكان طويلَ الظَّهرِ، قصيرَ عَظْمِ الفَخِذ، وهو مع قِصَرِ عَظْمِ سَاقِهِ، يدَّعي أنَّهُ طويلُ البادِ، رفيعُ العِمادِ».

والواضح من السُّطور الأولى للرّسالة، كما يقول الدّكتور شوقي ضيف، أنَّنا بإزاء فنٍّ جديد في الهجاء، يستعين فيه صاحبُه بضُروبٍ من المُفارقات، فأحمد بن عبد الوهاب مُفْرِط القِصَر، ويدَّعي أنَّه مُفرِط الطُّول...ومن هذه المفارقات يستمدّ الجاحظ هجاءَه لابن عبد الوهّاب. وقد استطاع أنْ يُشَوِّهَهُ تَشْويهًا رُبَّما يتفوَّق فيه على أصحاب فنِّ التَّصوير السَّاخر (الكاريكاتير) في العصر الحديث. وهو لا يكتفي بتَشْويهِ جِسْمِهِ بل نراه يعمد إلى تَشْويه عقله من خلال ما يعرضه عليه من أسئلة يهزأ فيها به كما يهزأ بتفكيره.

وهو يستعينُ على ذلك بفِكْرة الطُّول والقِصَر، والتَّربيع والتّدوير، ولذلك سُمِّيت الرِّسالة بـ (رسالة التّربيع والتّدوير)، فقد بناها الجاحظُ على هذه الفِكرة التي رُبَّما يكون قد استعارها، كما يقول الدّكتور شوقي ضيف، من فكرة الأوساط اليونانيّة المعروفة في الأخلاق، لكن بعد تعديلها وتحويرها، فإذا هي لا تُثار في الأخلاق وإنَّما تُثار في الأجسام وفي الهجاء. يقول الجاحظ: «ومن غريبِ ما أُعطيت، وبديع ما أُوتيت، أنَّا لم نرَ مَقْدودًا واسعَ الجُفْرة غيرك، ولا رشيقًا مُسْتفيضَ الخاصرةِ سواكَ، فأنتَ المديدُ، وأنتَ البسيط، وأنتَ الطَّويلُ، وأنتَ المُتدارِكُ، فيا شِعْرًا جمَعَ الأعاريض، ويا شخصًا جمع الاستدارة والطُّول».

وعلى هذا النَّحو يسوقُ الجاحظ حديثه في الرِّسالة مُتلاعبًا بفِكْرة الطُّول والقِصَر، وما ينبغي أن يكون من التَّوسط بين الطّرفين، وكأنَّه يُناقش مسألة علميّةً دقيقةً، أحال فيها أحمد بن عبد الوهّاب إلى مُشْكلةٍ من مشاكل الاعتزال أو الفلسفة، من خلال التّحقيق في مسألة التَّوسط بين الطّرفين تحقيقًا دقيقًا.

وقد بلغ الجاحظُ من ابن عبد الوهّاب ما لم يبلغه كاتبٌ ولا شاعر في اللّغة العربيّة من السُّخريّة بشخص من الأشخاص، وهو يصلُ إلى ذلك عن طريق ما يَسُوقه من تهكُّمٍ

وسُخريةٍ لاذعةٍ لا عن طريق السَّبِّ والشَّتمِ والقَذفِ، إضافةً إلى ما ساقه من أسئلةٍ كثيرة حتّى تتمَّ له سخريته من صاحبه.

وهذه الأسئلة تشغل حيّزًا كبيرًا من الرِّسالة كقوله مَثَلًا: حدِّثني كيف رأيت الطُّوفان؟ ومتى كان سيل العَرِم؟ وما حبس غُراب نوح؟ وكم لبثتم في السّفينة؟ وما القول في هاروت وماروت؟ وما عَداوة ما بين الدِّيك والغُراب؟ وخبّرني عن الفراعنة، ولمَ طُوّقت الحمامة؟ وخبِّرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك؟ «وزعم بعضُ تلاميذِكَ أنَّكَ تعلمُ لِمَ كان الفرس لا طِحالَ لها؟ ولِمَ صار البعير لا مرارة له؟ ولِمَ كانت السّمكة لا رِئَةَ لها؟...ولمَ قيل: أعقُّ من ضبٍّ وأبرُّ من هِرَّةٍ وهما يأكلان أولادهما؟ ولمَ عالَ الذِّئبُ أولاد الضّبع إذا قُتِلَت أو ماتت؟ ولِمَ نامت الأرنب مفتوحة العينين؟ ولِمَ أكل الذّئب صاحبه إذا رأى به دمًا»؟

وبهذه الأسئلة وأمثالها يحاول الجاحظُ أنْ يُظْهِرَ جَهْلَ ابن عبد الوهّاب فيخرج من بابٍ إلى بابٍ، ومن فِكْرةٍ إلى فِكْرةٍ، وهي طريقة عامَّةٌ في كتاباتِ الجاحظ بعد مرضِهِ؛ إذ تبدو في شكلِ أمالٍ ومُحاضراتٍ، ولذا تتَّصفُ بالتّكرارِ والتّردادِ والاستطرادِ، كما تتَّصفُ بالسِّماتِ الأخرى التي امتاز بها الجاحظ كالتَّقطيعِ الصَّوتيّ القائم على التّوازن والازدواج والتّرادف المعنويّ، وكذلك التّلوين العقليّ.

وقد استطاع الجاحظُ ببراعةٍ أنْ يدمجَ بين ثقافته وأسلوبه، وأن يجانسَ بين اللّفظ الموسيقيّ الرَّشيق، والمعنى العقليّ الدَّقيق تجانسًا يُمْتِعُ العقل والشُّعورَ معًا.

خامساً: أبو حيّان التّوحيديّ

عَصْرُهُ:

وصلَ البُوَيهيّون إلى بغداد في وقتٍ عمّتْ فيه ملامح الفوضى والاضطراب والدّمار؛ إذ صارتْ الخلافة العبّاسيّة ضعيفةً، لا حول ولا قوّة فيها للخليفة الذي باتَ لا يملك من أمره شيئًا، فمنذ أن قَتَلَ الأتراك الخليفة المتوكّل سنة (٢٤٧ هـ) آلَ أمر الخلافة إليهم (أي إلى الأتراك)، حتّى دخلَ البُويهيّون بغداد سنة (٣٣٤ هـ)، وتحكَّموا بسُلطان الخلفاء ومصائرهم جميعًا، وكان عصرهم عصرَ انقسام وفتنة من النّاحية السّياسيّة.

وقد شَهِدَ القرن الرّابع قيام دُويلاتٍ كانَ الحُكم في بعضها بيد الأعاجم، وعلى الرّغم من هذا التّفكُّك السّياسيّ إلّا أنّ الازدهار الثّقافيّ بلغ الذّروة، فقد كانَ تشجيع الأدب من تقاليد الحُكّام بسبب التّنافس فيما بينهم، فحَفلتْ حواضرُ العرب والمسلمين بالعلماء والفلاسفة والأدباء، على غِرار ما كانَ عليه بَلاط بني حَمْدان في حلب، والإخشيديّين في مصر، والبُويهيّين في العراق الذين كانَ عهدهم مَيمونًا على الفِكْر والأدب. وعلى الرّغم من جذورهم الفارسيّة إلّا أنّهم دأبُوا على تشجيع اللّغة العربيّة ورعاية علمائها وأدبائها. وفي هذا العصر وُلدَ التّوحِيدِيّ.

١. حَيَاتُه(٣٧٢):

هو عليُّ بن محمّد بن العبّاس التّوحِيدِيّ، نسبةً إلى نوع من التّمر يُسمّى التّوحيد، كانَ أبوه يبيعهُ في العراق فَعُرفَ بالتّوحِيدِيّ. ومن الباحثين مَنْ يعزو نسبتَهُ إلى المعتزلة الذين يُسمّونَ أنفسهم أهل العَدْل والتّوحيد، وثمّة خلافٌ في انتماء التّوحِيدِيّ إلى هذه الفرقة، إلّا أنّ الرّاجح أنّهُ مُعتزليّ.

وُلدَ في بغدادَ، وقيل في: نيسابُور، وهو عربيّ الأصل على أرجح الأقوال؛ إذ لم يكن يعرف الفارسيّة، وكان يتعصّب للعرب ويُشيدُ بهم. وُلِدَ نحو سنة (٣١٠ هـ) لأبوين فقيرين. والمحطّات الأولى في حياته مجهولة أو غير متّفقٍ عليها، حتّى تاريخ وفاته مختلف فيه، والرّاجح أنّهُ تُوفي سنة (٤١٤ هـ) بشيراز.

تتلمَذَ التّوحيديّ على عددٍ من كبار شيوخ عصره في النّحو والمنطق وعلم الكلام والفلسفة، منهم أبو سعيد السِّيرافيّ وعلي بن عيسى الرّمّاني في النّحو، ويحيى بن عَديّ وأبو سليمان المنطقيّ في الفلسفة، وغيرهم.

وكانَ أبو حيّان مُتفنّنًا في جميع العلوم، وقد امتهنَ الوِرَاقة، ما أثّر في غِنى ثقافته واتّساعها، فقد قرأ وكَتَبَ بيده كثيرًا من الكُتبِ في كلِّ فنٍّ وعِلم، وانطبعَ كثير ممّا كتبَهُ في ذِهْنه. عِلمًا أنّ التّوحيديّ نَعَتَ الوِراقة بـ(حرفة الشّؤم)؛ لأنّها لم تكن في نظرِه المهنة اللائقة به؛ لِما يمتلكهُ من مواهب ومَلَكاتٍ، ولأنّها مُجْهدةٌ مُضنيةٌ تُورث السَّأم وتبعث على المَلَل.

---

(٣٧٢) انظر، في ترجمته وآثاره: معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، (ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م) ١٩٢٣/٥–١٩٤٦. ووفيات الأعيان ١١٢/٥–١١٣. والدراسات والبحوث التي بسطت القول مطوّلاً عن التوحيدي وآثاره وأدبه وسمات أسلوبه كثيرة جدًّا، وقد أفدنا في الحديث عنه، ههنا، من كتاب: ملامح النثر العبّاسيّ للدكتور عمر الدقّاق. وانظر أيضًا: أمراء البيان لمحمّد كرد علي ٤٨٨/٢–٥٤٥. وعصر الدول والإمارات للدكتور شوقي ضيف. وكتاب من رسائل أبي حيان التوحيدي، اختيار ودراسة الدكتور عزت السيد أحمد، ص١٧–١٠٢. ورسائل أبي حيان التوحيدي (مصدّرة بدراسة عن حياته وآثاره وأدبه) للدكتور إبراهيم الكيلاني، ص١١–١٥٢. وتطوّر الأساليب النثريّة في الأدب العربي، لأنيس المقدسي، ص١٨٧–١٩٥. وبحثُ التوحيدي هذا، كحال سابقه، محاضرةٌ في الأصل لم أعد صياغتها وتوثيق النّقول والنّصوص فيها بالطريقة الأكاديمية.

غلب الطّابعُ الفكريّ على نِتاج التّوحيديّ الأدبيّ، واصطبغَ بالفلسفة، وقد فطِنَ ياقوت الحمويّ إلى هذه الظّاهرة التي تجلَّتْ في نِتاجهِ، فوصفهُ بأنّهُ: (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة).

وأضاف ياقوت بأنهُ: «فَرْدُ الدّنيا الذي لا نظير لهُ ذكاءً وفِطنةً وفصاحة ومُكنَةً، كثيرُ التّحصيل للعلومِ في كُلِّ فنّ حَفظهُ، واسعُ الدّراية والرّواية...وكانَ مُتفنّنًا في جميع العلوم في النّحو واللّغة والشّعر والأدب والفِقه والكلام على رَأي المعتزلةِ. وكان جاحِظيًّا يسلكُ في تصانيفهِ مَسْلَكَهُ، ويَشتهي أنْ يُنتظمَ في سِلْكه».

اتّصل التّوحيديّ بكبار رجالات عصره ومشاهيرهم، كالمهلّبيّ وابن العميد والصّاحب بن عبّاد وابن العارض. فقد اتّصل بالوزير المهلَّبيّ الذي خصَّ التّوحيديّ بالرّعاية، ثمّ لم يلبث أنْ تغيّر عليه وطرَدهُ. ثمّ رحل التّوحيديّ إلى ابن العميد في الرّيّ، وكانَ وزيرًا لمؤيّد الدّولة البويهيّ، ثمّ لأخيه فخر الدّولة. وابن العميد مِن أبرز النّاثرين وكُتّاب العربيّة حتّى قيل: « بُدِئتِ الكتابةُ بعبدِ الحميد و انتهتْ بابنِ العَميد». وقد انعقدتْ أواصرُ المودّة بين الرّجلين (التّوحيديّ وابن العَميد) حينًا من الزّمن، ثمّ حَلّ الخِصامُ ورحلَ التّوحيديّ ذامًّا ساخطًا.

وبعدَ ابنِ العَميدِ، اتّصل التّوحيديّ بالصّاحب بن عبّاد الوزير الكاتب، وكان من أعلام عصره في السّياسة والأدب، كما كان يَرعَى الأدباء ويُقرّبُهُم، إلّا أنّ فيه صَلفًا وغرورًا، فأخفقَ التّوحيديّ لديه، وتجهَّم له الصّاحبُ وألصَق بِهِ تُهمة الزّندقة، ويُقالُ: إنّهُ نوى قَتْلَهُ. ويُفَسّرُ إخفاقه لدى الصّاحب، كما يرى الدّكتور عمر الدّقّاق، باختلاف أخلاق الرّجلين؛ إذ كانَ التّوحيديّ شديد الحَسَد والبُغض لذوي النّعمة، مَجْبولًا على الغَرام بثَلْبِ الكرام، حتّى عُرفَ بهذه الصّفة الذّميمة، واشتُهِرَ بها. وكانَ مُعْتَدًّا بمَعْرفته وعِلْمه أمام الصّاحب، فقابَلهُ هذا بالازدراء والاحتقار. كما أنّ سُلوكه مع الوزراء لم يكن فيه أدب مخاطبة كبار

الدّولة وسادة المجتمع. إضافةً إلى مهنة الوِرَاقة التي طالب الصّاحبُ أبا حيّان بها، وكان أبو حيّان قد تركَ بغداد هربًا منها، ففيها ذهاب العمر والبصر كما يقول.

وابن العارض كانَ آخر مَن اتّصل بهم أبو حيّان، واسمُهُ أبو عبد الله الحُسين بن أحمد بن سَعْدَان، استوزرَهُ صَمْصَام الدّولة البُويهيّ، وكان واسع الاطّلاع، له مُشاركة جيّدة في كثيرٍ من فُروع العلم، كما كان مَقْصِدًا لكبار العلماء والأدباء. وكانَ صديقُ التّوحيديِّ أبو الوفاء المهندس مُقَرّبًا إلى مجلس الوزير، فعرّفه بالتّوحيديّ، فكان الوزير يُجالِسُهُ، ويُلقي عليه بعضَ الأسئلة، والتّوحيديّ يُجيب عنها، ومن هذه المجالس تكوّنتْ مادّة كتابه (الإمتاع والمؤانسة).

كان التّوحيديّ مُبدعًا حقيقيًّا، «وعَى عَبْقريّته وأحسّ بها، ووقف على أبعاد مَلكاته الإبداعيّة، فأمَّلَ أنْ يُصيبَ الحياة الرّغيدة، ولكنّ أملَهُ خابَ فعاشَ فقيرًا، فأثّر ذلك في نفسيّته وموقفهِ من المجتمع».

وقد عبّر عن يأسِهِ وتشاؤمِه من الحياة وعدمِ الثّقة بالآخرين، فقال: «فقدتُ كلّ مُؤنسٍ وصاحب، ومُرفقٍ ومُشفقٍ، واللهِ لربّما صلّيتُ في المسجدِ، فلا أرى إلى جَنبي مَنْ يُصلّي معي! فإن اتّفقَ فبقّالٌ أو عطّارٌ أو ندّافٌ أو قصّابٌ، فقدْ أمسيتُ غريبَ الحال غريبَ النِّحْلَةِ، مُسْتأنسًا بالوحشةِ، قانِعًا بالوحدة، مُعتادًا للصّمتِ، مُلازمًا للحَيرة... فشَمْسُ العُمر على شَفَا، وماءُ الحياة إلى نُضُوب، ونَجْمُ العيش إلى أُفُول».

وفي ثورة غَضَبٍ أحرق أبو حيّان كتبَه، فلمّا عُوتبَ في ذلك قال: «إنّي فقدتُ وَلدًا نَجيبًا، وصَديقًا حبيبًا، وصاحِبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، فشَقَّ عليّ أن أدعَها لقومٍ يتلاعَبُونَ بها، ويُدَنِّسون عِرْضي إذا نظرُوا فيها. وكيفَ أتركُها لأُناسٍ جَاورتُهم عشرين سنةً، فما صحّ لي مِنْ أحدهم وِدَادٌ»؟! والنُّسخ الموجودة من كُتبه كُتبتْ عنه في حياته، وخرجتْ عنه قبل إحراقها.

وكان التّوحيديّ يَنزعُ مَنْزعًا صُوفيًّا في هيئتِهِ ومظهره، وجعلهُ ياقوت في عِداد كبار المتصوّفة. وقد اتُّهِمَ مِنْ غير واحد بالكفر والزّندقة، إلّا أنّ كثيرًا من العلماء، قديمًا وحديثًا، ينفون هذه التّهمة عنه. يقول ياقوت: «إنّهُ صُوفيّ السّمْت والهيئةِ، مُتعَبِّدٌ، والنّاسُ على ثقةٍ من دينهِ».

وقد أرجع محمّد كرد علي هذه الاتهامات إلى الحقد والجهْل الذي دَعا بعضهم إلى تأوّل كلامه، وباب التّأويل مُتّسعٌ لِمَنْ يحاول أنْ يُسقِطَ مُؤلفًا مثل التّوحيديّ، خاض أصعب المسائل الإلهيّة والدّينيّة والاجتماعيّة، وربّما كانت هذه التّهمة ناجمةً عن اعتناقه مذهب الاعتزال. وقد وضع كتابًا في التّصوّف جعل اسمهُ (الحجّ العقليّ إذا ضاقَ الفضاء عن الحجِّ الشّرعيّ)، وهو أحد الآثار التي انتُقِدَ بسببها، ولم يصل إلينا.

٢ـ مُؤلّفاتُهُ:

يُعَدُّ التّوحيديّ في طليعة المُؤلّفين الذين عُرفوا بغزارة الإنتاج، نظرًا لدَأبه، وسَعَة فِكْره، وعُمره المديد. وقد بلغت كتبُه ورسائله زُهاء ثمانية عشرَ مؤلّفًا في المصادر التي ترجمتْ له، بعضُها مُتداول، وبعضها الآخر لا نعلم من أمره شيئًا.

وآثاره أدبيّة وفلسفيّة، فمن الآثار الأدبيّة: كتاب (الإمتاع والمُؤانسة)، وكتاب (الصّداقة والصّديق)، وكتاب (الهوامل والشّوامل)، وكتاب (البصائر والذّخائر)، وكتاب (مثالب الوزيرين)، و(رسالة في تقريظ الجاحظ)، وغيرها. ومن آثاره الفلسفيّة: كتاب (المُقابسات)، وكتاب (الإشارات الإلهيّة)، وكتاب (التّذكرة التّوحيديّة)، وغيرها.

أ- الإمتاع والمؤانسة:

وهو من أشهر كتب التّوحيديّ، يقع في ثلاثة أجزاء، وهو مجموع مقالات أوأحاديث شتّى، سامر بها الوزير ابن العارض. وقد ألّفَهُ بناءً على رغبة صديقِه أبي الوفاء المهندس. والكتابُ عبارة عن أسئلةٍ من الوزير، وأجوبةٍ من التّوحيديّ، في صنوفٍ مختلفة من الثّقافة التي تتنوّع موضوعاتُها وتتفاوت طولًا وقِصَرًا، ولا تخضع لترتيب مُعيّن. وهي

تدلّ على ثقافة التّوحيديّ الموسوعيّة، وسَعَة اطّلاعه، وحضور بَديهته، وكَثْرة معارفِهِ، وحُسْن أدائه وقوّة بيانِهِ. نُشرَ الكتاب بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزّين في ثلاثة أجزاء.

ب- البصائر والذّخائر:

(بصائر القدماء وذخائر الحُكماء) وهو كتابٌ كبير قيّمٌ، ألّفه التّوحيديّ بين سنتي (٣٥٠ – ٣٦٥ هـ)، وذكر فيه موضوعات مختلفة ومتباينة، فهو كما يقولُ عنه: «ثمَرة العمر وزبْدَةُ الأيّام ووديعةُ التّجاربِ». وقد أشارَ في مقدّمته إلى مصادره، وفي مقدّمتها كتب الجاحظ الذي كان مفتونًا به، فَسَلكَ في هذا الكتاب مَسْلكهُ في عدم التّبويب والتّرتيب وكثرة الاستطراد، مع حِرْصه على نَقْلِ الكلام بدقّة، ونِسْبته إلى قائلِهِ. وقد نُشِرَ الكتاب في سبعة مجلدات بتحقيق الدّكتور إبراهيم الكيلاني، ثمّ نُشر بتحقيق الدّكتورة وداد القاضي في تسعة أجزاء تقع في ستّة مجلدات.

ج – الصّداقة والصّديق:

وهو رسالةٌ طويلةٌ في نحو خمسمئة صفحة، جمعَ فيها التّوحيديّ أكثرَ ما قيل في الصّداقة والصّديق من شِعْرٍ ونَثْر، من الجاهليّة إلى عهد المؤلف. وصِفَةُ الجمْعِ غالبةٌ على الكتاب، ولكنّ موضوعه يتّسم بالطّرافة والإمتاع. ويبدو أنّهُ أتمّ تأليفه في أواخر حياته، وإن كان جمع مادّتهُ في وقتٍ سابق، حين كان يُعاني آلام الغُربةِ والفَقْرِ ومتاعب الشّيخوخة وقلّة الأصدقاء والأعوان، ما صبغَ الكتاب بصِبْغةٍ تشاؤميّة. يقول مثلًا في بداية الكتاب: «وقبلَ كلّ شيءٍ يَنبغي أنْ نَثِقَ بأنّهُ لا صديق ولا مَنْ يَتشبّه بالصّديق».

ويروي التّوحيديّ فيه كثيرًا من الأقوال التي لا تخرج عن هذا المعنى الذي يصدرُ عن رجلٍ غَمَرَه الشّعور بالمرارة والأسى؛ إلّا أنّهُ لا يمضي على هذا النّحو، بل يصف أنماط الصّداقة ويُحَلّلُ نفوس أصحابها تحليلًا رائعًا. والكتابُ ضمّ روائع الأبيات المُنتخبة في موضوع الصّداقة والصّديق، والشّواهد النّادرة، إضافةً إلى ظهور شخصيّة التّوحيديّ في هذا

الكتاب، وذوقه الرّفيع، وبَصَره بالأدب. نُشِرَ الكتاب بتحقيق الدّكتور إبراهيم الكيلاني بدمشق.

د- مثالب الوزيرَين:

وهو رسالةٌ قريبة الشّبه من رسالة (التّربيع والتّدوير) للجاحظ، وقد تناولَ فيه أخلاق الوزيرَيْن ابن العميد والصّاحب بن عَبّاد بصورة نقديّة لاذعة، أقرب ما تكون إلى التّصوير (الكاريكاتوري)، قاصدًا الإساءة إليهما؛ لما لاقاهُ عندهما من إعراضٍ ونُفُورٍ منه، فخابَ أملُهُ عندهما، وعاد إلى بغداد.

وفي الكتاب جوانب للحياة الفكريّة والاجتماعيّة في القرن الرّابع، وتعليقات أدبيّة وفلسفيّة ولغويّة طريفة، تجعل من الكتاب تُحْفةً رائعة في الأدب العربيّ. نُشِرَ الكتاب مرّات عدّة، منها بتحقيق الدّكتور إبراهيم الكيلاني في زهاء أربعمئة صفحة. وللكتاب نَشْرة أخرى بعنوان: (ذمّ الوزيرَين). وأخرى بعنوان: (أخلاق الوزيرَين) بتحقيق محمّد بن تاويت الطّنجيّ.

هـ - المُقابَسات:

وهذا الكتاب من أهمّ كتبه الفلسفيّة، والمُقابسةُ صيغة تعني المُشاركة في تبادل العِلم والمعرفة والرّأي، وكأنّها مُقتبسةٌ من توهّج الفِكْر ونُور المعرفة. والمقابسات عددُها (١٠٦) تختلف طُولًا وقِصرًا، وهي حصيلة ما كان يُثَار من قضايا الفِكْر والعقيدة والأدب والنّقد في مجالس شيوخ العلم وأساتذة العصر. والطّابع الفِكْريّ والفلسفيّ يغلب على مضمون الكتاب. نُشِرَ الكتاب مرّات عدّة منها بتحقيق حسن السّندوبي.

و- الإشارات الإلهيّة:

وهو أربعٌ وخمسون رسالة مُوجّهة إلى مَنْ ضلّوا طريق الهداية الإلهيّة، والسّالكين بعض طرق الصّوفيّة. وهذه الرّسائل بمنزلة الصّدى المباشر للحالات النّفسيّة التي مرّ بها

التّوحيديّ، خاصةً الغُرْبة النّفسيّة والضّياع والحرمان والفَقر. نُشِرَ الكتاب مرّات عِدّة، أفضلها بتحقيق الدّكتورة وداد القاضي.

٣ـ أسلوبُه ومَذْهبُهُ الفنّيّ:

تَدلُّ قراءة كتب التّوحيديّ، على تمكّنِه من فنّ القول، وبراعتِه في صوغ الأفكار، وقدرتِه الفائقة على الإعراب عن المشاعر. فقد غدا الأدبُ لديه فَنًّا يحتاجُ إلى جِدٍّ ودَأَب، وصناعةً تتطلّب دُرْبةً وممارسة، فالكلمة وعاء الفِكْر، والعبارة تُرجمان العَقل، وليست الكتابةُ هَذَرًا وحُشودَ ألفاظ ورَصْف جُمل. لذا يقولُ التّوحيدِيّ: «إنّ الكلامَ صَلِفٌ تيّاهٌ، لا يستجيبُ لكلِّ إنسانٍ، ولا يَصحبُ كلّ لسانٍ، وخَطَرُهُ كثيرٌ، ومُتعاطيهِ مَغْرورٌ، ولهُ أَرَنٌ كأَرَنِ المُهْر، وإباءٌ كإباءِ الحَرُون، وزُهُوٌّ كزُهُوِّ المَلِك، وخَفْقٌ كخَفْقِ البرقِ. وهو يتسهّلُ مرّةً، ويتوعّرُ مِرارًا، ويذلُّ طَورًا، ويعزّ أطوارًا». [الأَرَنُ: النّشاط والمَرَح. وحَرَن بالمكان: لزِمهُ. الزُّهُوّ والزَّهْو: الكِبْرُ والفخر والتِّيه. الخَفْقُ: اللّمَعان].

ومن سِمات أسلوبه:

أ ــ مراعاة التّناسب بين اللّفظ والمَعْنى:

يحرص التّوحيديّ على العُنصرَيْن، ففي اعتقادهِ (أنّ اللّفظ طبيعيّ والمَعْنى عَقليّ) وهو يوازن بينهما، ويحذّر من طُغيانِ أحدهما على الآخر، فيقول: «لا تعشقِ اللّفظ دون المَعْنى، ولا تَهْوَ المَعْنى دون اللّفظ». وانتقد ابنَ العميد مرّةً، فقال: «هُوَ نزْرُ المعاني، شديدُ الكَلَفِ باللّفظِ».

ب ــ النّزعة العقليّة:

التّوحيديّ يُعنى بالمعنى عنايةً فائقة، على الرّغم من حِرْصه على حُسْن الأداء، فالبيئة التي عاشَ فيها بيئة عقليّة، يغلب عليها الفِكْر والفلسفة والبحث والجدَل، كما أنّ مُيولَه العقليّة أثّرت في أدبهِ. ولهذا السّبب أيضًا نجدهُ يُصاحب المناطقة والمتكلّمين والفلاسفة

والمتصوّفة. فلا عجبَ إنْ غلبت النّزعة العقليّة على كتاباته، كما هي حال أستاذه الجاحظ، ولا عجبَ أيضًا إن نَعَتَهُ ياقوت الحمويّ بأنّهُ: (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة).

ج ــ الدِّقة اللّفظيّة:

فهو خبيرٌ بأنواع اللّفظ، بصيرٌ بمواقع جَرْسِه، بارعٌ في التّصرُّف بحروف عباراته، يقول وهو يتحدث عن موقف العَبد من المَوْلى: «إنْ قالَ فَعَنْهُ، وإنْ سَكتَ ففِيْهِ، وإن تحرّكَ فَلَهُ، وإنْ سَكَنَ فَبِهِ، وإنْ اشتاقَ فإليهِ، وإنْ تهالكَ فعَليهِ... ».

د ــ التّضادّ العقليّ:

وهو يستخدِمُهُ ليزيدَ المعنى جَلاءً والفكرة وُضوحًا، يقول وهو يناجي الله سبحانه على النّهج الصُّوفيّ: «ياحبيبي أمَا ترَى ضَيْعَتِي في تَحَفُّظِي؟ أمَا ترى رَقْدَتي في تيَقُّظِي؟ أمَا ترَى غُصّتي في إساغَتي؟ أمَا ترَى ضَلالي في اهتدائي؟ أمَا ترَى رُشدي في غَيّي؟ أمَا ترى عِيّي في بلاغتي؟ أمَا ترى ضَعفي في قوّتي؟ أمَا ترى عَجْزي في قُدْرتي؟ أمَا ترى غَيبتي في حُضوري؟ ... »؟ [الضّيعَة: المرّة من الضّياع. التّحَفُّظُ: التيَقُّظُ والتّحرّز وقِلّة الغَفْلة]

هـ ــ الإطناب:

ومن مظاهر هذه السّمة غزارةُ اللّفظِ، وكثرةُ التّرادف، ليس طلبًا للزّينة، وإظهارًا لقوّة الحافظة بل تتبّعًا لدقائق المعنى وإيضاحه. يقول مُتحدّثًا عن ارتباط كلّ إنسان بموضوعِ الصّداقة والصّديق: «ومَا مِن أحدٍ إلّا ولهُ في هذا الفنِّ حِصّةٌ؛ لأنّهُ لا يخلو أحَدٌ من جارٍ أو مُعاملٍ أو حميمٍ أو صاحبٍ أو رفيقٍ أو سَكنٍ أو حبيبٍ أو صديقٍ أو أليفٍ أو قريب، أو بعيد، أو وَليّ، أو خَليط. كما لا يخلو أيضًا من عدوّ، أو كاشِح، أو مُداج، أو مُكاشف، أو حاسد، أو شامت، أو مُنافق، أو مُؤذ، أو مُنابذ، أو مُعاند،...».

كما أنّ من مظاهر الإطناب لديه وُجود الجمل الاعتراضيّة التي تأتي للدّعاء والثّناء، كقوله عن الوزير ابن العارض: «فقالَ ـ أدامَ الله دولتَه وبَسَطَ لديهِ نِعْمتَه ـ قدِّمْ هذا الفنّ على غيره... ». أو قد يستخدم الجمل الاعتراضيّة للإيضاح والتّفسير وزيادة جَلاء المعنى.

و ـــ الازدواج:

وقد مرّ بنا أنّهُ أسلوب الجاحظ المُؤثر لديهِ، وتحدّثنا عنه وعن أهمّيّته فيما سبق. ومن أمثلته لدى التّوحيديّ قوله في مُناجاة الله سبحانه: «اللّهُمَّ فلا تُخيّبْ رجاءً هو مَنُوطٌ بك، ولا تُصْفِرْ كَفًّا هي ممدودةٌ إليك، ولا تُذِلّ نَفْسًا هي عزيزةٌ بمَعرفتك، ولا تسلبْ عقلًا هو مُسْتضيءٌ بنُور هِدايتك، ولا تعمِ عينًا فتحتها بنعمتِك، ولا تَحبسْ لسانًا عوّدته الثّناءَ عليك... ». وقد يُنوّع التّوحيديّ في أسلوبه فيلجأ إلى السّجع أو غيره، وَفْق حالتِهِ وموضوعِهِ.

ز ـــ السّجْع:

وكانَ شائعًا في عصر التّوحيديّ شيوعًا مُفْرطًا، وقد لجأ إليه في المواقف الوجدانيّة والعاطفيّة خاصّةً، كالابتهال والدّعاء. يقول: «اللّهُمَّ اكفنا من اللّسانِ فَلْتَتَهُ، ومِنَ الهوى فِتنتَهُ، ومِن الشّرِّ خَطْرَتَهُ، ومن الرّأي غَلْطَتَهُ، ومن الظّنّ خَبْطَتَهُ، ومن الطّبع سَوْرَتَهُ، ومن الأمر روعتَهُ، ومن العدوّ سَطوتَهُ. وجانبْنا مُعاندةَ الحقّ، ومجانبةَ الصّدق، وشراسةَ الخُلق، ومَذمّةَ الخَلْق...».

ح ـــ التّعبير المُرسَل:

ونجدُ الأسلوب المُرْسل أيضًا في كثيرٍ من كُتبه ومقالاته، حين يفضّل الانطلاق في الكتابة، والتّحرّر في التّعبير، بحسب الموضوع الذي يتناوله، وخاصّةً إذا كان فِكْريًّا أو فلسفيًّا. يقول مثلًا: «وليس كلّ مَنْ قادهُ عَقْلُهُ إلى العِلم بمَراشدِ الأمور انقادتْ لهُ نفسُهُ إلى العملِ بها؛ فقدْ رأينا كثيرًا منْ أهلِ المعرفة يأمرونَ ولا يأتمرون...».

ط ـــ الصّورة الفنّيّة:

وهو يلجأ إليها لتوضيح المعنى وتحسين الأداء كقوله: «إنّ الإنسان الذي لا يعملُ بعملِهِ كالشّجرة المُورقة لا ثمرَ لها». كما يلجأ إلى الصّورة أيضًا للهُزْءِ والسّخرية والنّقد، كقوله على لسان ابن العميد في وصفِ ابن عبّاد: «كانَ ابنُ العميد إذا رآه قالَ: أحسَبُ أنّ

عينيْهِ رُكّبتا من زئبقٍ، وعُنقَهُ عُمِلَ بلولبٍ. وصدَق؛ فإنّهُ كان ظريفَ التّثنّي والتّلوّي، شديدَ التّفكّك والتّفتّلِ، كثير التّعوّج والتّموّج، في شَكلِ المرأة المُومسة والفاجرة الماجنة والمخنَّث الأشْمَط...».

وصفوةُ القول أنّ التّوحيديّ واحدٌ من أبرز أعلام الحضارة العربيّة الإسلاميّة، مزَجَ الفِكْرَ والفلسفةَ بالأدب، فعبّرَ عن فِكْره بلُغةٍ أدبيّةٍ فنّيّةٍ رفيعة. وهو أديبٌ لهُ أسلوبه المتفرّد بين أساليب عباقرة التّجديد في النّثر العربيّ. وهو باحثٌ عالمٌ أيضًا، شارك مُعاصريه بمُناظراتهم وبُحوثهم على اختلاف تخصّصاتهم، فكان صورةً جليّةً ناصعةً لعصره في القرن الرّابع الهجريّ، أزهى عصورِ الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

الفصل الثالث

إطلالة على تحليل النّصّ النّثري

أولاً- من جماليات الأسلوب في النّثر العبّاسيّ

ثانيًا- تحليل نصّ نثريّ

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

أوّلاً: من جماليّات الأسلوب في النّثر العبّاسيّ

كان الأدباء ينوّعون مُستويات أدائهم ضمن النّصّ الواحد أحيانًا، وَفْقًا لمُقتضى الحال، فليس ثمّة مذهب أو اتجاه أسلوبيّ بعينه، غلب على نصوص نثرنا العربيّ القديم عامّة. ومن المعلوم أنّ القيمةَ الفنيّة للنّصوص النّثريّة تتفاوت؛ إذ إنّ مفهوم الفنيّة نسبيّ، يأخذ كلّ نصّ منه بمقدار، لذا فإنّ الأحكامَ أميلُ إلى التّغليب والتّعميم، بحسب التيّار السّائد، أو الاتجاه العام.

فالأساليب تتنوّع باختلاف الأنواع؛ ولكلِّ نوعٍ أدبيّ رسومه وتقاليده الفنّيّة والأسلوبيّة، التي ينبغي أن يُلتزم بها، بحسب ما عبّر عنه القدماء بـ (مُقْتضى الحال). فضلًا عن أنّ القيمة الفنّيّة لأسلوبٍ ما، أو سِمَة بلاغيّة معيّنة، ليست مُطلقة، بل تبدو ضمن السّياق الذي وردت فيه، من خلال تآزر عناصر النّصّ وتلاحمها، شكلًا ومضمونًا، لفظًا ومعنىً، جوهرًا وعَرَضًا. ويمكن الزّعم أنّ ثلاثة مذاهب فنّيّة تجلّت على نحو واضح في أسلوب نثرنا العربيّ القديم عامّة. وسنقصر الحديث في هذا المقام على نَثْر العصر العبّاسيّ إلى نهاية القرن الرّابع على وجه التّقريب.

١ـ المُرْسَل (أو المُطْلَق) :

هو مذهب الطّبع، ومُجاراة السَّجيّة، «وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقًا، ولا يقطع أجزاء؛ بل يُرسل إرسالًا، من غير تقييدٍ بقافية ولا غيرها»، كما يقول ابن خلدون [٣٧٣]. ويُعرف بالأسلوب السّهل الممتنع، ويقوم على متانة السّبك، وقوّة التّراكيب، وإجلال المعنى، والتّعبير السّهل، الذي تطول فيه الجملة بطول الفواصل الفكريّة، وتقصر بقصرها.

---

(٣٧٣) المقدّمة لابن خلدون ٢/٢٧٠.

كما يمتاز أيضًا بوضوح النّزعة العقليّة، والعناية بالتّفصيل والشّرح وتبيان دقائق المعاني، وسَعَة الأفق في إعمال التّفكير.

ويرى ابنُ خلدون أيضًا، أنّ «المحمودَ في المخاطبات السّلطانية التّرسّلُ؛ وهو إطلاق الكلام، وإرساله من غير تَسْجيع، إلّا في الأقلّ النّادر، وحيث ترسله المَلَكة إرسالًا من غير تكلّفٍ له، ثمّ إعطاء الكلام حقّه في مطابقته لمقتضى الحال؛ فإنّ المقامات مختلفة، ولكلّ مقامٍ أسلوب يخصّه من إطنابٍ، أو إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو إشارة وكناية واستعارة».

والحقّ أنّ تيّار النّثر المُرْسَل كان واضحَ المعالم في كثيرٍ من فنون النّثر، ومنها المُخاطبات السّلطانيّة، التي تشمل الرّسائل الرّسمية خاصّة. ومن ذلك ما كتبه المُعتصم، حين وليَ الخلافة، إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين، فقد قال: «عافانا الله وإيّاك، قد كانت في قلبي هَنَات، غَفَرَها الاقتدار، وبقيت حَزَازَات، أخاف منها عليك عند نَظَري إليك؛ فإن أتاك ألفُ كتابٍ أَسْتَقْدِمُكَ فيه، فلا تقْدم، وحَسْبُك معرفةً بما أنا مُنْطوٍ لك عليه إطْلاعي إيّاك على ما في ضميري منك، والسّلام»(٣٧٤).

وأكثر ما يُستخدم الأسلوب المُرْسَل في ميدان النّثر التّأليفيّ، والوصايا، والمحاورات، والمُناظرات، والسّرد القصصيّ، خاصّة في كتاب (كليلة ودِمنة). وهو أسلوب ابن المقفّع المُؤثر لديه، في عُموم كتاباته، وأحسبُه عَنَاه حينما سُئِل عن البلاغة، فأجاب: «التي إذا سمعها الجاهل، ظنّ أنّه يُحسن مثلها».

والمظنون أنّ إيثار هذا الأسلوب، في كثيرٍ من الأحيان، يعود إلى إطلاق حركة الفِكْر والعقل من أيّ عقالٍ، قد يشدّهما، ويعطّل حركتهما. ولهذا تكون الوظيفة الإبلاغيّة، أو المعرفيّة، هي الغاية الأساسيّة التي ينشدها الأديب في المقام الأوّل، ولا يعني هذا الكلام

---

(٣٧٤) زهر الآداب ٧٨٥/٢. والحَزَازَاتُ: جمع حَزَازَة؛ وهي ألَمٌ يَحُزُّ في القلب من وجعٍ أو غيظٍ أو خوف.

إهمال الوظيفة الجماليّة، أو الانفعاليّة، في النّصوص؛ إذ ليست هذه الوظيفة في ظاهر النّصّ اللّفظيّ أو المعنويّ فحسب، بل هي كامنة في نسِيج النّصّ الأدبيّ، وما ينضوي في إهَابه من قيم جماليّة، ودلالات إيحائيّة وحضاريّة عميقة.

٢ـ المُتَوازن (أو المزدوج):

يقوم هذا الأسلوب على تقسيم العبارات، وبراعة المُوازنة بين الجمل؛ إذ تتعادل فيه الألفاظ، وتزدوج الجمل في تنسيقٍ مُنتظم، يتراوح بين الإيجاز والمساواة والإطناب، بحسب مُقتضى الحال. وهو شبيهٌ بالسَّجْع في تعادل الفقرات، إلّا أنّه لا يتقيّد بالتَّقْفِيَة.

وقد يُسمّى عند البلاغيين العرب بالسّجع المتوازن، أو العاطل، أو الازدواج، أو الموازنة(٣٧٥). وفي تعريف الموازنة، يقول القزوينيّ (ت ٧٣٩هـ): «هي تساوي الفاصِلَتين في الوزن، دونَ التَّقْفِيَةِ»(٣٧٦)، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾ [الغاشية: ٨٨/ ١٥-١٦]. والتّوازن أو الازدواج، لدى القدماء، في مستويات متباينة، يفضل بعضها بعضًا، في الرّونق وحُسْن التّعبير.

وفي هذا الأسلوب يتجلّى بوضوح التّفنّن في صياغة العبارة، والدّقة في تأليفها؛ لتعطيَ إيقاعًا مُوسيقيًّا، وجَرْسًا صَوتيًّا مُحبّبًا.

وفي جماليّات التّوازن يرى ابنُ الأثير أنّه قِوَام البلاغة؛ لأنّه أقربُ إلى الاعتدال، «وللكلام بذلك طَلاوة ورَوْنَق، وسببه الاعتدال؛ لأنّه مطلوبٌ في جميع الأشياء. وإذا كانت مقاطع الكلام مُعتدلة وقعت في النّفس مَوقع الاستحسان، وهذا لا مِراءَ فيه لوضوحه»(٣٧٧).

---

(٣٧٥) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب، ص٦٠، ٣١٤، ٣١٥، ٦٥٤.

(٣٧٦) التلخيص في علوم البلاغة، ص٤٠٤.

(٣٧٧) المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر ٣٧٨/١.

وللتوازن وظيفة إيقاعيّة بيّنة، من خلال تلوين التّعبير، والتّرادف المعنويّ، وروعة التّناغم والتّناسق والانسجام بين القرائن، أو العبارات، في مماثلة غير مقصودة للأشطر الشّعريّة. وهذا التّناسق يتمثّل في تداعي أجزاء الكلام وتجاوبها، كما هي الحال في الموسيقا؛ إذ تتكامل النّغمات مع بعضها، فيحصل الإيقاع الموسيقيّ، من دون رتابةٍ أو تواتر في النّغم، كما في الشّعر.

فالتّوازن في منزلة وُسطى بين الأسلوب المُرْسل المُطلق، والأسلوب المُسَجّع المُقيّد، أو بين مذهب الطّبع والتّصنيع(٣٧٨). وقد ساد هذا الأسلوب في النّثر العربيّ، منذ أواخر العصر الأمويّ، واعتمده أبرز كُتّاب النّثر الفنّيّ، كعبد الحميد الكاتب، وسهل بن هارون، والجاحظ، والتّوحيديّ، وغيرهم كثير. ولا نعني بهذا الكلام أنّهم لم يستخدموا الأساليب الأخرى في كتاباتهم، ولكنّه كان الاتجاه الذي غَلَبَ على أدبهم وعُرفوا به.

وقد عدّ العسكريّ التّوازن أو الازدواج من حميد صفات النّثر البليغ؛ إذ «لا يحسنُ مَنْثور الكلام ولا يحلو، حتّى يكون مُزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغٍ كلامًا يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلامٌ عن الازدواج لكان القرآن؛ لأنّه في نَظْمه خارجٌ من كلام الخَلْق، وقد كثر الازدواج فيه حتّى حصل في أوساط الآيات، فضلاً عمّا تزاوج في الفواصل منه»(٣٧٩).

وفي نصوص النّثر الفنّيّ نجد أنّ أسلوب التّوازن والازدواج يزاحم الأسلوب المُرْسل؛ إذ لا يكاد يخلو نصّ منه، خاصّة في الرّسائل والخطب.

وقد التزمه سهل بن هارون في أدبه عامّة، وفي كثيرٍ من رسائله، وقلّما نجد له رسالة تخلو منه، ففي رسالة البخل ، نقرأ: «ولا ليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحُكْم، ولا

---

(٣٧٨) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي (مذهب الصنعة)، ص١٢١ وما بعدها. والنثر العربيّ القديم لمحمّد رجب النجّار، ص٣٦٦.

(٣٧٩) كتاب الصناعتين، ص٢٦٠.

في عادات القادة، ولا في تدبير السَّادة، أن يستوي في نَفيس المأكول، وغريب المَشْروب، وثمين المَلْبوس، وخطير المَرْكوب، والنّاعم من كلِّ فنّ، واللُّباب من كلِّ شكل، التّابعُ والمتبوع، والسَّيّدُ والمسُود»[٣٨٠].

ويبدو من هذا الكلام، كما يرى شوقي ضيف، أنّ «الألفاظ تتوازن، لكنْ لا في شكل سَجعٍ، بل في شكل تقطيعات دقيقة، وكأنّي بسَهْلٍ لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلَفْظٍ فصيحٍ فقط، حتّى تستقيم لأسلوبه فنونٌ من الجمال المادّي الذي يخلُبُ سامعيه، كي يؤثّر في وجدانهم وعواطفهم، بجانب ما يؤثّر به في عقولهم من حِجَاجه وجَدَله، والتماسه للبراهين والأدلّة على أفكاره»[٣٨١].

ومن نماذجه في الرّسائل أيضًا قول الأمين في رسالةٍ إلى المأمون، يستقدمه فيها إلى بغداد: «وعَلِمَ أميرُ المؤمنين أنّ مكانك بالقرب منه أسدُّ للثّغور، وأصلح للجنود، وآكد للفيء، وأردّ على العامّة، من مقامك ببلاد خراسان، (...). فاقْدَمْ على أمير المؤمنين، على بركة الله وعونه، بأبسط أملٍ، وأفسح رجاء، وأحمد عافية، وأنفذ بصيرة،...»[٣٨٢]. ومن الخُطب، قول عبد الملك بن صالح العبّاسيّ: «فقاتلكم الله، أنّى تُصرفون! جُثَثٌ مائلة، وقلوبٌ طائرة، تَشُبُّون الفِتَن، وتُوَلُّون الدُّبُر؛ إلّا عن حُرَمِ الله؛ فإنّها دَرِيْئَتُكم، وحُرَم رسوله؛ فإنّها مغزاكم»[٣٨٣]! ومن العهود قول طاهر بن الحسين في عهده المشهور ـ الذي راوح في أسلوبه بين المذهب المُرْسل، والمُتوازن، والمُسَجّع ـ لابنه عبد الله: «ولا تحقِرنّ ذَنْبًا، ولا تُمَالِئنّ حاسدًا، ولا ترحمنّ فاجرًا، ولا تصِلنّ كفورًا، ولا تُداهننّ عدوًّا، ولا تُصدّقنّ نمّامًا،

---

(٣٨٠) البخلاء، ص١٠ –١١.
(٣٨١) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص١٥١.
(٣٨٢) تاريخ الأمم والملوك ٨/٤٠٠–٤٠١.
(٣٨٣) العقد الفريد ٤/٩٧. والدَّرِيْئَةُ: الحَلْقَةُ يُتعلّم الطعن والرمي عليها، وكلّ ما استُتِر به. [القاموس المحيط، مادة: دَرَأَ].

ولا تأمننّ غدّارًا، ولا تُوالينّ فاسقًا، ولا تَتّبعنّ غاويًا، و... »[٣٨٤]. ومن الوصايا، قول المنصور لابنه المهديّ: «فالسّلطان ـ يا بُنَيَّ ـ حَبْلُ الله المتين، وعُرْوَتُه الوُثقى، ودين الله القيِّم، فاحْفَظْه، وحُطْهُ، وحَصِّنْه، وذُبَّ عنه، وأَوْقِع بالمُلْحِدين فيه، واقْمَع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه»[٣٨٥].

ويتراءى للباحث أنّ سِمات الرّجوع إلى الذّات، والمحاكمة العقليّة، والتّفكير المنطقيّ الدّقيق، تبدو بوضوح في استخدام أسلوب التّوازن والازدواج، فضلًا عن التّأنّق في انتقاء المفردات، التي تعبّر عن المعاني الجزئيّة تعبيرًا دقيقًا، يجلو المعنى في الذّهن، ويؤكّده في النّفس.

أضف إلى ذلك سِمة الحرص على الإيقاع الموسيقيّ وانبعاثه في الكتابة؛ مُنتظمًا في تموّجاته، أو مُترجّحًا بين الشّدّة والضّعف، من خلال الانتقال من عبارات مُزدوجة، إلى أخرى مِثْلها، لها جَرْس صوتي آخر، يتناغم على نحوٍ تصاعديّ؛ بتدرّج الجمل من القِصَر إلى الطّول، أو على نحوٍ تنازليّ، بانتقال الجمل من الطّول إلى القِصَر، أو يتناسق من خلال توازن الجمل وتعادلها.

وممّا لا مِراء فيه، أنّ استخدام أسلوب التّوازن ليس مطّردًا في كلِّ فنون النّثر، أو في بعضها؛ إنّما يُؤتى به بحسب ضرورة المقام. وأغلب الظّنّ أنّ الكُتّاب والخطباء وسواهم يستوحون أسلوب القرآن الكريم في ذلك، خاصّة في السّور القرآنيّة المكيّة ـ في الأعمّ الأغلب ـ ذات الآيات القِصار. وممّا يُلحظ أنّ هذا الأسلوب سِمة بارزة وغالبة عند بعض الكتّاب، دون بعضهم الآخر، كما هي الحال عند سهل بن هارون والجاحظ والتّوحيديّ مثلاً. وكذلك في بعض النّصوص، دون غيرها.

---

(٣٨٤) المقدّمة ٣٢٨/١.

(٣٨٥) تاريخ الأمم والملوك ١٠٥/٨.

٣ـ المُسَجّع (أو المقيّد):

من المعلوم أنّ العرب عرفوا فنّ السّجْع منذ العصر الجاهليّ، وكان حِلْية مؤثرة لديهم، ازدانت بها عبارات الكهّان، ووصايا الحكماء، وخطب الخطباء الأبْيناء، وغيرها من فنون القول، التي كانت سائدة يومئذٍ، كالأدعية، والتّعاويذ، والأمثال، وغيرها.

والسّجْعُ في عُرف البلاغيين القدماء هو: «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحد»[٣٨٦]. ومن أنواعه: المرصّع، والمتوازن، والعاطل، والمُشَطَّر، والمُطَرَّف[٣٨٧]. وهو ـ كما يقول ابن وهب ـ من أوصاف البلاغة «في موضعه، وعند سماحة القول به، وأن يكون في بعض الكلام، لا في جميعه؛ فإنّ السّجعَ في الكلام كمثل القافية في الشّعر، وإن كانت القافية غير مُسْتغنى عنها، والسّجع مُستغنى عنه، فأمّا أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله، وخطبه، ومُناقلاته، فذلك جَهْلٌ من فاعله، وعِيٌّ من قائله»[٣٨٨].

وقد جاءت آياتٌ بيّنات عديدة في القرآن الكريم مَسْجوعة، وفي أحاديث المصطفى ﷺ أيضًا، بَيْدَ أنّ بعض القدماء، ولا سيّما القاضي الباقِلاني (ت ٤٠٣هـ)، سمّوا نهاية الآيات فاصلة؛ لقوله تعالى: ﴿**كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ**﴾[فُصِّلَت: ٤١/٣]؛ من أجل أن يكون هناك فرقٌ بين سَجْع البشر، وآيات الله[٣٨٩]. إلّا أنّ أكثرَ البلاغيين يسمّون هذا الفنّ سَجْعًا، سواء أكان في القرآن الكريم أم في غيره، يقول ابن الأثير عن وجود السّجع في القرآن: إنّ «معظمَ آياته جارية على هذا النّهج، حتّى إنّه لا تخلو منه سورة من السّور، ولقد تصفّحته فوجدته لا يكاد يخرج منه شيء عن السّجْع والموازنة»[٣٩٠].

---

(٣٨٦) المثل السّائر لابن الأثير ٢٧١/١.

(٣٨٧) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، ص٣١١-٣١٦.

(٣٨٨) البرهان في وجوه البيان، ص٢٠٨- ٢٠٩.

(٣٨٩) انظر في هذه الآراء: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، ص٣١٣-٣١٤.

(٣٩٠) المثل السّائر ٣٧٩/١-٣٨٠.

وأيًّا ما كان، فإنّ السّجْعَ من سمات الكتابة الفنّيّة، ومن محاسن أساليبها؛ ما لم يكن فيه «استكراهٌ وتنافرٌ وتعقيد»، كما يقول العسكريّ[٣٩١]. وقد ورد في نصوص عِدّة من نَثْر العصر العبّاسيّ الأوّل، بل غلب على بعضها، على نحوٍ كلّي، خاصّةً في الرّسائل، والخطب، والعهود، والتّوقيعات، والوصايا، والحِكم والأقوال المأثورة. إلّا أنّ مجيء السّجْع فيها لم يكن مظهرًا من مظاهر التّصنّع والتّكلّف والتّعنّت في الصّياغة، كما هو الشّأن في كثيرٍ من نصوص القرن الرّابع الهجريّ وما تلاه؛ إذ التزمه جُلّ الكتّاب في الجِدّ والهَزْل. في حين لم يكن ورود معظمه إلى نهاية القرن الثّالث مُسْتكرهًا مَمْجوجًا، بل كان سمةً من سمات الصّنعة الفنّيّة، وعنصرًا أسلوبيًّا بارزًا، يستمدّ قيمته المعرفيّة والجماليّة من السّياق الذي ينتظم فيه، وليس من قيمة بلاغية مُطلقة.

ونعطف زِمَام القول، مرّة أخرى، إلى آراء البيانيين والنّقّاد العرب، في محاولةٍ لتأكيد ما نذهب إليه أوّلًا، ولتبيان جماليّة السّجْع ووظيفته التّعبيريّة ثانيًا؛ إذ رأوا أنّ حسن السّجْع يكمن في خلوّه من التّكلّف والتّعسّف، وأن يكون اللّفظ فيه تابعًا للمعنى، وبريئًا من الابتذال وضعف الدّلالة، فإذا كان المعنى تابعًا للسّجع فإنّ ذلك يقيّد الفِكر، ويعطّل حركة العقل عن التّعبير بحريّةٍ وطلاقة ويُسْر. وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١، أو: ٤٧٤هـ): «لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سَجْعًا حسنًا، حتّى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتّى تجده لا تبتغي به بدلًا، ولا تَجِد عنه حِوَلًا»[٣٩٢].

وأجودُ أنواع السّجْع ما امتاز بقِصَر ألفاظه وتعادلها؛ لقرب الفواصل من سمع السّامع، ويتألّف من لفظتين لفظتين، وقد يصل إلى العشرة، كما يرى ابن الأثير[٣٩٣]. ومِثاله قوله تعالى: ﴿والمُرْسلاتِ عُرْفًا۞ فالعاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ٧٧/ ١-٢].

---

(٣٩١) كتاب الصناعتين، ص١٥٩.

(٣٩٢) أسرار البلاغة، ص١١.

(٣٩٣) المثل السّائر ١/ ٣٣٣-٣٣٧.

وما وصل إلينا من النّثر المسجوع، في معظمه، إلى نهاية القرن الثّالث الهجريّ، لا يعدو طورَ السّجْع القصير ـ بحسب تقسيم ابن الأثير ـ ومن ثمّ يصبح أقرب، في السّماع، إلى ميدان الإدراك الجماليّ، من السّجْع الطّويل الفقرات. والرّاجح أنّ الكُتّاب والخُطباء خاصّة يستلهمون أسلوب القرآن الكريم في ذلك.

فالسّجْع، إذن، ليس من المحسّنات اللّفظيّة، المقصودة للزّخرفة والزّينة فحسب ـ كما صنّفه بعض البلاغيين المتقدّمين منهم والمتأخّرين[٣٩٤] ـ بل هو قيمة جماليّة يتطلّبها المعنى؛ إذ هو جزءٌ من بنية النّصّ ونسيجه، شأنه شأن كثير من المحسّنات اللّفظيّة، كما تُسمّى، إن لم نقل كلّها. فليست غايته مقصورة على الوظيفة الجماليّة، ممثّلة في التّناغم الموسيقيّ الحاصل من التزام التّقفية، وتعادل العبارات المسجوعة، أو لنقل: تناظر العناصر الصّوتية على نحوٍ كلّي أو جزئيّ، وإنّما لغايات فكريّة وفنّيّة معًا.

ومن نماذج الأسلوب المُسَجّع في نثر العصر العبّاسيّ الأوّل خاصّة، ما ورد في خطبة محمّد (النّفس الزّكيّة) من آل علي رضي الله عنه، حينما خرج على الخليفة المنصور؛ إذ قال: «...وإنّ أحقّ النّاس بالقيام بهذا الدّين، أبناء المهاجرين الأوّلين، والأنصار المُواسين، اللَّهُمَّ إنّهم قد أحلّوا حرامَك، وحرّموا حلالَك، وأمّنوا مَنْ أَخَفْتَ، وأخافوا مَن أمّنتَ! اللّهُمّ فَأَحْصِهم عَدَدًا، واقتلهم بِدَدًا، ولا تُغادر منهم أَحَدًا»[٣٩٥]!

وممّا يمكن قوله، ههنا، إنّ السّجع كثيرًا ما يُقرن بالخطب التي يكون موضوعها التّهديد والوعيد، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الرّسائل السّياسيّة خاصّة؛ إذ يحاول المرسِل بثّ الرّعب في نفس المرسَل إليه، والتّلويح بقوّته وشدّته، والمصير الذي سيؤول إليه عدوّه، لذا يلجأ إلى السّجع الذي يناسب مقام التّهديد والوعيد. ونمثّل ههنا على إيثار السّجع في مقام التّهديد، برسالة عبد الله بن طاهر بن الحسين، إلى نَصْر بن شَبَث، الذي خرج على الدّولة،

---

(٣٩٤) انظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، ص٣١٤.

(٣٩٥) تاريخ الأمم والملوك ٥٥٨/٧.

واعتصم بأحد الحصون، وفيها يقول: «اِعتصامُك بالقِلال، قَيَّدَ عَزْمَك عن القتال، والتجاؤك إلى الحُصُون، ليس يُنْجِيك من المَنُون، ولَسْتَ بِمُفْلِتٍ من أميرِ المؤمنين، فإمّا فارِسٌ مُطَاعِنٌ، أو راجِلٌ مُسْتأمِنٌ»(٣٩٦). قيل: إنّه لمّا قرأ الرّسالة حَصَرَه الرّعب، فلم يلبث أن طلب الأمان صاغرًا. فليست الغاية فنّيّة فحسب في هذا المضمار، بل ترهيب المُرْسَل إليه، من خلال الجَرْس الإيقاعيّ، والتّوازن الصّوتيّ للتّسجيعات؛ ليقترنَ إيقاع الحرب بإيقاع الكلمات. وهذا يذكّرنا أيضًا بالمُنَافرات الجاهليّة، إذ كانوا يحكُمون وينفّرون بالأسجاع، كما يقول الجاحظ(٣٩٧).

وهنا أوردُ ما قاله مصطفى ناصف ـ في سياق حديثه عن مقاصد الجاحظ من كلامه عن الأسجاع(٣٩٨)ـ يقول: «فالأسجاع تُورث المَهابة، وتساعد على التّحكّم، وتحفظ السّيرورة، المتكلّم بالسّجع يخيّل إليه أنّه أحاط بالغائب والحاضر. الأسجاع تساعد على نموٍّ الذّاكرة، فالأسجاع لبّ الثّقافة الشّفهية، تساعد على تقييد الكلام، وقلّة التفلّت، وهي تشبه في هذا فنّ الصّيد، الذي يذكّرنا بعبارة امرئ القيس المشهورة عن تقييد الأوابد، فالعبارة الحرّة آبدة تتفلّت، ولا يقيّدها إلّا السّجع. العبارة المسجوعة توحي بنوعٍ من البطولة (...)، ربّما كانت السّجاعة مطلبًا، يروض النّاس أنفسهم عليه؛ ليكبروا في أعين النّاس. ارتبط السّجع في الثّقافة الشّفهية بالدّهاء والفطنة، واللّسن، واللّقن، والجواب العجيب، والأمثال السّائرة، والمخارج العجيبة»(٣٩٩).

وكثيرٌ من التّوقيعات مسجوعة أيضًا، وتنمّ على حرارة العاطفة، وهيمنة اللّفظ المسجوع، وبلاغة الإيجاز والإعجاز، كما تدلّ في الوقت نفسه على صرامة الموقّع في إصدار

---

(٣٩٦) زهر الآداب ٢/٩٩٠. والقِلالُ: جمع قُلَّة؛ وهي قمة الجبل وأعلاه.

(٣٩٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠.

(٣٩٨) انظر كلام الجاحظ عن السّجع في المصدر نفسه ١/٢٨٤-٣٠٠.

(٣٩٩) محاورات مع النثر العربي، ص٤٨-٤٩.

الحكم، ودقّة ملاحظته، كما في توقيعات جعفر بن يحيى البرمكيّ، ومنها قوله في قصّة عاملٍ شكاه النّاس: «قد كَثُرَ شاكوك، وقلّ شاكروك؛ فإمّا اعتدلت، وإمّا اعتزلت»[٤٠٠].

وفي هذا السّياق، نذكر أنّ البرامكة، كما يقول شوقي ضيف: «من أهمّ العوامل في شيوع السّجع في الكتابة الدّيوانيّة، وحقًّا، أنّه لا يطّرد دائمًا في كتاباتهم، ولكن نحسُّ ميلهم الواضح له، هم وبعض كُتّابهم، ومَنْ كانوا يكتبون إليهم»[٤٠١].

وممّا يمكن الإشارة إليه أيضًا، أنّ أغلب النّصوص يتنوّع أسلوبها بين المُرْسل والمُتوازن والمُسجّع، ما يحدث تنويعًا في الصّياغة اللّفظيّة. وفي بعضها يُستعمل السّجع في الصّدور والخواتيم فحسب؛ وذلك لاستمالة المتلقّي إلى مضمون النّصّ، وتَرْك أثرٍ بيّن في نفسه؛ وللتفريق بين أجزاء البنية المعمارية للنّصّ، من مقدّمة أو تصدير، وعرض، وخاتمة.

وأحيانًا ينوّع الكاتب أسلوبه في أجزاء النّصّ كلّه، بحسب الموضوع. ولعلّ حضور عنصر الأداء الخطابيّ في ذهن الكاتب، دون الخطيب، وعلى نحوٍ ضمنيّ غير مباشر، في أغلب الأحايين، سَبَبٌ في تنويع الأساليب ضمن النّصّ الواحد، وتحديد المستوى اللّغويّ والأسلوبيّ والصّوتيّ للخطاب القديم.

وقد كانت نصوص عديدة من النّثر تُقرأ على الملأ، كبعض الرّسائل السّياسيّة والعهود والبيانات والتّوقيعات وغيرها، وكان للبيان الشّفهي منزلة عظيمة في نفوس العرب حتّى عهد قريب. وربّما مازال أثر ذلك البيان مُسيطرًا على الذّوق العربيّ إلى الآن، وهذا ما يبدو في الميل إلى تحبير الخُطب وتنميقها، والتأثّر بها ـ انفعاليًّا ـ إلى مدى غير يسير!!

وقد قيل: إنّ «الرّسائل والخُطب متشاكلتان في أنّهما كلامٌ لا يلحقه وزنٌ ولا تَقْفية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتّاب في

---

(٤٠٠) العقد ٤/٢٠٧.

(٤٠١) العصر العبّاسيّ الأوّل، ص٤٧٦.

السّهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرّسالة... والفرق بينهما أنَّ الخطبة يُشافه بها بخلاف الرّسالة، والرّسالة تُجعل خُطبة، والخُطبة تُجعل رسالة في أيسر كُلْفة»[٤٠٢]. وليس الأمر بهذا القدر من التّيسير، ولكنّ «النّصّ التّرسّليّ القديم يحمل في أحشائه من آليات الخطاب الشّفاهي بأكثر ممّا يحمل من آليات النصّ الكتابي»[٤٠٣].

وصفوة القول أنّ المرءَ لا يشعر إزاء استخدام الكُتّاب والخطباء السّجعَ في نصوصهم إلى نهاية القرن الثّالث بشيء من التّعمّل والاجتلاب، بل أَتَوْا به ـ في الغالب ـ على مقتضى الطّبع والسّليقة، من غير أن يتكلّفوه تكلّفًا، أو يجعلوه غايتهم وهِجِّيراهم، ولا نعني بذلك أنّهم لم يقصدوا إلى الإتيان به قصدًا؛ ولكن لتحقيق قيمٍ جماليّة وفكريّة، وليس حِلْية لفظيّة تزدان بها نصوصهم.

وضرورة الحال في استخدام السّجع، أسلوبًا فنّيًّا في نصوص تلك الأزمنة ـ كما قال التّوحيديّ ـ: «كالملح في الطّعام؛ فإنّه متى ظُفِرَ منه بمقدارِ الرُّتبة، وحَسَبِ الكفاية، حلا منظره، وبَهَرَ بهاؤه، وسَطَعَ نوره، وانتشر ضياؤه»[٤٠٤].

2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

(٤٠٢) صبح الأعشى ٢٥٣/١-٢٥٤.

(٤٠٣) النثر العربيّ القديم، ص٢١٦.

(٤٠٤) البصائر والذخائر ٦٨/٢.

ثانيًا: تحليل نصّ نثريّ

النّصّ :

دخل أبو بكر الطّرطوشيُّ مرّةً على الأفضل بن بدر الجَمالي وزير الفاطميين بمصر (٤٨٧–٥١٥ هـ)، وكان له الأمر والتّدبير ويُلقّب بـ (شاهنشاه)(٤٠٥)، فوعظه الطّرطوشيُّ حتّى بكى، وكان ممَّا وعظه به:

«إنّ الأمرَ الذي أصبحت فيه من المُلْك إنّما صارَ إليك بموت مَنْ كان قَبْلك، وهو خارجٌ عن يدك بمِثْلِ ماصار إليك، فاتَّقِ الله فيما خوَّلكَ من هذه الأمّة، فإنَّ الله عزّ وجلّ سائلُكَ عن النَّقير والقِطمير والفتيل، واعلم أنَّ الله عزّ وجلّ آتى سليمانَ بنَ داودَ مُلْكَ الدُّنيا بحَذَافيرها، فسَخَّر له الإنسَ والجنَّ والشّياطينَ والطّيرَ والوحوشَ والبهائمَ، وسخَّر له الرّيحَ تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب، ورفعَ عنه حِسَابَ ذلك أجمع، فقال عَزَّ مِنْ قَائِل: ﴿**هذا عَطَاؤُنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغيرِ حِسَاب**﴾، فما عَدَّ ذلك نعمةً كما عَدَدْتُموها، ولا حَسِبَها كرامةً كما حَسِبْتموها، بل خافَ أنْ يكونَ استدراجًا من الله عزّ وجلّ، فقال: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾. فافتحِ الباب، وسهِّلِ الحِجَاب، وانصرِ المظلوم»(٤٠٦).

---

(٤٠٥) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان٢/٤٤٨–٤٥١.

(٤٠٦) نفح الطيب٢/٨٥. المفردات: خوَّلك: أعطاك ومنحك، يقال: خوَّله الشيء: أعطاه إيّاهُ متفضِّلاً. النَّقير: النُّقْرة التي في ظهر النّواة، يُضرب به المَثَل في الشيء الضعيف، قال تعالى: ﴿ولايُظلَمُونَ نَقيرًا﴾ [النساء:١٢٤]. والنقير أيضًا: الفقير المسكين، ويقال: فقيرٌ نقير (إتباع ومزاوجة). القِطْمير: القشرة الرّقيقة على النّواة، كاللّفافة لها، (تحت التمرة)، والشّيء الهيِّنُ الحقير، يُقال: ما أصبت منه قِطميرًا. والنَّواة: عَجَمُ التّمر والزّبيب ونحوهما، أوالبذرة : قال تعالى : ﴿إنَّ الله فالقُ الحَبِّ والنّوى﴾ [الأنعام:٩٥]. وجمع النّواة: نَوًى. الفتيل: الخيط الذي في شقّ النواة وما فتله الإنسان بين أصابعه من خيط أو غيره. يقال: ماأغنى عنه فتيلاً أي شيئاً. وقال تعالى: ﴿بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩]. والمراد من النقير والقطمير والفتيل: أنّه سيُسأل عن أصغر الأشياء. الحذافير: جمع حُذفور وحِذفار، وهو الناحية، يُقال: أخذ الشيء بحذافيره: بأسره أو بجوانبه ونواحيه. رخاءً: الريح اللينة الهادئة؛ أي مُنقادة له حيث أراد. اُمننْ: أي أعطِ منه مَن شئت. ابتلاه: اختبره.

صاحبُ النّصّ :

هو الفقيه العالم الزّاهد أبو بكر محمّد بن الوليد الطُّرْطوشيُّ (بضمّ الطّاء الأولى وقد تُفتح أيضًا)، نسبةً إلى طُرْطُوشة في أعلى الشّرق من الأندلس على البحر المتوسط، ويُعرف بابن أبي رَنْدَقة. وقد تخرّج على يد أبي الوليد الباجي بسَرقسطة، وهو أحد كبار المالكيّة في أواخر عصر ملوك الطّوائف. رَحَلَ إلى المشرق ودخل بغداد والبصرة وسكنَ الشّام مُدَّة ودرّسَ بها، ثمّ سكن مصر، وتُوفّي فيها سنة (٥٢٠هـ)، كان إمامًا عالمًا عاملاً زاهدًا وَرِعًا ديّنًا متقشّفًا.

له مؤلّفاتٌ مختلفةٌ أشهرها كتاب (سِراج المُلُوك)، وهو وعظٌ للمُلوك والحُكّام وبيانٌ لما ينبغي أن يتحلّوا به من الأخلاق والسّياسة الرّشيدة في الحُكم[٤٠٧].

البنية الفكريّة والفنّيّة للنّصّ:

تُعَدُّ مواعظ الفقهاء والزُّهَّاد ومقاماتهم، كما قلنا من قبل، في الذّروة من البيان الرّفيع، والبلاغة العالية في النّثر العربيّ؛ إذ إنّ كثيرًا من نصوصهم صيغت بأسلوبٍ مُشرق ناصع، لا مُعاظلة فيه، ولا تقّعر، ولا إسفاف، ولا تعمّل، وإنّما تدفّق وطلاوة وحُسْن ديباجة، تلذّ لسماعه الآذان، وتطرب له القلوب؛ لأنَّ المقصد من هذه النّصوص، في الأصل، هو تحقيق التّأثير والاستجابة في المتلقّي، وإدهاشه باللّغة المتوهّجة، عاطفيًّا وانفعاليًّا، ومُضاهاة جلال التّفكير وعمقه وسموّه، لجمال اللّغة والصّياغة والتّعبير، ومن ثمّ تحقيق جمالية الاتصال والتّواصل، أو المعرفة والفنّ.

وينتمي هذا النّصّ إلى فنّ المواعظ أو بالأحرى ما يُعرف بـمقامات الزّهّاد والفقهاء بين يدي الخلفاء والأمراء، ويُقصد بها مقام الفقيه أو الزّاهد بين يدي أولي الأمر مُذكّرًا

---

(٤٠٧) انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان ٢٦٢/٤-٢٦٥. ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقّري التلمساني ٨٥/٢. وعصر الدول والإمارات(الأندلس)، لشوقي ضيف، ص٤٩١-٤٩٣.

واعظًا. ويقوم هذا النّصّ على قاعدة الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنْكر؛ أي إنّ دافع الطّرطوشيّ إلى صياغته هو تطبيق هذا المبدأ الإسلاميّ السّامي أو هذه الفريضة الواجبة. وقد ابتدأ هذا الفنّ القوليُّ منذ صدر الإسلام، وبرزَ فيه الحسن البصريّ في العصر الأمويّ، والفُضيل بن عياض وابن السّمّاك والأوزاعيّ وسفيان الثّوريّ وصالح بن عبد الجليل وصالح المرّيّ وغيرهم في العصر العبّاسيّ. وذلك أنّ هؤلاء الفُقهاء والزُّهّاد وأضرابَهم كانوا يرون أنّ أولى مهامّ الدّولة هي حماية الدّين ومُعتقداته وتنفيذ أحكامه، ونَشْره والحُكم بما أنزل الله، فما وافق الشَّرع هو السّياسةُ لا عملُ السّلطان بهواه ورأيه. والحُكم الإسلاميّ، عندهم، مقيّدٌ بالشّريعة يحتكِمُ إلى كتابها العظيم، وقسطاسها المستقيم، ويتخذه دستورًا لاحَيْدة عنه يسوسُ الحاكمَ والمحكومَ معًا، قال تعالى:﴿ **الذِينَ إِن مكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأمُورِ** ﴾ [الحج:٤١].

والنّصُّ الذي بين أيدينا يقومُ على فكرة تردَّدت أصداؤها كثيرًا في القرآن الكريم وغيره؛ إذ الدّنيا كلُّها إلى زوالٍ، وليس المُلك فحَسْبُ: ﴿ **وما الحياةُ الدُّنْيَا إلّا مَتاعُ الْغُرُورِ** ﴾ [آل عمران:١٨٥. والحديد:٢٠]. فلا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بها ما دامت غدّارةً غير مأمونة، مَن استرسل إليها أهانته، ومَن قلاها أكرمته، رغب فيها الأشقياء، ورغب عنها السُّعداء، فغِناها فقرٌ، وعلمها جهلٌ، وخطوبها صروفٌ، وأيامها دُولٌ؛ ولذا فعلى الإنسان أن يعتبر بحال الأمم السّابقة والملوك الأوّلين: ﴿ **كم تَرَكُوا من جنّاتٍ وعُيُونٍ ۞ وزُرُوعٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ ونَعْمَةٍ كانُوا فيها فَاكِهِين ۞ كَذلكَ وأوْرَثْناها قَومًا آخَرِين ۞ فما بَكَتْ عليهم السّماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظَرِين ۞** ﴾ [الدخان٢٥-٢٩].

وأمرُ الحُكْم والسّلطان لا يمكن الرّكون إليه فهو إلى زوال أيضًا، إمّا بتقلّب الأحوال وتغلّب الخصوم أو بموتِ صاحبه، وقد قيل: (لو دامت لغيرك لما وصلت إليك)، فإذا كان هذا الأمر يقينًا لا مِريةَ فيه، فحَريٌ بمن آتاه الله السّلطان، وهيّأ له الأسباب لبلوغ شَأوه، أن يتّقي الله في أمر هذه الأمة، وإبرام سياستها وتدبير شؤونها، فالله سائلك أيّها الحاكم عن

النّقير والقِطمير والفتيل؛ أي عن كلّ شيء حتّى الهيّن الحقير: ﴿ **لا يَعزُبُ عنهُ مِثقالُ ذرّةٍ في السّماواتِ ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلّا في كتابٍ مُبين**﴾ [سبأ:٣]. وقال تعالى: ﴿**فوربّك لنسألنّهم أجمعين۞ عمّا كانوا يعملون**﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]. وقال تعالى: ﴿**وإنْ كان مثقال حبّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ثمّ يضرب الواعظ المثَل بنبيّ الله سليمان، عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام، الذي آتاه الله مُلْك الدّنيا بحذافيرها، فسخَّرَ له الإنسَ والجنَّ والطّيرَ والوحوشَ والبهائمَ: ﴿**وحُشِرَ لسليمانَ جُنُودُه من الجنِّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعُونَ**﴾ [النمل:١٧].

وقد رُوي أنّ ذلك كان استجابةً من الله تعالى لدعاء سليمان، حيث قال: ﴿ **قال ربِّ اغفرْ لي وَهَبْ لي مُلْكًا لايَنبغي لأحَدٍ من بَعدي إنّكَ أنتَ الوَهّابُ ۞ فَسَخَّرْنا له الرّيحَ تجري بأمْرِهِ رُخَاءً حيثُ أصَابَ ۞ والشّيَاطينَ كُلَّ بَنّاءٍ وغَوّاصٍ ۞ وآخَرِينَ مُقَرَّنينَ في الأصْفَادِ ۞ هذا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أو أَمْسِكْ بِغَيرِ حِسَابٍ ۞ وإنّ له عِندَنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ**﴾ [ص:٣٥-٤٠].

واستدعاء قصّة نبيّ الله سليمان عليه السّلام له أثرٌ كبير في مجال وعظ الحكّام الذين يجدر بهم أن يرعووا ويزدجروا؛ فما مَلَكَ أحدٌ مِثْلَ مُلْكه، إلّا أنّه خاف أن يكون ذلك استدراجًا واختبارًا من الله سبحانه فقال: ﴿ **هذا مِن فَضْلِ ربّي ليبلُوَني أأشكرُ أمْ أكفرُ**﴾ [النمل:٤٠]. هذا بنبيٍّ مُرْسل فكيف حالُ غيره؟!

وخَتَم الطُّرطُوشيُّ موعظته بما يريد، بعد أن أيقن في نفسه أنه أحدث التّأثير المطلوب في شعور الوزير وعقله، فقال: «فافتح الباب، وسهِّل الحِجاب، وانصر المظلوم»!! ثلاثُ جُملٍ، بَسيطة في ظاهِرِها، عميقة في معناها ومغزاها، لو عُمل بها؛ إذ هي سبيل كلّ سياسة رشيدة، ونهج سار على غِراره مَن ضُربت بعدلهم وحسن سياستهم الأمثال كالفاروق عمر رضي الله عنه والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز. ولو فُتِحَتْ أبوابُ الحُكّام لوصل لكلّ ذي حقّ حقّه ولنُصر المظلوم، ولما أحاط بالحكّام زبانيةُ الظّلم والعدوان وأرباب المَلَق

والاستجداء الذين يُزيّنون لهم أفعالهم التي تخرج بهم عن الطّريق السّوي، وجادّة الحقّ، والذين سجنوه بينهم، فلا يرى إلّا ما يرون أو ما يريدون هم أن يراه وحسب.

إنّ هذه الموعظة تكشف بعض الجوانب السّلبية في الحُكم عصرئذٍ، وتُشير إليها على نحو مباشر كما في الجمل الأخيرة: (فافتح الباب، وسهِّل الحِجاب، وانصر المظلوم)!! وتُوضِّح للحاكم سُبلَ إصلاحها، فلو لم يكن ثمّةَ تقصير لما وقف الطّرطوشيّ واعظًا أصلاً؛ إذ ليس وَكْده أن ينال حُظْوة عنده، أو يفوز بنَائلٍ أو عطاء منه. ولو لم يكن الطّرطوشيّ صالحًا في نفسه وسلوكه لما صَدَعَ بالحقّ، وأَمَرَ به، ولما رضي منه الوزير المبجّل هذا الخطاب الاستعلائيّ الحادّ الذي يصعب على النّفس التي تشعر بالفوقيّة والاستعلاء من قِبل النّاصح، وإنْ كان صالحًا، أو ماكان يرجو إلّا إحقاق الحقّ وإصلاح حال الأمّة؛ ولكن المتلقّي يستثقله، ولا سيّما إذا كان وزيرًا حاكمًا بيده أمر الدولة كلّه، تعنو له الرّؤوس، وترتعد لذكره الفرائص.

إلّا أنّ صِدْقَ عاطفة الواعظ، واستقامةَ سلوكه، وجلالَ معناه، وبلاغةَ أسلوبه، كُلّ أولئك أحدث الأثر المرجوّ، فلامست هذه الموعظة شغاف قلبه فبكى، وما ذاك إلّا لِعلمه بتقصيره، وإسرافه على نفسه من ناحية، ولوجود الشّعور الدّينيّ لديه من ناحيةٍ أخرى.

وهناك من يقبل وعظ الزّهّاد والفقهاء ونصحهم، ولكنْ قَبول سُمعةٍ ورياء، لا قَبول تحقيقٍ وعمل. فالفقيه، في حقيقة الأمر، رقيبٌ على السّلطة ما دامتْ تَحكم باسم الدّين، خاصةً إذا كان نظام الخلافة هو نظام الحُكم؛ لأنّ الخليفة إنّما سُمّي خليفة لأنّه خلَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أمّته، أو خَلَفه خليفة رسول الله (أي الذي كان قبله). إذن: الفقيه رقيبٌ على السّلطة السّياسيّة، باعتدادِ غاية السّياسة هي التّمكين لدين الله في الأرض، وهو كما يقول الإمام الغزالي (ت٥٠٥ هـ): «العالِمُ بقانون السّياسة، وطريق التّوسط بين الخَلْق، إذا تنازعوا بحكم الشّهوات؛ فكان الفقيه معلّم السّلطان ومرشده إلى طُرق سياسة الخَلْق وضبطهم؛ لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدّنيا، ولعمري إنّه متعلّق أيضًا بالدّين،

ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدّنيا؛ فإنّ الدّنيا مزرعة الآخرة، ولا يتمّ الدّين إلّا بالدّنيا. والمُلْك والدِّين توأمان؛ فالدِّين أصلٌ، والسّلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتمّ المُلْك والضّبط إلّا بالسّلطان، وطريق الضّبط في فَصْل الحكومات بالفقه»(٤٠٨).

ونستخلص من كلام الإمام الغزاليّ، أنّ ضرورة الدِّين للسّياسة لا تقلّ عن ضرورة السّياسة للدِّين (فالدِّين أصلٌ، والسّلطان حارس)، غير أنّ واقع الأمر، لا يُماثل المبدأ تمامًا؛ لأنّ الحاكم لا يسلّم للفقيه بسُلطته في توجيهه، ومُنافسته في سلطانه، لذا سعى إلى استتباع الفقهاء، بالتّرغيب أو بالتّرهيب، فضلًا عن أنّ السّلطة السّياسيّة، غالبًا، ما تكيّف العلاقة مع الدِّين لمصلحتها هي. ومن ثَمّ، فإنّ كثيرًا من الفقهاء في كتاباتهم السّياسيّة تجوّزوا في اشتراط تبعيّة السّياسة للدِّين تبعيّة تامّة، وصار كثيرٌ منهم (يحكم بصحّة الإسلام، تحت ظلال السّيوف)!

ولذلك فإنّ الحُكّام يُقَرِّبُونَ الفقهاءَ، ويُغدِقونَ عليهم الأموال؛ لأنّ اعترافَ الفُقَهاء قمينٌ بإضفاء الشّرعيّة على حُكْمهم، وتثبيت دعائمه، والظّهور بمظهر حُماة الدّين؛ نظرًا لمكانتهم الاجتماعيّة والدّينيّة وتأثيرهم الواسع في فئات الشّعب، إلّا أنّ ذلك لايعني أن يُسلِّم الحاكم بسُلطة الفقيه، ويخضع له أو يسمح له بدور الرّقيب، فغالبًا مايسعى إلى استتباع الفقهاء، كما قلنا، وكثيرًا ماسوّغ فقهاء السّوء وعلماء السّلاطين للحُكّام أفعالَهم، وزعموا أنّها تصدر عن إرادة الله سبحانه، والتّمرّد على الحاكم يُخرج المرء عن الملّة والجماعة، لذا فهم يخرجون بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم المتّصلة بطاعة الحكّام والخضوع لأمرهم، في غير معصية الخالق سبحانه، عن دلالتها الصحيحة.

---

(٤٠٨) إحياء علوم الدّين ٢٣/١.

والطّرطوشيّ في هذه الموعظة مثالٌ للفقيه النّاصح، والعالم الحريص على المُجاهرة بما يُمْليه عليه واجبه في الدّعوة إلى الله، والإرشاد إلى طريق الهدى والصّلاح، وسياسة الرّعيّة بالعدل والحقّ المُبين .

ويتساءل المرء عن مصدر فِكْر الطّرطوشيّ في موعظته هذه؟ من الواضح أنّه يمتح من معين القرآن الكريم، ويستلهم آياته البيّنات، ومعانيه السّامية، إضافة إلى الحديث النّبويّ، وأقوال السّلف الصّالح ومواعظهم؛ إذ طالما رَدَّدَ هؤلاء، قبل الطّرطوشيّ، هذه المعاني السّامية، وأطالوا القول فيها، بل إنّ الطّرطوشيّ استوحى بعضها بالحرف، كما في قوله: (فافتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم). فهذه الجمل تردّدت أصداؤها في كتب التّراث على لسان زاهدٍ واعظٍ، لا يُعْرَف اسمه، قام بين يدي الخليفة العبّاسيّ المنصور في مكّة، وقد سَمعه المنصور يشكو ظهورَ البغي والفساد، وما يَحُوْلُ بين الحقّ وأهله من الطّمع، فسأله عن عِلّة قوله، فوعظه بجُرأة نادرة، وعزا سبب هذا الفساد والجور إليه، وقَرَّعَهُ بموعظة طويلة بليغة جاء فيها بالحرف: «فافتح بابك، وسهّل حجابك، وانصر المظلوم»(٤٠٩).

ومهما يكن فمعاني الموعظة واضحة المغزى، بعيدةٌ عن العمق، أو التّكلّف أو المعاني الفلسفيّة العويصة، إلّا أنّها مُوحيةٌ، أصابت المقصدَ الذي رامه صاحبها، والإشارة إلى نبيّ الله سليمان عليه السلام إشارة ذكيّة دالّة؛ إذ هي محاولة لاتخاذه قُدوة يسير عليها الوزير الحاكم، بحيث يكون سلوكه وهديه، عليه السّلام، بمنزلة المِعيار الذي يضبط سلوك الوزير ويُغريه بانتهاج نهجه.

أمّا أسلوب الطّرطوشيّ في التّعبير فهو الذي أكسب هذه المعاني المتداولة جمالًا وتأثيرًا، فقد اتّسم بالقوّة والجزالة والفصاحة، وتماسك الجمل، والبُعد عن الغرابة

---

(٤٠٩) العقد ٣/١٥٣-١٥٦. وإحياء علوم الدّين ٢/٣٠٢-٣٠٤.

والغموض والتّكلّف، وعدم اللّجوء إلى المحسّنات البديعيّة، أو التَّصنيع كـ (السّجْع والتّصوير البيانيّ والطّباق)، إلّا ما جاء عفو الخاطر، وعلى نحو غير مقصود للزّخرفة والزّينة؛ لأنّه يُخاطب العقل أوّلًا، أكثر ممّا يخاطب الشّعور والوجدان، فهو في مَعْرِض حِجَاج.

ولذا عَزَف عن المُحسّنات في زمنٍ كانت فيه سائدة إلى حدٍّ كبير، فالسّجْع كان طاغيًا في زمن الطّرطوشيّ، وهو كان يستخدمه بكَثْرة؛ غير أنّ مقامه واعظًا يقتضيه أن يبتعد عن التّكلّف الذي يناقض صِدْق العاطفة، فليس غرضه إظهار بلاغته، وحسن بيانه، وإنّما إحداث التّأثير في نفس المُخاطب، واستمالته إلى حديثه، ولا نعني بهذا القول أنّ أسلوبه غير مُفصحٍ أو غير مُبين إنّما هو غير متكلّف، والتّكلّف نقيض البلاغة والفصاحة.

ومُقتضى الحال، كما يقول القدماء، هو الفيصل في الحُكم على أسلوبٍ ما أو سمةٍ بلاغية معيّنة كالسَّجْع أو غيره.

وأسلوب الطّرطوشيّ الذي بنى عليه موعظته هو الأسلوب المُرْسَل، الذي هو مذهب الطّبع ومُجاراة السَّجيّة، «وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقًا، ولا يقطّع أجزاء؛ بل يُرسل إرسالاً، من غير تقييدٍ بقافية ولا غيرها»، كما مرّ بنا.

ويُعرَف هذا الأسلوب بالسَّهل المُمتنع، كما قلنا من قبل، ويقوم على إجلال المعنى أوّلًا، وقوّة التّركيب، وغلبة النّزعة العقليّة، والعناية بالشّرح والتّفصيل، وسَعَة الأفق في إعمال الفِكْر في دقائق المعاني. وقد تطول الجملةُ فيه أو تقصر بحسب الفواصل الفكريّة، كما في الجمل الأولى مثلاً. ويرى ابن خلدون، أنّ «المحمودَ في المخاطبات السّلطانيّة التّرسّلُ؛ وهو إطلاق الكلام، وإرساله من غير تَسْجيع، إلّا في الأقلّ النّادر، وحيث ترسله المَلَكة إرسالًا من غير تكلّفٍ له، ثمّ إعطاء الكلام حقّه في مُطابقته لمقتضى الحال؛ فإنّ المقامات

مختلفة، ولكلّ مقامٍ أسلوب يخصّه من إطنابٍ، أو إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو إشارة وكناية واستعارة»[٤١٠].

وغالبًا مايُستخدم في النّثر التّأليفيّ والوصايا والمحاورات، وهو الأسلوب المفضّل بل السّائد في القرون الإسلاميّة الأولى، وقد يُحلّى بالازدواج أو السّجع في بعض الأحيان، والغاية منه تكمن في إطلاق حركة الفكر والعقل من أيّ عِقالٍ قد يشدّهما.

والوظيفة المعرفيّة هي الغاية التي ينشدها المُبدع منه (أي من الأسلوب المُرْسَل)، ثمّ تأتي الوظيفة الجماليّة التي ليست مقصورةً على اللّفظ فحسب، وإنّما هي في التّفكير والتّعبير معًا.

ومن مظاهر الصّنعة في هذا النّصّ التّأنّق في استخدام المفردات والاحتفاء بالتّعبير في كلّ مفردات النّصّ في اختيارها وترتيبها وسلامتها من سَماجة التّأليف، وأَوَدِ التّركيب. وهذا يدلّ على الاهتمام بالمعنى في حقيقة الأمر، وليس رغبة باللّفظ ذي الجَرْس الصّوتيّ، والرّنين الموسيقيّ، كما يظنّ بعضُ الدّارسين؛ إذ اللّفظُ أداة المعنى، فليجأ إليه الواعظ لإحداث التّأثير المعنويّ، وإيصال الفِكر، ولكي تُصبح الصّياغة أكثر وَعيًا وقَصْديّة، ومن ثمّ أكثر تأثيرًا. ولا يصحّ الفصل بين اللّفظ والمعنى لأنّ الكلام ـ كما ذكر الجاحظ ـ لا يستحقّ اسم البلاغة؛ «حتّى يسابقَ معناه لفظَه، ولفظُهُ معناه، فلا يكون لفظُهُ إلى سَمْعك أَسْبَقَ من معناه إلى قلبك»[٤١١].

فالعناية باللّفظ عناية بالمعنى؛ لأنّ العلاقة بينهما علاقة تفاعل وتآزر وتكامل، فلا يصحّ الفصل بينهما؛ إذ بهما معًا تتشكّل القيمة الأدبيّة للتّجربة اللّغويّة، وثمّة أقوالٌ نقديّة عدّة تؤكّد هذا الرّأي، لا مجال لذكرها. وصحّةُ المعنى مَنُوطةٌ بجَوْدة اللّفظ ودقّته، ونصّ الطّرطوشيّ فيه جلال الفكرة وجمال اللّفظة ورصانتها، ولغته لغة السّهل الممتنع، الذي يجمع

---

(٤١٠) المقدّمة ٢/٢٧٠-٢٧١.

(٤١١) البيان والتبيين ١/١١٥.

بين ثراء التّفكير وبساطة التّعبير، وهذا دليل على عبقريّة ذَوقه ورهافة حِسِّه. وألفاظه تنتمي إلى معجم الزُّهّاد.

ولعلَّ من أهمّ ما يُمكن أن يُشار إليه أيضًا هو الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على نحو تتوافق فيه المعاني مع ما يُراد التّعبير عنه، فيأخذ بعضُها برقاب بعض، دون نبوٍّ أو شذوذ، كما في قوله: (فما عدَّ ذلك نعمةً ... أكفر).

ويكمن سبب تمثّله بالقرآن الكريم في البرهان على صِدْق قوله، ولا سيّما أنّه يلخّص في حديثه عن سليمان ما جاء في القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ، خاصّةً في سورة (النّمل) و(ص)، فضلًا عن تزيين النّصّ بآياته البيّنات. وهنا نذكر قول ابن الأثير، مبيّنًا فيه الغاية من الاقتباس من القرآن الكريم؛ إذ يقول: «إذا ضُمِّنَتِ الآياتُ في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها؛ فلا شُبْهَةَ فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرَّونق»، وكذلك «فإنّ الآية الواحدة تقوم في بُلوغ الغرض، وتوفية المقاصد، ما لا تقوم به الكُتب المطوّلة، والأدلّة القاطعة»[٤١٢].

ومن المعروف أيضًا، أنّ للقرآن العظيم مكانة خاصّة في الفكر الإسلاميّ، لذا فإنّ الأهميّة الاحتجاجيّة للاقتباس منه كبيرة جدًا؛ لتأكيد الكلام من ناحية، وحجّة تُفحم المخاطَب من ناحية أخرى، كما في الآية الثانية. كذلك استمدّ الطّرطوشيّ حين قال: «فسخّر له الرّيح تجري بأمره رُخَاءً حيث أصاب» الآيةَ القرآنيّةَ نفسَها مع تغييرٍ طفيف: ﴿**فَسَخَّرْنا لَهُ الرّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**﴾ [ص: ٣٦]. وهذا ما يُسمّيه بعضُ البلاغيين كـ(القلقشنديّ) الاقتباس؛ وهو أن يُضمّن الكلام شيئًا من القرآن ولا ينبّه عليه؛ أي يسوقه في أثناء كلامه، دون إخلال أو نشاز في التّأليف. وهو دليل على إعجاب الطّرطوشيّ بفصاحة القرآن، وسَعَة محفوظه، وتأثّره به ورغبته باستظهاره.

---

(٤١٢) صُبح الأعشى ٢٣١/١.

ولا بدَّ لنا أن نُشير إلى أنّنا أمام نصّ شفاهيّ في أصله؛ إذ هو موعظة، فإذا وضعنا ذلك في الحُسْبان أدركنا جماليّة النّصّ وبلاغته وطرافته الإبداعيّة على نحوٍ واضح؛ حيث تقترن الألفاظُ بسِماتها الصّوتيّة المُميّزة التي تُعين المرءَ على تحديد المعاني الوظيفيّة والمعجميّة معًا من نَبْرٍ ووَقْفٍ وتنغيمٍ، يتراوح في مستواه بين الهدوء والقوّة، بالاتّساق مع حركات الجسد، وإيماءات الوجه، ولغة الإشارة، وما إلى ذلك من سِمات فارقةٍ بين النّصّ الشّفاهيّ والكتابيّ تعين المرء على تدبّر النّصّ التّدبّر الأكمل والأمثل .

ومهما يكن، فقد اتَّسَمَ النّصّ ببلاغة العبارة، وصِدْق اللّهجة والصّراحة، ومُضاهاة جلال الفِكْر وسُموّه لجمال اللّغة والتّعبير، وفيه يتبدّى دور الفقيه والعالم المسؤول أمام الله في تقديم النّصح والموعظة، الذي يتسامى عن الاستجداء والمَلَقِ، ويُعْرِض عن عَرَض الدّنيا الزّائل وأدرانها الفاسدة. وما أبلغ اللّغةَ وأبينَها إذا ازدانت بالفِكْر المثاليّ المُتسامي، وأضحت لغةَ مُثُلٍ عُليا، ولغةَ هدايةٍ وإرشاد وإشعاعٍ وتنويرٍ.

الفصل الرابع

نصوص نثريّة مختارة

أولاً - نصوص لابن المُقَفَّع

ثانيًا - نصوص لسهل بن هارون

ثالثًا - نصوص لمحمّد بن عبد الملك الزيّات

رابعًا - نصوص للجاحظ

خامسًا - نصوص للتوحيديّ

سادسًا - خطب من العصر العبّاسيّ

سابعًا: وصايا ومواعظ

Al-Furat University 2006

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

أوّلاً: نصوص مُختارة لابن المقفّع

نصوص من الأدب الصغير (نشرة دار الجيل، بعناية: سعيد عقيل، ط١، ٢٠٠١م، ص٧٥-١١٠).

- إنّ لكلّ مخلوقٍ حاجةً، ولكلّ حاجةٍ غايةً، ولكلّ غاية سبيلاً. والله وقّت للأمُور أقدارها، وهيّأ إلى الغايات سبلها، وسبّب الحاجاتِ ببلاغها. فغايةُ النّاسِ وحاجاتهم صلاحُ المعاشِ والمعاد، والسّبيل إلى دَرْكها العقل الصّحيح. وأمَارةُ صحّةِ العقلِ اختيارُ الأمورِ بالبصرِ، وتنفيذُ البصرِ بالعزمِ. وللعقولِ سجيّاتٌ وغرائزُ بها تقبل الأدب، وبالأدبِ تنمى العقولُ وتزكو. فكما أنّ الحبّة المدفونة في الأرضِ لا تقدر أن تخلعَ يبسها، وتظهر قوّتها، وتطلع فوق الأرضِ بزهرتها ورَيْعها ونضرتها ونمائها، إلا بمعونةِ الماء الذي يغورُ إليها في مستودعها، فيذهب عنها أذى اليبَس والموت، ويحدث لها بإذن الله القوّة والحياة، فكذلك سليقةُ العقلِ مكنونة في مَغرزها من القلبِ، لا قوّة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتّى يعتملَها الأدبُ الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها. وجُلّ الأدب بالمنطق وجلّ المنطقِ بالتعلّمِ.

- على العاقلِ أن يعلم أنّ الناس مشتركونَ مستوون في الحُبِّ لما يُوافقُ والبغضِ لما يؤذي، وأنّ هذه منزلةٌ اتّفق عليها الحمقى والأكياسُ، ثمّ اختلفوا بعدها في ثلاث خصالٍ هُنّ جِماعُ الصّوابِ وجِماعُ الخطأ، وعندهنّ تفرّقتِ العلماءُ والجهّال، والحزَمةُ والعجَزةُ. الباب الأول من ذلك أنّ العاقل ينظرُ فيما يؤذيه وفيما يسرّهُ، فيعلم أنّ أحقّ ذلك بالطّلبِ، إن كان ممّا يحبّ، وأحقّهُ بالاتّقاء، إن كان ممّا يكرهُ، أطولهُ وأدومُهُ وأبقاهُ، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرةِ على الدنيا، وفضل سرورِ المروءةِ على لذّة الهوى، وفضل الرّأي الجامعِ الذي تصلحُ به الأنفُسُ والأعقابُ على حاضرِ الرّأي الذي يُستمتعُ به قليلاً ثمّ يضمحلّ، وفضل الأكلاتِ على الأكلة والسّاعات على الساعة. الباب الثاني من ذلك أن ينظُرَ فيما يؤثِرُ من ذلك، فيضعَ الرّجاءَ والخوفَ فيهِ موضعهُ، فلا يجعل اتّقاءهُ لغير المَخوفِ ولا رجاءهُ في غيرِ المُدركِ، فيتوقّى عاجلَ اللذّاتِ طلبًا لآجلها، ويحتملُ قريبَ الأذى توقّيًا لبعيدهِ. فإذا صارَ

إلى العاقبةِ، بدا لهُ أنّ فرارَهُ كان تورّطًا وأن طلبه كان تنكّبًا. الباب الثالث من ذلك هو تنفيذُ البصرِ بالعزمِ بعد المعرفةِ بفضل الذي هو أدوم، وبعد التثبّتِ في مواضعِ الرّجاء والخوف، فإنّ طالب الفضل بغير بصَرٍ تائهٌ حيران، ومبصر الفضلِ بغيرِ عزمٍ ذو زَمانةٍ محروم.

ـ على العاقل مخاصمةُ نفسه ومحاسبتُها والقضاءُ عليها والإثابةُ والتنكيلُ بها. أمّا المحاسبةُ، فيحاسبُها بمالِها، فإنّه لا مال لها إلا أيامُها المعدودةُ التي ما ذهبَ منها لم يُستخلف كما تُستخلفُ النّفقةُ، وما جُعل منها في الباطلِ لم يرجع إلى الحقّ، فيتنبّهُ لهذه المحاسبةِ عند الحَوْل إذا حال، والشّهر إذا انقضى، واليوم إذا ولّى، فينظر فيما أفنى من ذلك، وما كسب لنفسهِ، وما اكتسب عليها في أمرِ الدّينِ وأمرِ الدّنيا، فيجمع ذلك في كتابٍ فيه إحصاءٌ وجدٌّ وتذكيرٌ للأمورِ، وتبكيتٌ للنّفسِ وتذليل لها حتّى تعترفَ وتذعن. وأمّا الخصومةُ، فإنّ من طباعِ النّفسِ الآمرةِ بالسّوء أن تدّعي المعاذير فيما مضى، والأماني فيما بقي، فيردّ عليها معاذيرها وعِللها وشبهاتِها. وأمّا القضاءُ، فإنّه يحكمُ فيما أرادت من ذلك على السّيئة بأنّها فاضحةٌ مُرديةٌ موبقةٌ، وللحسنةِ بأنّها زائنةٌ مُنجيةٌ مربحةٌ. وأمّا الإثابةُ والتنكيلُ، فإنهُ يسرّ نفسهُ بتذكر تلك الحسناتِ ورجاء عواقبها وتأميلِ فضلها، ويعاقبُ نفسه بالتذكّر للسيئاتِ والتبشّعِ بها والاقشعرار منها والحزن لها. فأفضلُ ذوي الألباب أشدُّهم لنفسه بهذا أخْذًا، وأقلّهم عنها فيه فترةً.

ـ على العاقل، مالم يكن مغلُوبًا على نفسه، ألّا يشغله شغلٌ عن أربعِ ساعاتٍ: ساعة يرفعُ فيها حاجتهُ إلى ربّهِ، وساعة يحاسبُ فيها نفسهُ، وساعة يُفضي فيها إلى إخوانهِ وثِقاته الذين يصدُقونه عن عُيوبهِ وينصحونهُ في أمرهِ، وساعةٍ يُخلي فيها بين نفسهِ وبين لذّتها مما يحلّ ويجمُلُ، فإنّ هذه السّاعةَ عَونٌ على السّاعات الأُخَرِ، وإنّ استجمامَ القلوبِ وتوديعَها زيادةُ قوّةٍ لها وفضل بُلْغةٍ.

ـ على العاقل ألّا يستصغر شيئًا من الخطأ في الرّأي، والزّللِ في العلمِ، والإغفال في الأمور، فإنّهُ من استصغر الصّغير أوشكَ أن يجمعَ إليه صغيرًا وصغيرًا، فإذا الصغير كبيرٌ. وإنّما هي

ثُلَمٌ يثلمها العجزُ والتضييعُ. فإذا لم تسدّ أوشكت أن تتفجرّ بما لا يُطاقُ. ولم نرَ شيئًا قطّ إلا قد أُتي من قبلِ الصّغير المتهاوَنِ به. قد رأينا المُلكَ يُؤتى من العدوّ المحتقَر به، ورأينا الصّحة تُؤتى من الدّاء الذي لا يُحفَلُ بهِ، ورأينا الأنهار تنبثقُ من الجدول الذي يُستخفّ بهِ. وأقلّ الأمورِ احتمالًا للضّياعِ المُلْكُ، لأنّه ليس شيءٌ يضيعُ، وإن كان صغيرًا، إلا اتّصل بآخرَ يكونُ عظيمًا.

ـ ولايةُ الناسِ بلاءٌ عظيمٌ. وعلى الوالي أربعُ خصالٍ هي أعمدةُ السّلطانِ وأركانهُ التي بها يقومُ وعليها يثبُت: الاجتهادُ في التخيّر، والمبالغةُ في التّقدّمِ، والتّعهّد الشّديدُ، والجزاءُ العَتيد. فأمّا التّخيّرُ للعمّالِ والوزراء فإنّهُ نظامُ الأمرِ، ووضعُ مؤونةِ البعيد المنتشرِ. فإنّهُ عسى أن يكونَ بتخيّرِهِ رجلًا واحدًا قد اختار ألفًا؛ لأنّهُ من كان من العُمّالِ خيارًا فسيختارُ كما اختيرَ. ولعلّ عُمّالَ العاملِ وعمّالَ عُمّالِهِ يبلغونَ عددًا كثيرًا، فمَن تبيّن التّخيّرَ فقد أخذ بسببٍ وثيقٍ، ومَن أسّس أمرهُ على غيرِ ذلك لم يجد لبنائه قِوامًا. وأمّا التّقديم والتّوكيدُ، فإنّه ليس كلّ ذي لبّ أو ذي أمانةٍ يعرفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ، ولو كانَ بذلك عارفًا، لم يكن صاحبهُ حقيقًا أن يكلَ ذلك إلى علمهِ دونَ توقيفهِ عليهِ وتبيينهِ لهُ والاحتجاجِ عليه بهِ. وأمّا التّعهّدُ، فإنّ الوالي إذا فعلَ ذلكَ كان سميعًا بصيرًا، وإنّ العامل إذا فعل ذلك به كان متحصّنًا حريزًا. وأمّا الجزاء فإنّهُ تثبيتُ المُحسنِ والرّاحةُ من المسيء.

ـ لا يُستطاعُ السلطانُ إلا بالوزراء والأعوانِ، ولا ينفعُ الوزراء إلا بالمودّةِ والنصيحةِ، ولا المودّةُ إلّا مع الرّأي والعفاف. وأعمالُ السّلطانِ كثيرةٌ، وقليلٌ ما تُستجمعُ الخصالُ المحمودةُ عند أحدٍ، وإنّما الوجهُ في ذلك والسّبيلُ الذي به يستقيمُ العلم أن يكون صاحبُ السّلطانِ عالمًا بأمورِ مَن يريدُ الاستعانةَ به وما عند كلّ رجلٍ من الرّأي والغَناء، وما فيه من العيوبِ. فإذا استقرّ ذلك عنده عن علمهِ وعِلم مَن يأتمنُ، وجّهَ لكلّ عملٍ من قد عرف أنّ عندهُ من الرّأي والنجدةِ والأمانةِ ما يحتاجُ إليه فيهِ، وأنّ ما فيه من العُيوبِ لا يضرّ بذلك، ويتحفّظُ من أن يوجّه أحدًا وجهًا لا يحتاجُ فيه إلى مروءةٍ، إن كانت عندهُ، ولا يأمنُ عيوبه وما يكرهُ

منه. ثمّ على الملوكِ، بعد ذلكَ، تعاهدُ عمّالهم وتفقّد أمورهم، حتّى لا يخفى عليهم إحسانُ محسنٍ ولا إساءةُ مسيء. ثمّ عليهم، بعد ذلكَ، ألّا يتركوا مُحسنًا بغيرِ جزاءٍ ولا يقرّوا مُسيئًا ولا عاجزًا على الإساءةِ والعجزِ. فإنهم إن تركوا ذلك، تهاونَ المحسنُ، واجترأ المسيءُ، وفسد الأمرُ، وضاعَ العملُ.

ـ اقتصارُ السّعي إبقاءٌ للجَمامِ، وفي بعد الهمّةِ يكون النّصَب، ومَن سأل فوق قدرتهِ استحقّ الحرمانَ، وسوءُ حملِ الغنى أن يكونَ عند الفرحِ مرِحًا، وسوءُ حملِ الفاقةِ أن يكون عند الطّلبِ شرِهًا، وعارُ الفقر أهونُ من عار الغنى، والحاجةُ مع المحبّةِ خيرٌ من الغنى مع البُغضةِ. الدّنيا دُوَلٌ، فما كان لك منها أتاكَ على ضَعفكَ، وما كان عليك لم تدفعهُ بقُوّتكَ. أشدّ الفاقةِ عدمُ العقلِ، وأشدّ الوحدةِ وحدةُ اللّجوجِ، ولا مال أفضلُ من العقلِ، ولا أنيس آنسُ من الاستشارةِ.

ـ إذا همَمت بخيرٍ فبادر هواكَ، لا يغلبْك، وإذا همَمتَ بشرٍّ فسوّف هواك لعلك تظفرُ، فإنّ ما مضى من الأيامِ والسّاعاتِ على ذلك هو الغُنْمُ. لا يمنعنّك صغَرُ شأن امرئ من اجتناء ما رأيتَ من رأيه صوابًا والاصطفاء لما رأيتَ من أخلاقه كريمًا، فإنّ اللؤلؤة الفائقة لا تهانُ لهوانِ غائصها الذي استخرجها.

ـ إنّ للسلطانِ المُقْسطِ حقًّا لا يصلحُ بخاصّةٍ ولا عامّةٍ أمرٌ إلّا بإرادتهِ، فذو اللُّبّ حقيقٌ أن يُخلص لهمُ النصيحة، ويبذل لهم الطاعة، ويكتُم سرّهم، ويزيّنَ سيرتهم، ويذبّ بلسانه ويده عنهم، ويتوخّى مرضاتهم، ويكون من أمرهِ المؤاتاةُ لهم والإيثارُ لأهوائهم ورأيهم على هواهُ ورأيِهِ، ويقدّرَ الأمور على موافقتهم وإن كان ذلك له مخالفًا، وأن يكون منهُ الجدّ في المخالفة لمن جانَبهم وجهِل حقّهم، ولا يواصل من الناسِ إلّا مَن لا تُباعد مواصلتهُ إيّاهُ منهم، ولا تحملهُ عداوةُ أحدٍ لهُ ولا إضرارٌ به على الاضطغانِ عليهم، ولا مؤاتاةُ أحدٍ على الاستخفاف بشيء من أمورهم والانتقاص لشيء من حقّهم، ولا يكتُمهم شيئًا من نصيحتهم، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم، ولا يبطر إذا أكرموهُ، ولا يجترئ عليهم إذا قرّبوه، ولا يطغى إذا

سلّطوهُ، ولا يُلحِف إذا سألهم، ولا يُدخل عليهمُ المؤونة، ولا يستثقل ما حمّلوهُ، ولا يعتزّ عليهم إذا رضوا عنهُ، ولا يتغيّر لهم إذا سخِطوا عليه، وأن يحمدهم على ما أصابَ من خيرٍ منهم أو من غيرهم؛ فإنّهُ لا يقدرُ أحدٌ على أن يُصيبهُ بخيرٍ إلا بدفاعِ الله عنهُ بهم.

ـ حياةُ الشيطان تركُ العلمِ، وروحهُ وجسدهُ الجهلُ، ومعدِنهُ في أهل الحقدِ والقساوةِ، ومَثواهُ في أهل الغضبِ، وعيشهُ في المُصارمةِ، ورجاؤهُ في الإصرار على الذنوبِ.

ـ أحقّ مَن لم يُستخفّ به ثلاثةٌ: الأتقياءُ والولاةُ والإخوانُ؛ فإنهُ مَن استخفّ بالأتقياء أهلك دينهُ، ومَن استخفّ بالولاةِ أهلك دنياهُ، ومَن استخفّ بالإخوانِ أفسد مُروءتهُ.

ـ السعيدُ يُرغّبهُ الله في الآخرةِ حتّى يقُول: لا شيء غيرُها، فإذا هضَمَ دنياهُ وزهِدَ فيها لآخرتهِ، لم يحرِمْهُ الله بذلكَ نصيبهُ من الدّنيا، ولم ينقصْهُ من سرورهِ فيها. والشّقي يرغّبهُ الشيطانُ في الدّنيا حتّى يقول: لا شيء غيرها، فيجعلُ الله له النّغيصَ في الدّنيا التي آثرَ مع الخزي الذي يلقى بعدها.

ـ الرّجالُ أربعةٌ: جوادٌ، وبخيلٌ، ومُسرفٌ، ومُقتصدٌ. فالجوادُ الذي يوجّهُ نصيبَ آخرتهِ ونصيبَ دنياهُ جميعًا في أمرِ آخرتهِ. والبخيلُ الذي يخطئ واحدةً منهما نصيبها. والمُسرفُ الذي يجمعهما لدنياهُ. والمقتصدُ الذي يُلحقُ بكلّ واحدةٍ منهُما نصيبها.

ـ قال رجلٌ لحكيمٍ: ما خيرُ ما يُؤتى المرء؟ قال: غريزةُ عقلٍ، قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلّمُ علمٍ، قال: فإن حُرِمه؟ قال: صدقُ اللّسانِ، قال: فإن حُرمه؟ قال: سكوتٌ طويلٌ، قال: فإن حُرمه؟ قال: مِيتةٌ عاجلةٌ.

ـ مِن أشدّ عيوبِ الإنسانِ خفاءُ عيوبه عليه، فإنّ مَن خفي عليه عيبُه خفيت عليه محاسنُ غيره، ومن خفي عليه عيبُ نفسِه ومحاسنُ غيرِه فلن يقلعَ عن عيبِه الذي لا يعرفُ، ولن ينال محاسنَ غيرِه التي لا يبصرُ أبدًا.

ـ خمولُ الذّكر أجملُ من الذّكرِ الذّميم. لا يوجد الفخورُ محمودًا، ولا الغَضُوبُ مسرورًا، ولا الحرّ حريصًا، ولا الكريمُ حَسُودًا، ولا الشّرِهُ غنيًّا، ولا المَلولُ ذا إخوانٍ.

ـ كان يُقالُ: قاربْ عدوّكَ بعضَ المُقاربة، تنلْ حاجتك، ولا تُقاربْهُ كلَّ المُقاربةِ، فيجترِئ عليك عدوُّك وتذِلّ نفسك ويرغب عنك ناصركَ. ومثلُ ذلك مثلُ العُود المنصوبِ في الشّمسِ، إن أملْتهُ قليلًا زاد ظلّهُ، وإن جاوزتهُ الحدّ في إمالتهِ، نقص الظلّ.

ـ إنّ المستشيرَ وإن كان أفضلَ من المُستشار رأيًا، فهو يزدادُ برأيه رأيًا، كما تزدادُ النّارُ بالوَدَكِ ضوءًا. على المُستشارِ مُوافقةُ المُستشيرِ على صَوابِ ما يرى، والرّفقُ به في تبصيرِ خطأ إن أتى بهِ، وتقليب الرّأي فيما شكّا فيه، حتّى تستقيمَ لهما مُشاورتهما.

ـ مَن لا إخوانَ لهُ فلا أهلَ لهُ، ومَن لا أولاد لهُ فلا ذكر لهُ، ومن لا عقلَ لهُ فلا دنيا لهُ ولا آخرة، ومن لا مال لهُ فلا شيء لهُ. والفقرُ داعيةٌ إلى صاحبهِ مقْتَ النّاسِ، وهو مَسْلبةٌ للعقلِ والمروءةِ، مَذْهبةٌ للعلمِ والأدبِ، ومعدنٌ للتُهَمةِ، ومَجْمعةٌ للبلايا. ومَن نزل به الفقرُ والفاقةُ لم يجد بُدًّا من تركِ الحياءِ، ومن ذهب حياؤهُ ذهبَ سرورهُ، ومن ذهبَ سرورهُ مُقِتَ، ومن مُقتَ أوذي، ومن أوذي حزنَ، ومن حزنَ فقد ذهبَ عقلهُ واستنكرَ حفظُهُ وفهمهُ. ومن أصيبَ في عقله وفهمِهِ وحفظِهِ كان أكثر قولِهِ وعملِهِ فيما يكون عليه لا لهُ. فإذا افتقر الرّجلُ اتّهمهُ من كان له مُؤتمنًا، وأساء به الظّنّ من كان يظنّ به حسنًا، فإذا أذنب غيره ظنّوهُ، وكان للتّهمةِ وسوء الظّنّ مَوضعًا. وليس من خَلّةٍ هي للغني مَدْحٌ إلّا هي للفقيرِ عيبٌ، فإن كانَ شُجَاعًا سُمّي أهوجَ، وإن كانَ جَوادًا سمّي مُفْسدًا، وإن كان حَليمًا سُمّي ضعيفًا، وإن كان وَقورًا سمّي بليدًا، وإن كان لَسِنًا سمّي مِهذارًا، وإن كان صَمُوتًا سمّي عَييًا.

نصوص من الأدب الكبير (نشرة دار الجيل، بيروت، بعناية: سعيد عقيل، ط١، ٢٠٠١م، ص٧ـ٧٢).

ـ أصلُ الأمر في البأسِ والشّجاعةِ ألّا تُحدّثَ نفسَك بالإدبارِ، وأصحابكَ مُقبلونَ على عدوّهم. ثمّ إن قدرت على أن تكونَ أوّلَ حاملٍ وآخرَ مُنصرفٍ، من غير تضييعٍ للحَذَرِ فهو

أفضلُ. وأصلُ الأمرِ في الجودِ ألّا تضنّ بالحقوق على أهلها. ثمّ إن قدرتَ أن تزيدَ ذا الحقّ على حقّه وتطول على مَن لا حقّ لهُ فافعل فهو أفضلُ. وأصلُ الأمرِ في الكلامِ أن تَسْلَمَ من السّقَطِ بالتّحفّظِ. ثمّ إن قدرت على بارعِ الصّوابِ فهو أفضلُ. وأصلُ الأمر في المعيشة ألّا تنيَ عن طلب الحلالِ، وأن تحسنَ التّقدير لما تفيد وما تنفقُ. ولا يغرنّكَ من ذلك سَعَةٌ تكونُ فيها، فإنّ أعظمَ النّاسِ في الدّنيا خَطرًا أحوجهم إلى التّقدير، والملوكُ أحوجُ إليهِ من السُّوقةِ لأنّ السُّوقةَ قد تعيشُ بغيرِ مالٍ، والملوكَ لا قِوام لهم إلّا بالمالِ. ثمّ إن قدرتَ على الرّفقِ واللّطفِ في الطّلبِ والعلمِ بوجوهِ المطالبِ فهو أفضلُ. (ص٩-١٠)

ـ لا تتركنّ مُباشرةَ جسيمِ أمرِكَ فيعودَ شأنُكَ صغيرًا، ولا تُلزمنّ نفسَكَ مباشرةَ الصّغيرِ، فيصيرَ الكبيرُ ضائعًا. واعلم أنّ مالَكَ لا يُغني النّاسَ كلّهم فاخصصْ به أهلَ الحقّ، وأنّ كرامتَك لا تطيقُ العامّة كلّها فتوخّ بها أهلَ الفضلِ، وأنّ قلبَكَ لا يتّسعُ لكلّ شيء ففرّغه للمهمّ، وأنّ ليلَكَ ونهارَكَ لا يستوعبانِ حاجاتكَ، وإن دأبتَ فيهما، وأنّ ليس لك إلى إدامةِ الدّأب فيهما سبيلٌ مع حاجةِ جسدك إلى نصيبِهِ منهما فأحسن قسْمتهما بين عَمَلِك ودَعَتِكَ. واعلم أنّ ما شغلت من رأيك بغير المهمّ أزرى بكَ في المهمّ، وما صرفتَ من مالكَ في الباطلِ فقدتهُ حينَ تُريدهُ للحقّ، وما عدلتَ به من كرامتك إلى أهلِ النّقصِ أضرّ بكَ في العجزِ عن أهلِ الفضلِ، وما شغلتَ من ليلكَ ونهاركَ في غير الحاجةِ أزرى بكَ عند الحاجةِ منكَ إليهِ. (ص١٥)

ـ اعلم أنّ من النّاسِ ناسًا كثيرًا يبلغُ من أحدهمِ الغَضَبُ، إذا غَضِبَ، أن يحملَه ذلك على الكُلوحِ والقُطوبِ في وجهِ غيرِ مَن أغضبهُ، وسوءِ اللّفظ لمن لا ذنبَ لهُ، والعقوبةِ لمن لم يكن يهمّ بمعاقبتهِ، وشدّةِ المعاقبةِ باللّسانِ واليد لمن لم يكن يريدُ به إلّا دون ذلكَ. ثمّ يبلغُ به الرّضا، إذا رضي، أن يتبرّع بالأمر ذي الخطرِ لمن ليس بمنزلةِ ذلك عنده، ويُعطي من لم يكن يُريدُ إعطاءهُ، ويكرم من لم يُرد إكرامه ولا حقّ له ولا مودّةَ عندهُ. فاحذر هذا الباب الحذر كلّه؛ فإنّه ليس أحدٌ أسوأ فيه حالًا من أهلِ السّلطانِ الذين يفرطون باقتدارهم في غَضَبِهم،

وبتسرّعهم في رضاهم، فإنّهُ لو وُصفَ بهذه الصّفةِ من يُلتبسُ بعقلِهِ، أو يتخبّطهُ المسّ أن يعاقبَ عند غضبهِ غير من أغضبهُ، ويحبو عند رضاهُ غير من أرضاهُ، لكان جائزًا ذلكَ في صفتهِ. (ص١٥-١٦)

ـ إن ابتُليتَ بصُحْبةِ السُّلطان، فعليكَ بطُول المُواظَبَةِ في غير مُعاتبةٍ، ولا يُحْدِثَنَّ لك الاستئناسُ به غَفْلةً ولا تهاونًا. إذا رأيتَ السُّلطان يَجْعَلُكَ أَخًا؛ فاجْعَلْه أبًا، ثمّ إن زادك فَزِدْه. إذا نَزَلْتَ من ذي مَنْزِلَةٍ أو سُلْطانٍ، فلا تَرَيَنّ أنّ سُلْطانَه زادكَ له توقيرًا وإجلالًا، من غير أن يَزِيدَكَ وُدًّا ولا نُصْحًا، وأنَّك ترى حقًّا له التَّوقيرَ والإجلالَ. وكُنْ في مُدَاراته والرّفق به كالمُؤْتَنِفِ ما قبلَه، ولا تُقَدِّرِ الأمر بينك وبينه على ما كنتَ تعرفُ من أخلاقه؛ فإنَّ الأخلاقَ مُسْتحيلةٌ مع المُلْك، وربّما رأينا الرّجل المُدِلَّ على ذي السّلطان بقِدَمِهِ قد أَضرَّ به قِدَمُهُ. (ص٢٣)

ـ إذا كلّمكَ الوالي فأصغِ إلى كلامهِ، ولا تشغلْ طَرْفَكَ عنهُ بنَظَرٍ إلى غيرِهِ، ولا أطرافك بعَمَلٍ، ولا قلبك بحديثِ نَفْسٍ، واحذر هذه الخَصْلةَ من نفسكَ، وتعاهدها بجهْدك. ارفُق بنُظرائكَ من وزراء السّلطانِ وأخلّائهِ ودُخلائهِ، واتّخذهم إخوانًا، ولا تتخذهم أعداء، ولا تُنافسْهم في الكلمةِ يتقرّبون بها، أو العملِ يُؤمرون به دونكَ، فإنّما أنت في ذلك أحدُ رجُلين: إمّا أن يكونَ عندك فَضْلٌ على ما عند غيركَ، فسوف يبدوُ ذلك، ويُحتاجُ إليهِ، ويُلتمسُ منكَ، وأنتَ مُجْمِلٌ. وإمّا ألّا يكون ذلك عندكَ، فما أنت مُصيبٌ من حاجتكَ عند وزراء السّلطان بمقاربتكَ إيّاهم ومُلاينتكَ، وما أنت واجدٌ في مُوافقتِكَ إيّاهم ولِيْنِك لهم منه مُوافقتهم إيّاك ولينهم لك أفضلُ ممّا أنتَ مُدركٌ بالمنافسةِ والمنافرةِ لهم. لا تجترئنّ على خلافِ أصحابكَ عند الوالي، ثقةً باعترافهم لكَ ومَعْرفتهم بفَضْلِ رأيك، فإنّا قد رأينا النّاس يعترفونَ بفضلِ الرّجلِ وينقادونَ لهُ ويتعلّمونَ منهُ، وهم أخلياء، فإذا حضروا السّلطانَ، لم يرضَ أحدٌ منهم أن يقرّ لهُ، ولا أن يكون لهُ عليهِ في الرّأي والعلم فضْلٌ، فإن ناقَضَهم صارَ كأحدِهم، وليس

بوَاجدٍ في كلّ حينٍ سامعًا فَهِمًا أو قاضيًا عَدْلًا، وإن تركَ مُناقضتَهم، كان مغلوبَ الرّأي مردودَ القولِ. (ص٣٣)

ـ ابذل لصديقِكَ دَمَكَ ومَالَكَ، ولمعرفتِكَ رِفْدَكَ ومَحْضَرَكَ، وللعامّةِ بِشْرَكَ وتحنّنَكَ، ولعدوّك عَدْلَكَ وإنصافَكَ، واضنُنْ بدينِكَ وعِرْضِكَ على كلّ أحدٍ. إن سمعت من صاحبكَ كلامًا أو رأيتَ منهُ رأيًا يعجبُكَ فلا تنتحلهُ تزيّنًا به عند النّاسِ، واكتفِ من التّزيّنِ بأن تجتنيَ الصّوابَ إذا سمعتهُ، وتنسُبَهُ إلى صاحبِهِ، واعلم أنّ انتحالَك ذلكَ مَسْخَطةٌ لصاحبكَ، وأنّ فيه مع ذلك عارًا وسُخفًا. فإن بلغَ بك ذلكَ أن تشيرَ برأيِ الرّجلِ، وتتكلّمَ بكلامِهِ، وهو يسمعُ، جمعتَ مع الظّلمِ قلّةَ الحياء. وهذا من سوء الأدبِ الفاشي في النّاسِ. (ص٣٩-٤٠)

ـ إن رأيتَ صاحبَكَ مع عدوّكَ فلا يُغضبنّكَ ذلك، فإنّما هو أحدُ رجلين: إن كان رجلًا من إخوانِ الثّقةِ فأنفعُ مَواطنهِ لك أقربُها من عدوّكَ؛ لشرٍّ يكفّهُ عنكَ، أو لعَوْرةٍ يسترها منكَ، أو غائبةٍ يطّلعُ عليها لكَ، فأمّا صديقكَ فما أغناكَ أن يحضرَهُ ذو ثقتك. وإن كان رجلًا من غيرِ خاصّةِ إخوانِكَ فبأيّ حقٍّ تقطعهُ عنِ النّاسِ وتكلّفهُ إلّا يُصاحبَ ولا يُجالسَ إلّا مَن تهوى؟ تحفّظ في مجلسك وكلامكَ من التّطاولِ على الأصحابِ، وطِبْ نفسًا عن كثيرٍ ممّا يعرضُ لك فيهِ صوابُ القولِ والرّأي، مُداراةً، لئلاّ يظنّ أصحابُكَ أنّ دأبَكَ التّطاوُلُ عليهم. (ص٤١)

ـ البس للنّاسِ لباسينِ ليس للعاقلِ بدٌّ منهما، ولا عيشٌ ولا مُروءةٌ إلّا بهما: لباسَ انقباضٍ واحتجازٍ من النّاسِ، تلبسهُ للعامّةِ فلا يلقونكَ إلا مُتحفّظًا مُتشدّدًا مُتحرّزًا مُستعدًّا، ولباسَ انبساطٍ واستئناسٍ، تلبسهُ للخاصّةِ الثّقاتِ من أصدقائك فتلقاهمُ بذاتِ صَدْرِكَ وتُفْضي إليهم بمَصُونِ حديثِكَ وتضع عنكَ مؤونةَ الحذرِ والتّحفّظِ فيما بينكَ وبينهم. وأهل هذه الطّبقةِ، الذين هم أهلها، قليلٌ من قليلٍ حقًّا؛ لأنّ ذا الرّأي لا يُدْخِلُ أحدًا من نفسهِ هذا المدخل إلّا بعد الاختبارِ والتّكشّفِ والثّقةِ بصِدْقِ النّصيحةِ ووفاء العَهدِ. (ص٤٦)

ـ احترسْ من سَوْرةِ الغَضَبِ، وسَوْرةِ الحميّةِ، وسَوْرةِ الحقدِ، وسَوْرةِ الجهلِ، وأعددْ لكلّ شيءٍ من ذلك عُدّةً تُجاهِدهُ بها من الحِلْمِ والتّفكّرِ والرَّويّةِ وذكْرِ العاقبةِ وطلبِ الفضيلةِ. واعلم أنّك لا تُصيبُ الغلَبَةَ إلّا بالاجتهاد والفَضْلِ، وأنّ قلّةَ الإعدادِ لمدافعةِ الطّبائعِ المتطلّعةِ هو الاستسلامُ لها؛ فإنّهُ ليس أحدٌ من النّاسِ إلّا وفيه من كلّ طبيعةٍ سوءُ غريزةٍ، وإنّما التّفاضلُ بينَ النّاسِ في مُغَالبةِ طبائع السّوء، فأمّا أن يسلمَ أحدٌ من أن تكونَ فيه تلك الغرائزُ فليسَ في ذلك مَطْمعٌ ؛ إلّا أنّ الرّجل القوي إذا كابرها بالقمْعِ لها كلّما تطلّعت لم يلبثْ أن يُميتَها حتّى كأنّها ليستْ فيهِ؛ وهي في ذلكَ كامنةٌ كُمونَ النّارِ في العُودِ، فإذا وجدت قادحًا من علّةٍ أو غَفْلةٍ استَورت كما تُستورى النّارُ عند القدْحِ، ثمّ لا يبدأ ضرّها إلّا بصاحبها، كما لا تبدأ النّارُ إلّا بعُودها الذي كانت فيهِ. (ص٥٠)

ـ ذَلّلْ نَفْسَكَ بالصّبرِ على جارِ السّوءِ، وعَشيرِ السّوءِ، وجَليسِ السّوءِ؛ فإنّ ذلك ممّا لا يكادُ يخطئُكَ، واعلم أنّ الصّبرَ صبرانِ: صَبْرُ المرءِ على ما يكرهُ، وصَبْرُهُ عمّا يحبّ، والصّبرُ على المكروهِ أكبرهما وأشبهها أن يكونَ صاحبُهُ مُضطرًّا. واعلم أنّ اللئامَ أصبرُ أجسادًا، وأنّ الكرامَ هم أصبرُ نفوسًا. وليس الصّبرُ الممدوحُ بأن يكونَ جِلْدُ الرَّجلِ وَقاحًا على الضّرْبِ، أو رِجْلُه قويّةً على المشي، أو يَدُهُ قويّةً على العملِ، فإنّما هذا من صفات الحميرِ؛ ولكنّ الصّبر الممدوحَ أن يكونَ للنّفسِ غَلوبًا، وللأمورِ مُحتملاً، وفي الضّرّاء مُتجمّلاً، ولنَفْسهِ عند الرّأي والحفاظِ مُرتبطًا وللحَزْمِ مُؤْثرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقّةِ التي يرجو حُسْنَ عاقبتها مُستخفًّا، وعلى مُجاهدةِ الأهواء والشّهواتِ مُواظبًا، ولبصيرتهِ بعَزْمهِ مُنفّذًا. (ص٥٠-٥١)

ـ ليكن ممّا تصرفُ به الأذى والعذابَ عن نفسِكَ ألا تكونَ حَسُودًا، فإنّ الحَسَدَ خُلقٌ لئيمٌ، ومن لُؤمهِ أنّهُ مُوكّلٌ بالأدنى فالأدنى من الأقاربِ والأكفاء والمعارفِ والخُلَطاء والإخوانِ. فليكن ما تُعاملُ به الحسدَ أن تعلمَ أنّ خيرَ ما تكونُ حينَ تكونُ مع مَن هو خيرٌ منكَ، وأنّ غُنْمًا حَسَنًا لكَ أن يكونَ عشيرُكَ وخليطُكَ أفضلَ منكَ في العلمِ، فتقتبسَ من علمهِ، وأفضلَ

منكَ في القوّة، فيدفع عنكَ بقوّتهِ، وأفضلَ منكَ في المالِ، فتفيد من مالهِ، وأفضلَ منكَ في الجاهِ، فتصيب حاجتكَ بجَاهِهِ، وأفضلَ منكَ في الدّينِ، فتزداد صَلاحًا بصَلاحِهِ. (ص٥٢)

ـ اعلم أنّ مِن أوقعِ الأمور في الدِّين، وأنهكِها للجَسَد، وأتلفِها للمال، وأضرّها بالعقل، وأسرعِها في ذَهابِ الجلالة والوَقار، الغرامَ بالنّساء. ومن البلاءِ على المُغرَمِ بهنّ أنّه لاينفكُّ يَأجِمُ ماعنده وتَطْمَحُ عيناه إلى ما ليس عنده منهنّ. وإنّما النّساءُ أشباهٌ، ومايُرى في العيون والقلوب من فَضْلِ مَجْهُولاتهنّ على مَعْرُوفاتهنّ باطلٌ وخُدْعة. بل كثيرٌ ممّا يرغَبُ عنه الرّاغِبُ ممّا عنده أفضلُ ممّا تَتُوقُ إليه نَفْسُه. وإنّما المترغّبُ عمّا في رَحْلِه منهنّ إلى ما في رِحَال النّاس كالمُترغّبِ عن طعامِ بيتِه إلى ما في بيوتِ النّاس؛ بل النّساءُ بالنّساءِ أشبهُ من الطّعامِ بالطّعام، وما في رِحَال النّاس من الأطعمة أشدُّ تفاضُلاً وتفاوتًا ممّا في رِحَالهم من النّساء. ومن العَجَبِ أنّ الرّجلَ الذي لابأسَ في لُبّه ورأيه يرى المرأةَ من بعيدٍ مُتلفِّفَةً في ثيابها فيصوّرُ لها في قلبه الحُسْنَ والجمالَ حتّى تَعْلَقَ بها نفسُه من غيرِ رُؤية ولاخَبَرِ مُخْبِر، ثمّ لعلّه يَهْجُمُ منها على أقْبحِ القُبْحِ وأَدَمّ الدّمامةِ فلا يَعِظُهُ ذلك عن أمْثالها. ولا يزالُ مَشْغُوفًا بما لم يَذُقْ، حتّى لو لم يبقَ في الأرضِ غيرُ امرأةٍ واحدةٍ، لظنّ أنّ لها شأنًا غير شأنِ ما ذاقَ. وهذا هو الحُمْقُ والشّقاء والسَّفَه. (ص٥٧-٥٨)

ـ اعلمْ أنّه ستمرّ عليكَ أحاديثُ تُعْجِبُكَ: إمّا مليحةٌ وإمّا رائعةٌ، فإذا أعجبتكَ كنتَ خليقًا أن تحفظَها؛ فإنّ الحِفْظَ مُوكّلٌ بما مَلُحَ ورَاعَ. وستَحْرِصُ على أن تعجبَ منها الأقوامُ؛ فإنّ الحرصَ على ذلك التّعجّبِ من شأنِ النّاسِ. وليس كلُّ مُعْجبٍ لكَ مُعجبًا لغيركَ، فإذا نشرتَ ذلك المرّةَ والمرّتينِ، فلم ترَهُ وقعَ من السّامعينَ مَوْقِعَهُ منكَ فازدجر عن العودةِ؛ فإنّ العَجَبَ من غيرِ عَجيبٍ سُخْفٌ شديد. وقد رأينا من النّاسِ من يعلقُ الشّيء، ولا يُقلعُ عنهُ وعنِ الحديثِ بهِ، ولا يمنعُهُ قلّةُ قَبولِ أصحابهِ لهُ من أن يعودَ إليه، ثمّ يعود. ثمّ انظر الأخبار الرّائعةَ فتحفّظ منها؛ فإنّ الإنسانَ من شأنِه الحرصُ على الأخبارِ، ولا سيّما ما راعَ منها، فأكثرُ الناسِ من يحدّثُ بما سمع، ولا يبالي ممّن سمعَ، وذلك مَفْسدةٌ للصّدقِ ومَزْراةٌ

بالمروءةِ، فإن استطعتَ ألا تخبرَ بشيء إلّا وأنتَ بهِ مصدّقٌ، ولا يكونُ تصديقُكَ إلّا ببرهانٍ، فافعل. ولا تقل كما يقولُ السّفهاءُ: أُخبرُ بما سمعتُ؛ فإنّ الكذبَ أكثرُ ما أنتَ سامعٌ، وإنّ السّفهاءَ أكثرُ مَن هو قائلٌ، وإنّك إن صرتَ للأحاديثِ واعيًا وحاملاً كان ما تَعِي وتحملُ عن العامّةِ أكثر ممّا يخترعُ المخترعُ بأضعافٍ. (ص٦١-٦٢)

ـ اعلم أنّ المُستشارَ ليس بكَفيلٍ، وأنّ الرّأي ليس بمضمونٍ، بل الرّأيُ كلّهُ غَرَرٌ؛ لأنّ أمورَ الدّنيا ليس شيءٌ منها بثِقَةٍ، ولأنّه ليسَ من أمرِها شيءٌ يُدْرِكُهُ الحازمُ إلّا وقد يُدْرِكُهُ العاجزُ. بل ربّما أعيا الحزَمةَ ما أمكنَ العَجَزَة. فإذا أشارَ عليكَ صاحبُكَ برأيٍ، ثمّ لم تجدْ عاقبتَه على ما كنتَ تأملُ فلا تجعلْ ذلكَ عليهِ ذَنبًا، ولا تلزمهُ لَومًا وعَذْلاً، بأن تقولَ: أنتَ فعلتَ هذا بي، وأنتَ أمرتني، ولولا أنتَ لم أفعل، ولا جَرَمَ لا أُطيعُكَ في شيء بعدها؛ فإنّ هذا كلَّهُ ضَجَرٌ ولُؤمٌ وخِفّةٌ. فإن كنتَ أنتَ المُشيرَ، فعَمِلَ برأيكَ أو تركه، فبدا صوابُكَ فلا تَمُنْ بهِ ولا تكثرنّ ذكرَهُ إن كان فيهِ نجاحٌ، ولا تلمْهُ عليه إن كانَ قد استبانَ في تَرْكِهِ ضَرَرٌ، بأن تقول: ألم أقل لكَ افعل هذا؛ فإنّ هذا مُجانبٌ لأدبِ الحُكماء. (ص٦٨)

ـ إن رأيتَ نَفْسَكَ تصاغرتْ إليها الدّنيا، أو دَعَتْكَ إلى الزَّهادةِ فيها على حالِ تعذّرٍ من الدّنيا عليكَ، فلا يغرنّكَ ذلك من نفسِكَ على تلكَ الحال، فإنّها ليست بزَهادةٍ، ولكنّها ضَجَرٌ واسْتِخْذَاءٌ وتغيّرُ نَفْسٍ عند ما أعجزَكَ من الدّنيا وغضبٌ منكَ عليها ممّا التوى عليكَ منها. ولو تمّمْتَ على رَفْضِها، وأمْسَكْتَ عن طَلَبِها أوْشَكْتَ أن ترى من نَفْسِكَ من الضّجرِ والجزعِ أشدّ من ضَجَرِك الأوّل بأضعاف، ولكنْ إذا دَعَتْكَ نفسُكَ إلى رَفْضِ الدّنيا وهي مُقبلةٌ عليكَ، فأسرعْ إلى إجابتها. (ص٦٩)

ـ من الأخلاقِ السّيّئةِ على كلّ حالٍ مُغالبةُ الرّجلِ على كلامِهِ والاعتراضُ فيهِ، والقَطْعُ للحديثِ. ومن الأخلاقِ التي أنتَ جديرٌ بتَرْكِها إذا حدّث الرّجلُ حديثًا تعرفهُ، ألّا تُسابِقَهُ إليه وتفتحَهُ عليهِ وتشاركَهُ فيهِ، حتّى كأنّكَ تُظْهِرُ للنّاسِ أنّكَ تريدُ أن يعلموا أنّكَ تعلمُ مِثْلَ

الذي يعلمُ، وما عليكَ أن تهنّئهُ بذلكَ وتُفرِدَه بهِ. وهذا البابُ من أبوابِ البُخلِ، وأبوابُه الغامضةُ كثيرةٌ. (ص٧٠)

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

ثانيًا: نصوص لسهل بن هارون

ـــ رسالة البخل:

رسالة سهل بن هارون أبي محمّد بن راهبون، إلى بني عمّه من آل راهبون، حين ذمّوا مَذْهبَه في البُخْلِ، وتتبّعوا كلامَه في الكُتب:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم أصلحَ الله أمرَكم، وجمع شملَكم، وعلّمكم الخيرَ، وجعلكم من أهلِه! قال الأحنفُ بنُ قيس[٤١٣]: يا معشرَ بني تميمٍ، لا تُسْرِعوا إلى الفِتنةِ؛ فإنّ أسرعَ النّاسِ إلى القتالِ، أقلُّهم حياءً من الفِرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أنْ ترى العيوبَ جَمَّةً، فتأمّل عيّابًا، فإنّه إنّما يَعِيبُ بفَضْلِ ما فيه من العَيْب، وأوّلُ العَيْبِ أن تعيبَ ماليس بعَيْبٍ، وقبيحٌ أن تَنهى عن مُرْشِد، أو تُغْرِيَ بِمُشْفِق. وما أردنا بما قلنا إلّا هدايتكم وتقويمكم، وإلّا إصلاحَ فَسَادِكم، وإبقاءَ النّعمة عليكم، ولئن أخْطأنا سبيلَ إرشادكم، فما أخطأنا سبيلَ حُسْنِ النّيّة فيما بيننا وبينكم.

ثمّ قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلّا بما قد اخترناهُ لأنفسِنا قبلكم، وشهُرنا به في الآفاق دونكم، فما أحقّكم في تقديمِ حُرْمتنا بكم، أن ترعوا حقَّ قَصْدِنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ذكْرِ العيوب بِرًّا وفَضْلاً، لرأينا أنّ في أنفسنا عن ذلك شُغلاً. وإنّ من أعظم الشّقوةِ، وأبعد من السّعادة، أن لا يزال يُتذكر زلَلَ المعلّمين، ويُتناسى سوء استماع المتعلّمين، ويُستعظم غلَط العاذلين، ولا يُحفل بتعمّد المعذولين.

عِبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عَجْنَه خميرًا، كما أجدته فَطِيرًا، ليكونَ أطيبَ لطعمِه، وأزْيدَ في ريعه. وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ورحمه ـ لأهله: أمْلِكوا العجين، فإنّه أريعُ الطّحنتين. وعبتم عليّ قولي: مَنْ لم يتعرّف مواقع السَّرَفِ في الموجود الرّخيص، لم

(٤١٣) الأحنف بن قيس: اسمه الضحّاك، وقيل صخر، سيد بني تميم، وأحد الدّهاة الفصحاء، يُضرب به المثل في الحلـم، أدرك النبي صلى الله عليه وسلّم، ولم يره، ت نحو ٧٢هــ. وفيات الأعيان ١/ ٢٣٠.

يعرفْ مواقعَ الاقتصادِ في المُمْتَنِعِ الغالي؛ فلقد أُتِيْتُ من ماء الوضوء بكَيْلة[٤١٤]، يدلُّ على مَبْلَغ الكفاية وأَشَفَّ من الكفاية، فلمّا صِرْتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التّوفير عليها من وظيفة الماء، وجدتُ في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمتُ أنْ لو كنتُ مَكَّنْتُ الاقتصادَ في أوائله، ورغبتُ عن التّهاون به في ابتدائه، لخرج آخرُهُ على كفاية أوَّله، ولكان نصيبُ العُضْو الأوّل كنَصيب الآخر، فعبتموني بذلك، وشنَّعْتُموه بجُهْدِكم، وقَبَّحْتموه. وقد قال الحسنُ[٤١٥] عند ذكر السَّرَفِ: إنّه ليكونُ في الماعُونين الماءِ والكلأ. فلم يرضَ بذلك في الماء، حتّى أردَفَه بالكلأ.

وعبتموني حين ختمتُ على سدٍّ عظيم، وفيه شيْءٌ ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نَهِم، وصبيّ جَشِع، وأمَة لَكعاء، وزوجة خَرقاء. وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السّادة، أن يستويَ في نَفيسِ المأكول، وغريبِ المشروب، وثمينِ الملبوس، وخطيرِ المركوب، والنّاعمِ من كلّ فنّ، واللّبابِ من كلّ شكل، التّابعُ والمتبوع، والسّيّدُ والمَسود. كما لا تستوي مواضعهم في المجلس، ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التّحيات. وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراثَ العارف؟ من شاء أطْعمَ كلبَه الدّجاج المسمّن، وأعلفَ حماره السّمسم المقشّر! فعبتموني بالخَتْم، وقد ختمَ بعضُ الأئمّة على مزود سُويق، وختمَ على كيسٍ فارغ، وقال: طينة خير من ظنّة. فأمسكتم عمّن ختمَ على لا شيء، وعبتم مَن ختمَ على شيء.

وعبتموني حين قلتُ للغلام: إذا زدتَ في المَرَقِ فزدْ في الإنضاج؛ لتجمعَ بين التّأدّم باللّحم والمَرَق، ولتجمع مع الإرتفاق بالمَرَق الطيب. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (إذا طبختم لحمًا فزيدوا في الماء؛ فإنْ لم يصب أحدكم لحمًا أصاب مرقًا).

---

(٤١٤) الكَيْلة: وعاءٌ يُكال به أو المرّة من الكيل، جمعه: كيْلات.

(٤١٥) الحسن البصري: وهو الحسن بن يسار، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحَبر الأمة في زمنه، ت نحو ١١٠هـ. شنّعتموه: قبحتموه، وشنّع على الرجل: فضحه وشوَّه سمعته. وفيات الأعيان٢/٦٩ –٧٣.

وعبتموني بخَصْفِ النِّعال، وبتَصْدير القميص[٤١٦]، وحين زعمتُ أنّ المخصوفةَ أبقى وأَوْطَأ وأَوْقَى، وأنْفَى للكِبْرِ، وأشبهُ بالنُّسُكِ، وأنَّ التّرقيع من الحَزْم، وأنّ الاجتماعَ مع الحفظ، وأنَّ التَّفَرُّقَ مع التّضييع. وقد كان النبيُّ ﷺ يَخْصِفُ نعلَه، ويرقعُ ثوبَه، ويَلْطَع إصبعَه، ويقول: (لو أُتيتُ بذراعٍ لأكلت، ولو دُعيتُ إلى كُراعٍ لأجبت)[٤١٧]. ولقد لَفَّقَتْ سُعدى ابنةُ عوفٍ إزارَ طلحةَ[٤١٨]، وهو جوادُ قريش، وهو طلحةُ الفيّاض. وكان في ثوب عُمَرَ رِقَاعُ أَدَمٍ[٤١٩]، وقال: من لم يَسْتَحْيِ من الحلال خَفَّتْ مُؤْنَتُه، وقلَّ كِبْرُه. وقالوا: لا جديد جديدَ لمن لا يلبسُ الخَلَقَ. وبعث زياد رجلاً يرتادُ له مُحَدِّثًا، واشترط على الرّائد أن يكون عاقلاً مُسدّدًا، فأتاه به مُوافقًا، فقال: أكنت ذا معرفة به؟ قال: لا، ولا رأيتُه قبل ساعته، قال: أفناقلته الكلام، وفاتحته الأمور قبل أن توصلَه إلي؟ قال: لا، قال: فلم اخترتَه على جميع مَن رأيته؟ قال: يومنُا يومٌ قائظ، ولم أزل أتعرّف عقولَ النّاسِ بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم، ورأيت ثيابَ النّاس جُددًا، وثيابه لُبسًا، فظننتُ به الحزم.

وقد علمنا أنّ الخَلَقَ في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله عزّ وجلّ لكلّ شيء قدرًا، وبوّأ له موضعًا؛ كما جعل لكلّ دهر رجالاً، ولكلّ مقام مقالاً. وقد أحيا بالسمّ، وأماتَ بالغذاء، وأغصّ بالماء، وقتلَ بالدّواء. فترقيع الثّوب يجمع مع الإصلاح التّواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التّكبّر. وقد زعموا أنّ الإصلاحَ أحد الكَسْبين، كما زعموا أنّ قلّةَ العيالِ أحدُ اليَسَارين. وقد جبرَ الأحنفُ يدَ عنز، وأمرَ بذلك النّعمان. وقال عمر: مَن أكلَ بيضةً فقد أكلَ دجاجة. وقال رجل لبعض السّادة: أُهدي إليك دجاجة؟ فقال: إن كان لا بدَّ فاجعلها بيّاضة.

---

(٤١٦) خصف النعل: إصلاحها بالخياطة أو بالترقيع. وتصدير القميص: تقوية صدره برقعة أو بطانة .

(٤١٧) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها ٨٤٩/٢ برقم ٢٤٢٩ (بلفظٍ مشابه).

(٤١٨) لَفّقَت : لَفَقَ الثوبَ ولَفَّقَه: ضمَّ إحدى الشقتين إلى الأخرى وخاطهما. وطلحة: هو طلحة بن عبيد الله، التيمي القرشي؛ صحابي شجاع من العشرة المبشّرين بالجنة، قُتل رضي الله عنه يوم الجمل سنة ٣٦هـ. انظر: تهذيب الأسماء واللغات، للنووي ٢٥١/١ – ٢٥٢.

(٤١٩) أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والأَدَمُ: جمع أديم، وهو الجلد.

وعبتموني حين قلت: لا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بطُول عُمره، وتقوُّس ظهرِه، ورِقّة عَظمه، وَوَهَنِ قُوّته، أن يرى أكْرُومته(٤٢٠)، ولا يُخْرِجْه ذلك إلى إخراج ماله من يديْه، وتحويله إلى مِلْكِ غَيْره، وإلى تحكيم السَّرَف فيه، وتسليط الشّهوات عليه؛ فلعلّه أن يكون مُعمّرًا وهو لا يدري، ومَمدودًا له في السّنّ وهو لا يشعر، ولعلّه أن يُرزق الولد على اليأس، أو يحدث عليه بعض مخبّآت الدّهور، ممّا لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيستردّه ممّن لا يردّه، ويظهر الشّكوى إلى مَن لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطّلب، وأقبح ما يكون به الكسب. فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عملَ مَن يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل مَن يموت غدًا.

وعِبتموني حين زعمت أنّ التّبذيرَ إلى مالِ القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط، وحِباء الملوك أسرع؛ وأنّ الحفظَ إلى المال المكتسب، والغنى المُجتلب، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدّين، واهتضام العِرض، ونصَب البدن، واهتمام القلب أسرع؛ وأنّ من لم يحسب ذهاب نفقته، لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدّخل فقد أضاع الأصل؛ وأنّ من لم يعرف للغنى قدره، فقد أذن الفقر، وطاب نفسًا بالذلّ.

وزعمتُ أنّ كسْبَ الحلال مُضَمَّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأنَّ الخبيثَ يَنْزِع إلى الخبيث، وأنّ الطَّيِّبَ يدعو إلى الطّيّب، وأنَّ الإنفاقَ في الهوى حِجابٌ دون الحقوق، وأنَّ الإنفاقَ في الحقوق حِجَازٌ دون الهوى، فعبتم عليَّ هذا القول. وقد قال مُعاوية: لم أرَ تبذيرًا قَطُّ، إلّا وإلى جانبه حَقٌّ مُضَيَّعٌ. وقد قال الحسن [البصريّ]: إذا أردتم أنْ تعرفوا من أين أصابَ ماله، فانظروا في أيِّ شيءٍ يُنْفِقُه؟ فإنَّ الخبيثَ يُنْفَقُ في السَّرَف.

وقلت لكم بالشّفقة مني عليكم، وبحُسْنِ النّظر لكم، وبحفظكم لآبائكم، ولما يجب في جواركم، وفي مماحتكم وملابستكم: أنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات. فإن أحاطت بمالِ أحدكم آفةٌ لم يرجع إلى بقيّة، فأحرزوا النّعمة باختلاف الأمكنة؛ فإنّ البلية لا

---

(٤٢٠) الأكْرومة: الفَعلة الكريمة.

تجري في الجميع إلّا مع موت الجميع. وقد قال عمر رضي الله عنه في العبد والأمة، وفي ملك الشّاة والبعير، وفي الشّيء الحقير اليسير: فرّقوا بين المنايا. وقال ابن سيرين لبعض البَحْريّين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قال: نفرّقها في السّفن، فإن عطب بعض سلم بعض، ولولا أنّ السّلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر، قال ابن سيرين: تحسبها خَرقاء وهي صَنَاع.

وقلت لكم عند إشفاقي عليكم: إنّ للغنى سكرًا، وإنّ للمال لنزوةً. فمن لم يحفظ الغنى من سُكر الغنى فقد أضاعه، ومن لم يربط المال بخوف الفقر فقد أهمله. فعبتموني بذلك. وقال زيد بن جبلة: ليس أحدٌ أفقرَ من غنيٍّ أمِنَ الفقر. وسُكر الغنى أشدّ من سُكر الخمر.

وقلتم: قد لزم الحثّ على الحقوق، والتّزهيد في الفضول، حتّى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله، وفي خطبه بعد سائر كلامه. فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد:

عدوّ تِلادِ المالِ فيما يَنُوبُه   مَنُوعٌ إذا ما مَنْعه كان أحزما

ومن ذلك قوله في محمّد بن زياد:

وخليقتانِ تقًى وفَضْلُ تحرّم   وإهانةٌ في حقّه للمال

وعبتموني حين زعمت أنّي أقدّم المال على العلم، لأنّ المالَ به يُغاث العالم، وبه تقوم النّفوس قبل أن تعرف فضيلةَ العلم، وأنّ الأصل أحقّ بالتّفضيل من الفرع، وأنّي قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنّفوس، فإنّا بالكفاية نستبين، وبالخلّة نعمى. وقلتم: وكيف تقول هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدّم الأدباء: آلعلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء. قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء، أكثر ممّا يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفَضْل الغنى، ولجهل الأغنياء بفَضْل العلم.

وعبتموني حين قلت: إنّ فَضْلَ الغنى على القوت، إنّما هو كفَضْلِ الآلة تكون في الدّار، إن احتيج إليها استُعملت، وإن استغني عنها كانت عدّة. وقد قال الحصين بن المنذر:

وددتُ أنّ لي مثل أحد ذهبًا، لا أنتفع منه بشيء، قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكَثْرةِ من يخدمني عليه. وقال أيضًا: عليك بطلَبِ الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلّا أنّه عِزّ في قلبك، وذلّ في قلب غيرك، لكان الحظّ فيه جسيمًا، والنّفع فيه عظيمًا. ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحُكماء، لأصحاب الأهواء: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتّخاذ الغنم، والفقراء باتّخاذ الدّجاج. وقال: (درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك)، فقسموا الأمور كلّها على الدّين والدّنيا، ثمّ جعلوا أحد قسمي الجميع الدّرهم. وقال أبو بكر الصّدّيق، رضي الله عنه: إنّي لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم. وكانوا يبغضون أهلَ البيتِ اللّحمين. وكان هشامٌ يقول: ضعِ الدّرهم على الدّرهم يكون مالًا. ونهى أبو الأسودِ الدُّؤليُّ(٤٢١)، وكان حكيمًا أديبًا، وداهيًا أريبًا، عن جُودِكم هذا المولّدِ، وعن كَرَمِكُمْ هذا المُسْتَحْدَثِ، فقال لابنه: إذا بسَطَ الله لك الرّزقَ فابسطْ، وإذا قبضَ فاقبضْ، ولا تجاودِ الله، فإنّ الله أجودُ منك. وقال: درهمٌ من حلّ يخرج في حقّ خير من عشرة آلاف قبضًا. وتلقّط عرندًا من بَزِيمٍ، فقال: تضيعون مثل هذا، وهو قوتُ امرئ مسلم يومًا إلى الليل! وتلقّط أبو الدّرداء حبّاتِ حِنْطة، فنهاه بعضُ المُسرفين، فقال: ليهن ابن العبسيّة! إنّ مِرْفَقَةَ المرءِ رِفْقُه في مَعِيشته.

فلستم عليَّ تَرُدُّون، ولا رأيي تُفَنِّدون، فقدّموا النّظر قبل العَزم، وتذكّروا ما عليكم، قبل أن تذكروا ما لكم. والسّلام».

ـ وكتب سهل بن هارون إلى صديقٍ له أَبَلَّ من ضعف: « بلغني خَبَرُ الفَتْرةِ في إلمامها وانحسارها، والشَّكَاة في حُلولها وارتحالها(٤٢٢)، فكاد يشغل القَلَق بأوّله عن السّكون لآخره، وتُذهل الحَيْرة في ابتدائه عن المسرّة في انتهائه، وكان تغيّري في الحالين بقَدْرهما؛ ارتياعًا للأولى وارتياحًا للأخرى».

---

(٤٢١) أبو الأسود الدُّؤلي: هو ظالم بن عمرو ، يُعدّ في الشعراء والتابعين والمحدّثين، يقال: إنّه أول من أسّس العربية، ت نحو ٦٩هـ. وفيات الأعيان ٥٣٥/٢ – ٥٣٨.

(٤٢٢) أَبَلَّ من ضعف: شُفي. الفترة: الوعكة والمرض والضعف. الشَّكاة: الشكوى والمرض.

ـ وكتب سهل بن هارون في الاستعطفاف والاعتذار «قال محمّد بن زياد الزّيادي: وَجَدْتُ على سهل بن هارون في بعض الأمرِ فهجوتُه، فكتب إليّ: أمّا بعد؛ فالسّلام على عَهْدِك وداعَ ذي ضَنٍّ بك، في غير مَقْلِيَة لك، ولا سلْوَة عنك، بل استسلامٌ للبَلْوَى في أمرِك، وإقرارٌ بالمعجزة في استعطافك، إلى أوانِ فيئتك، أو يجعل الله لنا دَولةً من رَجْعتك، والسّلام. وكتب في أسفل الكتاب:

إنْ تَعْفُ عن عبدِك المُسيء ففي　　　عفوك مَأْوًى للفَضْلِ والمِنَنِ
أَتيتُ ما أستحقُّ من خطأٍ　　　فجُدْ بما تستحقُّ من حَسَنِ»

ـ دخل سهل بن هارون على الرّشيد يومًا، وهو يضاحك ابنه المأمون، فقال: اللّهُمَّ زِدْه من الخيرات، وابسط له في البركات، حتّى يكون كلّ يوم من أيامه مُوفيًا على أمسه، مقصّرًا عن غَدِه! فقال الرّشيد: يا سهلُ! مَن روى من الشّعر أحسنَه وأجودَه، ومن الحديث أصحّه وأبلغَه، ومن البيان أفصحَه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لم يُعجزه، فقال: يا أمير المؤمنين: ما ظننت أنّ أحدًا تقدّمني إلى مِثْل هذا المعنى! قال: بلى، أعشى هَمْدان حيث يقول:

رأيتك أمس خير بني لؤيٍّ　　　وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تزيدُ الخيرَ ضِعْفًا　　　كذاك تزيدُ سادة عبد شمسِ

ـ يُروى أنّ المأمون كان قد انحرف عن سهلٍ إلى أن دخل عليه يومًا، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّك ظلمتني، وظلمت فلانًا الكاتب، فقال: وَيْلك! وكيف؟ قال: رفعتَه فوق قَدْره، ووضعتني دون قَدْري، إلّا أنّك له في ذلك أشدّ ظلمًا، قال: كيف؟ قال: لأنّك أقمته مقامَ هُزءٍ، وأقمتني مقامَ راحة. فضحك المأمون، وقال: قاتلك الله! ما أهجاك! ورضي عنه.

ـ وقال سهل بن هارون يومًا، وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغَبوا فيه، وقد يُرغَب عن بعض العلم، كما يرغَب عن بعض الحلال، قال المأمون: قد يسمَّى بعض الشيء علمًا وليس بعِلم، فإن كنتَ هذا أردتَ فوجهُه الذي ذكرناه، ولو قلتَ:

العلم لا يُدْركُ غَوْره، ولا يُسبَرُ قَعْرُه، ولا تُبلغ غايتُه، ولا يستقصى أصنافُه، ولا يضبَط آخرهُ، فالأمر على ما قلت، فإذا كان الأمر كذلك فابدؤوا بالأهمّ فالأَهمّ، وابدؤوا بالفرض قبل الفضْل، فإذا فعلتُمْ ذلك كان عَدلاً، وقولاً صِدقًا. وقد قال بعض العلماء: اقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهَى إلى نفسِك وأخفُّ على قلبك، فإنّ نفاذَك فيه على حسَب شهوتك له، وسهولتِه عليك. وقال أيضًا بعضُ الحُكماء: لست أطلب العلم طمعًا في بلوغ غايته، والوقوفِ على نهايته، ولكن التماسَ ما لا يسع جهله، ولا يَحْسُنُ بالعاقل إغفالُه. وقال آخرون: عِلْمُ الملوك النَّسَبُ والخبر وجمل الفقه، وعِلم التُّجّار: الحسابُ والكِتاب، وعلم أصحاب الحرب: درس كُتُبِ المغازي وكتب السِّيَر، فأمّا أنْ تسمِّيَ الشيءَ علمًا وتَنهى عَنه من غير أن يكونَ يشغلُ عمّا هو أنفَعُ منه، بل تَنهى نهيًا جَزْمًا، وتأمر أمرًا حتمًا، والعلم بصر، وخِلافهُ عمًى، والاستبانة للشّرِّ ناهيةٌ عنه، والاستبانة للخير آمرةٌ به.

ــ مناظرة سهل بن هارون مع شدّاد الحارثيّ في تفضيل الزّجاج على الذّهب

تعاطى البلغاءُ وَصفَ هذا الجوهر فَعَبَّرُوا عن مَدْحه وذمّه؛ فأمّا ذَمُّه، فإنَّ النَّظَّام أخرجه في كلمتين بأوجز لفظٍ، وأتمِّ مَعْنى، فقال: سريع الكَسْر، بطيء الجَبْر. وأمّا مَدْحُه فإنّ سهلَ بن هارون شهد مجلسًا من مجالس الملوك، وقد حضر فيه شدّاد الحارثيُّ، وأخذ يُعدِّد خِصالَ الذّهب. وممّا قال شَدَّاد: الذّهبُ أَبْقَى الجواهر على الدَّفْن، وأصبرها على الماء، وأقلّها نقصانًا على النّار، وهو أوزنُ من كلِّ ذي وزنٍ إذا كان في مقدار شخصه، وجميعُ جواهر الأرض والفِلزُّ كلُّه[٤٢٣] إذا وُضع على ظهر الزِّئبق في إنائه طَفَا، ولو كان ذا وزنٍ ثقيل، وحجمٍ عظيم، ولو وَضَعْتَ عليه قيراطًا من ذهب لَرَسَبَ، حتّى يضرب قَعْرَ الإناء. وسُئِل عليُّ بن أبي طالب ﵁ عن الكِبْريت الأحمر، فقال: هو الذَّهب، وقال النبيُّ ﷺ: (لو أنّ لي طِلاَعَ الأرضِ ذَهبًا)[٤٢٤].

---

(٤٢٣) الفِلزُّ: عنصر كيماوي يتميّز بالبريق المعدني والقابلية لتوصيل الحرارة والكهرباء. (المعجم الوسيط، مادة: فلز).

(٤٢٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (مادة طلع). وطِلاَعُ الشيء: ملؤه.

فحَسَدَهُ [أي شدّاد] سهلُ بن هارون على ما حاضر به من الخطابة والبلاغة، فقال يعترضُ عليه بعَيْبِ الذّهب، وفَضْلِ الزّجاج وتفضيله عليه: «الذّهبُ مخلوقٌ، والزّجاجُ مَصنوع، وإنْ فَضَلَه الذّهبُ بالصّلابة فَضَلَه الزّجاج بالصّفاء، ثمّ الزّجاج مع ذلك أبقى على الدَّفن والغَرَق، والزّجاج عُلويٌّ نُوريٌّ، والذّهب مَنَّاعٌ ساتر، والشّراب في الزّجاج أحسن منه في كلِّ مَعْدن، ولا يُفْقَد معه وجهُ النّديم، ولا يُثقِل اليدَ، ولا يرتفع في السَّوْم، واسم الذّهب يُتَطَيَّرُ منه، ولا يُتَفاءل به، وإن سَقَطَ عليك قَتَلَكَ، وإن سقَطْتَ عليه عَقَرك. ومن لُؤمِه سرعتُه إلى بيوت اللّئام، ومِلْكُهم له، وإبطاؤه عن بيوت الكرام ومِلْكهم. وهو فاتنٌ وقَتَّالٌ لمن صانه، وهو من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أَهْلَكَ الرّجالَ الأحمران، وأهلك النساءَ الأحامرةُ(٤٢٥). وقدورُ الزّجاج أطيب من قدور الحجارة، وهي لا تصدأ، ولا يتداخل تحت حيطانها رِيْحُ الغَمَرِ، وأوساخُ الوَضَرِ(٤٢٦)، فإن اتَّسَخَتْ فالماءُ وحده لها جِلاَءٌ، ومتى غُسِلت بالماء عادت جُدُدًا، ولها مَرْجُوعٌ حَسَن، وهي أَشبه شيءٍ بالماء، وصَنْعَتُه عجيبة، وصناعته أَعْجَب. وكان سليمان بن داود على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام إذا عبّ في الإناء كَلَحَتْ في وَجْهه مَردةُ الجنّ والشّياطين، فعلّمه الله صنعةَ القوارير، فحسَمَ بها عن نفسه تلك الجَرَاءَة وذلك التّهجين. ومن كرع في شارب ماء فكأنّه كرع في إناء من ماء وهواء وضياء. ومرآته المركبة في الحائط أضوأ من مرآة الفولاذ، والصّور فيها أبين، وقد تقدح النّار من قنينة الزّجاج إذا كان فيها ماء فحاذوا بها عين الشّمس؛ لأنّ طبعَ الماء والزّجاج والهواء والشّمس من عنصرٍ واحد، وليس في كلِّ ما يدور عليه الفَلَكُ جوهرٌ أَقْبلُ لكلِّ صِبْغ، وأَجْدَرُ ألّا يفارقَه حتّى كأنَّ ذلك الصِّبْغَ جوهريةٌ فيه منه [من الزجاج]، ومتى سَقَطَ عليه ضياءٌ أَنْفَذَهُ إلى الجانب الآخر من الهواء وأعاره لونَه، فإن كان الجامُ ذا ألوانٍ أَرَاكَ البَيْت أحسنَ من وَشْيٍ

---

(٤٢٥) في اللسان: أهلك النساء الأحمران: يعنون الذهب والزعفران؛ أي أهلكهنَّ الحليّ والطيب، وأهلك الرجال الأحمران: اللحم والخمر. والأحامرة: جمع أَحْمر. (اللسان مادة حمر).

(٤٢٦) الغَمَرُ: الدّسم. الوَضَرُ: الوسخ.

صنعاء، ومن دِيْبَاجِ تُسْتَرَ[٤٢٧]، ولم يَتَّخذِ الناسُ آنيةً لشُرْب الشَّراب أجمعَ لما يريدون من الشّراب منه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **قِيْلَ لها ادْخُلي الصَّرْحَ، فلمّا رأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُـجّةً وَكَشَفَتْ عن سَاقَيْهَا، قال: إنَّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قواريرَ** ﴾[٤٢٨]، وقال ﴿ **وأكوابٍ كانَتْ قواريرًا ۞ قواريرًا من من فِضّةٍ** ﴾[٤٢٩]، فاشتقَّ للفضّة من اسمها. وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للحادي، وقد عنّف في سياق ظعنه: يا أُنيس ارفُق بالقوارير[٤٣٠]، فاشتقّ للنساء اسمًا من أسمائها. ويقولون: ما فلان إلّا قارورة، على أنّه أقطعُ من السّيف وأحدّ من الموسى. وإذا وقع شعاع المصباح على جوهر الزّجاج صار الزّجاج والمصباح مصباحًا واحدًا، وردّ الضياء كلّ منهما على صاحبه. واعتبروا ذلك بالشّعاع الذي يسقط في وجه المرآة على وجه الماء وعلى الزّجاج، ثمّ انظروا كيف يتضاعف نورُه، وإن كان سقُوطه على عين إنسانٍ أعشاه، وربّما أعماه، وقال الله عز وجلّ: ﴿ **الله نورُ السّماوات والأرض مَثَلُ نُورِه كمِشْكاةٍ فيها مِصْبَاح، المِصْباحُ في زُجاجةٍ، الزّجاجة كأنّها كوكبٌ دُرِّيٌّ**... ﴾ الآية[٤٣١]، فالزّيتُ في الزّجاجة نورٌ على نور، وضوءٌ مضاعَف». فلم يبْقَ أحدٌ في المجلس إلّا تحَيَّرَ فيه، وشَقَّ عليه ما نالَ من نفسه بهذه المعارضة، وأيقنوا أنّه ليس دون اللّسان حاجز.

ـ استثقل المأمون سهل بن هارون، فدخل عليه سهلٌ يومًا، والنّاس عنده على منازلهم، فتكلّم المأمون بكلامٍ فذهبَ فيه كلَّ مَذْهب، فلمّا فَرَغَ المأمونُ من كلامه، أقبلَ سهلُ بن هارون على ذلك الجَمْعِ، فقال: (ما لكم تَسْمعون ولا تَعُون، وتُشَاهدون ولا تفقهون، وتنظرون ولا تُبصرون. والله إنّه ليفعلُ ويقولُ في اليوم القصير مثلَ ما فعل بنو مروان وقالوا في الدّهر

(٤٢٧) مدينة عظيمة ببلاد فارس، مشهورة بصناعة الديباج.

(٤٢٨) سورة النمل ٤٤/٢٧.

(٤٢٩) سورة الإنسان ١٥،١٦/٧٦.

(٤٣٠) صحيح البخاري، كتاب الأدب ٢١٤٧/٤ برقم ٥٧٩٧ (بلفظ آخر).

(٤٣١) سورة النور ٣٥/٢٤.

الطّويل. عَرَبُكم كعَجَمِهم، وعَجَمُكم كعبيدِهم، ولكنْ كيف يعرفُ الدّواء مَن لا يشعرُ بالدّاء). قال: فرجعُ له المأمونُ بعد ذلك إلى الرّأي الأوّل.

ـ قال سهل بن هارون: ينبغي للنّديم أن يكون كأنّما خُلِقَ من قلب المَلِكِ: يتصرّف بشَهواته، ويتقلّب بإرادته، إذا جَدّ جَدّ وإذا انطلق تطلّق، لا يَمَلّ المُعاشرة، ولا يَسْأم المُسامرة، إذا انتشى تحفّظ، وإذا صحا تيقّظ، ويكون كاتمًا لسِرّه، ناشرًا لبرّه، ويكون للمَلِكِ دون العبد، لأنّ العبدَ يخدم نوائب، والنّديم يحضر دائبًا.

ـ قال سهلُ بن هارون: لو أنّ رجلينِ خَطَبَا أو تحدَّثا، أو احتجّا أو وصَفَا، وكان أحدُهما جميلاً جليلاً بهيًّا، ولبّاسًا نبيلاً، وذا حَسَبٍ شريفًا، وكان الآخرُ قليلاً قميئًا، وباذَّ الهيئة دميمًا [٤٣٢]، وخاملَ الذِّكر مجهولاً، ثمّ كان كلامُهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة، وفي وزنٍ واحدٍ من الصّواب، لَتَصَدَّع عنهما الجمعُ وعامَّتُهم تقضي للقليل الدّميم على النّبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشَغَلَهم التّعجّبُ منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التّعجُّب منه سببًا للعَجَب به، ولصار الإكثارُ في شأنه عِلّةً للإكثار في مَدْحه، لأنّ النّفوسَ كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حَسَدِه أبعد. فإذا هَجَمُوا منه على مالم يكونوا يحتسبُونه، وظهر منه خلافُ ما قدَّروه، تضاعفَ حُسْنُ كلامِه في صُدورهم، وكَبُرَ في عيونهم؛ لأنّ الشّيءَ من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعدَ في الوهْم، وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطْرَف، وكلّما كان أطرفَ كان أعجب، وكلّما كان أعجب كان أبدع. وإنّما ذلك كنوادر كلام الصّبيان ومُلَح المجانين؛ فإنّ ضحك السّامعين من ذلك أشدُّ، وتعجّبهم به أكثر. والنّاسُ مُوَكَّلُون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الرّاهن، وفيما تحت قُدْرتهم من الهوى والرّأي، مِثْلُ الذي لهم في الغريب القليل، وفي النّادر الشّاذّ، وكلِّ ما كان في مِلك غيرهِم. وعلى ذلك زَهِدَ الجيرانُ في عالِمِهم، والأصحابُ في الفائدة من صاحبِهم. وعلى هذا السّبيل يستطرفون القادمَ عليهم، ويرحلُون إلى النّازح عنهم، ويتركون مَنْ هو أعمُّ نفعًا

(٤٣٢) باذّ الهيئة: أي رثّ الحال.

وأكثر في وجوه العلمِ تصرُّفًا، وأخفُّ مؤونةً وأكثرُ فائدة. ولذلك قدّم بعض النّاس الخارجيَّ على العريق، والطّارف على التّليد[٤٣٣].

ـ وكان يقول: إذا كان الخليفة بليغًا والسَّيِّدُ خطيبًا، فإنّك تَجِدُ جمهورَ النّاسِ، وأكثر الخاصَّة فيهما على أمرين؛ إمّا رجلاً يُعطي كلامَهما من التّعظيم والتّفضيل، والإكبار والتّبجيل، على قدر حالِهما في نفسه، وموقعهما من قلبه؛ وإمّا رجُلاً تعرِضُ له التُّهمة لنفسه فيهما، والخوف من أن يكونَ تعظيمه لهما يُوهمه من صَواب قولهما، وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما، حتّى يُفرط في الإشفاق، ويُسْرِف في التُّهمة. فالأوّل يزيد في حقِّه للذي له في نفسه، والآخرُ ينقصه من حَقِّه لتُهمته لنفسه، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعًا في أمره. فإذا كان الحُبُّ يُعمي عن المساوي فالبُغْض أيضًا يُعمي عن المحاسن. وليس يعرف حقائقَ مقادير المعاني، ومحصولَ حدود لطائف الأمور، إلّا عالمٌ حكيمٌ، ومُعتدل الأخلاط عليم، وإلّا القويُّ المُنَّةِ، الوثيق العُقْدة، والذي لا يميلُ مع ما يستميل الجمهورَ الأعظم، والسَّواد الأكبر.

ـ قال سهل بن هارون: للسلطان سكَرات، فمنها الرّضا عن بعض مَن يستوجب السّخط، والسّخط على بعض من يستوجب الرّضا، ولذلك قيل: قد خاطر من لجّ في البحر وأشدّ منه مخاطرة صاحب السّلطان. الملك صبيُّ الرّضا، كَهْلُ الغضب، يأمرُ بالقتل وهو يضحك، ويستأصلُ شَأْفَةَ القوم[٤٣٤]، وهو يمزح، يخلط الهَزْل بالجدّ، ويتجاوز في العقوبة قَدْر الذّنب. وربّما أَحْفَظَهُ الأمرُ اليسير[٤٣٥]، وربّما أَعْرَضَ صَفْحًا عن الخَطْب الكبير. أسبابُ الموت والحياة معلّقةٌ بطَرَفِ لسانِه، لا يعرف أَلَمَ العقوبة فَيُبْقي، ولا يؤنَّب عن بادرةٍ فينتهي، يُخطئ فيصوَّب، ويُصيب فيفرّط، مفتونُ الهوى، فظُّ الخليقة، أخرقُ العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصّة به ما يعلمه من حَزْمه وعنايته وطُول صُحبته، أن يقتلَه لِخَطْرَةٍ من خَطَراتِ مَوْجِدته،

---

(٤٣٣) الخارجي: الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم.

(٤٣٤) الشَّأْفَة في الأصل: قرحة خبيثة تُستَأْصل بالكَيِّ، والمعنى: يزيلهم من أصلهم.

(٤٣٥) أحفظه: أغضبه.

ولا ينفكُّ أنْ يُخْطَبَ إليه مكانه، وينافسَ الرّجال موضعه، فلا الثاني بالأوّل يَعْتَبِر، ولا الملك على مِثْلِ ما فَرَطَ منه يَزْدَجِر.

ـ قال دِعْبلٌ الشّاعر: أقمنا عند سهل بن هارونَ فلم نبرحْ، حتّى كدنَا نموتُ من الجوع، فلما اضطررناه قال: ياغلام، ويْلَك غدِّنا قال: فأُتِينا بقَصْعةٍ فيها مرَقٌ فيهِ لحمُ ديكٍ عاسٍ هَرِم ليس قبلَها ولا بعدَها غيرُها لا تحزُّ فيه السّكّين، ولا تؤثّر فيه الأضراس، فاطّلع في القَصْعة وقلَّب بصرَه فيها، ثمّ أخذ قِطْعةَ خبزٍ يابسٍ، فقلَّب جميع مَافي القَصْعة حتَّى فقد الرّأس من الدِّيك وحده، فبقي مُطرِقًا ساعَةً، ثمّ رفع رأسَه إلى الغلام، فقال: أين الرَّأس؟ فقال: رميتُ به، قال: ولمَ رميت به؟ قال: لم أظنّك تأكله، قال: ولأَيِّ شيءٍ ظَننتَ أنِّي لا آكلُه؟ فواللهّ إنِّي لأَمقتُ مَن يرمي برجليهِ فكيف مَن يرمي برأسه؟ ثمّ قال لَهُ: لو لم أكرهْ مَا صنَعتَ إلّا للطِّيَرةِ والفأل لكَرهْتُه؛ الرّأس رئيسٌ وفيهِ الحواسُّ، ومنه يصدَح الدّيك، ولولا صوتُه ما أرِيدَ، وفِيهِ فَرقُه الذي يُتبرّك به، وعَينُهُ التي يُضرب بها المثَل، يقال: شرابٌ كعين الدّيك، ودِمَاغُه عجيب لوجَعِ الكُلْية، ولم أرَ عَظمًا قَطُّ أهشَّ تحت الأسنانِ من عَظْم رأسِهِ، فهَلّا إذْ ظننتَ أنِّي لا آكلُه، ظننتَ أنّ العِيال يأْكُلونه؟ وإنْ كانَ بلَغَ من نُبْلِك أنّك لا تأْكله، فإنّ عِنْدَنا من يأْكُلُه، أوَ ما علمتَ أنّه خيرٌ من طَرَف الجَناحِ، ومن السَّاق والعنق انظرْ أين هو؟ قال: واللهّ ما أدري أينَ رميتُ بِهِ، قال: لكنِّي أدري أنّك رمَيت بِهِ في بطنك، واللهُ حَسِيبُك.

ـ قال سهل بن هارون: إنّ المعرفة لا تحيط بمقدار عقل إنسان، حتّى إذا أراد واصفٌ أن يصفه لم يتجاوز حدّه إلى زيادة، ولم يقصرْ عنه إلى نُقصان. وذلك أنّ العقل ثبات المعرفة، وقد يوجد الإنسان ثابت المعرفة بشيء وغير ثابتها بشيء آخر، فلا يقدر على إحصاء ما تثبت فيه معرفة المرء ممّا لا تثبت إلّا الخالق، غير أنّ قلوب ذوي الألباب موازين معرفتها، لا يزن بها أحد بعد اختباره وصحّة الفهم له إلّا كادت أن تضعه في ميزان عدل منها. وللقلوب في ذلك بما طُوّقت من الفَهم فضلٌ على الألسن بما طوّقت من النّطق، وإن كانت تراجمة للقلوب. ألا ترى أنّ قائلاً لو اجتهد في وَصْفه لما أتى على كُنْهِ معرفة قلبه، وليس ذلك

لكلال من اللّسان يلزمه عيبه، ولكنّ الفهم ألطف منه مدخلاً وأدقّ مسلكًا. قال: وسبب زيادة الفَهم على المنطق أنّ اللسانَ رسولٌ والقلبَ مُرسلٌ، ولا يقوم الرّسول مقام المُرسل. قال: والعقل صيغة موجودة في ضَريبة الإنسان، ليس باكتساب. قال: وموضع اللائمة للجاهل أنّ الجهل لو كان موجودًا لا عقل معه لسقطت اللوائم عن صاحبه، ولكنّه يكون للمرء جزء من العقل، فيلزمه من اللّوم بقدر ما أضاعه بذلك الجزء، فإن كلفه مكلّف أكثر من طاقة عقله فقد ظلمه، وهذا كثير في النّاس: أن يؤنبوا أهل النّقص بأكثر من مقدار ما يلزمهم. وإنّما يؤتى اللائم في ذاك من قلّة معرفته بمقدار ما يسعه عقل الملوم، فيكلّفه فوق طاقته. ألا ترى أنّ الذّنوب إذا أصابها مُصيب كشف الحكّام وجوهها، فميّزت الجهل من غيره، فحكمها في العمد، وهو ارتكاب الذّنب مع المعرفة به العقوبة، وفي الخطأ إزالة العقوبة، ويسقط مع ذلك عنه المأثم. قال: والعقل أمّ لكلّ عمود، وجنّة من كلّ مذموم، حياة النّفس وراحة البدن، مدّته إلى السّرور، وأيّامه إلى السّلامة، جامع شمل المواهب، وراجع فوت كلّ ذاهب، كنَف للرّحمة، ومفتاح للهدى، آخية المودّة بين الصّالحين، والسّاقط بالظنّ على اليقين، زارع الخير، ومثمر الفطنة، وحامي الهوى عن مراتع الهلَكة، لا يخبو نوره، ولا تكبو زناده، يجنيك ثمرة العافية، ويقيك محذور العاقبة، مُستصحب الصّنع وقرين التّوفيق، ديوان للخيرات، ومعدن للصالحات، عليه مُعوّل المحروم، وفيه عِوض من المعدوم. قال: ووجدت مودّةَ الجاهل وعداوةَ العاقل أسوة في الخطر، ووجدت الأنس بالجاهل والوحشة من العاقل سيين في العيب، ووجدت ظنّ العاقل أوقع بالصّواب من يقين الجاهل. ووجدت غشّ العاقل أقلّ ضررًا من نصيحة الجاهل، ووجدت العاقل أحفظ لما لم يُستكتم من الجاهل لما استكتم.

ـ وقال: الدّنيا والدةُ الموت، وناقِضةُ المُبرَم، ومُرتجعةُ العطيّة، وكلُّ مَن فيها يجري لما لا يدري، وكلُّ مُسْتقرٍّ فيها غيرُ راضٍ بحاله، وذلك دليلٌ على أنّها ليست بدارِ قرار، غدّارة غير مأمونة؛ من استرسلَ إليها أهَانَتْه، ومَن قَلاها أكْرَمَتْه، تُحوجُ مَن بَانتْ عنه، وينالها مَن لم يكن

يرجوها، طالبة مطلوبة؛ فمن طلبَ الآخرةَ طَلَبَتْه الدّنيا حتّى توفّيَه رِزْقَه فيها، ومن طلبَ الدّنيا طَلَبَه الموتُ حتّى يخرِجَه منها، دارُ فَنَاءٍ ومَنْزِلُ قُلْعَة، رَغِبَ عنها السُّعداءُ، ورَغِبَ فيها الأشقياءُ، فغِنَاها فَقْرٌ، وعِلْمُها جَهْلٌ، وخُطوبُها صُروفٌ، وأيّامُها دُوَلٌ، وإنّ امرأً آخِرُه الموت لحَرِيٌّ أنْ يزهدَ في أوَّله.

ـ وقال سهل بن هارون للفَضْل بن سَهْل: إنَّ الحاجبَ أحدُ وَجهي المَلك، يُعتَبرُ عليه برأفته، ويلحقُه ما كان في غلظته وفظاظته، فاتّخذ حاجبك سهلَ الطّبيعة، معروفًا بالرّأفة، مألوفًا منه البِرُّ والرَّحمة، وليكن جميلَ الهيئة، حَسَنَ البسطة، ذا قصدٍ في نيّته وصالح أفعاله. ومُرْهُ فليضعِ النّاسَ على مَراتبهم، وليأذنْ لهم في تفاضُل منازلهم، وليُعْطِ كُلًّا بقِسْطه من وجهه، ويستعطفْ قلوب الجميع إليه، حتّى لا يغشى البابَ أحدٌ وهو يخاف أن يُقَصَّر به عن مرتبته، ولا أن يمنع في مدخلٍ أو مجلسٍ أو موضعِ إذنٍ شيئًا يستحقُّه، ولا أنْ يَمْنَعَ أحدًا مرتبته. وليضع كُلًّا عندك على منزلته. وتَعَهَّدْه فإنْ قَصَّرَ مُقَصِّرٌ قام بحسن خِلافته وتزيين أمره.

ـ قال سهل بن هارون: ينبغي للنّديم أن يكون كأنّما خُلق من قلب الملك، يتصرّف بشهواته ويتقلب بإرادته، لا يملّ المعاشرة، ولا يسأم المُسامرة، إذا انتشى تحفّظ، وإذا صحا تيقّظ، ويكون كاتمًا لسرّه، ناشرًا لبرّه.

ـ ذكر سهل بن هارون جعفرَ بن يحيى فقال: كان قد جمع في كلامه وبلاغته الهُدوَّ والتمهُّل، والجزالة والحلاوة، وكان يُفهم إفهامًا يغني عن الإعادة، كان لا يتحبَّس ولا يتكسّر، ولا يتوقّف ولا يتلفّف، ولا يتلجلج ولا يَتَحلْحَل، ولا يتنحنَحُ ولا يَسْعُل، ولا يترقّب لفظًا قد استدعاه، ولا يلتمس التّخلُّص إلى معنًى قد عَصَى عليه بعد طلبه له.

ـ قال سهل بن هارون، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرًا، فقال: لو كان الكلامُ يُتصوّر دُرًّا، ويُلْقيه المنطق جَوْهَرًا، لكان كلامهما، والمُنتقى من ألفاظهما. ولقد غَبَرتُ معهما، وأدركْتُ طبقة المتكلّمين في أيامهما، وهم يَرَوْن البلاغة لم تُسْتكْمَلْ إلّا فيهما، ولم تكُنْ مقصورةً إلّا عليهما، ولا انقادت إلّا لهما. وإنّهما للُبابُ الكرم، عِتْق منظرٍ، وجودة مَخْبرٍ، وسهولَة لفظٍ،

وجزالة مَنطق، ونَزَاهة نَفْس، وكمال خِصال؛ حتّى لو فاخرت الدّنيا بقليل أيامهما، والمأثورِ من خصائصها جميعَ أيامِ مَنْ سواهما من لدُنْ آدم إلى أن يُنْفَخَ في الصّور، ويبْعث أهل القبور، حاشا أنبياء اللهّ المكرمين، وسَلَف عباده الصالحين، لما باهت إلّا بهما، ولا عَوّلت في الفخر إلّا عليهما، ولقد كانا، مع تهذيب أخلاقهما، ومَعْسُول مَذَاقهما، وسنا إشراقهما، وكمالِ الخيرِ فيهما، في محاسن المأمونِ كالنقْطَة في البحر، والخَردَلِ في القَفْرِ.

ـ دخل سهل بن هارون على الرّشيد، وهو يُضَاحِكُ المأمون، فقال: اللّهُمَّ زِدْهُ من الخيرات، وابسُط له من البركاتِ، حتّى يكونَ في كلّ يومٍ من أيامه مُرْبِيًا على أمْسِه، مقصّرًا عن غده. فقال له الرشيد: يا سَهْلُ، من رَوَى من الشّعر أحسَنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضَحه، إذا رام أن يقولَ لم يُعْجزه القول. فقال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أنّ أحدًا تقدّمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعْشى هَمْدَانَ، حيث يقول:

رأيتك أمْسِ خَيْرَ بني لـؤيّ ... وأنْتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ

وأنْتَ غدًا تزيد الخَيْرَ ضعْفًا ... كذاك تزيد سادة عَبْدِ شمسِ

ـ وقال في وصف العقل: (أمّا العقلُ فإنّه قائمٌ لكلِّ محمود، وجُنَّةٌ من كلِّ مدفوع، حياةُ النّفس وراحةُ البدن، مُدّتُه إلى السّرور، وأيامُه إلى السّلامة، جامعُ شَمْلِ المذاهب، وراجعُ فَوْتِ كلِّ ذاهب، كَنَفُ الرَّحمة ومفتاحُ الهدى، إتاحة المودّة للصّائبين، والسّاقطُ بالظَّنِّ عن اليقين، وزارعُ الخير ومثمر الفطنة، وحامي الهوى عن مراتع الهَلَكَة، لا يخبو نوره، ولا يكبو زَنْده، يُجنيك ثمر العافية، ويَقيك محذور العاقبة، يستصحبُ الصَّنَع، ويَرُبُّ التّوفيق، مفتاحُ الخيرات، ومعدنُ الصالحات، عليه معوّل المحروم، وفيه عِوَضٌ من المعدوم، وإنَّما العلمُ قياسُ الدّين، وشعارُ المتقين، وحُلَّةُ العاقل، وميزانُ العادل، وحكمةُ الهُدى، ولسانُ أولي النُّهى، مَسلاةُ المحزون، وفاكهةُ الحكيم، وروضةٌ يرتفع منها الفهم، ومستراحٌ لثِقَلِ الهَمّ، عِلْقٌ نفيس، وصاحبٌ في الغربة، وأنِيْسٌ في الوحدة، كَنَفُه مألوف، وحَمْلُه خفيف...).

ـ وسُئل عن الأحمق الدّاهي من أين أتاه الدّهاء والمكر وهو موصوف بالنّقص؟ فقال: (لن تجد منه ذلك إلّا في دَقائِق الأمور وسَفْسَافها[٤٣٦]، وذوات الدّناءة منها، ولم يُؤتَ الأحمق من التّدبير المستبطن للدّهاء، ولطلب الحيلة شيئًا، إلّا وذو الحِجَا فيه أقوى سببًا، وأبلغ مَرامًا، وأوفر فيما يريد فيه حظًّا؛ ولكنّ شرفَ همّة اللّبيب، وكرم طبعه، يحجبانه عن استعمال فهمه فيما نظر فيه الأحمق ونطق بخبرته، وكثيرًا ما تجدُ ذلك في شِرارِ النّاس وسُقّاط الإماء، وقد قال بعض الحُكماء: عرفت كلّ شيء ما خلا الرَّعَن[٤٣٧]. فلا تحسبه ذلك من الأحمق فضلاً قصّر عنه المُقَدَّم في اللبّ عليه، ولكنّه لما أعلمتُك).

ـ وقال: قد أعلمتك أنّ أحدًا لا يكمل في كلِّ الخِلال، حتّى لا يأتيه عَيْبٌ من بين يديه ولا خلفه، ولكنّ ذا اللبّ إذا خالطه بعض المساوئ، كان له من عقله ساترٌ يحجبه عن أعين الناس؛ فإن لم يقدرْ على ما ستره، أحسنَ مُداراة نفسه، حتّى ينصرفَ عنه قبحُ الاسم منه إلى ضِدّه؛ فيقال للجُبنِ منه حَذَر، وللبخلِ تقدير، وللمسَبَّة فيه انتصار، وللحِرص اكتساب، وللعِيّ صمت، وللفظاظة قوّة، ولإفراط العقوبة تأديب، وللغضب عزّ، وللجزع رِقّة، ولسوءِ الظّنّ حَذَر، وللعَجَلةِ عَزم، وللعصبيّةِ أَنَفَة، وللخطأ قضاء، وللظلمِ اقتدار، وللاغترارِ تفويض، وللمهانةِ خشوع، وللهَذَرِ بلاغة، ولِتَرْكِ المشورة استغناء. وحُسْنُ هذه الأسماء كلّها مُنصرفٌ في الجاهل إلى قُبحها.

ـ ومن أقواله وحِكمه:

ـ قال سهل بن هارون: القلمُ أنف الضّمير، إذا رعفَ أعلنَ أسرارَه، وأبان آثارَه.

ـ وقال: من فَضْلِ الجواب على الابتداء أنّ الابتداءَ يوجدُ في الجواب ولايوجد جواب في ابتداء.

---

(٤٣٦) دقائق: جمع دقيق: وهو الأمر الحقير الصغير، ههنا . السَّفْسَاف: الرّديء الحقير من كلِّ شيء وعمل، جمعه سَفاسِف.

(٤٣٧) الرَّعَن: الحمق، والأرْعَن: الأهوج في منطقه.

ـ عزّى سهلُ بن هارون رجلاً، فقال: مُصيبةٌ في غيرك لك أجرُها خيرٌ من مُصيبةٍ فيك لغيرك ثوابها.

ـ وقال: الدّواةُ مَنْهَلٌ، والقلمُ ماتحٌ، والكتابُ عَطنٌ.

ـ وقال: تزيّوا بزيّ الكُتّاب؛ فإنّ فيهم أدبَ الملوك وتواضعَ السُّوقة.

ـ وقال: اللّسانُ البليغُ، والشّعرُ الجيّدُ، لا يكادان يجتمعان في واحدٍ، وأَعْسَرُ من ذلك أن تجتمعَ بلاغةُ الشّعرِ وبلاغةُ القَلَم.

ـ تخاير غلامانِ في خطّيهما إلى سهل بن هارون، فقال: هذا وَشيٌ محبوك، وهذا ذهبٌ مَسْبوك، تسابقتما إلى غاية، فوافيتما في نهاية.

ـ وقال: لو عَرفَ الزّنجيُّ فَرطَ حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل آلة البيان، لما نزع ثناياه.

ـ وقال: العقل رائد الرُّوح، والعلمُ رائدُ العقل، والبيانُ تُرْجمان العِلْم.

ـ وكان سهلُ بنُ هارونَ يقول: سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة، كما أنّ التَّوقّيَ على الدَّوَاء أشدُّ من الدَّواء.

ـ وصفَ سهلُ بن هارون رجلاً، فقال: لم أرَ أحسَنَ منه فَهْمًا لجليل، ولا أحسن تفهُّمًا لدقيق.

ـ وقال سهل بن هارون: بلاغة اللّسان رِفْقٌ، والعِيُّ خُرْق. وكان كثيرًا ما يُنشد قول شُتَيم بن خُوَيْلد: ولا يشعَبُون الصَّدع بعدَ تفاقُمٍ   وفي رِفْقِ أيديكم لذِي الصَّدْعِ شاعبُ

ـ وقال: التّهنئة على آجِلِ الثّواب أَولى من التّعزية على عاجل المصيبة.

ـ وقال سهلُ بن هارون في صدرِ كتابٍ له: وَجَبَ على كلِّ ذي مَقالةٍ أنْ يبتدئَ بحَمْدِ اللهّ قبل استفتاحها، كما بُدئ بالنِّعمة قبل استحقاقها.

ـ ومن كلامه: مَن لم يركبِ الأهوال لم يَنَلِ الرّغائب، ومَن تركَ الأمرَ الذي لعلّه أن يبلغَ به حاجته، مخافةَ ما لعلّه أن يوقّاه فليس ينال جسيمًا.

ـ وقال: الحِبْرُ عِطْرُ الحَبْر.

ـ وقال: الصّديق لا يُحاسَب، والعدوّ لا يُحتسب له.

ـ وقال سهل بن هارون لرجلٍ عزاه: إنّه لن تبعد مصيبةٌ أن تحلَّ محلَّ نعمةٍ إذا سُلّم لأمر الله فيها، ولن تبعد نعمةٌ أن تحلّ محلّ مصيبة إذا ضيّع شكر الله عليها.

ـ وقال: كانت زَوْرَةُ فلانٍ أخفَّ من حَسْوَةِ طائرٍ، ولُمْعَةِ بارقٍ، وخُلْسَةِ سارق.

ـ وقال سهلُ بن هارونَ لجاريةٍ له رُوميّة أعجميّة: إن أقلّ ما يَنْطِوي عليه ضميري من رَسِيس حبّك لأجلُّ من كلِّ جليل، وأكثرُ من كلِّ كثير.

ـ وقال: الكتابة أوّلُ زِينة الدّنيا التي إليها يتناهَى الفَضْلُ، وعندها تَقِف الرَّغبة.

ـ وقال: البيانُ ترجمانُ العقول وروضُ القلوب، والبلاغةُ ما فَهِمَتْه العامّة، ورَضِيَتْه الخاصّة.

ـ وقال: خيرُ الكلامِ ما قلّ وجلّ ودلّ ولم يملّ.

ـ وقال: خيرُ الكلامِ ما كان لفظُه فَحْلاً ومعناه بِكرًا.

Al-Furat University

ثالثًا: نصوص لابن الزيّات

ـ كتب ابنُ الزيات عَهْدَ الواثق على مكة بحضرة المعتصم: «أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين قد قلّدك مكّة وزمزم، تُراثَ أبيك الأقْدم، وجدّك الأكرم، ورَكْضَة جبريل، وسُقْيا إسماعيل، وحَفْر عبد المطلب، وسِقَاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى، والتّوسعة على أهل بيته».

ـ وكتب محمّد بن عبد الملك الزيّات في حقّ السّلطان وحقّ الرعية: «إنّ حقّ الأولياء على السّلطان تنفيذُ أمورهم، وتقويمُ أَوَدهم، ورياضةُ أخلاقهم، وأن يميّزَ بينهم، فيقدِّم مُحسنهم، ويؤخّر مُسيئهم، ليزدادَ هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم».

ـ وكتب في حُرمة المسلمين:«إنّ أعظمَ الحقّ حقّ الدِّين، وأَوْجبَ الحُرْمة حُرمة المُسلمين. فحَقِيق لمن راعَى ذلك الحقّ وحَفِظ تلك الحُرمة أن يُراعَى له حَسب ما رعاه الله به، ويُحْفظ له حَسب ما حَفظ اللهّ على يدَيه».

ـ وكتب في علاقة الخليفة بالرعية: «إنّ اللهّ أَوْجب لخُلفائه على عباده حقَّ الطّاعة والنَّصيحة، ولعَبيده على خُلفائه بَسْط العَدْل والرَّأفة، وإحياءَ السُّنن الصّالحة، فإذا أدّى كلٌّ إلى كلّ حقَّه، كان سببًا لتمام المَعونة، واتّصال الزِّيادة، واتّساق الكلمة، ودوام الألفة».

ـ وكتب في إسباغ النعم: «ليس من نِعمة يُجدِّدها اللهُ لأمير المُؤمنين في نفسه خاصَّة إلّا اتّصلت برعيّته عامَّة، وشَملت المُسلمين كافّة، وعظُم بلاء الله عندهم فيها، ووجب عليهم شكرُه عليها؛ لأنّ الله جعل بنعمته تمام نعْمتهم، وبتَدبيره وذَبّه عن دِينه حِفْظَ حَريمهم، وبحياطته حَقْنَ دمائهم وأمْن سبيلهم. فأطال اللهّ بقاء أمير المُؤمنين، مُؤَيَّدًا بالنَّصر، معزّزًا بالتّمكين، مَوْصول البقاء بالنَّعيم المُقيم».

ـ وكتب في الخليفة وطاعة الله: «الحمد للهّ الذي جَعل أميرَ المُؤمنين معقودَ النِّيّة بطاعته، مُنطوي القَلْب على مُناصحته، مَشْحوذ السَّيف على عدوّه. ثمّ وَهب له الظّفرِ، ودوّخ له البلاد، وشرّد به العَدوّ، وخصَّه بشَرف الفُتوح شرقًا وغربًا، وبرًّا وبحرًا».

ـ وكتب في أفعال أمير المؤمنين: «أفعالُ أمير المؤمنين عندنا مَغْسولة كالأماني، مُتَّصلة كالأيَّام، ونحن نُواتر الشُكر لكريم فِعْله، ونُواصل الدُّعاء له مُواصلةَ برّه؛ إنّه النّاهض بكَلِّنا، والحامل لأعبائنا، والقائم بما ناب من حُقوقنا».

ـ وكتب في تنبيه عامل: «أمّا بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكرَه، ولا يخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عُذْر يوجب حُجَّة، ويُزيل لائمة: إمَّا تَقصيرٌ في عمل دعاك للإخلال بالحَزْم، والتَّفريط في الواجب، وإمَا مُظاهرة لأهل الفساد ومُداهنة لأهلِ الرِّيب. وأيّة هاتين كانت منك لُمحِلّة النُّكْر بك، ومُوجبة العُقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أميرُ المؤمنين من الأناة والنَّظِرة، والأخْذ بالحُجّة، والتّقدّم في الإعذار والإنذار. وعلى حَسب ما أُقِلْتَ من عَظيم العَثْرة يجب اجتهادُك في تلافي التَّقصير والإضاعة، والسّلام».

رابعًا: نصوص للجاحظ

ـ قال في مقدّمة كتابه البخلاء: ولكَ في هذا الكتابِ ثلاثةُ أشياء: تبيّن حُجّة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت في ضحكٍ منه إذا شئت، وفي لهوٍ إذا مللت الجدّ. وأنا أزعم أنّ البكاء صالح للطّبائع، ومحمود المغبّة، إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقّة والبعد من القسوة. وربّما عُدّ من الوفاء، وشدّة الوجد على الأولياء. وهو من أعظم ما تقرّب به العابدون، واسترحم به الخائفون. وقال بعض الحُكماء لرجل اشتدّ جزعه من بكاءِ صبيٍّ له: لا تجزع، فإنّه أفتحُ لجرمه، وأصحّ لبصره. وضرب عامر بن قيس بيده على عينه، فقال: جامدة شاخصة لا تندى! وقيل لصفوان بن محرز، عند طول بكائه وتذكّر أحزانه: إنّ طول البكاء يُورث العمى، فقال: ذلك لها شهادة، فبكى حتّى عمي. وقد مُدح بالبكاء ناس كثير: منهم يحيى البكّاء، وهيثم البكّاء. وكان صفوان بن محرز يسمى البكّاء.

وإذا كان البكاءُ الذي ما دام صاحبه فيه فإنّه في بلاء ـ وربّما أعمى البصر، وأفسد الدّماغ، ودلّ على السّخف، وقضى على صاحبه بالهلَع، وشبّه بالأمة اللّكعاء، وبالحدث الضّرع ـ كذلك، فما ظنّك بالضّحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السّرور، إلى أن ينقطع عنه سببه؟ ولو كان الضّحك قبيحًا من الضّاحك، وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزّهرة والحبرة والحلي والقصر المبني: كأنّه يضحك ضحكًا. وقد قال الله جلّ ذكره: ﴿**وأنّه هوَ أضحكَ وأبكى۝ وأنّه هو أماتَ وأحيا**﴾ [النجم: ٤٣-٤٤]. فوضع الضّحك بحذاء الموت. وإنّه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمنّ على خَلْقه بالنّقص. وكيف لا يكون موقعُه من سرور النفس عظيمًا، ومن مصلحة الطّباع كبيرًا، وهو شيء في أصل الطّباع، وفي أساس التّركيب، لأنّ الضّحكَ أوّلُ خيرٍ يظهر من الصّبي. وقد تطيبُ نفسُه، وعليه ينبتُ شحمُه، ويكثر دمُه الذي هو علّة سروره، ومادّة قوّته. ولفَضْلِ خصال الضّحك عند العرب تسمّي أولادها بالضحّاك وببسّام وبطلق وبطليق. وقد ضحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومزَح. وضحك

الصّالحون ومزحوا. وإذا مدحوا قالوا: هو ضَحوك السّنّ، وبسّام العشيّات، وهشّ إلى الضيف، وذو أريحيّة واهتزاز. وإذا قالوا: هو عَبوس، وهو كالح، وهو قَطوب، وهو شتيم المحيّا، وهو مُكفهر أبدًا، وهو كريه، ومقبض الوجه، وحامض الوجه؛ وكأنّما وجهه بالخلّ منضوح!

وللمَزْحِ موضعٌ، وله مِقدارٌ، متى جازها أحدٌ، وقصّر عنها أحد، صار الفاضل خطلاً، والتّقصير نقصًا. فالنّاس لم يعيبوا الضّحك إلّا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلّا بقدر. ومتى أريد بالمزْح النّفع، وبالضّحك الشّيء الذي له جعل الضّحك، صار المزْحُ جِدًّا، والضّحك وَقارًا.

ـ وقال: اعلموا أنّ المعنى الحقيرَ الفاسدَ، والدّنيَّ السّاقط، يعشّش في القلب ثمّ يَبيض ثمّ يفرِّخ، فإذا ضَرَب بجِرانِهِ ومَكَّن لعُروقه، استفحل الفسادُ وبَزَل، وتمكّن الجهل وقَرَحَ، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤُه؛ لأنّ اللّفظَ الهجينَ الرديّ، والمستكْرَهَ الغبِيّ، أعلَقُ باللِّسان، وآلف للسمع، وأشدُّ التحامًا بالقلب من اللّفظ النّبيه الشّريف، والمعنى الرَّفيع الكريم، ولو جالَسْتَ الجُهّالَ والنَّوْكى، والسُّخَفاءَ والحمقَى، شهرًا فقط، لم تَنْقَ من أوضار كلامهم، وخَبَال معانيهم، بمجالَسة أهل البيان والعقل دهرًا؛ لأنّ الفسادَ أسرعُ إلى النَّاس، وأشَّدُّ التحامًا بالطّبائع، والإنسانُ بالتّعلُّم والتّكلُّف، وبطُول الاختلاف إلى العلماء، ومُدارَسَةِ كُتُبِ الحُكماء، يَجُودُ لفظُه ويحسُن أدبُه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلُّم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التّخيُّر.

ـ الكِتَاب نعم الذّخر والعُقدة، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النّشرة والنّزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل، ونعم الوزير والنّزيل. والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وَظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفًا، وإناءٌ شُحِن مُزَاحًا وجِدًّا؛ إِنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن

شئتَ أشجَتْك مواعِظُه. وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرس، وببارد حارّ، وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

قُلْ لزُهير إذا انتَحى وشدا أَقْلِلْ أَوَ اكْثِر فَأَنْتَ مِهْذَارُ

سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ البُرُودَةِ حتَّى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النارُ

لاَ يَعجَبِ السامعُونَ مِنْ صِفَتِي كذلك الثَّلجُ بارِدٌ حارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أَعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر، والنّاقص والوافر، والخفيَّ والظّاهر، والشّاهدَ والغائبَ، والرّفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسّمين، والشِّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه.

وبعد: فمتى رأيتَ بُستانًا يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ، وناطقًا ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء، وَمَنْ لك بمُؤنِسٍ لا ينام إلّا بنومِك، ولا ينطق إلّا بما تهوَى، آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السّرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال، ومن العُميانِ قبلَ التّمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العناية تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم، والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطّبائعِ، والقضيبُ رَطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها،...، وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر: اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ، لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثمّ يُنشِدُها النّاسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّمًا أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبرامًا، ولا أحفَلَ أخلاقًا، ولا أقلَّ خِلافًا وإجرامًا، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفًا، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفًا، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أترَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب. ولا أعلَمُ قرينًا أحسنَ مُوافاةً، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرةً أطولَ عمرًا، ولا أجمعَ أمرًا، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتَنى، ولا أسرَعَ إدراكًا ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ، من كتاب، ولا أعلَمُ نِتاجًا في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التّدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصّحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللّطيفة، ومِنَ الحِكَم الرّفيعة، والمذاهب القويمة، والتّجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازِحة، والأمثالِ السّائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ، قال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصّلاة والسّلام: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾؛ فَوَصفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقَلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام، وفي أيادِيه الجِسام. وقد قالوا: القَلَمُ أحدُ اللّسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمةَ في بَيان اللّسانِ، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف، ثمّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآنًا، ثمّ جعلَه في أوّل التّنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

ـ إنّ أكثرَ الأعوان على إظهار السِّرّ الاستعهاد له، والتّحذير من نَشْره؛ فإنّ النّهي أغرى؛ لأنّه تكليفُ مشقّة، والصّبر على التّكليف شديد، وهو حظرٌ، والنّفس طيَّارة متقلِّبة، تعشق الإباحة وتُغرم بالإطلاق. ولعلّ رجلاً لو قيل له: لا تمسحْ يدَك بهذا الجدار، وهو لم يمسحْها به قطُّ، غري بأن يفعل، وكذلك ما حُدِّث به من السّرّ فلم يُؤمر بسَتره، لعلّه ألّا يخطر بباله؛ لأنّه موجودٌ في طبائع النّاس الوَلُوع بكلِّ ممنوع، والضّجر بكلّ محصول.

ـ اعلم أنك لم تَرَ قومًا قطُّ أشقى من هؤلاء الشّعوبيّة ولا أعدى على دِينه، ولا أشدَّ استهلاكًا لِعرْضه، ولا أطوَلَ نصَبًا، ولا أقل غُنْمًا من أهل هذه النِّحلة، وقد شَفَى الصُّدورَ منهم طولُ

جُثومِ الحسد على أكبادِهم، وتوقُّدُ نار الشّنَآن في قلوبهم، وغليانُ تلك المراجل الفائرة، وتسعُّر تلك النِّيران المضطرمة، ولو عرفوا أخلاق أهلِ كلِّ مِلّة، وزيِّ أهل كلّ لغةٍ وعللَهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علَّةُ كلّ شيء من ذلك، ولِمَ اجتلبوه ولِمَ تكلّفوه، لأراحوا أنفسَهم، ولخفّت مؤونتُهم على من خالطهم.

جامعة الفرات
2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

خامساً: نصوص لأبي حيّان التّوحيديّ

ـ قبل كلّ شيءٍ ينبغي أن نثقَ بأنّه لا صديق، ولا من يتشبّه بالصّديق، ولذلك قال جميل بن مرّة في الزّمان الأوّل ـ حين كان الدّين يعانق بالإخلاص، والمروءة تتهادى بين النّاس، وقد لزمَ قعرَ البيت، ورفض المجالس، واعتزل الخاصّة والعامّة، وعُوتب في ذلك ـ فقال: لقد صحبتُ النّاسَ أربعينَ سنة، فما رأيتهم غفروا لي ذنبًا، ولا ستروا لي عيبًا، ولا حفظوا لي غيبًا، ولا أقالوا لي عَثْرة، ولا رحموا لي عَبرة، ولا قبلوا مني عذرة، ولا فكّوني من أسْرة، ولا جبروا مني كسْرة، ولا بذلوا لي نصرة، ورأيت الشّغل بهم تضييعًا للحياة، وتباعدًا من الله تعالى، وتجرّعًا للغيظ مع السّاعات، وتسليطًا للهوى في الهَنَات بعد الهَنَات، ولذلك قال الثوريّ لرجل قال له أوصني، قال: أنكر مَن تعرفه، قال: زدني، قال: لا مزيد. وكان ابن كعب يقول: لا خير في مخالطة النّاس، ولا فائدة في القُرب منهم، والثّقة بهم والاعتماد عليهم.

ـ فأمّا الملوك فقد جلّوا عن الصّداقة، ولذلك لا تصحّ لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنّما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والاستحلاء، والاستخفاف. أمّا خدَمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشّبه بهم، ونهاية المُشاكلة لهم، لانتشابهم بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويردّ عليهم. وأمّا أصحاب الضّياع، فليسوا من هذا الحديث في عِير ولا نَفير. وأمّا التجّار فكسب الدّوانيق سدّ بينهم وبين كلّ مروءة، وحاجز لهم عن كلّ ما يتعلّق بالفتوّة. وأمّا أصحاب الدّين والورع، فعلى قلّتهم، فربّما خلصت لهم الصّداقة لبنائهم إيّاها على التّقوى، وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العُقبى. وأمّا الكتّاب وأهل العلم فإنّهم إذا خلوا من التّنافس، والتّحاسد، والتّماري، والتّماحك، فربّما صحّت لهم الصّداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل. وأمّا أصحاب المذابّ والتّطفيف فإنّهم رجرجة بين النّاس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مخازي فتنشر، ولذلك قيل لهم: همَج، ورَعاع، وأوباش، وأوناش، ولفيف، وزعانف، ودَاصَة،

وسقّاط، وأنذال، وغوغاء؛ لأنّهم من دقّة الهمم، وخساسة النّفوس، ولؤم الطّبائع على حال لا يجوز معها أن يكونوا في حومة المذكورين، وعصابة المشهورين، فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها، الزّائغة إلى غير جهاتها علل وأسباب، لو نفس الزّمان قليلاً لكنا ننشط لشرحها، وذكْر ما قد أتى النسيان عليه، وعفى أثره الإهمال، وشغل عنه طلب القوت، ومن أين يظفر بالغداء، وإن كان عاجزًا عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصرًا عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طِمرين للسّتر لا للتجمّل، وكيف يهرب من الشرّ المُقبل، وكيف يهرول وراء الخير المُدبر، وكيف يُستعان بمن لا يعين، ويُشتكى إلى غير رحيم، ولكنْ حالَ الجريضُ دون القريض. ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف، على ما في النّفس من الحرق، والأسف، والحسرة، والغيظ، والكمد، والومد.

ـ أقول ـ وخيرُ القولِ ما انعقد بالصّواب، وخيرُ الصّوابِ ما تضمّن الصّدق، وخير الصِّدق ما جلبَ النّفع، وخير النّفع ما تعلّق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن شُكْر، وخير الشّكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن إيقان، وخير الإيقان ما صدر عن توفيق ـ : لمّا رأيت شبابي هرمًا بالفقر، وفقري غنيًّا بالقناعة، وقناعتي عَجْزًا عند التّحصيل، عدلت إلى الزّمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفَه عني نابيًا، وعِنانه عن رضاي مثنيًّا، وجانبه في مُرادي خشنًا، وإنفاقي في أسبابه سيّئًا، والشّامت بي على الحَدَثان مُتماديًا؛ طمعت في السّكوت تجلّدًا، وانتحلت القناعة رياضةً، وتألّفت شارد حرصي متوقّفًا، وطويت منشور أمري متنزّهًا، وجمعت شتيت رجائي ساليًا، وادّرعت الصّبر مُستمرًا، ولبست العفاف محمودًا، واتخذت الانقباض صناعة، وقمت بالعلاء مجتهدًا.

هذا بعد أن تصفّحت النّاس فوجدتهم أحدَ رجلين: رجلاً إن نطق عن غيظ ودِمنة، وإن سكت سكت على ضِغْنٍ وإحنة. ورجلاً إن بذلَ كدَّر بامتنانه بذْلَه، وإن منع حصَّن باحتياله بُخله؛ لم يطل دهري في أثنائه متبرّمًا بطول الغربة وشظَف العيش، وكلَب الزّمان وعَجَف المال، وجفاء الأهل وسوء الحال، وعادية العدوّ وكسوف البال؛ متضرّمًا من الحنق

على لئيم لا أجد مُنصرفًا عنه، متقطّعًا من الشّوق إلى كريمٍ لا أجد سبيلاً إليه، حتّى لاحت لي غُرة الأُستاذ، فقلت: حلَّ بي الويل، وسال بي السّيل!

أين أنا عن ملك الدّنيا، والفلك الدّائر بالنُّعْمى؟ أين أنا عن مشرق الخير ومغرب الجميل؟ أين أنا عن بدر البدور وسعد السّعود؟ أين أنا عمّن يرى البخل كفرًا صريحًا، ويرى الإفضال دينًا صحيحًا؟ أين أنا عن سماءٍ لا تفتر عن الهطلان، وعن بحرٍ لا يقذف إلّا باللؤلؤ والمرجان؟ أين أنا عن فضاءٍ لا يُشقُّ غُباره، وعن حرَمٍ لا يُضام جواره؟ أين أنا عن مَنْهَلٍ لا صدر لفُرّاطه ولا منع لوُرّاده؟ أين أنا عن ذَوبٍ لا شوب فيه، وعن صددٍ لا حَدَد دونه؟ بلى!

أين أنا عمّن قد أتى بنُبُوّة الكرم، وإمامة الإفضال، وشريعة الجُود، وخلافة البَذْل، وسياسة المجد، نسيمه مَشيمة البوارق، ونفسه نفيسة الخلائق؟

أين أنا عن الباع الطويل، والأنف الأشمّ، والمشرب العَذب، والطّريق الأمَم؟ لم لا أقصد بلاده؟ لم لا أقتدح زِنَاده؟ لم لا أنتجع جَنابه وأرعى مراده؟ لم لا أسكن رَبْعَه وأستدعي نفعه؟ لم لا أخطب جوده وأعتصر عوده؟ لم لا أستمطر سحابه وأستسقي ربابه؟ لم لا أستميح نيله وأستَسْحب ذيله؟ لم لا أحجُّ كعبته، وأستلم ركنه؟ لم لا أصلّي إلى مقامه مؤتمًّا به؟ لم لا أُسبّح بثنائه متقدّسًا؟ لم لا أحكّم في حالي:

فتىً صِيغ من ماءِ البَشَاشَةِ وجهُه   فأَلفاظُه جودٌ وأنفاسُه مَجْدُ؟

لم لا أقصد: فتىً بان للنّاسِ في كفّه   من الجُودِ عَينَان نضّاختان؟

لم لا أمتري معروف: فتىً لا يُبالي أن يكونَ بجسمِه   إذَا نالَ خَلّاتِ الكرام، شحوبُ؟

لم لا أَمدح: فتىً يشترِي حُسنَ الثّناءِ برُوحه   ويعلَم أَعقابَ الحديث تدوم؟

نعم! لم لا أنتهي في تقريظ فتًى لو كان من الملائكة لكان من المقرّبين، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين، ولو كان من الخلفاء لكان نعتُه اللائذ بالله، أو المنصف في الله، أو المُعتضِد

بالله، أو المنتصب لله، أو الغاضب لله، أو الغالب لله، أو المرضيَّ لله، أو الكافي بالله، أوالطّالب بحقّ الله، أو المُحيي لدين الله؟!!

ـ اللّهُمَّ فلا تخيّب رجاءً هو مَنُوطٌ بك، ولا تُصفرْ كفًّا هي ممدودةٌ إليك، ولا تذلّ نفسًا هي عزيزةٌ بمعرفتك، ولا تسلبْ عقلًا هو مُستضيءٌ بنور هدايتك، ولا تعمِ عينًا فتحتها بنعمتك، ولا تحبسْ لسانًا عوّدته الثّناء عليك. وكما أنت أولى بالتّفضل فكن أحرى بالإحسان: النّاصيةُ بيدك، والوجهُ عانٍ لك، والخيرُ متوقّع منك، والمصيرُ على كلّ حال إليك، ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوبَ العِصمة، وحلّني في تلك الدّار الباقية بزينة الأمن، وأفطمْ نفسي عن طلب العاجلة الزّائلة، وأجرني على العادة الفاضلة، ولا تجعلني ممّن سها عن باطن ما لك عليه، بظاهر ما لك عنده، فالشّقي من لم تأخذ بيده، ولم تؤمّنه من غده، والسّعيد من آويته إلى كَنَفِ نعمتِك، ونقلته حميدًا إلى منازلِ رحمتك، غير مُناقش له في الحساب، ولا سائق له إلى العذاب، فإنّك على ذلك قدير.

ـ وقال التّوحيديّ يمدح الجاحظ: «وأبو عثمان الجاحظ، فإنّك لا تجدُ مِثْلَه، وإن رأيت ما رأيت رجلاً أسبق في ميدان البيان منه، ولا أبعد شَوطًا، ولا أمدّ نفسًا، ولا أقوى مُنّة، إذا جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور، وكَلّ لسان المستحنفر الصّبور، وانتفخ سحَرُ العارم الجَسور؛ ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حَوكًا كثير الوشي، قليل الصّنعة، بعيد التّكلف، حلو الحلي، مليح العطَل، له سلاسة كسلاسة الماء، ورقّة كرقّة الهواء، وحلاوة كحلاوة النّاظل، وعزّة كعزّة كليب وائل. فسبحان من سخّر له البيان وعلّمه، وسلّم في يده قصَب الرّهان وقدّمه، مع الاتساع العجيب، والاستعارة الصّائبة، والكناية الثّابتة، والتّصريح المغني، والتّعريض المنبي، والمعنى الجيّد، واللّفظ المفحم، والطّلاوة الظّاهرة، والحلاوة الحاضرة، إن جدّ لم يُسبق، وإن هزلَ لم يُلحق، وإن قال لم يُعارض، وإن سكت لم يعرض له».

ـ وقال في وصف الصاحب بن عباد: «وكان أبو الفضل، أعني ابن العميد، إذا رآه يقول: أحسَب أنّ عينيه رُكّبتا من زئبقٍ وعنقه عُمِل بلَولب. وصدق؛ لأنّه كان ظريف التّثني

والتلوّي، شديد التفكّك والتفتّل، كثير التعوّج والتموّج، في شكل المرأة المُومسة والفاجرة الماجنة، والمخنَّث الأشمط».

ـ فقدت كلّ مُؤنس، وصاحب، ومُرفق، ومُشفق، والله لربّما صلّيت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلّي معي! فإن اتّفق فبقّال، أو عصّار، أو ندّاف، أو قصّاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصُنَانه، وأسكرني بنَتْنِه، فقد أمسيتُ غريبَ الحال، غريبَ اللّفظ، غريبَ النّحلة، غريب الخلق، مُستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، مُعتادًا للصمت، مُجتنفًا على الحيرة، محتملاً الأذى، يائسًا من جميع مَن ترى، مُتوقّعًا لما لا بدَّ من حُلوله، فشَمْسُ العمرِ على شَفا، وماءُ الحياة إلى نُضوب، ونجمُ العيش إلى أُفول، وظِلُّ التلبّثِ إلى قُلُوص.

2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

سادساً: خُطب من العصر العبّاسي

ـ خطبة أبي العباس السّفّاح، وقد بويع بالخلافة (سنة ١٣٢هـ)

صعِد أبو العباس السّفّاح المنبر، حين بويع له بالخلافة، فقام في أعلاه، وصعد عمّه داود بن علي فقام دونه، وتكلّم أبو العباس، فقال:

«الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرّمه، وشرّفه، وعظّمه، واختاره لنا، وأيّده بنا، وجعلنا أهلَه وكهفَه وحصنَه، والقوّام به، والذّابّين عنه، والنّاصرين له، وألزمنا كلمة التّقوى، وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصّنا برحم رسول الله وقرابته، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقّنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عنتنا حريصًا علينا بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرّفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يُتلى عليهم، فقال عزّ من قائل، فيما أنزل من مُحكم القرآن: ﴿**إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، وقال: ﴿**قُل لا أَسْأَلُكُمْ عليهِ أجْرًا إلّا المَوَدَّةَ في القُرْبَى**﴾، وقال: ﴿**وأنذِرْ عَشِيرتَكَ الأقْرَبين**﴾، وقال: ﴿**ما أفاءَ اللهُ على رَسُولِه من أهلِ القُرَى فَلِلَّهِ وللرَّسُولِ ولذي القُربَى واليَتَامى**﴾، وقال: ﴿**واعلموا أنّ ما غَنِمْتُم من شيءٍ فأنّ للهِ خُمُسَهُ وللرّسُولِ ولذِي القُربَى واليَتامى**﴾. فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلَنا، وأوجب عليهم حقّنا ومودّتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تَكْرِمَةً لنا وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم. وزعمت السّبئية الضّلاّل أنّ غيرنا أحقّ بالرّياسة والخلافة منّا، فشاهت وجوههم! بمَ ولمَ أيّها الناس؟ وبنا هدى الله النّاس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هَلكتهم، وأظهر بنا الحقّ، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وأتمّ بنا النقيصة، وجمع الفُرقة حتّى عاد النّاس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومُواساة في دينهم ودنياهم، وإخوانًا على سررٍ مُتقابلين في آخرتهم. فتح الله ذلك منّة ومنحة لمحمّد صلّى الله عليه وسلم، فلمّا قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحوَوا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها،

وأعطوها أهلها، وخرجوا خِماصًا منها. ثمّ وثب بنو حرب ومروان فابتزّوها، وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينًا حتّى آسفوه، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإنّي لأرجو ألّا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا ـ أهل البيت ـ إلّا بالله. ياأهلَ الكوفة! أنتم محلّ محبّتنا، ومنزل مودّتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحاملُ أهل الجَور عليكم، حتّى أدركتُم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد النّاس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زِدتُكم في أُعطياتكم مئة درهم، فاستعدّوا فأنا السّفّاحُ المُبيح والثّائر المُبير».

ـــ **خطبة داود بن علي العبّاسيّ**

«الحمد لله شكرًا شكرًا الذي أهلك عدوّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمّد. أيّها النّاس! الآن أقشعتْ حَنادسُ الدّنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضُها وسماؤها، وطلعت الشّمسُ من مَطْلعها، وبزغَ القمرُ من مَبزغه، وأخذَ القوسَ باريها، وعاد السّهم إلى النّزَعة، ورجع الحقّ إلى نِصابه، في أهل بيت نبيّكم، أهل الرّأفة والرّحمة بكم والعطف عليكم. أيّها النّاس! إنّا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لُجينًا ولا عِقيانًا، ولا نحفر نهرًا، ولا نبني قصرًا، وإنّما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقّنا، والغضب لبني عمّنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم. ولقد كانت أمورُكم ترمضنا ونحن على فُرشنا، ويشتدّ علينا سوء سيرة بني أميّة فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم. لكم ذمّة الله تبارك وتعالى وذمّة رسوله وذمّة العبّاس ـ رحمه الله ـ أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامّة منكم والخاصّة بسيرة رسول الله. تبًّا تبًّا لبني حَرب بن أمية وبني مروان! آثروا في مدّتهم وعصرهم العاجلةَ على الآجلة، والدّارَ الفانية على الدّار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم،

وغَشُوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، وسنّتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومَرِحوا في أعنّة المعاصي، وركضوا في ميادين الغيّ، جهلاً باستدراج الله، وأمنًا لمكْر الله، فأتاهم بأسُ الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزّقوا كلّ ممزّق، فبعدًا للقوم الظالمين. وأدالَنا الله من مروان، وقد غرّه بالله الغرور، أُرسل لعدو الله في عِنانه، حتّى عثر في فضْل خِطامه، فظنّ عدوُّ الله أن لن نقدرَ عليه، فنادى حزبَه، وجمع مكايدَه، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مَكْرِ الله وبأسِه ونقمته ما أماتَ باطله، ومحقَ ضلاله، وجعلَ دائرة السّوء به، وأحيا شرفنا وعزّنا، وردّ إلينا حقّنا وإرثنا. أيّها الناس! إنّ أمير المؤمنين، نَصَرَه الله نَصْرًا عزيزًا، إنّما عاد إلى المنبر بعد الصّلاة أنّه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنّما قطعه عن استتمام الكلام، بعد أن اسحنفرَ فيه شدّةُ الوَعْكِ. وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدوّ الرّحمن وخليفة الشّيطان المتّبع للسّفْلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدّين، وانتهاك حريم المسلمين، الشّابَّ المتكهّل المتمهّل المقتدي بسَلَفِه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فَسَادها بمعالم الهدى، ومناهج التّقوى. فضجّ النّاس له بالدّعاء. ثمّ قال:

ياأهلَ الكوفة إنّا ـ والله ـ ما زلنا مَظلومين مَقهورين على حقّنا، حتّى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خُراسان، فأحيا بهم حَقّنا، وأفلج بهم حُجّتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون، وإليه تتشوّفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيّض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشّام، ونقلَ إليكم السّلطان وعزّ الإسلام، ومَنّ عليكم بإمامٍ منحَه العدالة، وأعطاه حُسْنَ الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشُكر، والزموا طاعتنا، ولا تُخدَعوا عن أنفسكم، فإنّ الأمر أمركم، فإنّ لكلّ أهل بيتٍ مِصرًا وإنّكم مصرُنا، ألا وإنّه ما صعِد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله إلّا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمّد، وأشار بيده إلى أبي العبّاس. فاعلموا أنّ هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا، حتّى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا».

ـ **خطب داود بن علي**، فحَمِدَ الله جلّ وعزّ، وأثنى عليه، وصلّى على النّبيّ، فلمّا قال أمّا بعد، امتنع عليه الكلامُ. ثمّ قال: أمّا بعد، فقد يجدُ المُعْسِرُ ويُعْسِرُ المُوسر، ويُفلّ الحديد، ويقطعُ الكليل، وإنّما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام، وقد يعزُبُ البيانُ، ويُعقَم الصّواب، وإنّما اللسانُ مُضْغةٌ من الإنسان، يفترُ بفُتورِه إذا نَكَلَ، ويثوبُ بانبساطه إذا ارتجل. ألا وإنّنا لا ننطقُ بَطَرًا ولا نسكتُ حصَرًا، بل نسكتُ مُعتبرين، وننطقُ مُرشدين، ونحن بعدُ أمراء القول فينا وَشَجَتْ أعراقُه، وعلينا عطفتْ أغصانُه، ولنا تهدّلت ثمرتُه، فنتخيّرُ منه ما احلولى وعَذُبَ، ونَطْرَحُ منه ما املولحَ وخَبُثَ. ومن بعدِ مقامِنا هذا مقامٌ، وبعد أيامنا أيّامٌ، يُعرف فيها فضْل البيان وفَصْل الخِطاب، والله أفضل مُستعان.

ـ **خطَب أبو جعفر المنصور**، فقال: أيُّها النّاس! إنّما أنا سلطانُ الله في أرضه، أسوسُكم بتَوفيقه وتَسْديده، وأنا خازنُه على فَيئه، أعملُ بمَشيئته، وأَقْسِمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، قد جعلني الله عليه قُفْلاً، إذا شاء أن يفتحَني لأُعطياتكم وقَسْمِ فيئكم وأرزاقكم فَتَحَني، وإذا شاء أن يُقفِلَني أَقْفَلَني؛ فارغَبُوا إلى الله، أيُّها النّاس، وسَلُوه في هذا اليوم الشَّريف، الذي وَهَبَ لكم فيه من فَضْلِه، ما أعلمكم به في كتابه؛ إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿**اليومَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِيْنكُمْ، وأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمتي، ورضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دينًا**﴾؛ أن يُوَفِّقني للصَّواب، ويُسَدّدني للرّشاد، ويُلْهِمَني الرّأفةَ بكم والإحسانَ إليكم، ويفتحني لأُعْطياتكم، وقَسْمِ أرزاقكم بالعَدْل عليكم، إنّه سميعٌ قريب.

ـ **وخطب المنصور** بالمدائن عند قَتْلِ أبي مُسلم الخراسانيّ، فقال: أيّها النّاس لا تخرجوا من أُنْسِ الطاعة إلى وَحْشَةِ المعصية، ولا تسرّوا غِشّ الأئمّة؛ فإنّه لم يسرّ أحدٌ قطّ مُنكرةً إلّا ظهرت في آثار يدِه وفَلَتاتِ لسانِه وصفحاتِ وَجْهِه، وأبداها الله لإمامِه بإعزازِ دينِه وإعلاء حقّه. إنّا لن نَبْخسَكم حُقوقكم، ولن نبخسَ الدّينَ حقّه عليكم، إنّه من نازعنا عُروةَ هذا القميص أجزرناه خَبْءَ هذا الغِمد، وإنّ أبا مسلم بايعنا، وبايعَ النّاسَ لنا؛ على أنّه من نَكَثَ

بنا فقد أباحَ دمَه، ثمّ نكثَ بنا، فحَكَمْنا عليه لأنفسِنا حُكْمَه على غيرِه لنا، ولم تمنعْنا رعايةُ الحقّ له من إقامةِ الحقّ عليه.

ـــ خطبة محمّد بن سليمان العبّاسيّ يوم الجمعة وكان لا يغيّرها:

«الحمدُ لله أحمدُه وأستعينُه وأستغفرُه وأومنُ به وأتوكّلُ عليه، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّدًا عبدُه ورسوله، أرسلَه بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدّين كلّه ولو كره المشركون، مَن يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصمَ بالعُروة الوُثقى، وسَعِدَ في الأولى والآخرة، ومَن يعصِ الله ورسولَه، فقد ضلّ ضلالاً بعيدًا وخَسِرَ خُسرانًا مُبينًا، أسأل الله أن يجعلَنا وإيّاكم ممّن يطيعه، ويطيع رسولَه، ويتّبع رضوانه ويتجنب سخطَه، فإنّما نحن له وبه، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله وأحثّكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فإنّ تقوى الله أفضلُ ما تحاثّ النّاسُ عليه، وتداعوا إليه، وتواصَوا به، فاتّقوا الله ما استطعتم، ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون».

ـــ خطبة لهارون الرّشيد

«الحمدُ لله نحمدُه على نِعَمِه، ونستعينُه على طاعتِه، ونستنصرُه على أعدائه، ونؤمنُ به حقًّا، ونتوكّلُ عليه مُفوّضين إليه، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه، بَعَثَهُ على فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُروسٍ من العِلْم، وإدبارٍ من الدّنيا، وإقبالٍ من الآخرة، بشيرًا بالنّعيم المقيم، ونذيرًا بين يَديْ عذابٍ أليم، فبلّغ الرّسالة، ونَصَحَ الأمّة، وجاهد في الله، فأدّى عن الله وعدَه ووعيدَه، حتّى أتاه اليقين، فعلى النّبيّ من الله صلاةٌ ورحمةٌ وسلام. أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله فإنّ في التّقوى تكفيرَ السيّئات، وتضعيفَ الحسنات، وفوزًا بالجنّة ونَجاةً من النّار، وأحذّركم يومًا تَشْخَصُ فيه الأبصار، وتُعْلَنُ فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التّغابن ويوم التّلاق ويوم التّناد، يوم لا يُستعتب من سيئة، ولا يزداد من حسنة، ﴿**يوم الآزِفَةِ، إذِ القُلوبُ لدى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ما للظّالِمِينَ من حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدُورُ**﴾. ﴿**واتّقُوا يَومًا تُرْجَعُونَ فيهِ إلى الله ثُمّ**

تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. عبادَ الله! إنّكم لم تُخلقوا عبثًا، ولن تُتركوا سُدًى، حَصّنوا إيمانَكم بالأمانة، ودينكم بالوَرع، وصَلاتَكم بالزّكاة، فقد جاء في الخبر أنّ النّبيّ قال: لا إيمانَ لَمن لا أمانةَ له، ولا دِينَ لمن لا عَهْدَ له، ولا صلاةَ لمن لا زكاةَ له. إنّكم سَفْرٌ مُجتازون، وأنتم عن قريبٍ تُنقلون من دارِ فناءٍ إلى دارِ بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتّوبة، وإلى الرّحمة بالتّقوى، وإلى الهُدى بالأمانة؛ فإنّ الله تعالى ذكرُه أوجبَ رحمتَه للمتّقين، ومَغْفرتَه للتّائبين، وهُدَاه للمُنيبين، قال الله عزّ وجلّ، وقوله الحقّ: ﴿**ورَحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ فسأكتبُها للذين يتّقون ويُؤتون الزّكاة**﴾، وقال: ﴿**وإنّي لغفّارٌ لمن تابَ وآمنَ وعمِلَ صَالحًا ثمّ اهتدى**﴾. وإيّاكم والأماني فقد غرّت وأردت وأوبقت كثيرًا حتّى أكذبتهم مَناياهم، فتنَاوشوا التّوبةَ من مكانٍ بعيد، وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، فأخبركم ربّكم عن المثلات فيهم، وصرّف الآيات، وضَرَبَ الأمثال، فرغّب بالوعد وقدّم إليكم الوعيد.وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبّة والعشائر باختطاف الموت إيّاهم من بيوتكم ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدّنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب لـ﴿ **يَجْزِيَ الّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾. إنّ أحسنَ الحديث وأبلغَ الموعظة كتابُ الله، يقول الله عز وجل: ﴿**وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاسْتَمِعُوا له وأنْصِتُوا لعَلّكُم تُرْحَمُونَ**﴾. أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، إنّه هو السّميع العليم، بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴿**قُلْ هوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ۞ ولم يَكُنْ له كُفُوًا أَحَدٌ**﴾. آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عمّا نهاكم عنه، وأستغفر الله لي ولكم».

ــ خطبة المأمون يوم جمعة

الحمدُ لله مُستخلص الحمد لنفسه، ومُستوجبه على خَلْقه، أحمدُه وأستعينُه وأومنُ به وأتوكّلُ عليه، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودِين الحقّ، ليظهرَه على الدّين كلّه ولو كره المشركون. أوصيكم عباد الله

بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجّز لوعده، والخوف لوعيده، فإنّه لا يسلم إلا مَن اتّقاه ورجاه وعمل له وأرضاه. فاتّقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم، وترحلّوا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا قومًا صِيحَ بهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار، فاستبدِلوا فإنّ الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يترككم سُدًى، وما بين أحدكم وبين الجنّة والنّار إلّا الموت أن ينزل به، وإنّ غايةً تُنقصها اللّحظة، وتَهدمها السّاعة الواحدة، لجديرةٌ بقصر المدّة، وإنّ غائبًا يحدوه الجديدان اللّيل والنّهار لحريّ بسرعة الأوْبة، وإنّ قادمًا يحلّ بالفوز أو بالشّقوة لمستحقّ لأفضل العدّة، فاتّقى عبدٌ ربّه، ونصحَ نفسَه، وقدّم توبتَه، وغلبَ شهوتَه، فإنّ أجلَه مستورٌ عنه، وأملَه خادعٌ له، والشّيطانَ موكّلٌ به، يزيّنُ له المعصيةَ ليركبها، ويمنّيه التّوبة ليسوّفها، حتّى تهجم عليه منيّته أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسرة على ذي غَفْلة، أن يكون عمره عليه حجّة أو تؤدّيه أيّامه إلى شقوة. نسأل الله أن يجعلنا وإيّاكم ممّن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحلّ به بعد الموت فزعة، إنّه سميع الدّعاء، وبيده الخير، وإنه فعّال لما يريد.

ــ خطبته يوم الأضحى:

قال بعد التّكبير والتّحميد: إنّ يومَكم هذا يومٌ أبان الله فَضْلَه، وأوجبَ تشريفَه، وعظّم حُرمتَه، ووفّق له من خَلْقه صفوتَه، وابتلى فيه خليلَه، وفدى فيه من الذّبح نبيّه، وجعله خاتمَ الأيّام المعلومات من العشر، ومتقدّم الأيام المعدودات من النّفر، يومٌ حرامٌ من أيّام عظام في شهر حرام، يوم الحجّ الأكبر، يوم دعا الله إلى مَشهده، ونزل القرآن بتعظيمه، قال الله جلّ وعزّ: ﴿**وأذّن في النّاسِ بالحَجّ يأتُوكَ رِجَالًا وعَلى كُلّ ضَامِرٍ يَأتِينَ من كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ۞ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لهم ويَذكرُوا اسمَ اللهِ في أيّامٍ مَعْلُومَاتٍ على ما رَزَقَهُم من بَهيمةِ الأنعامِ فكُلُوا منها وأطْعِمُوا البائسَ الفَقيرَ۞ ثُمّ ليَقْضُوا تَفَثَهُمْ وليُوفُوا نُذُورَهُمْ وليَطَّوَّفُوا بالبيتِ العَتِيقِ۞ ذلكَ ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فهُوَ خيرٌ لهُ عندَ ربّهِ وأُحِلَّتْ لكُمُ الأنْعَامُ إلّا ما يُتْلى عليكُمْ فاجتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ**﴾. فتقرّبوا إلى الله في هذا

اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائرَ الله، واجعلوها من طيبِ أموالكم، وبصحّة التّقوى من قلوبكم، فإنّه يقول: ﴿**لنْ ينالَ اللهَ لُحومُهَا ولا دِمَاؤهَا ولكن ينَالُهُ التَّقْوَى مِنكُم**﴾. ثمّ التّكبير والتّحميد والصّلاة على النبيّ والوصيّة بالتّقوى. ثمّ قال بعد ذِكْرِ الجنّة والنّار: عظمَ قدر الدّارين، وارتفع جزاء العملين، وطالت مدّة الفريقين، الله الله! فوالله إنّه الجدّ لا اللّعب، وإنّه الحقّ لا الكذب وما هو إلّا الموت والبعث والميزان والحساب والقِصاص والصّراط، ثمّ العقاب والثّواب، فمن نجا يومئذٍ فقد فاز، ومن هوى يومئذٍ فقد خاب، الخيرُ كلّه في الجنّة والشرُّ كلّه في النّار.

ــ خطبته يوم الفطر:

قال بعد التّكبير والتّحميد: إنّ يومَكم هذا يومُ عيدٍ وسُنّة وابتهال ورغبة، يومٌ ختمَ الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حجّ بيته الحرام، فجعله خاتمة الشّهر وأول أيّام شهور الحجّ، وجعله معقبًا لمفروض صومكم، ومتنفّل قيامكم. أحلّ فيه الطّعام لكم، وحرّم فيه الصّيام عليكم، فاطلبوا إلى الله حوائجَكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنّه يقال: لا كبيرَ مع استغفار، ولا صغيرَ مع إصرار. ثمّ التّكبير والتّحميد وذكْر النّبيّ والوصيّة بالتّقوى. ثمّ قال: فاتّقوا الله عباد الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحتضر الشّكّ فيه أحدًا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنّه لا تُستقال بعده عَثْرة، ولا تحظر قبله توبة. واعلموا أنّه لا شيء قبله إلّا دونَه ولا شيء بعده إلّا فوقه، ولا يعينُ على جَزَعِه وعَلَزِه وكَرْبِه، ولا يعين على القبر وظلمتِه وضيقِه ووَحْشتِه وهَولِ مَطْلعِه ومسألةِ ملائكته، إلّا العمل الصّالح الذي أمر الله به، فمن زلّت عند الموت قدمُه فقد ظهرت ندامتُه، وفاتته استقالتُه، ودعا من الرّجعة إلى مالا يُجاب إليه، وبذل من الفِدية مالا يُقبل منه، فالله الله عبادَ الله! وكونوا قومًا سألوا الرّجعة فأعطوها إذ مُنعها الذين طلبوها، فإنّه ليس يتمنّى المتقدّمون قبلكم إلّا هذا المَهَل المبسوط لكم، واحذروا ما حذّركم الله، واتّقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه، لوضْعِ موازينكم، ونَشْرِ صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبدٌ ما يضعُ في ميزانه، ممّا يثقل به وما يملّ في صحيفته

الحافظة لما عليه وله، فقد حكى الله لكم ما قال المفرّطون عندها، إذ طال إعراضُهم عنها، قال:﴿ **وَوُضِعَ الكِتابُ فترَى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ ممّا فيهِ ويقولونَ يا وَيْلَتَنا ما لهذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصَاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِرًا ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدًا**﴾، وقال: ﴿ **ونضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئًا وإن كانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ من خَرْدَلٍ أتينَا بها وكَفَى بنا حَاسِبينَ**﴾. ولستُ أنهاكم عن الدّنيا بأعظم ممّا نهتكم الدّنيا عن نفسِها، فإنّ كلّ ما بها ينهى عنها، وكلّ ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم ممّا رأته أعينكم من عجائبها ذمّ كتابِ الله لها، ونَهْيِ الله عنها، فإنّه يقول: ﴿ **فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدّنيا ولا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورُ**﴾، وقال: ﴿ **إنّما الحياةُ الدّنيا لَعِبٌ ولهو**﴾، فانتفعوا بمعرفتِكم بها، وبإخبارِ الله عنها، واعلموا أنّ قومًا من عبادِ الله أدركتهم عِصْمةُ الله، فحذروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعةَ الله فيها، فأدركوا الجنّةَ بما تركوا منها.

سابعًا: وصايا ومواعظ

وصايا المنصور لابنه المهديّ

ـ قال المنصور لابنه المهدي: يا بُني لا تُبرم أمرًا حتّى تفكّر فيه فإنّ فكرةَ العاقلِ مرآتُه تُريه حسناتِه وسيّئاتِه، واعلم أنّ الخليفةَ لا يُصلحه إلّا التّقوى، والسّلطان لا يُصلحه إلّا الطّاعة، والرّعية لا يصلحها إلّا العدل، وأولى النّاس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص النّاس عقلاً من ظلم مَن هو دونه.

ـــ وصيّة أخرى له

ووصّاه فقال له: إنّي لم أدع شيئًا إلّا قد تقدّمت إليك فيه، وسأوصيك بخصال، والله ما أظنّك تفعل واحدة منها ـ وكان له سَفَطٌ فيه دفاترُ عِلْمه، وعليه قفلٌ، لا يأمنُ على فَتْحِه ومفتاحه أحدًا، يَصُرُّ مفتاحَه في كُمّ قميصِه ـ فقال للمهديّ: انظر هذا السّفَط، فاحتفظ به، فإنّ فيه علمَ آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فإن أحزنَك أمرٌ فانظرْ في الدّفتر الأكبر، فإن أصبت فيه ما تريد، وإلّا فالثّاني والثّالث، حتّى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك فالكرّاسة الصّغيرة، فإنّك واجدٌ فيها ما تريد، وما أظنّك تفعل. وانظر هذه المدينة فإيّاك أن تستبدل بها؛ فإنّها بيتُك وعزّك، قد جمعتُ لك فيها من الأموال، ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجُند والنّفقات وعطاء الذرّية ومصلحة الثّغور، فاحتفظ بها فإنّك لا تزال عزيزًا ما دام بيتُ مالك عامرًا، وما أظنّك تفعل.

وأوصيك بأهل بيتك أن تُظهر كرامتهم وتقدّمهم وتكثر الإحسان إليهم، وتعظّم أمرهم، وتوطئ النّاس أعقابهم وتولّيهم المنابر؛ فإنّ عزّك عزّهم وذكرهم لك، وما أظنّك تفعل. وانظر مَواليك فأحسنْ إليهم، وقرّبهم، واستكثر منهم؛ فإنّهم مادّتك لشدّةٍ إن نزلت بك، وما أظنّك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيرًا؛ فإنّهم أنصارُك وشيعتُك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبّتك من قلوبهم، أن تُحسن إليهم،

وتتجاوز عن مُسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنّك تفعل. وإيّاك أن تبني مدينة الشّرقية، فإنّك لا تتمّ بناءها، وما أظنّك تفعل. وإيّاك أن تستعين برجل من بني سليم، وأظنّك ستفعل. وإيّاك أن تُدخل النّساء في مَشورتك في أمرك، وأظنّك ستفعل!

ـــ وصيّة أخرى له:

ووصّى المهديّ أيضًا، فقال: اتّقِ الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بَعْدي يجعل لك فيما كَربك وحزنك مخرجًا، ويرزقك السّلامة وحُسْن العاقبة من حيث لا تحتسب. احفظ يا بنيّ محمّدًا في أمّته يحفظ الله عليك أمورك، وإيّاك والدّم الحرام، فإنّه حُوبٌ عند الله عظيم، وعارٌ في الدّنيا لازم مُقيم، والزمِ الحلال، فإنّ فيه ثوابك في الآجل، وصلاحَك في العاجل، وأقِمِ الحدود ولا تعتد فيها فتبور؛ فإنّ الله لو علمَ أنّ شيئًا أصلح لدِينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمَرَ به في كتابه. واعلم أنّه من شدّة غَضَبِ الله لسُلطانه أمرَ في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على مَن سعى في الأرض فَسادًا، مع ما ذَخَرَ له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿ **إنّما جَزَاءُ الذينَ يُحارِبُونَ اللهَ ورَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَادًا، أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أيديهم وأَرْجُلُهُم من خِلافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الأَرْضِ، ذلك لهم خِزْيٌ في الدُّنيا، ولهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾ .

فالسّلطانُ يا بُنيّ حَبْلُ الله المتين، وعُرْوتُه الوُثْقى، ودِينُ الله القيّم، فاحفظْه، وحطْه، وحصّنه، وذبّ عنه، وأوقع بالمُلحدين فيه، واقمع المَارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمَثُلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط؛ فإنّ ذلك أقطع للشّغب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدّواء. وعفّ عن الفَيء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عملك بصِلة الرَّحم وبرّ القرابة، وإيّاك والأثَرة والتّبذير لأموال الرّعيّة، واشحن الثّغور، واضبط الأطراف، وأمّن السّبل، وخصّ الواسطة، ووسّع المعاش، وسكّن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكارهَ عنهم، وأعدّ

الأموال واخزنها، وإيّاك والتّبذير فإنّ النّوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة، وهى من شيم الزّمان، وأعدّ الرّجال والكُرَاع والجُنْد ما استطعت، وإيّاك وتأخير عمل اليوم إلى غدٍ فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جدّ في إحكام الأمور النّازلات لأوقاتها أوّلاً فأوّلاً، واجتهد وشمّر فيها، وأعددْ رجالاً باللّيل لمعرفة ما يكون بالنّهار ورجالاً بالنّهار لمعرفة ما يكون باللّيل، وباشرِ الأمورَ بنَفْسِك، ولا تَضْجرْ، ولا تكسلْ، ولا تفشلْ، واستعمل حسن الظّنّ بربّك، وأسيءِ الظّنّ بعُمّالك وكُتّابك، وخذ نفسَك بالتّيقّظ، وتفقّد مَن يَبيتُ على بابِك، وسهّل إذنَك للنّاس، وانظرْ في أمرِ النزّاع إليك، ووكّل بهم عَيناً غير نائمة ونفسًا غير لاهية. ولا تنم فإنّ أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخلَ عينَه غَمْضٌ، إلّا وقلبُه مُستيقظٌ. هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك.

ـــ وصيّة الرّشيد لمؤدّب ولده الأمين

ووصّى الرّشيدُ مُؤدّبَ ولدِه الأمين، فقال: يا أحمر إنّ أميرَ المؤمنين قد دفعَ إليك مُهْجةَ نفسِه وثمرةَ قلبِه، فصيّرْ يَدَكَ عليه مَبْسوطةً وطاعتَه لك واجبة، وكنْ له بحيث وضعَك أميرُ المؤمنين، أقرئه القرآنَ، وعرّفه الأخبارَ، وروّه الأشعارَ، وعلّمه السّننَ، وبصّرْهُ بمَواقعِ الكلام وبدْئه، وامنعْه من الضّحك إلّا في أوقاته، وخُذْهُ بتعظيمِ مَشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه، ورَفْعِ مجالس القوّاد، إذا حضروا مجْلِسَه، ولا تمرنّ بك ساعةٌ إلّا وأنتَ مُغتنم فائدة تفيده إيّاها من غيرِ أن تُحزنَه فتميت ذهنَه، ولا تُمعنْ في مُسامحتِه فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقُرب والمُلاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشّدّة والغِلظة.

ـــ مقام عَمرو بن عُبيد بين يدي المنصور

دخلَ عمرُو بن عُبيد على المنصور بعدما بايع للمهديّ، فقال له: يا أبا عُثمان هذا ابنُ أميرِ المؤمنين ووليّ عَهْدِ المسلمين، فقال له عمرو: يا أميرَ المؤمنين أراكَ قد وطّدتَ له الأمور، وهي تصيرُ إليه، وأنتَ عنه مسؤول، فاستعْبرَ المنصور، وقال له: عظني يا عمرو! قال: يا أميرَ المؤمنين إنّ الله أعطاك الدّنيا بأَسْرِها، فاشترِ نفسَك منها ببعضها، وإنّ هذا الذي في

يديك لو بقي في يدِ غيرِك لم يصل إليك، فاحذر ليلةً تمخّض عن يومٍ لا ليلةَ بَعْدَه، فوجَمَ أبو جعفر من قوله، فقال له الرّبيع: يا عمرو غَمَمْتَ أميرَ المؤمنين، فقال عمرو: إنّ هذا صَحِبَكَ عشرينَ سنةً لم يرَ لك عليه أن ينصحَك يومًا واحدًا، وما عَمِلَ وراءَ بابِك بشيءٍ من كتاب الله ولا سُنّة نبيّه. قال أبو جعفر: فما أصنع، قد قلتُ لك خاتمي في يدك فتعالَ وأصحابك فاكفني. قال عمرو: ادعُنا بعَدْلِك تسخُ أنفسُنا بعَونك، ببابِك ألفُ مَظْلمةٍ ارددْ منها شيئًا نعلم أنّك صادق.

ـــ مقام الأوزاعيّ بين يدي المنصور

قال الأوزاعيّ: دخلتُ على المنصور، فقال: ما الذي بَطّأ بك عنّي؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، وما الذي تريدُ منّي؟ فقال: الاقتباسُ منك. قلتُ: انظر ما تقول، فإنّ مَكْحولاً حدّثني عن عطيّة بن بَشيرٍ أنّ رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم، قال: (مَنْ بلَغه عن الله نصيحةٌ في دِينه فهي رَحمةٌ من الله سِيقَتْ إليه، فإن قَبلَها من الله بشُكْرٍ وإلّا كانتْ حُجّةً من الله عليه، ليزداد إثمًا، وليَزْدادَ الله عليه غضبًا. وإن بلغه شيءٌ من الحقّ فرضِيَ فله الرّضا، وإن سَخِط فله السّخط، ومن كرهَه فقد كَرِهَ الله، لأنّ الله هو الحقّ المبين)، فلا تجهَلَن. قال: وكيف أجهل؟ قال: تسمعُ ولا تعمل بما تسمَع. قال الأوزاعيّ: فسلّ عليَّ الرّبيعُ السّيفَ، وقال: تقولُ لأميرِ المؤمنين هذا! فانتهرَه المنصور، وقال: أمسِكْ.

ثمّ كلّمه الأوزاعيّ، وكان في كلامه أنْ قال: إنّك قد أصبحت من هذهِ الخلافة بالذي أصبحتَ به، والله سَائلُكَ عن صغيرِها وكبيرِها وفتيلِها ونَقيرِها، ولقد حدّثني عُروةُ بن رُوَيْم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما مِنْ راعٍ يبيتُ غاشًّا لِرعيّته إلا حرّمَ الله عليه رائحةَ الجنّةِ)؛ فحقيق على الوالي أن يكون لرعيّته ناظرًا، ولَمَا استطاع من عَوراتهم ساترًا، وبالقِسْط فيما بينهم قائمًا، لا يتخوّف محسنُهم منه رَهَقًا، ولا مُسيئهم عُدوانًا؛ فقد كانت بيدِ رسول الله جريدة يَستَاكُ بها، ويردعُ عنه المنافقينَ، فأتاه جبريلُ فقال: (يا محمّد ما

هذه الجريدةُ بيدكَ! اقذِفْها لا تملأ قلوبَهم رُعبًا)! فكيف مَنْ سَفَكَ دماءهم وشَقّقَ أبْشَارهم، وأنهبَ أموالهم؟!

يا أمير المؤمنين إنّ المغفورَ له ما تقدّم من ذَنْبِه وما تأخّر، دعا إلى القِصاص من نَفْسِه بخَدْشٍ خدَشَه أعرابيًّا لم يتعمّده، فهبط جبريل، فقال: (يامحمّد، إنّ الله لم يبعَثْكَ جبّارًا تكسِرُ قرونَ أمّتك). واعلم أنّ كلّ ما في يدِك لا يعدِلُ شربةً من شراب الجنّة ولا ثمرةً من ثمارها؛ قال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم: (لَقَابُ قوسِ أحدِكم من الجنّة أو قُذّةٌ خيرٌ له من الدّنيا بأَسْرِها). إنّ الدّنيا تنقطِعُ ويزولُ نعيمُها، ولو بقي الملكُ لمن قبلكَ لم يصِل إليكَ. يا أمير المؤمنين، ولو أنّ ثوبًا من ثيابَ أهل النّار عُلّقَ بين السّماء والأرض لآذاهم فكيف مَنْ يتَقمّصُه! ولو أنّ ذَنُوبًا من صَديدِ أهلِ النّار صُبَّ على ماءِ الأرض لآجَنَهُ، فكيف بمَن يتجرّعهُ، ولو أنّ حَلْقةً من سلاسل جهنّم وُضِعَتْ على جبلٍ لذاب، فكيف مَنْ سُلِكَ فيها، ويُرَدُّ فضلُها على عاتقه؟!

واعلم أنّ السّلطان أربعةٌ: أمير يَظْلِفُ نفسَه وعمّالَه، فذلك له أجرُ المجاهد في سبيل الله، وصلاتُه سبعونَ ألفَ صلاةٍ، ويدُ الله بالرّحمة على رأسه تُرفرفُ؛ وأمير رتَعَ ورتَعَ عُمّالُه، فذاك يحمِلُ أثقالَه وأثقالاً مع أثقاله؛ وأمير يَظلِفُ نفسَه ويرتَعُ عُمّالُه، فذاكَ الذي باع آخرتَه بدُنيا غيرِه؛ وأمير يرتَعُ ويَظْلِفُ عُمّالَهُ، فذاكَ شرّ الأكياس.

واعلم يا أمير المؤمنين أنّك قد ابتُلِيتَ بأمرٍ عظيم عُرِضَ على السّمواتِ والأرض والجِبال فأبينَ أن يحملنه وأشفَقَن منه. وقد جاء عن جَدّكَ في تفسير قول اللهّ عز وجل: ﴿ لايُغَادِرُ صغِيرَةً ولا كَبِيرَةً إلّا أحْصَاها﴾، أنّ الصّغيرةَ التّبسّمُ، والكبيرةَ الضّحكُ. وقال: فما ظنّكم بالكلام وما عمِلته الأيدي! فأُعيذك بالله أن يُخيّل إليك أنّ قرابتَك برسولِ اللهّ صلى الله عليه وسلم تنفعُ مع المُخالفة لأمرِه؛ فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (يا صفية عمّة محمّد ويا فاطمة بنت محمّد استوهبا أنفسَكما من الله إنّي لا أُغني عنكما من الله شيئًا). وكان جدّك الأكبر سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إمارةً، فقال: (أي عمّ، نَفْسٌ تُحييها

خيرٌ لك من إمارة لا تُحصِيها)؛ نظرًا لعمّه وشفقةً عليه أن يليَ فيجورَ عن سُنّته جناحَ بعوضة، فلا يستطيعُ له نَفْعًا ولا عنه دَفْعًا. هذه نصيحتي إن قبلتَها فلنَفْسِك عَمِلتَ، وإن ردَدْتها فنَفْسك بَخسْتَ، واللهُ الموفّق للخير والمعينُ عليه. قال: بلى! نقبلُها ونشكرُ عليها، وبالله نستعينُ.

ـ مقام رجل من الزّهّاد بين يدي المنصور

بينما المنصورُ يطوفُ ليلاً إذ سمعَ قائلاً يقول: اللّهُمّ إنّي أشكو إليك ظهورَ البَغْي والفَسَاد في الأرض، وما يحولُ بين الحقّ وأهلِه من الطّمع. فخرج المنصورُ فجلسَ ناحيةً من المسجدِ، وأرسلَ إلى الرّجلِ يدعوه، فصلّى الرّجلُ ركعتين، واستلمَ الرُّكْنَ، وأقبلَ مع الرّسول، فسلّم عليه بالخلافة، فقال المنصورُ: ما الذي سمعتُك تذكرُ من ظُهورِ البَغي والفسادِ في الأرض، وما الذي يحولُ بين الحقّ وأهلِه من الطّمع؛ فوالله لقد حشوتَ مَسَامعي ما أَرْمَضني؟ قال: يا أميرَ المؤمنين إن أمّنتني على نفسي أنبأتُك بالأمورِ من أصولها، وإلّا احتجزتُ منك، واقتصرتُ على نَفْسي، ففيها لي شاغل. فقال: أنتَ آمِنٌ على نَفْسِك فقُل، فقال: يا أميرَ المؤمنين إنّ الذي دخلَهُ الطّمعُ حتّى حالَ بينه وبين ما ظهرَ من البَغْيِ والفَسَادِ لأنْتَ. قال: ويحكَ وكيف يدخلُني الطّمع، والصّفراءُ والبيضاءُ في قَبْضَتي والحُلو والحامضُ عندي. قال: وهل دخلَ أحَدًا من الطّمعِ ما دَخَلك؟! إنّ الله تباركَ وتعالى استرعاكَ المسلمينَ وأموالهم، فأغفلتَ أمورَهم، واهتممتَ بجَمْعِ أموالهم، وجعلتَ بينك وبينهم حِجَابًا من الجُصّ والآجُرّ وأبوابًا من الحديد وحَجَبةً معهم السّلاح، ثمّ سجنتَ نفسَك فيها عنهم، وبعثتَ عُمّالَك في جِبايةِ الأموال وجَمْعِها، وقوّيتهم بالرّجالِ والسّلاحِ والكُرَاعِ، وأمرتَ بألّا يدخلَ عليك من النّاس إلّا فلانٌ وفلان، نَفَرٌ سمّيتَهم، ولم تأمرْ بإيصالِ المظلومِ ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضّعيف الفقير، ولا أحدٌ إلّا وله في هذا المالِ حقّ. فلمّا رآكَ هؤلاء النّفَر الذين استخلصتَهم لنفْسِك، وآثرتَهم على رعيّتك، وأمرتَ ألّا يُحجبوا عنك، تجبي الأموالَ وتجمعُها ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خانَ اللهَ فما بالُنا لا نخونُه، وقد

سجنَ لنا نفسَه؟ فأتمروا بألّا يصلَ إليك من عِلْمِ أخبارِ النّاسِ شيءٌ إلّا ما أرادوا، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرَهم إلّا قصَبوه عنك، ونفوه حتّى تسقطَ منزلتُه، ويصغرَ قدرُه، فلمّا انتشرَ ذلك عنك وعنهم أَعْظَمهم النّاسُ وهابوهم، فكان أوّل مَن صَانَعَهم عمّالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظُلمِ رعيّتك، ثمّ فعل ذلك ذوو القُدرة والثّروة من رعيّتك، لينالوا به ظُلْم مَن دونهم، فامتلأت بلادُ الله بالطّمع بَغْيًا وفَسَادًا، وصار هؤلاء القوم شُركاءك في سُلطانك، وأنتَ غافلٌ، فإن جاءَ مُتظلّمٌ حِيلَ بينه وبين دخولِ مدينتك، فإن أرادَ رَفْعَ قصّته إليك عند ظهورِك وَجَدَكَ قد نهيتَ عن ذلك، وأوقفتَ للنّاس رجلاً ينظرُ في مَظَالمهم، فإن جاءك ذلك الرّجل، فبلغَ بِطانتَك خبرُه، سألوا صاحبَ المظالمِ ألّا يرفعَ مَظْلمتَه إليك، فإنّ المُتظلّمَ منه له بهم حُرْمة، فأجابهم خوفًا منهم، فلا يزال المظلومُ يختلفُ إليه، ويلوذُ به ويشكو ويستغيثُ، وهو يدفعُه ويعتلُّ عليه، فإذا أُجْهِد وأُحرِج وظَهَرتَ صرَخَ بين يديك فضُربَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا، ليكونَ نَكالاً لغيرِه، وأنتَ تنظرُ فلا تنكرُ، فما بقاء الإسلام على هذا.

وقد كنتُ يا أميرَ المؤمنين أسافرُ إلى الصّين، فقدِمتُها مرّةً، وقد أُصيبَ مَلِكُها بسَمْعِه، فبكى يومًا بكاءً شديدًا، فحثّه جلساؤه على الصّبر، فقال: أَمَا إنّي لستُ أبكي للبليّةِ النّازلة بي، ولكنّي أبكي لمظلومٍ بالباب يصرخُ، ولا أسمعُ صوتَه، ثمّ قال: أمّا إذا ذهبَ سمعي فإنّ بَصَري لم يذهب، نادوا في النّاس ألّا يلبسَ ثوبًا أحمرَ إلّا مُتَظلّم، ثمّ كان يركبُ الفيلَ طَرَفي نهارِه، وينظرُ هل يرى مظلومًا.

فهذا يا أميرَ المؤمنين مُشْرِكٌ بالله غلبت رأفتُه بالمشركين شُحَّ نَفْسِه، وأنتَ مُؤمنٌ بالله، ثمّ من أهلِ بيتِ نبيّه، لا تغلب رأفتُك بالمسلمين على شُحّ نَفْسِك؟ فإن كنتَ إنّما تجمع المالَ لولدِك، فقد أراك الله عِبَرًا في الطّفل، يسقطُ من بطنِ أمّه وما له على الأرض مال، وما من مال إلّا ودونه يدٌ شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطفُ بذلك الطّفل حتّى تعظم رغبة النّاس إليه. ولستَ بالذي تعطي بل الله يعطي مَن يشاء ما شاء. وإن قلت إنّما أجمعُ المالَ لتشديدِ السّلطان، فقد أراك الله عِبرًا في بني أميّة، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذّهب والفضّة

وأعدّوا من الرّجال والسّلاح والكُراع حتّى أراد الله بهم ما أراد. وإن قلت إنّما أجمعُ لطلبِ غاية هي أجسمُ من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلّا منزلة لا تُدرك إلّا بخلافِ ما أنت عليه.

يا أميرَ المؤمنين هل تعاقب مَن عصاك بأشدّ من القتل؟ قال المنصورُ: لا، قال: فكيف تصنع بالمَلِك الذي خوّلك مُلْكَ الدّنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم، قد رأى ما قد عقدَ عليه قلبُك، وعملته جوارحُك، ونظر إليه بَصَرُك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليه من مُلك الدّنيا إذا انتزعَه من يَدِك ودعاكَ إلى الحِسَاب. فبكى المنصورُ، وقال: يا ليتني لم أخلق! ويحك فكيف أحتالُ لنفسي؟ قال: يا أميرَ المؤمنين إنّ للنّاس أعلامًا يَفزعون إليهم في دِينهم ويرضون بهم، فاجعلهم بِطانتَك يُرشدوك، وشاورهم في أمرِك يُسدّدوك. قال: قد بعثتُ إليهم فهربوا مني. قال: خافوا أن تحملَهم على طريقتِك، ولكن افتحْ بابك، وسهّلْ حجابك، وانصرِ المظلوم، واقمعِ الظالم، وخُذِ الفَيء والصّدقات ممّا حلّ وطاب، واقسمه بالحقّ والعَدْل على أهلِه، وأنا الضّامن عنهم أن يأتوك ويُسْعدوك على صلاح الأمّة.

وجاء المؤذّنون فسلّموا عليه، فصلّى وعاد إلى مجلسه، وطلب الرّجل فلم يُوجد.

ــ ابن السّمّاك والرّشيد

ذكرَ محمّدُ بن هارون عن أبيه قال: حضرتُ الرّشيد، وقال له الفضلُ بن الرّبيع: يا أميرَ المؤمنين! قد أحضرتُ ابنَ السَّماك كما أمرتني، قال: أدخلْه، فدخَلَ فقال له: عِظْني، قال: يا أميرَ المؤمنين اتّق الله وحدَه لا شريكَ له، واعلم أنّك واقفٌ غدًا بين يَدي الله ربّك ثمّ مَصروفٌ إلى إحدى مَنزلتين لا ثالثة لهما: جنّة أو نار، فبكى هارون حتّى اخضلّت لحيته. فأقبل الفضلُ على ابن السَّماك، فقال: سبحانَ الله! وهل يتخالجُ أحدًا شكٌّ في أنّ أميرَ المؤمنين مَصروفٌ إلى الجنّة، إن شاء الله، لقيامه بحقّ الله وعَدْله في عبادِه وفَضْلِه. فلم يحفِلْ بذلك ابنُ السمّاك من قوله، ولم يلتفت إليه، وأقبلَ على أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين

إنّ هـذا ـ يعني الفضل بن الرّبيع ـ ليس والله معكَ ولا عندكَ في ذلك اليوم، فاتّق الله وانظرْ لنفسك. فبكى هارون حتّى أشفقنا عليه، وأفحمَ الفضل بن الرّبيع، فلم يَنْطِقْ بحرفٍ حتّى خرجنا.

ـ ودخلَ ابنُ السمّاكِ على الرّشيد يومًا، فبينا هو عنده إذ استسقى ماءً، فأُتي بقُلّةٍ من ماء، فلمّا أهوى بها إلى فِيه ليشرَبها، قال له ابنُ السَّماك: على رِسْلِك يا أميرَ المؤمنين، بقَرابتِك من رسولِ الله لو مُنعتَ هذه الشَّرْبَة، بكمْ كنتَ تَشْتريها؟ قال: بنِصْفِ مُلْكي، قال: اشربْ هنّأك الله. فلمّا شَرِبَها، قال له: أسألُك بقرابتِك من رسولِ الله، لو مُنعتَ خُروجها من بَدَنِك بماذا كنت تَشْتريها؟ قال: بجميعِ مُلْكي. قال ابنُ السمّاك: إنّ مُلكًا قيمتُه شَرْبَةُ ماءٍ لجديرٌ ألّا يُنافسَ فيه! فبكى هارون، فأشار الفضلُ بنُ الرّبيع إلى ابن السّمّاك بالانصراف، فانصرف.

المصادر والمراجع

- **الأحكام السُّلطانية والولايات الدّينية**، لأبي الحسن الماورديّ، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: خالد عبد اللطيف العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- **إحكام صنعة الكلام**، لمحمّد بن عبد الغفور الكلاعيّ، تح: محمّد رضوان الدّاية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

- **إحياء علوم الدّين**، لأبي حامد الغزالي، مراجعة: صدقي جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ٢٠٠٣م.

- **أدب السّياسة في العصر الأمويّ**، أحمد محمّد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٥، د.ت.

- **الأدب الفارسي**، محمّد محمّدي، منشورات قسم اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٧م.

- **أدب الكُتّاب**، لأبي بكر محمّد بن يحيى الصّولي، تح: محمّد بهجة الأثري، المكتبة العربيّة، بغداد، ١٣٤١هـ.

- **أديب الأسطورة عند العرب**، فاروق خورشيد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٢٨٤)، الكويت، ٢٠٠٢م.

- **أساس البلاغة**، للزمخشري، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- **أسرار البلاغة**، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمّد شاكر، دار المدني بجدّة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- **إعتاب الكُتّاب**، لابن الأبّار، تح: صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ط١، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

- **الأغاني**، للأصفهانيّ، بعناية وإشراف: عبد الستّار أحمد فرّاج، دار الثقافة، بيروت، ط٨، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- **أمالي المرتضى**، للشّريف المرتضى علي بن الحسين، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط١، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

- **الإمتاع والمؤانسة**، لأبي حيّان التوحيدي، تصحيح: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- **البداية والنهاية**، للحافظ ابن كثير، تح: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ط٥، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- **البرهان في وجوه البيان**، لابن وهب الكاتب، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- **البصائر والذخائر**، لأبي حيّان التوحيدي، تح: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

- **البيان والتبيين**، للجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت.

- **تاريخ الأدب العربي**، كارل بروكلمان، الجزء الثالث، نقله إلى العربيّة: عبد الحليم النجّار، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٩م.

- **تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصوّرة عن طبعة دار المعارف بمصر، بيروت، د.ت.

- **تاريخ الخلفاء**، للسيوطي، تح: مصطفى عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- **تاريخ خليفة بن خياط**، تح: سهيل زكّار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨م.

- **تاريخ اليعقوبي**، لأحمد بن أبي يعقوب، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **الترسّل النثري عند العرب في صدر الإسلام**، محمود المقداد، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- **تطوّر الأساليب النثريّة في الأدب العربي**، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٦٥م.

- **التّعريفات**، للشّريف الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٢م.

- **التّلخيص في علوم البلاغة**، لجلال الدين محمّد بن عبد الرحمن القزويني، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

- **تهذيب الأسماء واللغات**، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- **الجاحظ**، شارل بللا، ترجمة د.إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

- **الجاحظ**، حياته وآثاره، طه الحاجري، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٩م.

- **الجاحظ معلّم العقل والأدب**، شفيق جبري، دار البشائر، دمشق، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- **جمهرة الأمثال**، لأبي هلال العسكري، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل ودار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- **جمهرة رسائل العرب**، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.ـ

- **حكايات الحيوان في التراث العربي**، محمّد رجب النجار، بحث في مجلّة عالم الفكر، الكويت، مج٢٤، العددان الأول والثاني، ١٩٩٥م.

- **حياة الحيوان الكبرى**، لكمال الدين الدّميري، وضع حواشيه وقدّم له: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٥،١هـ/ ١٩٩٤م.

- **الخطابة** (أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، محمّد أبو زهرة، مطبعة العلوم، ط١، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

- **الدّولة العبّاسيّة**، محمّد الخضري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- **ديوان الإمام عبد الله بن المبارك**، جمع وتحقيق ودراسة: مجاهد مصطفى بهجت، دار الوفاء، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- **ديوان البحتريّ**، الوليد بن عبيد، تح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ط٣، د.ت.

- **ديوان مجنون ليلى** قيس بن الملوّح، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.

- **رسائل أبي حيان التوحيدي** (مصدّرة بدراسة عن حياته وآثاره وأدبه) للدكتور إبراهيم الكيلاني، دار طلاس، د. ت.

- **رسائل البلغاء** (اختيار وتصنيف)، محمّد كردعلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

- **رسائل الجاحظ**، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- **رسائل ابن حزم**، لابن حزم الأندلسي علي بن أحمد، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٧م.

- **زهر الآداب وثمر الألباب**، للحصري القيرواني، تح: علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط١، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

- **سَرْح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، لجمال الدين ابن نباتة المصري، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم دار، الفكر العربي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٤م.

- **سير أعلام النبلاء**، للذّهبي، تح: محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **شرح قصيدة ابن عبدون**، لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون، اعتنى بتصحيحه رينحرت دُزِي، طُبع في مدينة لَيْدن، ١٨٤٦م.

- **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٣م.

- **شعر عمرو بن مَعْدي كَرِب الزّبيديّ**، جمعه ونسّقه: مطاع الطرابيشي، مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

- **شعر مروان بن أبي حَفْصة**، جمعه وحقّقه: حسين عطوان، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م.

- **صُبح الأعشى في صناعة الإنشا**، للقلقشندي، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه: محمّد حسين شمس الدّين ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- **صحيح الإمام البخاري**، بعناية: مصطفى ديب البُغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- **صحيح الإمام مُسْلم**، عُني به: أبو صُهيب الكرمِي، بيت الأفكار الدّولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

- **الطّرائف الأدبية**، لعبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م.

- **عصر الدول والإمارات** (الأندلس)، شوقي ضيف، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٤م.

- **العصر العبّاسيّ الأوّل**، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٦، د.ت.

- **العصر العبّاسيّ الثاني**، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٥م.

- **عصر المأمون**، أحمد فريد رفاعي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.

- **العقد،** لابن عبد ربّه، شرحه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

ـ **العقل السّياسي العربيّ،** محمّد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط٤، ٢٠٠٠م.

- **عيون الأخبار**، لابن قتيبة الدينوريّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- **الفخري في الآداب السّلطانية والدول الإسلاميّة**، لابن الطّقطقا محمّد بن علي بن طباطبا، دار صادر، بيروت، د.ت.

- **فنّ الخطابة**، أحمد محمّد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- **الفنّ ومذاهبه في النثر العربيّ**، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٥، ١٩٦٥م.

- **الفهرست**، لأبي الفرج محمّد بن إسحاق النّديم، شرحه وعلّق عليه: يوسف علي طويل، وصنع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

- **فوات الوفيات**، لمحمّد بن شاكر الكتبي، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د.ت.

- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **الكامل**، للمبرّد، تح: محمّد أحمد الدّالي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

- **كتاب بغداد**، لابن طيفور، تح: محمّد زاهد الكوثري، مكتبة الثقافة الإسلامية، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

- **كتاب الصناعتين**، لأبي هلال العسكري، تح: علي البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط١، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لابن الأثير (ضياء الدّين)، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

- **مجمع الأمثال**، للميداني، تح: جان توما، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- **محاورات مع النثر العربي**، مصطفى ناصف، سلسلة عالم المعرفة (٢١٨)، الكويت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **محمّد بن عبد الملك الزيّات** (سيرته، أدبه، تحقيق ديوانه)، يحيى الجبوري، دار البشير ـ عمّان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

- **مختارات ابن الشّجري**، لابن الشّجري، ضبطها وشرحها: محمود حسن زناتي، مطبعة الاعتماد، بيروت، ط١، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

- **مختار الصِّحاح**، للرّازي، ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى البُغا، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، للمسعودي، تح: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- **مُضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب**، لمحمّد بن حسين اليمني، تح: محمّد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١م.

- **مُعجم الأدباء** أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحمويّ، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. وطبعة بتحقيق: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م. وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

- **معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها**، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

- **مقاتل الطّالبيين**، لأبي الفرج الأصفهانيّ، تح: السّيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

- **مقالات الإسلاميين**، للأشعري، عُني بتصحيحه: هلموت ريتر، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ط٣، ١٩٨٠م.

- **مقدّمة ابن خلدون**، تصحيح وفهرسة: السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، المكتبة التجارية ـ مكّة المكرمة، ط٣، د.ت.

- **ملامح النّثر العبّاسيّ**، عمر الدَّقّاق، دار الشرق العربي ، بيروت، د.ت.

- **المِلَل والنِّحَل**، للشّهرستاني، بعناية: صدقي جميل العطّار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- **من رسائل أبي حيّان التّوحيدي**، اختيار ودراسة الدكتور عزت السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١م.

- **موادّ البيان**، لابن خلف الكاتب، تح: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٨٢م.

- **النّثر العربيّ القديم من الشّفاهية إلى الكتابيّة**، محمّد رجب النجّار، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م.

- **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب**، للمقّري التّلمساني، تح: إحسان عبّاس، بيروت، ١٩٦٨م.

ـ **النّمر والثّعلب**، لسهل بن هارون، حقّقه وقدّم له وترجمه إلى الفرنسية: عبد القادر المهيري، منشورات الجامعة التّونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٧٣م.

- **الوافي بالوفيات،** لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: مجموعة من العرب والمستشرقين، الجزء ١٦ باعتناء: وداد القاضي، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- **الوزراء والكتّاب،** لابن عبدوس الجهشياري، تح: مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان،** لابن خلّكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

2006 ٢٠٠٦
Al-Furat University

Al-Furat University

Faculty of Arts and Humanities

Department of Arabic Language and Literature

Studies in Abbasid prose

(Arts, Great Writers and Texts)

Written by

Dr. Qahtan Saleh Al-Falah

Assistant Professor in the Faculty of Arts

Al-Furat University Publications

1443

2022

Al-Furat University
Faculty of Arts and Humanities
Department of Arabic Language and Literature

STUDIES IN ABBASID PROSE

Arts, Great Writers and Texts

Written by

Dr. Qahtan Saleh Al-Falah

Assistant Professor in the Faculty of Arts

Al-Furat University Publications

1443
2022